

المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومي للترجمة

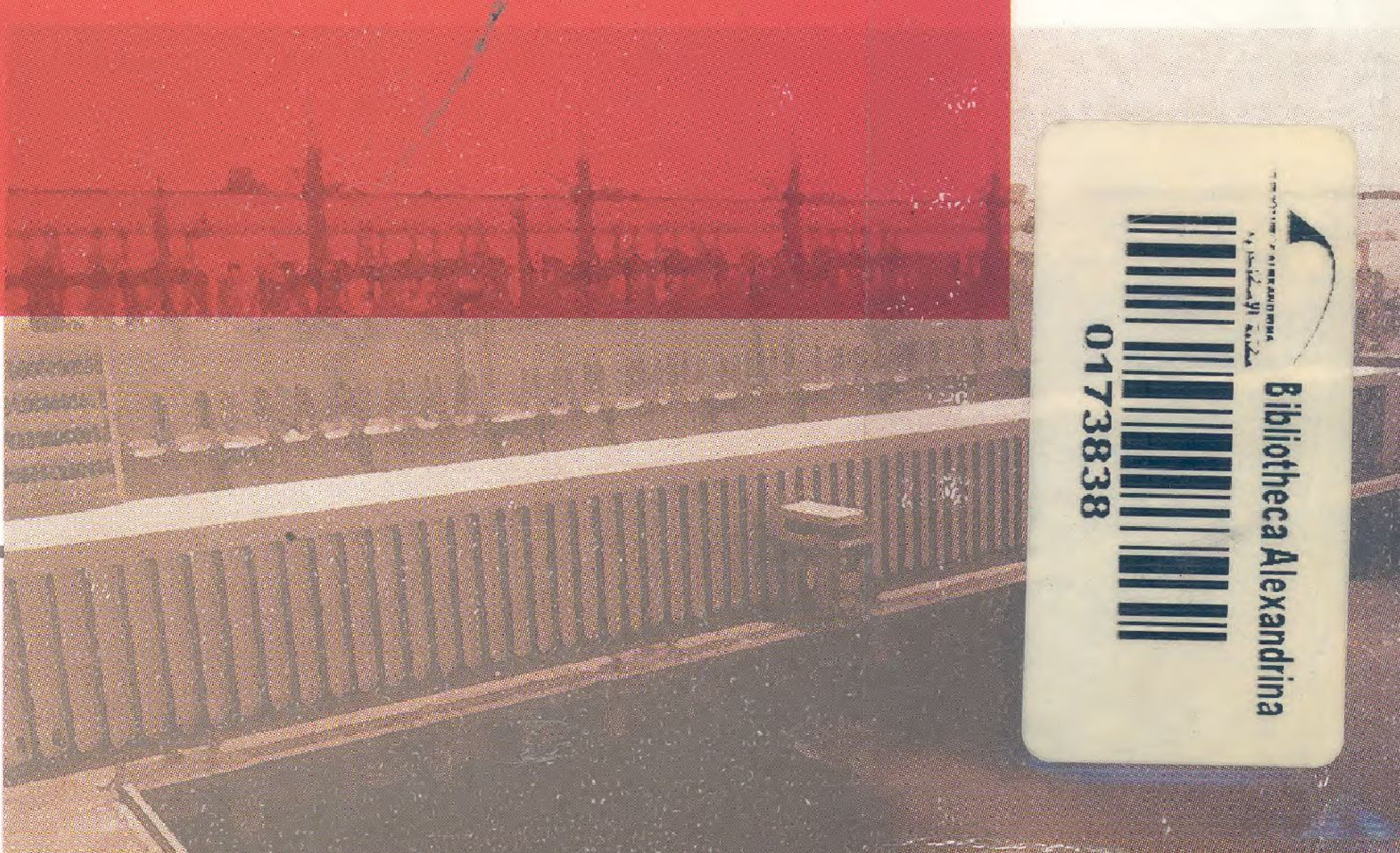
مصر

من قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر

تأليف: ريمون فلاور

ترجمة: سيد أحمد على الناصرى

تقديم ومراجعة: يونان لبيب رزق



213

المشروع القومى للترجمة

مصر

منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر
(حكاية مصر فى العصر الحديث)

تأليف
ريمون فلاور

ترجمة
سيد أحمد على الناصرى

تقديم ومراجعة
يونان لبيب رزق

المجلس الأعلى للثقافة
٢٠٠٠

هذه ترجمة

Napolean To Nasser

The Story of Modern Egypt

By

Raymond Flower

مقدمة

هذا العمل الذى عكف الأستاذ الدكتور سيد الناصرى على ترجمته باقتدار كان فى أصله الإنجليزى تحت عنوان: Napoleon to Nasser - The Story of Modern Egypt by Raymond Flower. فـــى طبعـــته الثانـــية الصادرة عام ١٩٧٦، بعد أن كان قد صدرت طبعته الأولى قبل أربع سنوات، أى بعد وفاة عبد الناصر بعامين فحسب، الأمر الذى يمكن القول معه إن المستر فلاور قد بدأ تأليفه عقب تلك الوفاة، بينما كانت دماء الزعيم المصرى الراحل لم تجف بعـــد، وبينما كان الرجل لا يزال ملء أبصار وأسماع الدنيا كلها، ولعل ذلك كـــان وراء الـــنفاذ الســـريع للطـــبعة الأولـــى، كما أنه كان وراء العديد من الملاحظات التى سوف نسجلها فى هذه المقدمة!

وثمـــة ملاحظـــة مبدئية على العنوان، إذ نرى أن الرجل كان دقيقاً عندما اخـــتار وصف "قصة مصر الحديثة The Story of Modern Egypt" وليس "تـــاريخ مصر الحديثة The History of Modern Egypt"؛ لأنه من الناحية العلمـــية الدقـــيقة يصعب توصيف ما جاء فى هذا العمل بأنه تاريخ خالص، ولكـــنه نـــوع جديـــد من الدراسات يخدم دارسى التاريخ والمشتغلين بالكتابة التاريخية.

فالمستر ريموند فلاور اختار أولا مسطحاً زمنياً لعمله قارب القرن وثلاثة أربـــاع القرن (١٧٩٨ - ١٩٧٠)، وكُتّاب التاريخ الأكاديمى لا يفعلون ذلك، فهـــم إمـــا يخـــتاروا ظاهرة بعينها، سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، على مســـطح زمنى واسع، وإما أن يختاروا واقعاً تاريخياً عاماً يدرسونه بعمق فى حيز زمنى ضيق، ويكون أحياناً فى غاية الضيق!

ثـــم إن صـــاحبنا - ونتيجة لهذا الاختيار - قسم كتابه إلى عدد كبير من الفصـــول (٢٥) القصـــيرة التى لم يزد أكبرها عن اثنتى عشرة صفحة، بينما وصـــل أغلبها إلى ما يتراوح بين سبع وتسع صفحات، ولم تأت الدراسة مع

هـذا كرصـد مـتأن؛ وإنمـا جـاءت أقرب إلى الانطباعات السريعة عن الموضوعات التى اختارها كعناوين للفصول..فهو يختار للحملة النابليونية ما أصـابها من خيبة مما جسده عنوان "نهاية حلم"، ويأخذ من محمد على دوره فـى تأسـيس الأسرة الحاكمة، ومن إسماعيل "الثمن الباهظ لمظاهر الترف"، وهكذا.

ومـثل هـذه العناوين الموحية إنما يدل على انحيازات مسبقة للرجل، فهو حيـن يتناول الثورة المصرية ١٨٨١ – ١٨٨٢ يخصص لها فصلاً (العاشر) تحـت عـنوان "إخضـاع عرابى"، وهو يتبنى بذلك وجهة النظر البريطانية بالكـامل، ثم إنه يتخير من فترة الحكم البريطانى المباشر للبلاد كل ما يشرف هذا الحكم، وذلك قبل أن يقفز بنا إلى التمهيد لثورة ١٩٥٢.

وقد يشفع للمستر فلاور أنه لم يزعم أنه مؤرخ تقليدى، غير أنه من جانب آخر لم يشبع فضولنا فى التعرف على شخصه باستثناءات بسيطة وردت فى عملـه هنا وهناك، فحسب ما جاء فى المقدمة: "وعندما عدت إلى القاهرة بعد غيـبة شـهر أو نحو ذلك من وقوع الانقلاب، كانت الشوارع تموج بملابس الكـاكى"، ممـا يقود إلى الفهم أن الرجل كان يعيش فى مصر، غير أن ذلك الفهـم يثـير من التساؤلات أكثر مما يقدم من الإجابات..هل كان مقيماً بشكل دائم أم منقطع فى العاصمة المصرية؟ ثم ما هى طبيعة هذه الإقامة؟

ونسـتطيع أن نستشف من بعض ما جاء فى الكتاب حقيقة مؤداها أنه كان للـرجل جـذور فى مصر، وأنه كان مقيماً بها على نحو دائم باستثناء الفترة الـتى تلقـى خلالهـا تعليمه فى أكسفورد، وطبعاً الفترات الأخرى التى كان يقضيها فى بلاده، ونظن أنها كانت متقطعة!

يدلـل علـى ذلك ما جاء فى مصادر الفصل الحادى عشر من الكتاب من قولـه: "وقـد كـان جدى وجدتى معتادين على قضاء الشتاء فى القاهرة بعد انـتهاء القـرن الماضـى، ولما شرع والدى وهو شاب فى إدارة مشروعات الأسـرة فى عام ١٩٠٦، فقد كنت محظوظاً أن أكون قادراً على الإفادة من

خبراتهم منذ ذلك الوقت فصاعداً، ويقول فى مصادر الفصل السادس عشر "لقد تناولت غذائى أكثر من مرة فى مطعم فاروق المفضل باتادس"، ويبدو أنه كان أحد المطاعم التى اشتهر اليونانيون بإقامتها خلال تلك الفترة، ويقول فى موقع ثالث (مصادر الفصل الرابع عشر) "أما عن وصفى الانطباعى الخاص عن الإسكندرية فليس له مصدر غير تجربتى الخاصة".

وفى تقديرنا أن الدراسة التى تلقاها مؤلف كتابنا هذا فى أكسفورد كانت ذات طبيعة أدبية فلسفية مما نتبينه من الأسلوب الراقى الذى وضع به عمله ومن جملة المؤلفات التى استعان بها فى وصفه، والتى غلب عليها التجارب الذاتية لواضعيها.

فالقسم الأكبر من تلك المؤلفات ترقى إلى مستوى "المشاهدات الشخصية"، فقد كانت إما مذكرات خاصة Memoirs مثل تلك التى وضعها السير أنطونى إيدن، وخصص بعض فصولها عن "حرب السويس" التى أنهت مستقبله السياسى، أو سير ذاتيه Biographies مثل كتاب جون نينيه عن عرابى باشا أو بريان جارنر عن اللنبى، أو كتب رحلات Narratives وأشهر عمل إدوارد لين عن عادات وتقاليد المصريين المحدثين الصادر فى لندن عام ١٨٣٦، وأخيراً تقارير القناصل البريطانين فى مصر وأشهرها تقرير بورنج Bowring الذى عمل قنصلاً عاماً لبلاده فى القاهرة فى عصر محمد على، وكذلك المقاولات التى نشرت فى الصحف الأوربية خلال تلك الفترة.

ولا يملك أى مؤرخ محترف سوى الاعتراف بأن مثل هذه المادة العلمية ترقى إلى مستوى المادة الأصيلة، وأنه لم يكن ينقصها سوى الرجوع إلى الوثائق، وهو ما لم يكن مطلوباً من المؤلف، خاصة وأنه لا يمتهن كتابة التاريخ التقليدى ويمتلك ملكة فلسفية غير تقليدية.

غير أن هذا الاعتراف لا يمنع من تسجيل ملاحظتين:

الأولى: أن الكتاب حافل بالآراء والأحكام ذات الطابع الشخصى لا

الموضـــوعى، فيـــتحدث مـــثلاً فى الفصل الحادى عشر عن أن رجل الشـــارع المصـــرى خلال سنى الاحتلال الأولى لم يكن يملك بالنسبة للإنجليز سوى الشعور بالعرفان؛ لأنه كان يتذكر حالة البؤس التى كان يعيشها فى عهد إسماعيل، وكبار السن من الفلاحين لم ينسوا "الكرباج"، ولا الاســتدعاء للسخرة، ولا ندرى كيف عرف المستر فلاور بمشاعر الإنســـان المصرى قبل نحو قرن من وضع مؤلفه، اللهم إلا إذا كان قد أخذ بدون مراجعة بما جاء فى كتاب اللورد كرومر المعتمد البريطانى فـــى مصـــر وقـــتذاك تحت عنوان "مصر الحديثة"، والذى وصفه بـــ "الحاكم بأمره على ضفاف النيل".

الثانـــية: إنه فى أكثر من موقع يعطى الانطباع بالتعاطف مع بعض الزعماء المصـــريين، ولكن لا يمضى وقت طويل حتى يفرغ هذا التعاطف من أى مضمون، الأمر الذى نلاحظة فى التعامل مع شخصية عرابىٍ باشا يصـــف تصرفاته بعد معركة التل الكبير بقوله: "كان عرابى نائماً عند بـــدء القـــتال ودون أن يتوقف حتى ليضع نعليه فى قدميه، ألقى بنفسه فـــوق صهوة جواده، وبعد أن استولى على قاطرة ذات محرك بخارى عـــند بلبيس وصل إلى القاهرة وهو داخل مقصورة الوقادين ليصل فى الوقت المناسب ليشهد الاحتفالات التى أقامها الخديو على شرف الجيش المنتصـــر"، وهـــى صورة أدبية تقطر سخرية ومرارة، ولكن تعوزها الدقـــة، ففـــيما بيـــن موقعة التل الكبير ودخول ولسلى القاهرة ثم عودة الخديـــو توفـــيق مـــن الإســـكندرية كانـــت قد مرت أيام وليس مجرد الســـويعات الـــتى اســـتغرقتها القاطـــرة البخارية فى المسافة القصيرة الفاصلة بين بلبيس والقاهرة.

وتـــبدو هـــذه الـــروح أكثر بالنسبة لجمال عبد الناصر؛ إذ يحظى الفصل الثالـــث والعشرون والذى عنونه بـــ"مايسترو العالم العربى" بوضع السم فى الدســـم أكـــثر مـــن أى فصل آخر، والواضح أن مصالح الرجل فى مصر، باعتباره أحد أبناء الجالية الإنجليزية فى العاصمة، كانت قد تعرضت للضرر بســـبب سياسات عبد الناصر التمصيرية التى كثيرا ما لقيت سخرية صاحبنا، واعتبر أنها كانت وراء كل مصيبة حاقت بالاقتصاد المصرى.

الثالـــثة: نتـــيجة لذلـــك، ونتيجة للافتقار لأدوات البحث العلمى القائمة على تحـــرى كل واقعة للتثبت من صحتها، فإنه كثيراً ما كان يقع فى أخطاء ساذجة، لعل أهمها اتهامه للضباط الأحرار أنهم كانوا من وراء اغتيال أمين باشا عثمان، عميل الإنجليز ووزير المالية فى حكومة الوفد، عام ١٩٤٣، ولا يمكـــن لأحـــد أن يزعم أن هذا التنظيم كان قائماً وقتذاك، فكافـــة الكـــتابات تشـــير إلى أن الفكرة قد ولدت خلال حرب فلسطين ودخلـــت فـــى حيز التنفيذ عام ١٩٥٠، اللهم إلا إذا كان قد استنتج من وجـــود الســـادات ضمن المتهمين فى حادث اغتيال أمين باشا عثمان، وضمن الضباط الأحرار بعد ذلك، أن الأخيرين هم الذين فعلوها، وهى رابطة واهية على أى الأحوال.

غير أنه على الجانب الآخر، وقد تحرر من قيود البحث العلمى، فقد غلب فـــى كثـــير من الأوقات خيال الأديب عن حقائق المؤرخ الجافة، مما أضفى كثـــيرا مـــن أســـباب الجاذبية على عمله، وهو الأمر الذى يستطيع أن يلمسه القـــارئ من أول سطور الكتاب إلى آخرها، مما أعطى عمله قدراً كبيراً من التشـــويق، نعـــتقد أنه كان من الأسباب التى دعت مؤرخا كبيراً مثل الدكتور ســـيد الناصـــرى إلـــى العكوف على ترجمته، وهو بذلك يقدم عملا للمثقف العادى قبل المؤرخ المتخصص بالمعنى المهنى.

هذا فضلاً عن أنه لم تنقصه روح الفكاهة الإنجليزية والتى كثيراً ما كانت تتـــبدى فى رواية هنا أو هناك نسوق منها ملاحظته للتدليل على الشعبية التى أصـــبحت تحظـــى بها الملكة فريدة من أن كثيراً من المصريين أسموا بناتهم وقتها باسمها.

وبيـــنما نوصـــى كل مصرى أن يقرأ هذا الكتاب، ليعرف كيف كان ينظر الإنجلـــيز إلى بلاده، فإننا ننبهه أن يتسلح بالرؤية النقدية، ولا يأخذ الآراء ولا المعلومات التى امتلأ بها هذا العمل المهم، مما يجعل من تلك القراءة رياضة ذهنية نحن فى أشد الحاجة إليها للتعرف على كيف كان يفكر فينا الآخرون.

يونان لبيب رزق

مقدمة المترجم

بعـد رحـيل الرئيس جمال عبد الناصر بسنوات قليلة أصدر خليفته الرئـيس الـراحل محمد أنور السادات قراراً بتشكيل لجنة عليا لكتابة تاريخ الـثورة برئاسـة الفـريق حسـنى مبارك الذى كان نائباً لرئيس الجمهورية وقـتذاك. وقد كتبت وقتها فى جريدة الأهرام مقالاً معترضاً على ذلك لسببين أنه لا يجوز كتابة التاريخ من قبل الدولة، خاصة وأن على رأسها أحد زعماء الثورة؛ لأن ذلك سوف يكون تاريخاً رسمياً خالياً من النقد.

ومـن ناحـية أخـرى أن الأجدى بالكتابة هو تاريخ الشعب وليس تاريخ السـلطة. وقـد رد الرئيس الراحل أنور السادات فى أحد أحاديثه التليفزيونية علـى ذلـك الرأى بطريقة غير مباشرة مؤكداً أن تاريخ الثورة هو منعطف يختلف عن مسار تاريخ الشعب المصرى!

ومـنذ ذلـك الوقـت انهالـت – ولا تزال تنهال – المؤلفات والمذكرات المتضـاربة الـتى تعبر عن آراء متناقضة، ومصادر غير موثقة، ومذكرات شخصـية تمجـد ذات كاتبيها تحمل من الصراع أكثر ما تحمل من الوفاق، وتمـوج بالبغضـاء أكـثر مـا تموج بالولاء والإعجاب حتى أصبح الشباب مشوشاً لا يعرف الحقيقة، ويظهر ذلك واضحاً من كتاب المذيع الرائع طارق حبيب الذى حاول أن يسجل آراء عدد كبير من رجال الثورة ورموز السياسة التى ارتبطت بالثورة من قريب أو بعيد.

ولمـا حـاول الشـاعر الحالم ومحرر الصفحة الثقافية فى جريدة الأهرام فاروق جويدة أن يفتح الصفحة الثقافية أمام المتحدثين عن الثورة خاصة ممن شـاركوا فـيها سواء من الصف الأول أو الثانى فوجىء بتيار متناقض جعله يؤثر إغلاق الباب.

وممـا زاد الطيـن بلـه، وساهم فى إحداث تلك البلبلة وهذا التشويش أن تاريخ الثورة أصبح سداحا مداحا للكثير من رجال الصحافة، حتى إن بعضهم

جعـل من مقالاته وابلاً من الأحقاد يصبها على زعيم الثورة. ذلك البكباشى الـذى يمـثل أول بارقة أمل فى إحياء الوطنية المصرية، هذه البلبلة أصابت الشباب والجيل الصاعد فغدا يتساءل أين الحقيقة؟

وفى حديث متلفز للمفكر الكبير السيد يسن عبر فيه أسفه أنه لا يوجد حتى الآن مؤلـف عـن التاريخ الوطنى المحايد للشعب المصرى، وأن المؤرخين المصريين يقفون عاجزين عن إنجاز مثل ذلك العمل.

وقـد أثارنى ذلك المفكر الكبير وصرخة الشاعر الحالم فاروق جويدة فى الـتحرك، غير أننى فوجئت بهذا الكم المتضارب من الروايات التى تحركها نـزعات شخصية وإيديولوجية فتراجعت عن الفكرة حتى لا تحرق أصابعى عندما يخط قلمى ذلك التاريخ.

ثم خطرت لى الفكرة: لماذا لا نبحث عن طرف أجنبى محايد يكون "شاهد عـدل" يلـم بمنهج البحث التاريخى وطرق لابحث فيه، ويكون على معرفة جيدة بمصر وعاصر أحداث الثورة، ويمتلك المصادر والوثائق التى هى غير متاحة للمؤرخ المصرى؟

وبعـد سنوات من استعراض المؤلفات البريطانية والفرنسية وقع اختيارى علـى ذلك المؤلف المهم الذى كتبه ريمون فلاورز عن تاريخ مصر الحديث منذ قدوم نابليون وحتى رحيل عبد الناصر، وذلك لعدة أسباب:

أولهـا: أن المؤلف عالى الثقافة، ملم بنظريات التاريخ السياسى والاجتماعى والاقتصادى، بل والثقافى، ولا يفصل التاريخ الحديث عن القديم.

ثانـيها: أنه عاش فى مصر بل إنه ولد فى مصر وتربى فيها، وقضى أسعد أيامـه فـى بيـته الريفى فى البدرشين؛ حيث الهرم المدرج من خلفه والحقـول الخضراء التى يكد فيها الفلاح ويشقى هو وماشيته من بزوغ الشمس حتى مغيبها من أمامه؛ مما جعله يدرك أن هذا الفلاح هو أحق من يكتب تاريخه.

ثالثهما: أنه كابن "طبقة ذوات"، اختلط بأبناء مثل هذه الطبقة من المصريين، فكـــان يتردد على الأماكن الراقية مثل نادى السيارات (الملكى) ونادى الجزيـــرة الرياضـــى ويســـجل مـــا كان يدور فيها من أحاديث جانبية وشـــائعات ونـــوادر وطرائف، وكما ذكر أنه كان يتردد على ملاعب "الاسكواش" فى نادى الجزيرة. ولما قامت الثورة في يوليو عام ١٩٥٢ اكتشـــف أن بعـــض رفاقه في الملعب أعضاء فى مجلس قيادة الثورة. وظـــل ريمـــون فلاورز مقيماً فى مصر بعد إنهاء دراسته الجامعية فى أرقـــى جامعـــات بريطانـــيا، ويـــبدو - والله أعلم - أنه كلف من قبل حكومـــته بمراقبة الأحداث فى مصر، وظل مقيماً فيها حتى رحل عنها عـــام ١٩٥٦ بعـــد وقوع العدوان الثلاثى الذى أدانه بشدة، مؤيداً حق مصـــر فـــى تأميم قناة السويس، ثم عاد إلى مصر بعد انتهاء الحرب، وظـــل يراقب ويسجل فى مذكراته الأحداث الجارية حتى حدوث كارثة ١٩٦٧. عـــاد بعدهـــا إلى بريطانيا وعكف منذ ذلك التاريخ على كتابة تاريخ مصر منذ قدوم نابليون.

وتعتـــبر الفـــترة الواقعة ما بين مجيء نابليون بونابرت وحتى رحيل عبد الناصر من أغنى فترات التاريخ المصرى؛ لأنها بداية قيام مصر من رقدتها التى استمرت دهورا. كالعنقاء المصرى الذى ينهض من رفاه سلفة، وقد عبر أحمد شوقى عن ذلك بقوله:

يا رب هبت شعوب من منيتها ـــــ واستيقظت أمم من رقدة العدم

كمـــا جسم ذلك الفنان الخالد مختار فى نحت تمثاله "نهضة مصر" الذى لا يزلا يقبع أمام جامعة القاهرة.

وقـــد أعجبنى هذا المؤلف - رغم صعوبته وأرستقراطية اللغة التى كتب بهـــا - أنه مزج التاريخ القديم بالحديث، ومزج التاريخ السياسى بالاجتماعى والاقتصـــادى والـــثقافى، كما أن تحليلاته فلسفية وعميقة، ومراجعه متعددة، أغلـــبها مقالات من الصحف البريطانية والفرنسية التى ليست فى منالنا، كما أن حـــبه للفلاح المصرى الذى جاء من بلاده ليراقبه ويكتب التقارير السرية

عــن حركتها الوطنية انتهت به إلى الوقوع فى هواه، فجعل من كتابه ضريبة وواجــب علــيه نحــو هذا الفلاح الخالد كخلود النيل، وبالرغم من أن أموال أسرته أممت وطرد من مصر فى عهد الثورة، لكن ذلك لم يمنعه عن مخالفة ضميره العلمى فى أن يسجل تاريخ مصر الحديث بحياد ملفت للنظر، وبثراء فــى المــادة لــم نجدها فى أى مؤلف مصرى لايدانيه فى ذلك غير مؤلفات الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل فى وثائق تاريخ مصر المعاصر.

وإذا كــان المؤلف قد أهدى مؤلفاته إلى الفلاح المكافح كدين عليه نحوه، فإنــنى لست أقل منه حماساً فى إهداء هذه الترجمة لنفس الفلاح الذى أصبح أحفــاده علمــاء يحصلون على جائزة نوبل أو قادة كبارا ومفكرون ووزراء، رجالاً ونساءً.

سيد أحمد على الناصرى

مقدمة المؤلف

الــثورة صدمة مفاجئة لكن لا يمكن أن يكون هناك انقلاب أحدث دهشة تقــل حجماً مما أحدثه استيلاء ناصر ورفاقه من الضباط الأحرار على الحكم عــام ١٩٥٢. إنهــا كما لو كانت غلاية قد انفجرت حتى في نظر الأجانب تلــك الطبقة ذات المزايا فإن الأيام الأخيرة للعهد البائد Ancient Regime كــان وقــتاً فاســداً . إذا أن مظاهــر الــترف والفساد الذي تفشى بين طبقة الباشوات فاق كل حد متوقع، فقبل ذلك بستة أشهر قام جمهور غاضب بحرق الحــى الأوربــى للقاهــرة . وكنا – في كل الأحوال – رهائن مضمونة عند حدوث أى انفجار . ففي نادى السيارات الملكي تباهى الأمير عباس حليم وهو يــروى آخر مداعباته لفاروق أنه قال للملك: يا صاحب الجلالة عندما يأتى الشيوعيون إلى الحكم سيقولون: عباس يا لك من شاب رائع ! غير أنك تزيد ســتة بوصــات في قامتك ولذلك سوف نقص هذه البوصات الست من أعلى قامــتك وسيفعلون نفس الشئ معك يا أفندينا ، والحقيقة أن الانقلاب الذي قام به الضباط الأحرار (أو أى شيء يفوقه تأثيراً) كان متوقعاً جداً، وكل إنسان كان يعلم ذلك . ففي صيف عام ١٩٥٢ كانت الدولة المصرية على شفا ثورة بركان انفجاره لم يعد ينتظر .

وعندما عدت إلى القاهرة بعد غيبة شهر أو نحو ذلك من وقوع الانقلاب، كانــت الشوارع تموج بملابس الكاكي، غير أن كل شيء كان على حاله في المــنطقة المحيطة بنادى السيارات . صحيح أن الملك قد ذهب، وألقاب معظم أعضــاء النادى قد ألغيت بقرار رسمى، إلا أن عباس بقامته الممشوقة بقيت كما هى، وظل يدخن سيجاره الفاخر الباراتاجاس Paratagas. وإذا كان هناك بــوادر التغيــير فقــد كان ذلك في طي الحدوث، أما بالنسبة لى فإن الشيء المدهــش حقــاً أن أجــد العديــد من الضباط المشاركين في الثورة أصدقاء ومعــارف قدامــى جمعتــنا ملاعب التنس والاسكواش، وكثيراً ما كنا نتبادل الــنكات في حجرة تغيير الملابس أو عند تناول الشاى، وكان أغلبهم في نفس ســني، وكنــت أعــرف مدى طموحاتهم التي كان غايتها أنهم كانوا يريدون

تحريــر وطــنهم مــن سيطرة القصر، ومن أى تورط أجنبي بأى شكل من الأشــكال . لقــد كان فاروق يتظاهر بعدائه للإنجليز لكى يكسب لنفسه شعبية هو في أمس الحاجة إليها، وكان آخر شيء يتمناه الملك هو أن لا تغادر قوات الاحــتلال الــبلاد لأن بذهابها يذهب معها الضمان الأخير لبقائه في مواجهة شــعبه، ولم يكن رفاقي في ملاعب التنس والاسكواش يكنون العداء في قلوبهم للبريطانييــن، ولكنهم كانوا عازمين كل العزم لوضع نهاية لأى تدخل أجنبي في شئون بلادهم، بل كانوا على استعداد لخوض الحرب من أجل أفكارهم إذا وصل الأمر إلى هذا الحد.

ومــن وجهــة النظر البريطانية، بالطبع كان ذلك يسبب مضايقة، لكن هل يســتطيع أحــد أن يلومهم في ذلك؟ فلو قدر لك أن تدخل تحت جلد المصري فإنك سوف تدرك مدى الضغوط التي رزح تحتها مواطنوه، ولكي تفهم السبب كــيف يكونــون محملين بالتاريخ ومحرومين من السلطة، فعبر آلاف السنين عــانوا الأمريــن من الاستغلال الأجنبي، حتى بدا فيها أن أحداث انفجار هو الــترياق الوحــيد . فالمصــري يعتريه كبرياء يشعر به، أن من أرضه بدأ التاريخ ذاته، فكل الحضارة المدونة خرجت من وادى النيل الضيق، غير أن الأمــر بالنســبة للرجل العادي في الدلتا كان على امتداد التاريخ قصة الفساد والاضطهاد الهابط عليهم من السلطة العليا .

وهــناك وثيقة من البردى في المتحف البريطاني عبارة عن مراسلات بين امينــيمان Ameneman(*) مديــر مكتبة رمسيس الثاني وبين الشاعر بنتاؤر تســائل فــيها امينــيمان:هل دار بخلدك قط مدى خوف الفلاح الذي يفلح في الأرض؟فقبل أن يلمس منجله محصوله، يكون الجراد قد أخذ نصيبه منه، ثم يأتــي دور الفــئران والطيور، وإذا تقاعس في الحصاد تمتد يد اللصوص إلى المحصــول، وســيموت حصــانه (حماره) من شدة العمل، ثم يصل جامعو الضرائب ومعهم أتباعهم مسلحين بالهراوات، ويصحبهم أيضاً زنوج يحملون

(*) ربما هو الذى ذكر في القرآن الكريم باسم هامان.

ســياطاً مــن كعوف النخيل، وكلهم يصرخون: « أعطنا غلتك ! » ولم يكن أمامــه مــن ســبيل يتجنــب به مطالبهم الغريبة، بعد ذلك يلقى القبض على المســكين ويقــيد ويرسل للعمل الشاق بدون أجر في حفر القنوات، ويأخذون أيضــاً زوجــته ويقــيدونها ويجردون أولاده من ثيابهم وينهبون . لم يتغير وضعه عما كان عليه كثيراً منذ ٣٢٠٠ عام . فخطاب امينيمان يمكن أن يعيد الذاكــرة لكتابات كتابته لوسى دف جوردون Lucie Duff Gordon منذ أقل مــن قــرن مضــى، حتى بالرغم من أن الضرب بالكرباج أصبح محظوراً وقتذاك، إلا أن وكيل الباشا كان لا يزال يمسك بهراوته . لقد كان الفلاح عام ١٩٥٢ بعد الميلاد ليس بأحسن حالاً فيما كان عليه أجداده عام ١٢٥٢ ق.م. فلا عجب إذن أن يصر ناصر وفريقه الذين جاءوا جميعهم من أصول فلاحية على إحداث تغييرات جوهرية في النصف الثانى من القرن العشرين.

وفــى مواجهــة هذه الحقائق، تم التوصل في النهاية إلى اتفاق بالجلاء عن مــنطقة قــناة السويس، وقبل بضعة أيام من انتهاء صلاحية معاهدة ١٩٣٦ غادر آخر جندى بريطاني بور سعيد، غير أنه لم يمض أربعة أشهر ونصف حــتى عادوا تحت وابل من نيران أسلحتهم ليعيدوا احتلال المناطق التي جلوا عــنها، فقــد أظهــرت أزمة السويس بكل مآسيها النفور الكامل للعقليات بين رجال الهوايتهول White hall (مقر الحكومة البريطانية) والقاهرة .

وكمــا حــدث، بعــد أيــام قلائل من تأميم القناة، كان المسترسلوين لويد Selwyn Lloyd ضــيف الشرف في حفل استقبال أقيم في لندن . وكان السيد وزير الخارجية المذكور قد عاد لتوه من رحلة طيران سريعة في أول المساء، حيــث التقى مع جى موليه Guy Mollet وكريستيان بينو Christian Pinaud في باريس، حيث اتخذ قرار الرد كما يستشف بغزو مصر . وبعد العشاء ألقــى خطــاب بدأه بالإشارة إلى موضوع قبعات " نينا " (وكانت نينا إحدى بطلات الرياضة الروسيات وجهت إليها تهمة سرقة زوجين من القبعات ثمنها ١,٧٥ جنــيه اســترلينى مــن أحــد محلات شارع إكسفورد وقامت السفارة الروســية بتهريــبها محدثــة زوبعــة مــن السخرية) قائلاً: " إننا لن نسمح لإجــراءات العدالة البريطانية أن تخضع لمثل هذا السلوك " ثم رفع يديه في

غضب قائلاً: " إنني واثق من أننا سنكون على حق لو اتخذنا موقفاً صارماً".

أن يستهل خطابه بسخرية ضاحكة فهناك ما يبرر ذلك وهذا عدل، لكنه تحول فجأة إلى موضوع قناة السويس وهجوم ساخر على عبدالناصر.

وهنا يلمس الواحد منا أنه يريد أن يربط في تفكيره بأن نينا وناصر لصان يجب أن ينالا عقابهما ولا يجب أن يتركا ليفلتا بما أخذاه . ويجب أن يلقن عبدالناصر درساً . وما أقلقنى حقاً فشله الواضح والذي تردد صداه بين كثير من أصدقائه في إنجلترا – في أن يتفهم تتابع الأحداث التي حدت بناصر أن يقوم بهذا العمل، وقبل كل شيء تغاضيه عن الضغوط التاريخية والديموجرافية بل حتى الإنسانية التي ربطت بين سد أسوان العالى وقناة السويس وحياة ثلاثين مليون نسمة (عدد السكان في ذلك الوقت) يعيشون في دلتا النيل . لقد كان أمراً منافياً للعقل أن يطلق على عبد الناصر لقب "اللص"، لأنه لم يسرق القنال، كما أنه تصدى بطريقة كانت له فيها اليد العليا، وكان لديه من الأسباب ما يكفي لغضبه، ولكن كان هناك حاجة ماسة لتقييم الموقف بعيداً عن العواطف وإجراء مفاوضات على مستوى الند للند.

وإذا ما رجعنا إلى الوراء إلى ذلك المنظر البراق يوم أن جاء نابليون بأوربا إلى مصر ليدرك المرء كم هناك من حاجة إلى إلقاء نظرات جديدة ليس على وجهات النظر الأوربية فحسب، لأن مصر معروفة جيداً، بل على الجانب المصري من الرواية . ربما لم يركز على هذا أحد بالقدر الكافى بالنسبة إلى الجمهور الناطق بالإنجليزية على الأقل، لكن بعد مهزلة السويس أصبح ذلك ضرورياً أكثر من أى وقت مضى .

كانت مسألة السويس إما جريمة، أو عمل طائش، إن لم يكن قد أسدل الستار على قصص الاستعمار الإنجليزى الطويل وبطولاته، فقد أعطت ناصر الإلهام ليشرع في مغامراته خارج البلاد والتى كتب لها الفشل . كما ساعدت أجهزة الدعاية أن تحدث ضباب الشك والكراهية . وكان هذا يعنى أن العلاقات بين البلدين بقيت متأزمة بشكل غريب . وربما كان هذا أمر لا

مفـــر مـــنه طالما بقى يمسك ناصر بدفة الحكم . ولكن الآن توجد رغبة لدفن الماضـــى بـــدأت تحطـــم جدار العداء. والذي لا شك فيه أن المصريين اليوم يشـــعرون أكـــثر ممـــا كانوا يشعرون منذ وقت طويل بالاتجاه العاطفى نحو إنجلـــترا . فقد سارعوا بالإمساك بيد الصداقة التي مدتها إليهم سياسة إدوارد هيـــث Edward Heath فـــي الاقتراب من المشكلة بعقل مفتوح جديد كما أن تجـــول الســـير أليك دوجلاس هيوم Alec Dougles Home بين الآثار وهو يركـــب الجمـــل (وهو الآن معروف بين زملائه بكنية The Cammel Laird) كانـــت لمسة من العبقرية، فقد لجأ إلى المزاج المرح، وبذلك ألغى بضربة واحدة عقوداً من "العنطزة".

وبالـــرغم مـــن أن أنـــور السادات يبدو في بعض الأحيان غامضاً إلا أن إمساكه بالحبل بشدة يتخللها فترات من اللين . لقد بذلت الدبلوماسية المصرية المتشـــددة الكثـــير لكـــى تكسب لمصر تعاطفاً دولياً في موقفها الذي لا تحسد عليه.

وبالـــرغم مـــن أن ذلك يبدو محيراً، إلا أن هناك بعض العوامل الأساسية التـــي يجـــب أن تبقى في أذهاننا، فلو أن الروس بقوا متخندقين بقوة في الدلتا الـــيوم، فـــإن ذلك للمصلحة النفعية وليس من باب الاختيار . لأن المصري العـــادى لا يحـــب ولا يحـــترم النظام الشيوعى لكنه لا ينكر أن روسيا هى الأفضـــل بالرغم من أنها التي تقف إلى جانب مصر في هذه الورطة القائمة، بيـــنما تـــبدو أمريكا في عيونه هى الأفضل على وهى تفعل العكس من ذلك تماماً . وبسبب رعونته الجيوبوليتيكية فتح الغرب الطريق للتسلل السوفيتى . لقـــد ســـاهمت أزمة السويس، وتصرفات ليندن جونسون Lyndon Johnson واللوبـــى الصـــهيونى فـــي واشنطون جميعاً في اندفاع القاهرة التدريجى نحو مخالب موسكو .

وعندما تحل المواجهة المزمنة مع إسرائيل حلاً نهائياً وتعاد سيناء، والتى كمـــا نفهم هى الشغل الشاغل لاهتمام القاهرة في هذه اللحظة فسوف تكون هـــناك فرصـــة لعودة السلام إلى ربوع الشرق الأوسط . وعندما يحدث ذلك

فـإن مصـر ستصـبح أبعـد بكثـير مـن أن تستضيف القوات السوفيتية وصواريخها(*)، غير أن الاتحاد العربى وحلفاءه ينظرون إلى القضية نظرة واضـحة المعـالم، فهم يعتقدون أنهم لا يقاومون الإسرائيليين وحدهم، لكنهم يقاومون مصالح أمريكا الاقتصادية الممتدة عبر إسرائيل، ولذلك يميلون بشدة إلى ضرورة استخدام روسيا كقوة مضادة .

ومرة أخرى، في حين أن المرء على أى حال قد يبدو متعاطفاً مع المآسى والآلام التـي تعرض لها اليهود، يجب أن نضع في ذاكرتنا أن الدولة اليهودية ولـدت وتوسـعت علـى حساب العرب، فإسرائيل الحديثة ما هى إلا طائر الوقواق الذي يعشش في الشرق الأوسط .إن المصير المحزن الذي لقيه اليهود فـي ألمانـيا وشـرق أوربا لم يكن خطأ الفلسطينيين، لكن كان عليهم وعلى جـيرانهم أن يدفعـوا الثمـن، وليس هذا دليلاً في حد ذاته: إنما هى مسؤلية جوهـرية وتاريخية لا نستطيع نحن في الغرب أن نتهرب منها . ومع الأسف لـيس ذلك الأمر الوحيد، فكلما تعمق الإنسان في المسألة كلما أدرك أن العالم العـربى منذ أيام نابليون، والمصريون على الأخص، ليس لديهم سوى القليل المفـيد ليشـكروننا عليه . فهم كما هم اليوم واقعين في شباك القوى الكبرى، دافعين ثمن الأخطاء أكثر من المخطئين أنفسهم .

هناك أمر معين يتوق إليه دائماً الرجال والنساء العاديون في مصر قبل أى شـيء وهـو أن يتركوا لحالهم يعيشون في سلام، مسالمين وتواكليين يعملون تحت النير عمل شاق لا يتوقف سواء في الحقول أو بعض الوظائف الحكومية المجمـدة، وطمـوح أغلـب الشـعب لا يزال بسيطاً، وهو أن يكسب بعض القـروش الإضـافية لتحسـين وضـعهم قليلاً، وطموح الغالبية العظمى من المصريين لا يتغير وهو الحصول على سبع أو ثمان أكواب من الشاى الثقيل مضـافاً إليه الكثير من السكر يومياً، وفى مناسبات الأعياد تناول وجبة اللحم الضـان المشـوى أو الكفـتة، وقضاء ساعة أو ساعتين في مقهى القرية .

(*) وكما يبدو أن الأحداث قد أثبتت ذلك منذ أن ظهر هذا الكتاب.

وجلــباب جديــد فـــي شم النسيم (عيد الربيع) .. هذه هى طموحات الغالبية العظمـــى للفلاحيـــن للمصريين التي لا تتغير . يضاف إلى ذلك أهمية عامل الديـــن، وصـــلة الـــرحم، والقرية والكرامة الشخصية . لقد حقق جمال عبد الناصـــر حسين شيئاً لهذا الشعب، لقد أعطاهم القوة الدافعة لكى يفخروا بأنهم مصريون، وهو إحساس حرموا منه منذ أيام الفراعنة .

إنه لمن الصعب أن نقرر عما إذا كان ناصر قد فعل الكثير أو القليل داخل مصـــر خلال السنوات الثمانية عشرة التي قضاها في السلطة، إذ لا يزال من الســـابق لأوانـــه أن يصدر حكم عما إذا كانت سياسته الداخلية قد نجحت أو فشـــلت . إن العواطـــف التـــي فجرها خارج الحدود كانت كالبركان حتى أن الكثيريـــن من مواطنيه ليجدون صعوبة في أن يتبينوا أن القاهرة قد أصبحت واحدة من محاور القوة الهامة في العالم الثالث غير المنحاز، لكن لذلك جانب آخـــر، وكما لاحظ جيمس الدردج James Aldaridge أي كتاب عن القاهرة: "لـــيس فـــي مقـــدور أحـــد أن يتنفس في هذه المدينة دون أن يحس بهمساتها العصبية وابتهاجاتها خالية البال وذلك لأسباب بسيطة فربما لا توجد مدينة في العالم تضحكك أكثر منها، ليس فقط من نكاتها اللاذعة، ولكن أيضاً من حالها الـــذي يدعو للسخرية" فكثير من سحر المصريين الجارف يقبع في استعدادهم لتحويل أى أمر جاد إلى "هزار" ومضاعفة الضحك عند أقل ذريعة .

لقـــد قـــال لـــى مـــن هو ذات مرة إن إطلاق النكات تصرف طبيعى عند المصـــريين، كما تفعل أغنية كالبسو Calypso عند سكان جزر الهند الغربية أو كمـــا تفعـــل الأناشـــيد الروحانية الدينية أو الجاز عند الزنوج الأمريكيين، وليس الغريب أن يضحكوا فيما بينهم وبين أنفسهم عند فكرة أنهم يلعبون دور "السيد العربى" لقد كانت مصر دائماً أهم بلدان الشرق الأوسط، ولكن بالرغم مـــن ذلـــك حتى في أيام قمة مجدهم عندما كان نجم عبد الناصر يشق عنان الســـماء، فإن قليلاً من المصريين كانوا يرون أنفسهم حقاً قادة للعالم العربى، بـــل حتى لو نظروا إلى أنفسهم على أنهم عرب فقط، ففي داخل أفئدتهم كانوا دائمـــاً يـــنظرون إلـــى الماضـــى، غارقين بعشق وحماس في أمور بلادهم الأساســـية، وقلمـــا كـــان لهـــم أى اهتمام بالاستراتيجية الدولية . والآن وهم

يجـــددون أنفسهم وقد نال بهم الإرهاق مبلغه من جراء المغامرات الخارجية بيـــنما، يوجد الكثير الذى يتوجب عمله في الوطن . وبالرغم من الحديث عن المعـــركة القادمة التي لا مفر منها، وعن مظاهرات الطلاب (والتى هى تعبير خـــالص عـــن الإحســـاس بالضياع الوطنى) فإن المصري في جوهره رجل سلام.

إن أنـــور الســـادات يدرك ذلك جيداً، عندما يتفاوض ببراعة وثقة بالنفس كـــتلك الـــتى يفاصـــل بهـــا تاجـــر الـــبازار لاستعادة الأراضى التي سلبها الإســـرائيليون دون أن يلجأ إلى السلاح . كما أن جولدا مائير وموشيه دايان يعرفان ذلك أيضاً مما قد يشكل سبباً برجماتيا لعناد تل أبيب التي تتبنى وجهة نظـــر الذي لا يستعمل شيئاً ولا يدع غيره يستعمله، ومادام المتخصصون في حـــل ألغـــاز الكلمات المتقاطعة في الهوايتهول يدركون ذلك أيضاً، فإن هناك الآن ســـببًا وجـــيهًا لعقد الآمال على صياغة علاقات وثيقة من الصداقة بين جيل جديد من الإنجليز والمصريين .

وتأسيســـاً على هذه الملاحظة المتفائلة، دعنى أضيف: وبالرغم من وجود مســـحة خافـــتة من الاستعلاء والاستغلال، لا تزال فترة القرن التاسع عشر والنصـــف الأول مـــن القـــرن العشـــرين التي تمثل فصلاً فاصلاً للاستعمار الأوربى تمثل مرحلة مثيرة مثل أى فترة من تاريخ مصر الرائع .

إن الموضوع الذي اعتنى به هو وصف تتابع أحداث العصور منذ اللحظة التـــي ظهـــر فـــيها نابليون عام ١٧٩٨ حتى رحيل عبد الناصر عام ١٩٧٠ مركـــزاً على القضايا الأساسية والأزمات التي عصفت بالأرض العريقة في العصـــر الحديث، غير أنها مرت مرور الكرام على التطور الهائل في مجال التكنولوجـــيا والاقتصاد والسياسة خلال العقدين الماضيين لأن ذلك يقع خارج مجال الكتاب متمنياً أن يكون ذلك موضوع جزء مكمل . ومن ثم فقد قصد به أن يكون إلقاء نظرة بانورامية إطلالية لمصر في العصر الحديث.

وأســـتطيع أن أدعى لنفسي أنني كنت على مسرح الأحداث لأكثر منذ ربع

قــرن، وهــى الفــترة التاريخية التي يغطيها هذا الكتاب . حقاً لقد انتهيت من كتابة أغلب فصوله خلال السنوات التي قضيتها في بيتنا على ضفاف النيل في البدرشين حيث كان يحيط بنا الفلاحون وهم يعملون في الحقول، ومن ورائهم فــي الخلفــية تقــبع منف وسقارة فتحقق لى الإحساس بأننى بكل كيانى على اتصال بتراب مصر وروحها .

وبالــرغم مــن اســتخدامى للمصادر التي ذكرتها في الببليوجرافيا بطريقة متحررة، إلا أننى جمعت الكثير من مادتى التاريخية في القاهرة والإسكندرية، ولهــذا سوف أكون مقصراً لو نسيت أن أسجل ما أنا مدين به من جميل لكل أصدقائى الذين لم يساعدونى في أصول الكتاب فحسب، بل شكلوا على الدوام أفكاري، ووجهة نظرى إزاء تلك الأرض التي عشت على ترابها منذ أن كنت طفــلاً يبلغ عمره ثلاثة أشهر . فخالص شكرى لعطفهم الدائم الذي لم يخذلنى قط، والذي جعل علاقة حبى لمصر لم يتوقف، ومن ثم فإنه من المناسب أن أهــدى لهم هذا الكتاب . فإلى أصدقائى الكثيرين الرائعين؛ هذا واجب تقدير يقدمه "ابن البلد".

ريموند فلاور

تمهيد

نابليون يترصد إنجلترا

فـــي ليلة سادها الصقيع من شهر نوفمبر ١٧٩٧، بينما كان سكان الوديان المتــناثرة يتكدســـون حول مدافئهم، هرولت قافلة عسكرية فرنسية من ناحية الشمال عبر الألب... إنه المواطن الجنرال بونابرت عائدًا من إيطاليا.

لقد حقق وهو في سن الثامنة والعشرين من عمره نجاحاً مذهلاً، ففي خلال خمــس سنوات فقط علا نجمه من رتبة ملازم مجهول في سلاح المدفعية إلى منصب القائد العام للقوات الفرنسية في إيطاليا . .. قائداً عاماً لقوات تمرست فـــي القـــتال، وتديـــن له بالولاء، وعن طريقها تمكن من اجتياح شمال شبه الجزيـــرة (الإيطالـــية)، ووضـــع نهاية لجمهورية البندقية، وأجبر إمبراطور جمهوريـــة البندقية على عقد السلام، لقد كان يحيا حياة شبيهة بحياة الملوك، ويهلل له المعجبون به بأنه " ها نيبال الجديد " فقبل شهر كان قد وضع نهاية سعيدة لهذه الحملة بعقد معاهدة كامبو فورميو Campo Formio.

ولكـــن فـــي باريس حيث كانت الحكومة تتخبط في الفشل، وتواجه ألف مؤامـــرة، فقد كان يعرف أنه يتوجب عليه التعامل معها بحذر فلم يكن يدور بـــباله أن انتصـــاره المذهـــل فـــي إيطاليا لم يقابل إلا بأقل درجة من التقدير والإعجـــاب مـــن جانب حكومة الإدارة الفاسدة، والتي كانت تنظر إليه بعين الغـــيرة والحسد، في حين أن ولاءه للنظام كان راسخاً لا جدال فيه (ولقد دار الهمـــس فـــي باريس أنه دفع ثمن ترقيته من قبوله الزواج من إحدى عشيقات أحد رجال الإدارة التي كان يريد التخلص منها)، لكنه لم يستطع أن يمحو من ذاكرته كلما هرول نحو باريس أنه قد ألقى القبض عليه مرتين، وزج به فـــي غياهب السجن خلال السنوات الخمس السابقة، وأنه في هذه المرة، إذا ما قام بأدنى تحرك فاشل فسوف يكون في ذلك نهايته .

أمـــا السبب في استدعائه هذه المرة فلم يكن سراً، إذ صدر قرار الحكومة فـــي ٢٦ أكتوبر بتعيينه قائداً لجيش حملة إنجلترا، أو بمعنى آخر قائداً لغزو

بريطانـيا . فلقـد أطلقت معاهدة كامبو فورميو أيدى الجمهورية (الفرنسية) لـتدخل فـي صراع مع عدوتها التقليدية، لكن كلما أمعن بونابرت في التفكير كلمـا أدرك أن القيام بعملية عبر القنال الإنجليزى لن تكون بكل تأكيد مجدية من الناحية العملية في ذلك الوقت . فلقد كان ضعف الأسطول الفرنسى عائقاً يدعوه للتردد، كما أنه لم يكن لديه النية في أن يرتبط اسمه بعمل فاشل .

لقـد سافر من مومبيللو Mobello إلى راشتادت Rashtadt ثم إلى باريس بأقصى سرعة تسبقه شهرته . فعند كل قرية كان عليه أن يتوقف ويستمع إلى خطـبة مـن عمدتها، وفى كل مدينة كان عليه أن يتلقى كرم الضيافة . ومن حين لآخر كان يفصح لرفاقـه المسافرين معه بما يدور في نفسه فقد أسر إلى صـديقه مـيو ميليتو Miot Melito قائلاً: ما قمت به حتى الآن لا يساوى شـيئاً؛ لأنـنى في بداية سباق كتب علىّ أن أخوضه، هل يدور بمخيلتك أننى حققـت النصـر ببساطة لأضمن بقاء هذه الحفنة من المحامين الذين يشكلون حكومـة الإدارة رجال من نوعية كارنو Carnot وباراس Barras وفيما بعد قـال له في راشتادت: وبالنسبة لى يا عزيزى " ميو " دعنى أقول لك، أننى لم أعـد أؤمـر فأطيع، لقد تذوقت طعم القيادة ولا أستطيع الاستغناء عنها . لقد توصلت إلى قرارى إن لم أصبح سيداً فسوف أغادر فرنسا ! ».

كان الاستقبال الحافل الذي استقبل به في باريس سواء من جانب مؤيديه أو منتقديه رائعاً مما بعث فى نفسه السرور، ففي كل مكان رفرفت عليه أعلام الثورة ذات الألـوان الثلاثة . كما أن الجمهور المبتهج كان مقتنعاً أنه (أى نابليون) مـا أن يطـل بوجهه على بريطانيا حتى تجثو الإمبراطورية البريطانية تحت قدمـيه، غـير أنه سمع وهو يصيح: "هل تتوقعون منى أن أطرب لمثل هذه المظاهـر العامـة ؟ أتـدرون السبب أنه نفس الجمهور الغفير الذي سوف يشـاهدنى وأنا في طريقى إلى المقصلة"!. وعلى مضض قام أعضاء حكومة الإدارة بـتكريم الجنرال؛ حيث استقبلوه استقبالاً رسمياً، وألقى باراس خطبة غـراء مخاطـباً إيـاه بلقـب محـرر إيطاليا ومحقق السلام لأوروبا . ففي لوكسـمبرج اعتلى الناس الموائد ليفوزوا بنظرة على البطل، فشاهدوا شخصاً نحـيف البنـية، شاحب البشرة، يرتدى بزة زرقاء ويتمنطق بسيف يكاد يحف

بـــالأرض . غـــير أن مظهره هذا أثار حماس تاليران Talleyrand الذى كان على علاقة طيبة معه، وهو الذي وصفه بقوله: "إنه شخصية جذابة ذو بشرة شاحبة، يبدو عليه علامات الإرهاق . في حين أن أصحاب الصالونات الأدبية كـــانوا يتهامســـون فـــيما بيـــنهم بأن الجنرال الشاب يبدو كقط يرتدى الزى العســـكرى " ولقـــد كـــان سلوكه يجمع ما بين الجفاء والخشونة التي تتطلبها أصـــول المهنة، وبين الروح الاجتماعية الطيبة، وأحسن ما يقال عنه أنه كان ذا ابتسامة تسحر الألباب.

وبعـــد الاحـــتفال سارع هارباً من كل هذه الضوضاء، ومظاهر النفاق إلى بيـــته الصـــغير في شارع شانتيرن Rue Chanterine والذي أعيد تسميته بعد عودتـــه إلـــى شارع النصر Rue de la Victoire وفى هذا البيت كان ينكب على عمله الروتينى مع هيئة أركان حربه من الضباط المكلفين بتجهيز المؤن والعـــتاد المـــتعلقة بالحملة، بل أنه كان يلتقى فيه بشخصيات مدنية من أدنى الســـلم الاجـــتماعى مثل صائدى الأسماك المتقاعدين، والمهربين المحترفين. وبدءاً من مطلع شهر فبراير راح يستكشف موانئ الساحل الشمالى (لفرنسا)، وبينما كانت عربته تتعثر فوق الحصى بين كاليه Calais ودنكرك Dunkirk، تـــأكد من مخاوفه بأن غزو بريطانيا في هذه الظروف سيكون بمثابة الكارثة المحققـــة، لكـــنه كـــان لديه النية عندما تحين الفرصة المناسبة أن يعمل على إسقاط الإمبراطورية البريطانية والحكومة الفرنسية أيضاً، لأن ثمرة الكمثرى لم تكن قد نضجت بعد في الوقت الحالى. ولذلك قدم للحكومة اقتراحاً بديلا في الخـــامس مـــن شهر مارس عام ١٧٩٨ بالقيام بحملة على مصر، وفى نفس اليوم الذي قدم فيه الاقتراح جاءت موافقة حكومة الإدارة.

قـــبل اثنى عشر شهراً من ذلك التاريخ كان القنصل الفرنسى في القاهرة قد تقـــدم بمذكرة مطولة يقترح فيها أن الوقت قد حان للتدخل في مصر، وقال إن هـــذا التدخل سوف يجد ترحيباً ليس من جانب المصريين الذي كانوا ضحايا لحكومـــة ظالمـــة وفاســـدة، بل سيجد ترحيباً أيضاً من جانب تركيا، صاحبة الســـيادة، إذ لم يعد سراً أن الباب العالى كان يعانى الأمرين من جانب بكوات المماليـــك الذيـــن كانوا يسيؤن معاملة الخمسين أو الستين تاجراً فرنسياً الذين

كـــانوا يقيمون في مدن الدلتا، ولم يكن هذا التقرير جديداً في مطلبه، فقبل ذلك وعلى طول السبعينات والثمانينات من القرن الثامن عشر، انهال على وزارة الخارجــية الفرنســية الــتقارير بخصوص المسألة الشرقية، غير أن أحداً لم يكترث بها كثيراً، ولكن في هذه المرة أعاد صوت له نفوذ تكرار هذه الفكرة، وهــو صوت شارلز موريس دى تاليران Charles Maurice de Tallyrand . فــى بدايــة حــياته كــان تاليران أسقفاً على أوتون Autun غير أن الكنيسة طــردته من رحمتها لهرطقته، وكان قد عاد لتوه من حياة الدعة الاستعمارية في فيلادلفيا (حيث لجأ إليها حتى انتهى حكم الإرهاب) وفى قصر اللوفر ألقى محاضــرة عامة كان عنوانها " حول مزايا مستعمرات فرنسا الجديدة " وقد أشــار فــيها إلى كيف أن بريطانيا قد سلبتها من فرنسا وكان آخرها في عهد آخر ملوكها . وإذا كانت الفكرة قد ضربت على وتر حساس، ولقيت استجابة مــن مســتمعيه في باريس، فإنها أكملت دائرة تفكير هذا الشاب الحالم الــذي كان في ذلك الوقت يعقد اجتماعاً في مومبيللو Mombello .

لقـــــد كان نابليون بونابرت يحلم بسحر الشرق حتى منذ أن كان ملازماً أول، يقتل الساعات المملة الثقيلة داخل الثكنات في الأقاليم، بل أنه كان يسجل يومــياته برصد بعض الملاحظات مثل ــ تاريخ مصر، وقرطاجة، والتتار، والأتــراك، بل وأبعاد الهرم الأكبر، وتاريخ تولى السبع والعشرين خليفة (من الأتــراك)، إلى جانب ترجمات لحياتهم، وتفاصيل دقيقة عن مسلك زوجاتهم، بل أنه دون عبارة تقول: " المجد كله يأتي من الشرق مثل الشمس Toute le Gloire vient de l Orient comme le Soleil.

وفجــأة تذكر ذلك الفتى الكورسيكى الذى تجرى فى عروقه دماء البحر المتوســط فتوحات الاسكندر وقيصر، لكنه كان يقيس أحلامه بمعيار العقل والمنطق كما روى ذات مرة للكونتيسة ريموسات Remussat بأنه قادر على أن يــربط بين رؤيته لإقامة إمبراطورية في الشرق، والتفكير في إلحاق الأذى بإنجلتــرا في الغرب .

وشـــاءت الأقدار أن يصبح تاليران وزيراً للخارجية بعد أسبوعين فقط من

إلقائـــه محاضـــرته الشهيرة، وعلى التو بدأ بونابرت يتراسل معه بخصوص مشـــروعه لتحقيق السيطرة على البحر المتوسط، فقد كتب إلى الوزير الجديد يقول: « ليس اليوم ببعيد عندما ندرك ضرورة الاستيلاء على مصر إذا كان فـــي نيتنا تدمير إنجلترا. إنه في مقدرتنا أن نبحر ونستولى عليها بقوة تعدادها ٢٥,٠٠٠ رجـــل يصـــحبهم ثمان أو عشر سفن حربية إن الإمبراطورية العثمانية الشاسعة التي تموت يوماً بعد يوم تدفعنا بأنه لا مفر من البحث عن وسيلة أخرى يجب أن نتبعها لكي نحمى تجارتنا في شرق البحر المتوسط ».

وســـواء كان تاليران مقتنعاً بذلك أم غير مقتنع (فعندما فشل المشروع فيما بعد وتحول إلى كارثة ألقى كل منهما اللوم على الآخر) . غير أنه كان داهية دبلوماسية ولا يرفض فكرة ضرب عصفورين بحجر واحد إن استطاع، وأن الفرنســـيين إن لم يحتلوا مصر فمن المحتمل أن تقوم بذلك قوة أخرى، وقبل كـــل شـــيء، كـــان يفضل أن ينشغل شخص ذو شعبية تثير قلقه في مشروع عســـكرى علـــى ضفاف النيل على أن يراه يتسكع على ضفاف السين بدرجة تثير الخطر.

ومهمـــا كانت دوافع تاليران الخاصة، فإن مقترحاته التي قدمها كانت تؤيد فكـــرة الحملـــة، كمـــا تضمنت خططه أيضا مشروعات لحفر قناة فى خليج السويس ومشروعاً آخر للقيام بحملة لفتح الشام بعد احتلال مصر، وكان ذلك كافـــياً للحصول على تأييد حكومة الإدارة والوقوف إلى صفه، فقد وضح لهم أن مصادر تموين إنجلترا تأتى من بلاد بعيدة عنها، وأن هجوماً ناجحاً لقطع خطوط المواصلات سوف يكون بمثابة ضربة قاضية، ويستبعد من ذلك القيام بحملـــة لغـــزو إنجلـــترا حـــتى قبل انتزاع الهند منها، فلو أصبح الأسطول البريطانـــي مـــتورطاً حـــول الإســـكندرية، فـــإن هجوماً خاطفاً عبر القنال الإنجلـــيزى يصـــبح فـــي الإمكان القيام به: وهكذا اتفقت وجهة نظر حكومة الإدارة مـــع وجهـــة نظـــر نابليون في الهدف، لكنها اختلفت في الغرض، أما الأمـــوال اللازمـــة لتكالـــيف الحملة، فقد أمكن تدبيرها بالقيام بغارة خاطفة ومفاجئة على سويسرا . وخلال ست وسبعين يوماً من العمل المضنى وتحت أقصـــى الظـــروف صـــعوبة، وبدرجة رائعة من السرية، تم اختيار الفريق

المشـــارك في الحملة سواء على مستوى المشاة أو البحرية، أو الجهاز المدنى حتى أصبحت الحملة جاهزة .

ولقد اختار نابليون أركان حربه من بين الضباط الذين كان يثق فيهم، كما اخـــتار جنوده من بين أولئك الذين حاربوا معه بشجاعة في إيطاليا، وتم ذلك وهـــو جالس في مقصورة زوجته الخاصة (فقد كانت جوزيفين كثيرة التغيب وتكـــون عـــادة في حجرات نوم إما باراس أو معلم الرقص مسيو هيبولبت Hippolyte) وبمســـاعدة فـــريق مـــن العلمـــاء علـــى رأسهم جاسبارد مونج Gaspard Monge وبرتولـــيه Bertholet عـــالم الكيمياء الشهير أمكن تجنيد عدد مذهل من المتخصصين للانضمام للحملة، فلقد كانت فكرة السير في أثر الجـــيوش العظمى في العالم القديم تجذب إليها عدد كبيراً من رجال الفكر كما تفعـــل قطعة المغناطيس . وبينما كانت إنجلترا متورطة في بناء إمبراطورية شاســـعة، أدركـــت فرنســـا الـــثورة أن الوقت قد حان لبعث الحياة في البحر المتوسط، والذي كان على مر التاريخ محور العالم .

حـــتى ميشـــيليـــه Michelet الذي كان أقـــل الناس إعجاباً به كتب يقول: "ليست هذه حملة عادية، حافزها الجشع، إنما دافعها أمل البعث الرائع النبيل" ولـــم يمض وقت طويل حتى كانت نواة جامعته الشاملة قد تكونت، فقد شملت علمـــاء فلك، ونبات، وعلماء الهندسة، وعلماء في المناجم والمحاجر، وعلماء في الآثار وعلماء متخصصين في الدراسات الشرقية، وعلماء اقتصاد سياسى بالإضافة إلى زمرة من الموسيقيين والرسامين والشعراء، وقد بلغ مجموعهم ١٦٧ عالماً، كان أغلبهم في سن الشباب، اتجهوا واحداً بعد الآخر إلى ميناء طولـــون Toulon فقد كانت النية عازمة على دراسة كل كبيرة وصغيرة على أرض مصـــر، ذات التاريخ التليد بكل دقة متناهية . وقد يسخر مقاتلوه من جـــنود المشـــاة مـــن هؤلاء العلماء الحالمين، ويطلقوا عليهم ساخرين لفظ " الحمـــير " لكن في نظر بونابرت كانوا يمثلون أهمية بالغة، فهم الرجال الذين سيخلدون شهرته بأنه الإسكندر الجديد .

وفـــى صباح يوم ١٩ مايو عام ١٧٩٨ الباكر، اقتربت عربة تجرها خيول

ثــم توقفــت أمام فندق لانتاندنتL Inetendent في طولون، ومن أعلى الدرج هــبط نابلــيون وقد تأبطت جوزفين ذراعه، ويقول شهود العيان أنه لم يظهر أى انفعال عاطفى لهذه اللحظة، فقد كان يجلس طوال الوقت في العربة صامتا متــبلد الحس، ومن حين لآخر كان يرفع أصبعه للرد على تحيات الجماهير، وعــندما اقتربت العربة من حافة البحر طبعت جوزفين على خده قبلة الوداع هامسة في أذنه: متى ستعود؟ فأجاب وهو يهز كتفيه: « ربما بعد ست شهور، أو ســت سنوات »، ثم أكمل هامساً وهو يضع قدميه على الرصيف: «وربما لا أعود أبداً » .

وعلــى الجانــب الآخر (من البحر) في ذاك الوقت نفسه لم يكن التهديد بغزو محتمل من جانب فرنسا يلقى تأثيراً كبيراً على الحياة اليومية، وإذا كان هــناك مــا يشــغل الناس في إنجلترا فهو ما كان يحدث في الأسطول، إذ أن أعمــال التمرد والشغب التي اندلعت في منطقة سبيتهيد Spithead كانت سيئة للغايــة، بل لم يكد يمر شهر على حدوثها حتى اندلعت موجة تمرد شاملة في مــنطقة نــور Nore، ولــم يكن أحد يدرك بالطبع كم كانت حياة جندى الأسطول شاقة . لكنهم صدموا لما علموا أن تجنيد الأسطول يتم إلى حد كبير عن طريق الخطف، وإن جراية الجندى قليلة لا تكفيه للغاية، وأن الأطباء في السفن يختلسون الدواء، ومرتبات العاملين والمتقاعدين لم تكف لإعالة أسرهم التــي نــادراً مــا يرونها، وبالرغم من أن حركة التمرد قمعت بأشد درجات القســوة، إلا أنهــا أثــارت الــرأى العام بدرجة تكفى لممارسة الضغط على البرلمان وعلى قيادة الأسطول لمنحهم المزيد من التنازلات (وبالمصادفة فإن ذلك أقنع عدداً قليلاً جداً من الأجانب المقيمين الذين عاصروا هذه الأحداث في القارة، بأن الثورة الإنجليزية على وشك الحدوث).

ووســط هذا كله، أنذرت صحف لندن أن الاستعدادات الفرنسية في موانئها على القنال قد وصلت إلى درجة عالية من الاستعداد والتأهب، كما أن عميلاً ســرياً شــاهد الجنرال بونابرت على الطريق بين فورنس Furnes ودنكرك، وأبلــغ آخــر عــن بناء قوارب واسعة الحجم في برست Brest ومن ثم فإن الحملة لم تكن مستبعدة تماماً، وبعدها بقليل انهالت التقارير بأن فرنسا تخطط



جاســبرد مونج من أشهر علماء الرياضيات والهندسة
كان أيضاً من المصاحبين لنابليون فى حملته على مصر

لعملية في الجنوب على نطاق واسع . كما أن أحد ضباط الأسطول البريطاني الذي انتهت به مغامراته الطائشة أن يصبح سجين حرب في باريس، نجح في توصـــيل رسالة تفيد بأن حكومة الإدارة قد وضعت عيونها على مصر وعلى تجـــارة بريطانـــيا فـــي البحر المتوسط، وبعد أسابيع قليلة تمكن السير سيدنى ســـميث Sidney Smith من الهروب من سجن لوتمبل Le Temple، ودعاه اللـــورد جلانفـــيل Lord Glanville لتناول الإفطار، ثم اصطحبه إلى القصر الملكـــى حيث أخبر الملك أن بطانة بونابرت قد شملت علماء في الرياضيات ومؤرخيـــن وجيولوجييـــن يستطيعون كتابة التقارير عن الآثار وعن تطوير المصـــادر الطبيعية لمصر . كل ذلك بدا بعيد التصديق، وعلى أى حال فقد قـــرر "بـــت" Pitt رئيس الوزراء أن الوقت قد حان للتفكير في شئون البحر المتوســـط، وفى الثانى من شهر مايو أصدرت قيادة الأسطول التعليمات إلى اللورد سان فنسنت Lord St. Vincent المرابط في قاعدة قـــادش Codiz بأن يبعـــث بمجموعـــة من السفن تحت قيادة السير هوارشيو نيلسون Horatio Nelson الذي كان قد وصل لتوه من إنجلترا وهو يقود سفينة القيادة لصاحب الجلالـــة Vanguard. وفـــى الوقت الذي وصلت فيه الرسالة إلى اللورد سان فنسنت في ٢٤ مايو، كان نيلسون قد سبقه في طريقه إلى طولون، وكان واقعاً في مأزق .

فقـــبل ذلك بأربعة أيام فقط، بينما كان الأدميرال يقطع كبينته جيئة وذهاباً، غمره فجأة إحساس بابتهاج يفوق الوصف، فالبرغم من أنه كان قد فقد ذراعه الأيمن، إلا أنه أعيد ليتولى قيادة كتيبة طائرة تحمل تعليمات سرية بخصوص الـــتعامل مع الفرنسيين . وبعد مغيب شمس يوم رائع، بدأ الجو يتقلب، وعند منتصـــف اللـــيل بيـــنما كانت سفينة القيادة فانجارد تستعد لمواجهة عاصفة، وجدت نفسها في خطر داهم، فقد مال قلعها الرئيسى على جانبه، تلاه الشراع الـــذي يعلـــو المؤخرة، واستمرت العاصفة لمدة ثمان وأربعين ساعة، كادت خلالهـــا سفينة القيادة فانجارد أن تصبح حطاماً . ولولا الحظ الحسن ومهارة بحارتهـــا مـــا أمكن سحبها بسلام إلى خليج أوريستانو Oristanoفي سردينيا، وهناك تم إصلاح العطب بمجهود جبار خلال أربعة أيام فقط .

وكما حدث، كانت هذه الأيام حرجة، فقد أبلغ تاجر أن بونابرت في صحبة ثـلاث عشـرة ناقلة للجنود وأربعمائة سفينة تموين، قد أقلعوا من تولون في الـيوم الذي سبق على هبوب العاصفة . لقد انطلق الطائر، والأدهى من ذلك أنـه لم يكن لدى نيلسون أدنى فكرة إلى أين يتجه هذا الفرنسى، وزاد الطين بلة، أنه اضطر إلى التوقف بسبب عدم هبوب الرياح .

ونسـتطيع أن ندرك مدى الإحباط الذي عاناه طوال الشهرين التاليين من خـلال قراءتـنا لما جاء في يومياته، إذ كتب وهو يتذمر: " حتى الشيطان له نصـيبه مـن الحظ السعيد Even the devil has the devil s own luck، وبكل تأكيد لم يكن الحظ إلى جانبه في لعبة الاستغماية الدائرة حول البحر المتوسط، إذ لـم يكن لديه سوى فرقاطتان تأتيان إليه بالمعلومات، كما أنه أخفق بالكاد فـي اللحـاق بالقافلة البحرية الفرنسية. ففي ليلة ٢٢ يونيو وسط طقس ساده الضباب بالقرب من صقلية مر على مسافة قريبة جداً من الأرمادا (الفرنسى) الـذي كان يسير ببطئ شديد حتى أن الادميرال دى بروى Breuys كان في إمكانـه أن يسـمع طلقـات إشارة السفن البريطانية . وفي ذلك اليوم علم أن الفرنسـيين قد استولوا على مالطة، ثم أبحروا بعدها شرقاً وذلك قبل أسبوع، ومن ثم انطلق نيلسون بكل سرعة قاصداً الإسكندرية، لأنه خطر له فجأة أنها سـوف تكـون هـدف نابليون . وما أن وصل إليها في ٢٨ يونيو إلا أنه لم يرصـد شـيئاً فـيها، فقد كان ميناؤها الشرقى خالياً من السفن إلا من سفينة حربـية تركـية واحدة وأربع فرقاطات، أما الميناء الغربى أو «الأفرنجى» فلـم يكن فيه سوى خمسين مركباً تجارياً من جنسيات مختلفة، ومن ثم إعتقد أن الفرنسـيين يوجهون شرورهم نحو مكان آخر، ولكنه في اليوم التالى بينما كـان حـراس الميناء يستطلعون بالمنظار فنار جزيرة فاروس بالإسكندرية شـاهدوا بالكاد أشرعة قافلة نيلسون البحرية وهى تختفى وراء الأفق الشمالى الشـرقى في اتجاه آسيا الصغرى، عندئذ بدأ أسطول فرنسى هائل في الظهور والاقـتراب مـن ناحية الشمال الغربى . وبينما كان نيلسون يوزع سفنه على طول ساحل آسيا من حلب حتى خليج إيطاليا، ثم مرة أخرى عبر كريت حتى سـيراكوزه (صـقلية)، كان نابليون قد وصل إلى سواحل الدلتا بسهولة كما

فعـــل الإســـكندر وقيصر في أيامهم . ولم يتبين لنيلسون أن ما خمنه في أول الأمـــر كان صحيحاً إلا عندما جاء يوم ٢٣ يوليو، ولم يكن خطؤه أنه وصل مـــتأخراً قلـــيلاً، ولكن لأنه وصل مبكراً قليلاً . ففي ذلك الوقت كان نابليون يستعد لدخول القاهرة الكبرى كقاهر، ومن هنا يبدأ تاريخ مصر الحديث.

الفصل الأول

تقلبات مفاجئة

كتب الشيخ عبد الرحمن الجبرتى فى حولياته: " سنة ثلاث عشرة ومائتين وألــف (من السنة الهجرية التي بدأت فى ١٥ يونيو عام ١٧٩٨م)، هى أول ســني الملاحــم العظــيمة، والحــوادث الجسيمة، والوقائع النازلة، والنوازل الهائلــة، وتضــاعف الشــرور، وتــرادف الأمور، وتوالى المحن، واختلال الزمــن، وانعكــاس المطبوع، وانقلاب الموضوع، وتتابع الأهوال، واختلاف الأحــوال، وفساد التدبير، وحصول التدمير، وعموم الخراب، وتواتر الأسباب (وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون).

كــان للفزع الذى انتاب الشيخ ما يبرره، فقد أحدث نابليون تأثيراً مزعجاً، لكــن يجــب أن نضع فى الحسبان أن العنف والتقلبات المفاجئة لم تكن شيئاً جديــداً علــى مصر، فعلى امتداد القرن سارت الحياة فى مواجهة خلفية من الــتحزبات وأعمال الثأر، والحروب. فقد ظل وادى النيل تدوسه أقدام الغزاة لمــا يقرب من ٢٥٠٠ سنة، وكان الفراعنة فى الحقيقة آخر المصريين الذين حكموا بلادهم. فبعد أن أزاح قمبيز الفارسي الأسرة الصاوية تماماً عام ٥٢٥ ق. م. شــهدت مصــر مــراحل متتالــية لحضــارة اليونان الراقية، وعنف العســكرية الرومانــية، وتطــرف المسيحيين الأولين، وظل الفلاح هو الفرد الوحــيد الذى لم يتغير، ذلك الفلاح المصري الذى استمر يفلح الأرض، يشد الحزام على البطن ليقتصد حتى يفلت من المجاعات، وكان ضحية للاستغلال من كل من تصادف وملك زمام الحكم.

لابــد وأن يكــون الفلاح هو أقدم مخلوق فى الدنيا. فقد شاهد كل شيء. فخلال العصور الوسطى شاهد بلاده، وقد استقل بها حكام مسلمون. ففى عام ٦٤١م حــل العرب محل المسيحيين (البيزنطيين)، وأصبح الخلفاء سواء من دمشــق أو بغداد سادة مصر. وفى القرن العاشر (الميلادى) تعرض هذا البلد لغزو جديد لكن فى هذه المرة من قبل الشيعة حكام تونس[1]. ومن أشهر من

خلف هؤلاء المغامرين الذين جاءوا من شمال أفريقيا واجتاحوا الشام وصقلية ودخلوا فى صراع لم يتوقف ضد الصليبيين هو ذلك القائد الأسطورى صلاح الدين (الذى عرف عند الصليبيين الذين انتزع منهم بيت المقدس باسم سلادن Saladin). وإلـــى جانـــب تشييده قلعة القاهرة التي أصبحت لستة قرون تالية. مركـــز أعصاب مصر. ترك صلاح الدين أثراً فى مجال آخر ظل باقياً عبر القـــرون، إذ أنـــه جـــرياً على عادة الخلفاء فى بغداد، راح يفتش فى أسواق الرقـــيق فـــى آســـيا الصغرى، بحثاً عن فتيان النصارى ليشد من أزر قواته الكردية (إذا لم يكن من الصعب العثور على القوى البشرية، ففى ذلك الوقت كانـــت أسواق القسطنطينية تموج بأبناء اللاجئين الفارين من التتار). وبسرعة مذهلـــة تمكـــن من أن يجعل منهم قوة مقاتلة، ذات كفاءة عالية. استطاع بها اجتـــياج الشام، ونجح أخيراً فى طرد الصليبيين من الأرض المقدسة. ولوقت طويل لم يكن هناك مثيل فى التاريخ لنظام المماليك الحربى القائم على تجنيد الرقـــيق. والـــذى لـــم يوجد إلا تحت راية الإسلام فقط، ثم تحول إلى طبقة اجتماعـــية كاملة، لها قوانينها الخاصة وتقاليدها المتبعة، والتى أسقطت أسرة صـــلاح الدين ذاتها، بل أنها ظلت تحكم مصر لستة قرون بكل مظاهر الأبهة والفساد.

إن مصـــطلح " مملوك " يحمل سراً غامضاً يثير الفضول، فالبرغم من أن معـــنى المصطلح فى اللغة العربية، يعنى " الرقيق " المملوك أو العبد، وعلى الأخص العبد الذكر، ذى البشرة البيضاء، الذى يشترى لكى يصبح مجنداً فى الجـــيش. وكانـــت القـــاعدة الأساسية لنظام المماليك هو الولاء المطلق، ليس للجيش ذاته أو بمعنى آخر للتاج، و لكن لسيد معين الذى تم عن طريقه شراء المجند أو الذى على يديه قد يتم عتقه فى ظروف مناسبة.

ومـــا أن تقـــوم أســـرته ببيعه، أو فى حالات أكثر احتمالاً أن يقوم نخاس بخطفـــه من قريته فى إقليم القوقاز، حتى يجد الصبى نفسه مشحوناً فى سفينة مـــع آخرين مثله، تتجه بهم إلى القاهرة، حيث يعرض للبيع عارياً فى أسواق الرقـــيق، ويظل ينتظر حتى يشتريه أحد بكوات المماليك، وهنا تنقطع الصلة النهائـــية بينه وبين أسرته ووطنه بعد أن يفقد هويته بل حتى عقيدته الدينية،

ويصبح عضوا فى طبقة عسكرية، ذات قوانين صارمة، وتقاليد رهيبة.

وبالرغم من أنه كان يعيش داخل ردهات قصر البك، إلا أنه قد يجد نفسه يوماً ما ابناً متبنى داخل أسرة سيده الكبيرة، شديد الولاء لمولاه "البك" ولرفاقه من المماليك، ويبدأ تدريبه لكى يصبح عضوا فى طبقة خاصة من الإخوان، تحتقر الفلاح وغير العسكريين على السواء، بل تنظر إلى الزواج وحياة الأسرة كشئ قد يقضى على مهنته كرجل حرب.

وإذا جانبه الحظ فى سوق الرقيق، فقد يشتريه السلطان نفسه، أو واحد من بكوات المماليك، ذوى النفوذ، بعدها يرسل الفتى المملوك إلى مدرسة عسكرية حيث يتعلم أصول القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، وتصقل موهبته فى فنون الكر والفر، وكان محظوراً عليه بتاتاً الاتصال بالعالم خارج المدرسة. التى كان يطبق فيها النظام الصارم عن طريق نظام ولاية الأقدم فى الخدمة على الأحدث فيها، فقد كان المماليك الأقدم فى الخدمة يسمون " الأغوات[٢] ويتولون أمور باقى المجندين، وخلال مدة الدراسة فى المدرسة لم يكن المملوك يتلقى أى راتب، ولم يكن له أى حقوق، ولكن ما أن يتخرج منها حتى يمنح بشكل رسمى حق الحرية والعتق.

وإذا ما نظرنا من هذه الزاوية فإن نظام الرقيق كان نظاماً قديماً كوسيلة مناسبة للتجنيد فى المهن والحرف المتعلقة بالحرب وبالصناعات الأرستقراطية الراقية. ولا ننسى أنه لم يكن ينظر إلى الرقيق نظرة العار فى بلدان الشرق، إذ أن العبد لم يزد عن كونه مستخدم مأجور. وبالطبع لم تؤت الفرصة لأغلب المماليك لكى يعتقوا، فقد قضي كثير منهم حياته كلها فى العبودية، تلك المرحلة التى مروا بها جميعاً بدءاً من السلطان والبكوات ووجهاء الدولة، بل أكثر من ذلك أنهم كانوا فخورين بها. فبعد عشرين عاماً من شرائه وهو طفل من قرية ما فى أرمينيا بما يساوى مائة دولار، أصبح برقوق سلطاناً علي مصر، وبعد عشرين عاماً من شراء برقوق له، أصبح المؤيد بدوره سلطاناً على مصر[٣]، وكما لاحظ أرنولد توينبى: "ما أن وطأت قدما هذا العبد الشركسى أرض مصر حتى رأى أن المستقبل مفتوح

أمامـــــه... وأدرك أن القـــــــدر قد يشـــاء له أن يصبح سلطاناً" ثم أضاف ساخراً "ورغم أنه أصبح سيدًا إلا أنه كانت تتملكه روح العبد ".

كان الفتى المملوك يدرك بكل ثقة أنه لن يمر وقت طويل حتى تكون المناصـــب العليا متاحة أمام مواهبه وقدراته، فقد يحتضنه البك لو كان ماهراً فـــي فن الفروسية والمبارزة والسيف أو رمي السهام، أو ربما بسبب وسامته وجمـــال تقاطـــيع وجهــــه، وقد ينقل إلى بطانته الخاصة حيث يصـــــبح "حـــامل المحـــبرة" أو حامل " الغليون" وفي الوقت المناسب وبضربة حظ قد يـــرقى إلى درجة أمير " العشرة " وهي أولى درجات سلم الوظائف القيادية، ومعهـــا يبدأ اشتراكه الطائش في مؤامرات القصر. وكان الترقي يعني الثراء وإمكانـــية الصعود إلى زمرة الطبقة المتحكمة في البلاد، وتأسيس بيت حاكم خاص به.

كـــان السلطان – أقوى البكوات الذين نجحوا في انتزاع العرش(٤) – يحكم من القلعة، وكان له قواده، ولقواده نقباؤهم، وللنقباء ضباط برتبه ملازم، لكل واحــــد من هذه الرتب سرايا من القوات يأتمرون بأمر رئيسهم الذي اشتراه وحرره، والذي يدين له وحده بالولاء والطاعة، ولقد كانت هذه القوة المنظمة الـــتي تقـــوم على العنف والقسوة والدسائس، هي السبيل الوحيد الذي يضمن السلامة للعرش، فقـــد كان العرش على الدوام مهدداً من قبل البكوات الأكثر نفـــوذاً. وبالـــرغم مـــن أن الابن، بل حتى الحفيد قد يرث في بعض الأحيان العـــرش، غير أنه قلما نجد أسرة حاكمة تستمر في البقاء بعد الجيل الثاني أو الثالـــث قـــبل أن يسقطها مغتصب جديد. والإحصائيات تتحدث عن نفسها في ذلـــك، فمـــن بيـــن المائتين والخمسين سلطاناً الذين حكموا مصر خلال فترة مقدارهـــا ثلاثمائـــة ســـنة مات منهم أربع وعشرون ميته طبيعية، ففي خلال الحفلات المجنونة في القلعة كان الخنجر وكأس السم دائماً جاهزين، ولذلك لم يكـــن غريباً أن تكون القاهرة في العصور الوسطى مسرحاً لروايات ألف ليلة وليلة.

فعـــن طـــريق القسوة والانتقام والتسلط، حكم سلاطين المماليك وقوادهم.

فقايتــباى – الــذى كان من المفروض أن يكون حاكماً مستتيراً – وكانت له قلعــته التى تواجه ميناء الإسكندرية فى المكان الأثرى لجزيرة فاروس، كان فى استطاعته بشخصه أن يجلد بالسياط رئيس مجلس الدولة وغيره من كبار الموظفين الآخرين ليحثهم للحصول على مزيد من الأموال للخزانة، وقد قيل أن أحد سلاطين المماليك قتل جواده بضربة واحدة من قبضته، لكن فى أغلب الأحيان كان السلطان يجد متعة فى قتل النـــاس، فقد كان يأمر بقتل العشرات مـــن البشـــر بل أنه فى بعض الأحيان كان يمسك بيديه سيف الجلاد العملاق المقـــوس وحيد الحد ليقوم بنفسه بقطع رأس متمرد، أما لو كان فى قلبه قليل مـــن الشفقة فقد كان يكتفى بقطع يده أو ساقه أو يأمر بتركيب حدوة فى بطن قدمــــه مـــثل الفـــرس تماماً. وفى حالات أخرى قد ينهال بالهدايا على حاكم صديق أو صديق مفضل استولى على خيوله. أن الحالة التى عاشها المماليك كانـــت مذهلة: فمئات من رجال البلاط كانوا يحيطون بالسلطان، ولكل واحد مـــن هؤلاء كان له أتباعه.(أظهرت وثائق السلطان بيبرس أن عشرين ألـــف رطـــل مـــن الطعام كانت تعد يومياً لاستهلاك القصر، وأن التكاليف اليومية لشـــراء اللحوم والخضروات فى عهد السلطان الناصر بلغت ما يوازى عشرة آلاف دولار) لقـــد كـــان ثراؤهم عارماً مثل ثراء البندقية التى ارتبطوا معها معـــاهدات تجاريـــة، وكـــان مصدره تجارة الهند فى شرق البحر المتوسط، فلكونهـــم ســـادة على مصر والشام، كان المماليك يفرضون مكوساً وجمارك علـــى كـــل بالـــة من المنتجات الشرقية التى كانت تصل من الخليج الفارسى والـــبحر الأحمـــر عـــند مرورها فى طريقها إلى البندقية. ففى خلال القرون الســـت التى كانت فيها أوربا تشهد زلزلاً عجل بنهاية العصور الوسطى مثل حـــركة عصـــر النهضة والأحياءRe - naissance ، وحركة الإصلاح الدينى، والحـــروب الأهلـــية، وصـــراع القومـــيات وموازيـــن القـــوى، كانت هذه الأوليجارخـــية العســـكرية تفعل ما يحلو لها فى ذلك الركن البعيد من البحر المتوســـط. ولقد كتب ستانلى لين بول Stanley Lane - Poole يقول: « ينفرد المماليـــيك بأنهم نموذج مناقض تماماً لأى سلسلة من الأمراء فى العالم، إنهم عصـــابة مـــن المغامرين الذين لا يلتزمون بالقانون، إنهم رقيق فى الأصول، جـــزارون فـــى الســـلوك، متمردون، عطاشى لسفك الدماء، وكثيراً ما كانوا يلجـــأون إلـــى سلاح الخيانة، وبالرغم من ذلك كان هؤلاء السلاطين الرقيق

ذواقيــن للفنون. وهذا مسلك قد يوصف بأنه حميد يصدر من أى حاكم شديد التحضــر قد يتصادف جلوسه على العرش بطريقة دستورية. فقد أظهروا فى منشــآتهم وزخافها، وفى ثيابهم وأثاث بيوتهم ذوقاً رفيعاً وصفاء من الصعب أن يوجــــد له مثيل فى دول غرب أوربا، إنها إحدى الحقائق التى ينفرد بها تــاريخ الشــرق، فابــن طولون التترى هو الذى وضع أول نموذج للمسجد الإسلامى الحقيقى فى القاهرة. إنهم سلسلة سلاطين المماليك كلهم أتراك أو شراكســة، الذيــن ملــئوا القاهرة بأكثر الآثار رونقاً وجمالاً يفوق أى مدينة أخرى.

وبالــرغم من كل هذا الترف، فنادراً ما كان لديهم الوقت للتفكير العاطفى فــى الأسرة والبيت والوطن، فعلى طريقة الشرقيين، جعلوا المرأة فى وضع أدنى من الرجل فى سلم الطبيعة، فقد كانوا يميلون إلى معاملتهم كخليلات فى بــيوتهم، مهمتهم مخصصة لوسائل المتعة ولا شيء غير ذلك. فقد كان جناح الحريم مليئاً بالمحظيات من المصريات، والنوبيــات، والحبشيات، ولو عقدوا قرانــهم بالزواج. فإن ذلك يكون على نساء من بنى جلدتهم أى جورجيات أو شركســيات. ونــادراً مــا كانوا ينجبون منهم أبناء (فكثيراً ما كانت زوجات المماليك يلجأن إلى إجهاض أنفسهم للحفاظ على مظهرهن وسيطرتهن على أزواجهــن(٥)، وذلك لأنهن وجدن أنفسهن فى منافسة دائمة مع فتيات الرقيق الجمــيلات) وأيضــاً كانــت الحياة غير مستقرة لهم فى مصر فى العصور الوسطى، فقد كانت جيوش المماليك فى تحرك دائم مما جعل الصورة العامة تبدو مكرسة للرجال ولطبقة اجتماعية معينة، وبالرغم من أنهم حكموا مصر لزمــن طويــل إلا أن المماليك لم ينتموا إلى أمه بعينها. إذ ظلوا على الدوام جيشــاً مــتحفزاً للقتال، جنوده أجانب لا يربط بينهم وبين المصريين – أهل الــبلاد الأصليين – الذين كانوا فى الواقع هم الرقيق – أى رابطة أو مصالح مشتركة. وكما عبر عن ذلك ستانلى لين بول يقول: «أنهم قطيع من الذئاب الأجنبية تتحكم فى ملايين الأغنام وهم فى أمان كامل».

لقد كان اكتشاف فاسكو دا جاما Vasco da Gama لطريق الأطلنطى عبر رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨ ضربة قاصمة لقوتهم التى تفككت بعد سبع

عشر عاماً عندما طارد السلطان العثمانى جيشاً مملوكياً وطرده من الشام، ثم ألحق بهم هزيمة ساحقة بالقرب من القاهرة، ومنذ ذلك الوقت فصاعدا وحتى عام ١٩١٤ كانت مصر رسمياً جزءاً من إمبراطورية الأتراك.

وعلــى طول إمبراطوريتهم وعرضها والتى وصلت فى اتساعها إلى نفس القــدر الــذى وصــلت إليه الإمبراطورية الرومانية الشرقية يوماً ما، لم يزد اهتمام الأتراك بأى ولاية أكثر من اهتمام مستثمر فى مصنع اشترى أسهمه، ولم يكن لديه الوقت الكافى لزيارته، إذ كان الاهتمام الأوحد للباب العالى هو المقــدار الدائــم لأمــوال الضرائب. وبالرغم من أن إدارة مصر كانت من الناحية الأسمية فى يد الباشا التى ترسله القسطنطينية، وأن كل شىء كان يتم التصــرف فيه باسم السلطان إلا أن المماليك (الذين كانوا من الناحية النظرية يعــترفون اسميًا بعميق الإجلال والتبجيل لصاحب الجلالة السلطان) استمروا يحيون حياة البذخ على حساب باقى السكان، وظلوا على حالهم يتآمرون فيما بيــنهم فى صراع من أجل التفوق على بعضهم البعض من آن لآخر. وبدأت قــوة الباب العالى تنهار وتتضاءل، كلما أصبح مركز الباشا يزداد حرجاً، فقد ترك هذا الممثل للسلطة الهائلة بالرغم من أنها خاملة - معزولاً، فقد كتب عليه أن يترك ليغلى فى مرجل دسائس القلعة الذى أوشك على الانفجار.

وعــندما بدأ كل من كلايف Clive و وارن هيستنجز Warren Hastings فــى اســتعمار الهندوســتان عام ١٧٦٩، وكانت تركيا غارقة فى حربها مع روسيا، وجد البكوات فرصة سانحة، فقاموا بذبح الحامية التركية فى القاهرة، وأرســلوا الباشــا مشحوناً كطرد. ولوهلة قصيرة من التاريخ وبتحريض من جمهوريــة البندقية وروسيا، استعاد المماليك بعض مجدهم المنقضى فاجتاح كبــيرهم علــى بــك(*) الشام وبلاد العرب حتى وصل إلى مكة وهناك بويع خلــيفة للمســلمين، غير أن ذلك لم يدم طويلاً، وبعد أن دفعت رشوة مناسبة تنفســت بعدهــا القسطنطينية الصعداء عندما علمت أن خنجراً فى ظهره قد

(*) كان على بك الكبير يشغل منصب شيخ البلد (المترجم).

وضــع نهاية لطموحاته المزعجة. لقد كان ذلك أشبه بالمأساة. فقد كان على بــك الكبير يمثل الحاكم المستنير الذى فعل الكثير ليقضى على الفساد وليجعل حياة الفلاحين أكثر يسراً. وقد حل محله اثنان من شباب البكوات هما إبراهيم بك ومراد بك اللذان اقتسما الحكم بينهما تحت السلطة الاسمية للباشا التركى. غــير أنهما كادا يدمران البلاد لأن جشعهما للمال لم يكن له حد، وفى خضم مطالــبهم القاســية توالــى خذلان النيل وقت الفيضان، فاندلعت الأوبئة التى أهلكت القسم الأعظم من السكان.

وعــندما وصل نابليون إلى مصر، لم يجد فيها سوى قشور حضارة، وبلداً مــرهقاً يرســف فى أغلال الأسر، ولكنه أيضاً وجد أن المصريين عبر هذه القــرون من الكوارث قد تعلموا أن يكونوا أصحاب وجهة نظر تواكلية إزاء الحــياة، وتعايشــوا بطــريقة ما مع سادتهم المبهرجين كغيرهم من الشعوب المقهــورة، وأصــبحوا منطويــن على أنفسهم يرفضون التجديد بشكل يثير الغرابة، فهم يعيشون فى حالة من القناعة السلبية التى كانوا غير راغبين فى المجازفــة بهــا. لقد كان وصول الفرنسيين يبشر بجلب رعب جديد لحياتهم المستكينة أساساً. وبينما كان يتصور أنهم سوف يستقبلونه بالعرفان كمخلص لهم - قام نابليون بأول - وليس آخر - أخطائه الجسيمة فى مصر.

الفصل الثانى

معركة الأهرامات

فجأة سمع كل واحد فى القاهرة الأنباء: فى مقاهى خان الخليلى وفى الحى الأفـــرنجى، ومـــن وراء مشربيات الحريم، وفى مجلس أهل الرأى فى القلعة حيـــث هـــرول إلـــيها السعاة من الإسكندرية وهم يلهثون، فقبل يومين سرت شـــائعة بـــأن ثـــلاث عشـــرة ســـفينة حربية قد ألقت مراسيها قبالة شاطئ الإســـكندرية، تلاهـــا بعـــد ذلك، بوقت خمس عشرة أخرى. وأن زمرة من الضباط نزلوا إلى اليابسة فى قارب تجديف، وأنهم أخبروا الحاكم السيد محمد كـــريم بأنهم إنجليز جاءوا يتتبعون أسطولاً فرنسياً كبيراً انطلق إلى جهة غير معلومة. وأن الإنجليز يعتقدون أن الفرنسيين ينوون القيام بهجوم مباغت على مصـــر، لن تقدر الأهالى على صده، وعلى ذلك طلبوا أن يلقوا مراسيهم قبالة الإســـكندرية فى انتظار الأسطول الفرنسى، وأنهم يرغبون أثناء الانتظار فى شراء المؤن والماء العذب.

غـــير أن حاكم المدينة منحهم مهلة قصيرة، إذ لم تفت عليه أن فكرة قيام الفرنســـيين بغـــزو مصـــر أمر يقلق الإنجليز، ورجح أن الإنجليز هم الذين يـــريدون الاستيلاء على مصر، إذ قال لهم بلهجة حازمة: هذه بلاد السلطان وإذا رغبـــتم فـــى محاربة الفرنسيين فى إمكانكم أن تفعلوا ذلك خارج المياه المصرية فأمامكم البحر بكامله.

وخـــلال الضـــجة الـــتى أحدثهـــا ذلك الحادث، شعر الناس أن الحاكم قد تصرف بوقار. وبعد أيام قليلة، جاءت الأنباء بأن السفن الإنجليزية قد أقلعت بعـــيداً... وما كادت سيرة هذا الحدث تخبو، حتى فوجئ الناس بقعقه الحوافر المهرولة وقد عادت عبر بوابة النصر. وفى هذه المرة صدم سكان العاصمة عـــندما علمـــوا وهم يقضون الوقت فى احتساء القهوة، وتدخين النرجيلة أن أسطولاً عرمرمًا غطى البحر بلا نهاية قد ألقى مراسيه قبالة الإسكندرية.

ففـــى عصـــر الـــيوم الأول من شهر يوليو أذاع السعاة أن بعض الضباط الفرنســـيين قـــد رســـوا إلى البر، وتحدثوا مع قنصلهم، وفى مساء اليوم ذاته تحـــرك الأســـطول بأكمله متجهاً إلى خليج العجمى الذى يقع على بعد أميال قلـــيلة إلى الغرب، وفى فجر اليوم التالى، انتشر الفرنسيون خارج الإسكندرية "كالجراد".

ولـــم يكـــن قـــد مر وقت، حتى استطاع المصريون مواساة أنفسهم عندما علموا بأن رسو السفن لم يتم كما خطط له بونابرت. فخليج العجمى الذى هو الآن شـــاطئ راق لقضـــاء الصيف يزخر بصخور معروفة يغطيها الماء، وأخـــرى غير معروفة، وكما يحدث فى الصيف فإن هناك موج عال يتكسر علـــى الصخر ويضرب الشاطئ بعنف، غير أن نابليون أدرك ضرورة إخلاء الموقـــع قـــبل أن يعـــود نيلسون، وقبل أن يأخذ المصريون حذرهم، أعطى أوامـــره بالرســـو مهمـــا كـــان ثمن المغامرة. ولهذا فإن كثيراً من المراكب الصـــغيرة غمـــرتها المياه، وأجبرت سفن أخرى على التراجع وغرقت سفن أخـــرى. وعلى طول الليل، لم يتمكن سوى أقل من لواء بقليل، من الوصول إلـــى البر بسلام وقد أصاب دوار البحر الجميع تقريباً، وغرق ثلاثون فرداً، حـــتى نابلـــيون نفسه زحف وهو خائر القوى إلى الشاطئ بعد منتصف الليل بقليل وارتمى على الشاطئ يعتوره الإرهاق والانهيار.

وفـــى أثناء ذلك الوقت كانت أسواق القاهرة الكبرى تموج بالشائعات التى تروى تفاصيل كيف دعا السيد كريم جميع المسلمين الصالحين لطرد وتدمير الغـــزاة، وأنـــه رفض كل عروض التفاوض، وهاجم بكل ما لديه من أسلحة (التى للأسف لم تكن ندا لأسلحة الفرنسيين) وما أن دعى كاشف البحيرة على عجـــل، حتى جاء ومعه جنوده من البدو، غير أن كل ذلك لم يجد من الأمر شـــيئاً، فقـــد ولـــى البدو هاربين، وبسرعة تسلق الفرنسيون حصون المدينة المتداعية، وأجبر السيد كريم - تعيس الخط على الاستسلام.

لـــم يلاحظ أحد خلال الذعر الذى قوبلت به الأنباء أنه من بين الإصابات فـــى الجانـــب الفرنسى كان اثنان من كبار الجنرالات، وربما كانت حادثة أن

كليــبر قد تلقى ضربة فوق أم رأسه، وأن مينو سقط فاقد الوعى بسبب حجر ســقط عليه بينما كان يتسلق الأسوار، مادة رائعة لأصحاب النكات، غير أن الوقــت لم يكن وقت نكات، ففى مواجهة هذا الرعب المفاجئ، جمع كثير من ســكان القاهرة أمتعتهم وفروا هاربين إلى الصحارى، بينما صاح المتطرفون مطالبين بذبح النصارى، واندفع جمهور غريب شق طريقه إلى قصر إبراهيم بــك المطــل على النيل، حيث كان كبار القادة العسكريين والمشايخ يعقدون اجــتماعاً لمناقشة ذلك الحدث الطارئ. واستمر النقاش طوال الليل، فقد كان إبراهيم بك يميل لصالح خطة التفاوض مع الفرنسيين، بينما كان مراد يرفض أن يسمع ذلك مسترجعاً بكبرياء ذكرى انتصارات المسلمين فى الماضى على الصــليبيين، وكــان مــتحرقاً للقتال، وأنهى الاجتماع وهو يصيح قائلا: دع الكفار يأتون فسوف أدوسهم تحت سنابك خيولى.

ولكونــه جــاهلاً بــأى شيء يحدث خارج مصر، فقد كان مراد بك شديد الازدراء لكــل الأجانــب حــتى أنه كان يعتقد أنه سوف يشق الفرنسيين كما يقطــع البطيخ، وكان مقتنعاً أن الفرنسيين لن يجرءوا على الإقدام للنزول إلى الــبر، وأنهــم ســوف يحاربون من قوارب على صفحة النيل. ولكى يحبط أعمــالهم، فقد أمر بمد سلسلة ضخمة من الحديد يبلغ طولها ثلاثمائة قدم (أى واحد وتسعون متراً) عبر شاطئ النيل يحرسها قوارب مزودة بالمدافع، معلناً أن ذلــك يفوق طاقة الفرنجة للدخول فى معركة، وبعد أداء فروض الصلاة، انطلق مراد بك على رأس قواته يتحدى الغزاة.

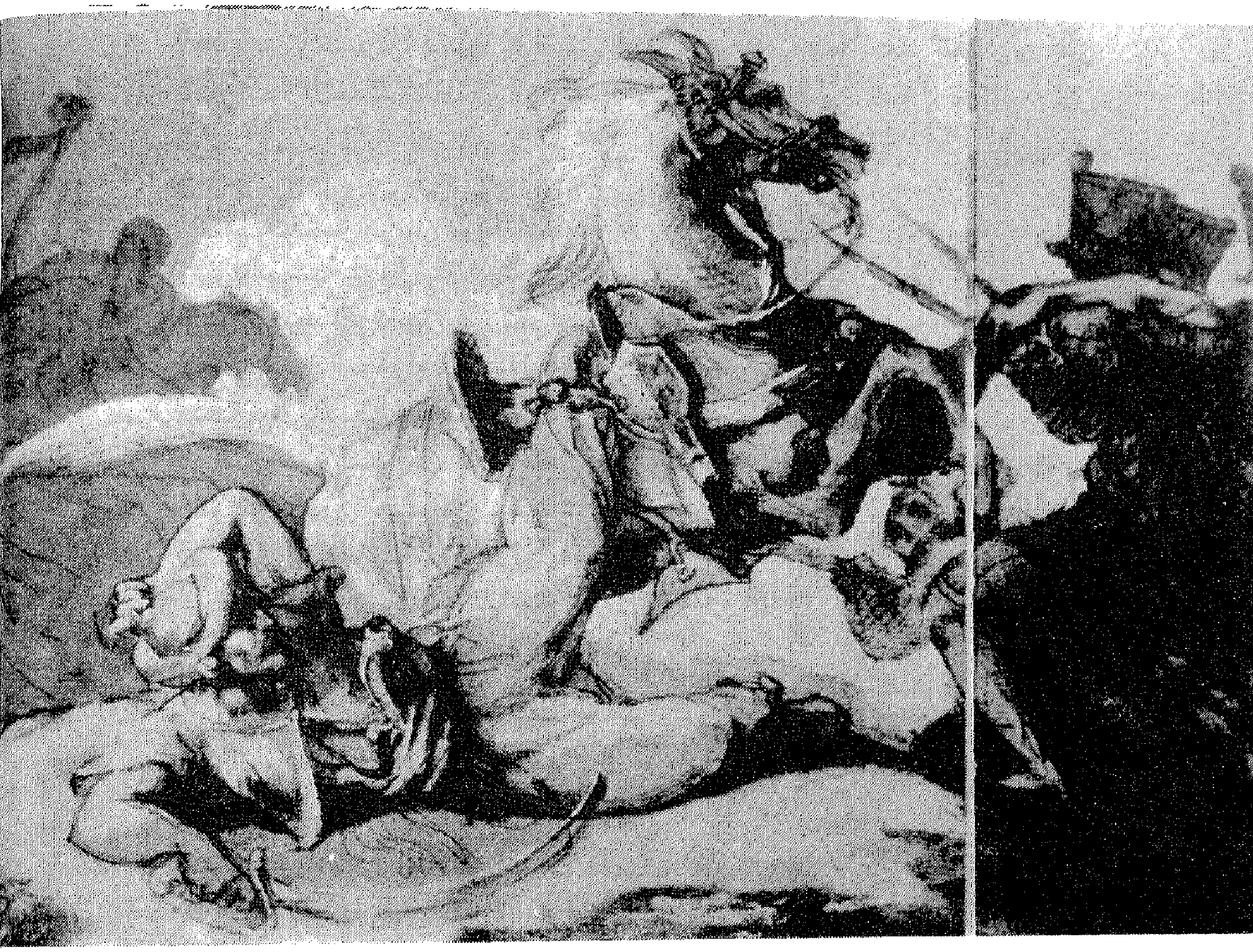
أما الذين بقوا فى الخلف فقد كانوا بعيدين كل البعد عن مشاركته هذه الثقة بالنفس، فقد كانت أعصاب الناس متوترة حتى أن السلطات أصدرت أمراً بأن تظــل المقاهى مفتوحة طوال الليل، وفيها كان السكان يهزون رءوسهم رفضاً حــول بيان الجنرال الذى كان قد هرب من الإسكندرية مع أمواج اللاجئين. وجــاء فــيه: يــا أيها المصريون قد قيل لكم أننى ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصــد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه، وقولو للمفتريين أننى ما قدمــت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين، وأننى أكثر من المماليك أعبد الله ســبحانه وتعــالى، واحــترم نبــيه، والقرآن العظيم، وقولوا لأمتكم أن

الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون، وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا فى رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائماً يحث النصارى على محاربة الإسلام. طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتفقون معنا لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا.. فلا يجدون بعد ذلك طريقاً إلى الخلاص ولا يبقى منهم أثراً(*).

وبالنسبة لرجل الشارع، كان الموقف محيراً، فقد كان أول هجوم مضاد شنوه ضد الفرنسيين فى شبراخيت المطلة على النيل - قرب دمنهور - بلا شك لصالح المماليك فى البداية ولكن عندما واجهوا تشكيلات فى وضع قتال مدججة بالبنادق ذات الحراب من الصلب (السونكى) التى تطلق وابلاً من الرصاص فى كل اتجاه فقد فرسان المماليك رباطة جأشهم، فبدوا كما لو كانوا يواجهون جيشاً من جنود ذوى قوة خارقة جاءوا من الفضاء الخارجى. فقد كان المماليك لا يزالون يعيشون فى أجواء العصور الوسطى، فالحرب فى مفهومهم هى هجوم مباغت شرس، ومبارزات بين الأفراد، ومن ذا الذى يجاريهم فى استخدام الخيل والسيف!.

ولذا كان هذا الأسلوب الجديد الذى تميز برباطة الجأش، والانضباط المحكم، أمراً غريباً عليهم. ومما زاد من ارتباكهم أن قارب مراد بك الخاص المزود بالمدافع شبت فيه النيران، فانفجر مخزن البارود محدثاً انفجاراً رهيباً، وتطايرت أشلاء كل من كان فى القارب لتسقط فى النيل، وولى مراد هارباً عائداً إلى القاهرة وهو يترنح بعد أن فقد اتزانه، وأصبح لا حول له ولا قوة. وعندما عاد أحد بكواته الذين كانوا لا يزالون يتمسكون بتقاليد الفروسية متحدياً فوق صهوة جواده قائداً الفليق الفرنسى ليدخل معه فى مبارزة فردية، غير أن قوات الجمهورية التى كان العطش والإرهاق قد حلا بهما، لم تكن فى مزاج يقبل مثل هذا المزاح، فبوابل سريع من الرصاص تحول ذلك الفتى الدمشقى إلى كومة من المخلفات الملطخة بالدم.

(*) عبد الرحمن الجبرتى، الجزء الثالث، ص: ٦. الناشر مطبعة الأنوار المحمدية بالقاهرة.



صورة لأحد فرســان المماليــك وقد تكوم على الأرض بفعل مدافع بونابرت وكأن الصورة رمز لانتهاء أسلوب حرب الفرســـان فى العصــور الوسطى وبداية الحرب الحديثة (الرســم بريشــة الرســام الفرنســـى جيركو Gericauit من اللوحات التى عرضت بعد عودة نابليون إلى فرنســا ليحــول هزيمتــه فى مصر إلى نصر)

وفـــى القاهرة تحول الذعر إلى رعب، فقد أجبر الناس على حمل السلاح، وعلـــى الفـــور شرعت مجموعة متحمسة فى حفر الخنادق، وإقامة المتاريس عـــند مداخـــل المدينة وراح الدراويش: يجوبون الحوارى الضيقة المتعرجة وهـــم يرفعون بيارقهم الملونة تصحبهم أنغام المزامير ودقات الطبول الغريبة الـــتى قد تنفر الأذن الأوروبية من سماعها إلا أنه كان لها سحر غريب على العـــربى مثل ما يحدثه نشيد المارسلييز Marseillaise(*) يملأ من يستمع إليها بالحماس الشديد للعمل والفداء. وعندما خرج السيد عمر – نقيب الأشراف – مـــن القلعة يحمل راية الإسلام، انضمت الآلالف من ذوى الملابس الرثة فى موكـــب لا نهايـــة لـــه، اخـــترق المدينة بينما كان الشيوخ يبثون الحمية فى نفوســـهم، يـــرددون بعض الأحاديث النبوية على أسماعهم يقرأونها من كتاب الـــبخارى المقدس. وفى الأسواق ارتفعت الأسعار إلى أرقام فلكية، ولم يكن لأحـــد ســـلاح ذو قيمة تذكر مثل تلك التى كانت تشترى بثمن باهظ، فقد كان علـــى غالبية الناس أن يسلحوا أنفسهم بقدر ما يستطيعون بالنبابيت والعصى والحجـــارة وأصـــبحت الطرق مجفرة من عدم الكنس والرش وسدتها أكوام القـــاذورات، وبدأ انتهاك الحرمات من كل الأنواع يحدث، وارتفعت صيحات مخيفة وسريعة تسمع: " الموت للنصارى " وانتهكت حرمات الكنائس ونهبت بـــيوت الأجانـــب، لولا تدخل إبراهيم بك بنفسه لدمر الحى الأفرنجى بأكمله، وبـــناء علـــى أوامـــره سيق المسيحيون فى حراسة مشددة إلى القلعة ليجدوا الأمـــان، بـــل نقل بعض منهم إلى قصره الخاص حيث راحت زوجته تسهر على راحتهم بلطف النبلاء حتى انجلى عنهم الخطر.

وســـاعة تلـــو ساعة كانت الشائعات المتضاربة تغمر الأسواق، وتزايدت الـــتوقعات عـــن قرب وصول: " الفرنسيس إلى مصر "، واختلف الناس فى الجهـــة الـــتى يـــنوون المجيء منها، فمنهم من يقول أنهم واصلون من البر الغربى، ومنهم من يقول بل يأتون من الشرقى، ومنهم من يقول بل يأتون من الجهتيـــن ولـــيس لأحـــد من أمراء العساكر همة أن يبعث جاسوساً أو طليعة

(*) النشيد الوطنى للثورة الفرنسية، ولا يزال حتى الآن النشيد الوطنى الفرنسى(المترجم).

تناوشـــهم فى القتال قبل دخولهم وقربـــهم ووصولهم إلى فناء مصر، بل قام كـــل مـــن إبراهـــيم بك ومراد بك بجمع عسكره، ومكث مكانه لا ينتقل عنه، ينـــتظر ما يفعل بـــهم، وليس ثمة قلعة ولا حصن، ولا معقل، وهذا من سوء التدبـــير وإهمـــال أمر العدو»(*). فقد سجل عبد الرحمن الجبرتى الذى أرخ لهـــذه الأحداث ملاحظة حزينة استهل بها كتابه، فبالرغم من التجربة العملية التى مروا بها فى شبراخيت، فقد ظل كل من مراد بك وإبراهيم بك ينظرون إلـــى العـــدو نظـــرة احتقار، كما أن الوسائل التى أمروا بها لتحصين المدينة كانت غير كافية.

حـــتى الفرنسيين لم يكونوا خاليين من مشاكلهم الخاصة، فبعد سنوات ثلث اســـترجع نابلـــيون وهو (سجين) فى سانت هيلانه ذاكرته التى كانت لا تزال حـــية عن مسيرته المحرقة عبر سهول البحيرة بقوله كان الاكتئاب والحزن يســـودان الجـــيش فقـــد أراد بهـــذه العـــبارة أن يصف معاناة رجاله خلال المصـــاعب المذهلة وهم يقتربون من القاهرة: ومثل العبرانيون وهم يتيهون فى البرية اشتكوا ثم سألوا موسى وهم غاضبون عن بصل مصر وترفها، فقد كـــان الجنود الفرنسيون يتحسرون دائماً على خيرات إيطاليا أنهم لن يكونوا بشرًا لو لم يفعلوا ذلك ففى صيف يوليو المحرق كانت هناك عواصف ترابية ودرجـــة الحـــرارة تقارب ١١٥ (درجة فهرنهيتية) وهم يسيرون مرهقين بلا نهايـــة علـــى طول قاع القنوات التى جفت منها المياه، وكادوا يسلقون أحياء وهـــم يرتدون بزاتهم العسكرية، ويحملون أسلحتهم الثقيلة، وقد جفت حلوقهم بفعـــل الحـــرارة والأتـــربة والذباب، ولم يكن لديهم نقطة ماء واحدة صالحة للشـــرب، ففـــى كـــل قرية يدخلوها كانوا يجدون الآبار وقد خربت، كما أن جرايـــتهم الـــتى كانـــت تتكون غالباً من البسكويت المملح جعلتهم أكثر ميلاً للعطـــش، أما الماء الذى بدا لأعينهم فقد كان السراب، ويلى ذلك خطورة أن البدو كانوا يغيرون عليهم من مسافات بعيدة طوال مسيرتهم إلى القاهرة، فقد كـــانوا يأســـرون أو يمثلون بأى جندى شارد أو تائه. وبالرغم من ذلك خلف

(*) عبد الرحمن الجبرتى – المصدر السابق – ص ٩.

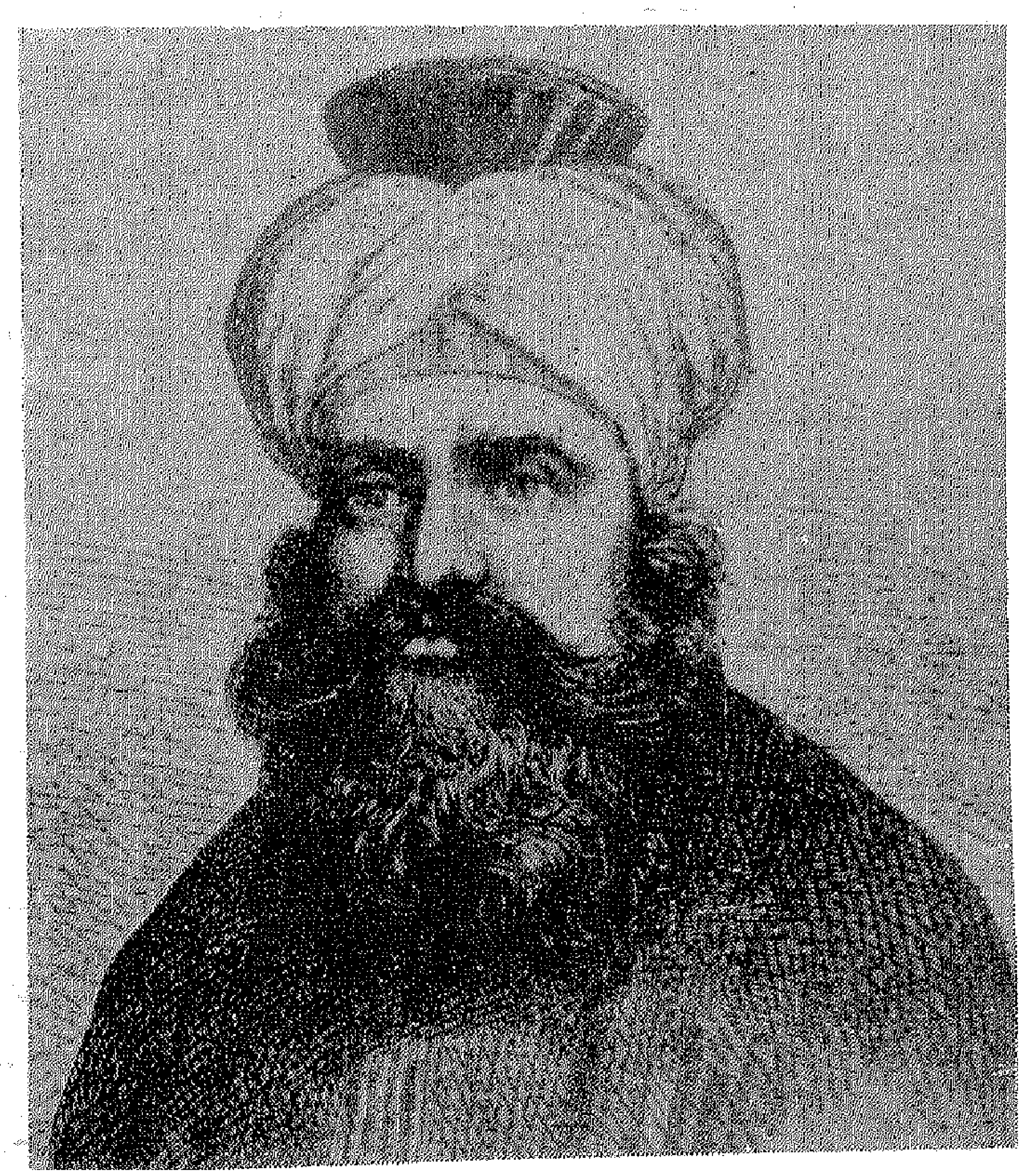
الفرنسيون وراءهم كثيرين سقطوا موتى بسبب شدة الحرارة. فقد ذكر الملازم نيكولاس دسفرنوا Nicolas Desvernois : لقد تركنا من خلفنا ذيلاً من الجثث ولولا محصول البطيخ فى الحقول لفقدنا عددًا أكبر من الرجال ».

وفجأة بعد مسيرة أسبوعين لاحت الأهرامات لا عينهم، ومعها وردت الأنباء أن المماليك تجمعوا فى حشود بجوار النيل، وكان أمراً بعيداً عن الحكمة أن يقسم البكوات قواتهم: فبينما ظل إبراهيم معسكراً على ضفة النيل الشرقية فى مواجهة القاهرة ليندفع من ذلك الاتجاه إذا ما جاء الفرنسيون، عبر مراد بك ومعه معظم قوات جيشه إلى الضفة الغربية. وكان واثقاً أن فرسانه سوف يفرمون الغزاة، ولو أنه أجبر الفرنسيين على أن يهاجموا عبر النهر لكان لذلك حكاية أخرى.

وكعادته لم يضيع نابليون الوقت، فانتهز الفرصة، ففى تقييمه الشخصى لمعركة الأهرامات كتب قائلاً: لما رأينا أن مدافعهم ليست منصوبة فوق عربات الميدان، وما أن اقتنعت أن مدفعيتهم ليست متحركة، وأنها ومشاتهم غير قادرين على مغادرة معسكرهم المخندق، كما أنهم لو كانوا قد اندفعوا فلن يجدوا الحماية من المدفعية... فقررنا أن نمد ميمنتنا ونسير فى ظلها بكل قوتنا وبذلك نمر بعيداً عن مرمى بنادقهم .

وعندما أدرك مراد ما يحدث، وهو أن الفرنسيين يحاولون الالتفاف حوله، ويحولون بين سلاح فرسانه وسلاح مشاته، أعطى أوامره بالهجوم وفى مشهد لا يمكن المقارنة بين أطرافه: كان آخر هجوم كبير لفرسان العصور الوسطى كما سماه المؤرخون. لقد كان منظراً يأخذ بالألباب، فمن جهة فيما وراء النيل بدت الحقول الخضراء المزروعة، ومن ورائها تلألأ طيف القاهرة الكبرى يعلوها القلعة، ومن جهة ثانية، وعلى بعد أميال قليلة لاح فى الأفق منظر الأهرامات بلونها الكلاسيكى المصبوغ بلون الشمس، وعند ما يعرف الآن بكورنيش النيل الواقع بين أمبابة وأهرامات الجيزة اندفع إلى الأمام فى جرأة مذهلة طابور يتكون من ستة آلاف فارس، ولكل فارس أتباعه الخصوصيون يلهثون من ورائه. وعندما كتب الملازم فرترى



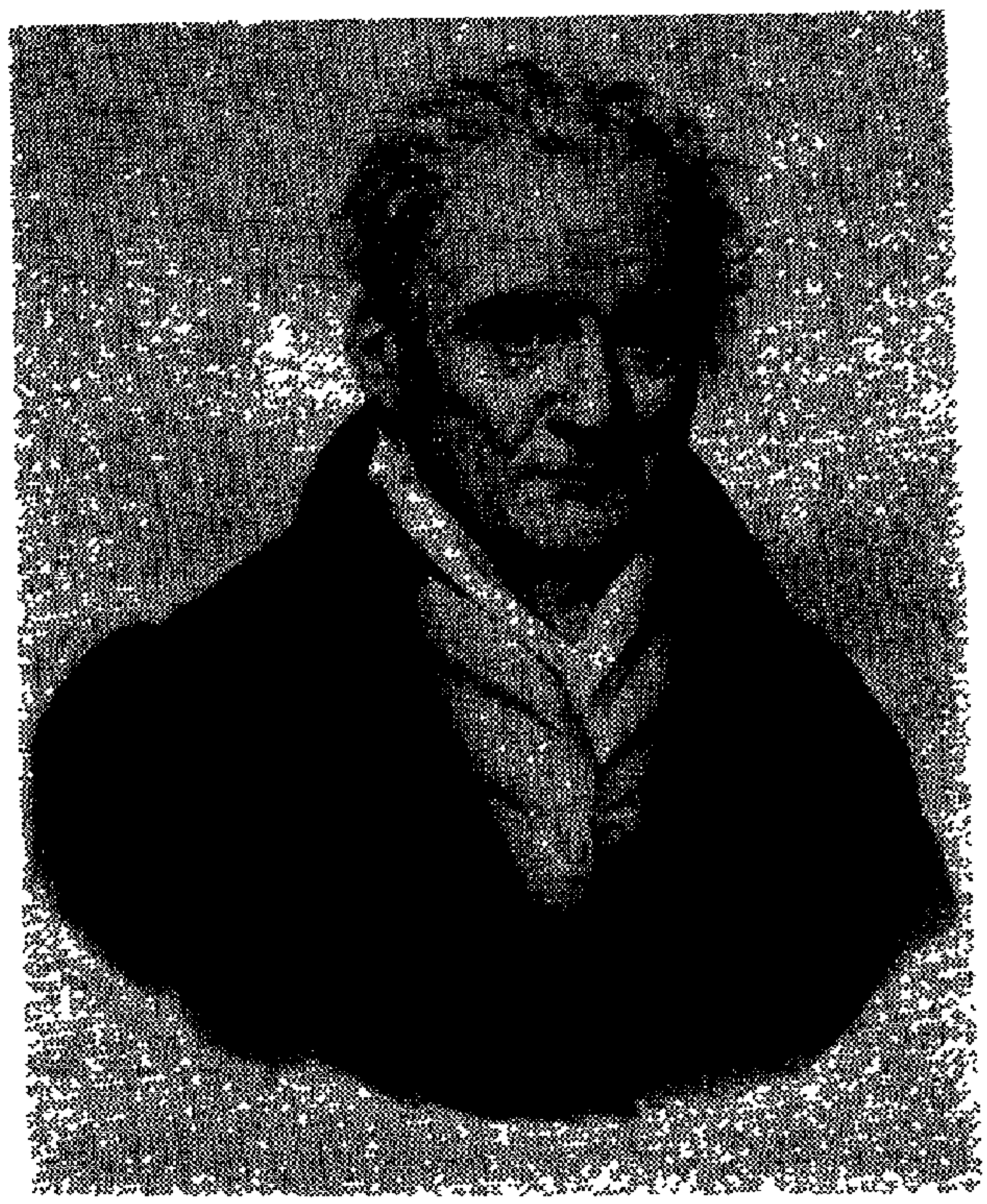


صور نادرة لمراد بك زعيم
المماليك الذى قاوم جيش
نابليون حتى النهاية

Vertrey الــذى كــان فى طليعة الفليق الفرنسى مصوراً لنا انطباعاً مشوشاً، لكــنه يــنطق بالحياة عن سحب التراب المتصاعد من قدح حوافر الخيل التى تــدوى كالــرعد وهى تعدو، وعن البيارق التى ترفرف فوق رءوس الخيل، وعلى ظهورها الفرسان بأرديتهم الفاخرة، وعمائمهم الخضراء الكبيرة، وقد أحــنو ظهورهم فوق السروج بينما أمسكوا فى أيديهم بسيوفهم المحدبة، ولم يكــن لــدى الفرنسيين الوقت الكافى لأخذ وضع الهجوم قبل أن تقبل جحافل الخــيل: «وفــى لحظــة اتخذنــا وضع القتال، عشرة رجال فى العمق لتلقى الضــربة الأولــى... وبــرباطة جــاش أطلــق جنودنا النار ولم تطش حتى رصاصة واحدة.

ففى تشكيل عسكرى منظم، أطلقت المشاة نيرانها، ثم أعادت حشو بنادقها ثــم أطلقــت النار مرة أخرى. وكانت النتيجة قاتلة. فأول موجة مهاجمة من المالــيك فنيت تقريباً عن آخرها، أما هؤلاء الذين داروا حول التشكيلات فقد وقعــوا فى مصيدة النيران التي انطلقت من كل موقع وجاءت من كل اتجاه، وكتــب فرترى Vertrey متذكراً: وكانت القذائف المشتعلة من بنادقنا تخترق فــى نفس الوقت مع الرصاص الذى نطلقه بزاتهم العسكرية الرسمية الثمينة المطــرزة بخــيوط الذهب والفضة، فكانت تتطاير بخفة مثل العهن المنفوش، ويضــيف ميــيه Millet – وهو جندى نفر – «وكانت جثث الرجال والخيول تشــكل منظراً يثير الرعب، لقد كانت مذبحة سالت فيها الدماء بغزارة ولأكثر مــن ســاعة استمر المماليك الذين كان الفرنسيون يفوقونهم عدداً على الأقل بنسبة ثلاثة إلى واحد، يبرزون بطولاتهم الفردية الشجاعة بأقدام المقبلين على المــوت وهــم يواجهون التشكيلات الفرنسية الأربع، ذات النظام والانضباط الصــارم. إلــى أن أدرك مراد بك أن اللعبة قد انتهت فولى هارباً فى اتجاه الأهرامات.

أما الرسام فيفان دينون Vivant Denon والذى سجل كل شىء بريشته فى اسكتشــات تــتوقد هياجاً متخذاً من نخلة ساتراً، فقد كتب يقول: إنها لم تكن معــركة، بــل كانت مذبحة وبعد لحظات كأن الفرنسيون يقفون فوق خنادق إمبابة، يمزقون كل شىء تقع عليهم عيونهم بوحشية. ثم بدأت عاصفة رملية



الرسام الشهير فيفان دينون Vivan Denon الذى صاحب
حملة نابليون إلى مصر وسجل بريشته أحداثها

جعلت النهر تتلاطم أمواجه بشدة من خلال " العُفار "والضجيج، وكان عبد الرحمن الجبرتى يشهد المنظر من مكان بعيد وقد اعتلاه الرعب أن يرى أمبابة وقد غطتها ألسنة النيران. شاهد الآلاف من الناس والفرسان والمشاة وأتباع المعسكرات يلقون بأنفسهم هرباً فى مياه النيل، مذعورين فى محاولة يائسة للنجاة وكثير من المماليك قفزوا بكل ثيابهم وسلاحهم إلى الماء حيث جرفهم التيار إلى الأعماق بسبب ثقل سلاحهم، ويقول الجبرتى: فلما عاين وسمع عسكر البر الشرقى القتال، ضج العامة والغوغاء من الرعية، وأخلاط الناس بالصياح، ورفع الأصوات فكان القلاة (العقلاء) من الناس يصرخون عليهم ويأمرونهم بترك ذلك ويقولون لهم إن الرسول والصحابة والمجاهدين إنما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب، لا برفع الأصوات والصراخ والنباح، فلا يستمعون ولا يرجعون عما هم فيه ومن يقرأ ومن يسمع»(*) وفى ذلك الوقت كان المتفرجون وأولهم إبراهيم بك يولون الأدبار هاربين إلى الصحراء حاملين معهم ممتلكاتهم التى قدروا على حملها، وقبل أن يرحلوا قام البكوات بإشعال النيران فى المئات من القوارب النيلية، وبينما كان بونابرت يتحرك نحو بيت مراد بك فى ريف الجزيرة، ومعه هيئة أركان حربه، كانت قباب ومآذن القاهرة تبدو كما لو كانت مضاءة بفعل الصوت والضوء Son et Lumiere المرعب والذى أضاء عن طيف الأهرامات البعيدة، بينما اندفعت الغوغاء تسرق وتحرق أى شىء تقع فى أيديها. وخطب بونابرت فى جنوده الذين كانوا يحيطون به عندما كانت المعركة على وشك الحدوث قائلاً: إن أربعين قرناً من الزمان تنظر إليكم من قمة هذه الأهرامات . ومن خلال توهج النيران الخفاق، كشف المنظر عن واحد من أعتى عمليات السلب التى تصادف حدوثها (على مر التاريخ) فهناك أسلحة مرصعة بالجواهر، والسلاح الدمشقى، والسجاد نادر الثمن، والحرير والتحف المصنوعة من الفضة وكذلك الذهب، الذى اعتاد المماليك على حمله معهم مع متاعهم، إذا ما فرضت عليهم الظروف المفاجئة

(*) عبد الرحمن الجبرتى – المصدر السابق – ص: ١٠.

الهــروب، وكانت هذه الغنائم تصطاد بالمعنى الحرفى من قاع النيل، ويقول الجــبرتى: وكانــت ليلة وصباحها فى غاية الشناعة، جرى فيها ما لم يتفق مــثله فى مصر، ولا سمعنا بما شابه بعضه فى تواريخ المتقدمين، فمن راء كمن سمع(*).

وفــى ٢٣ يولــيو عام ١٧٩٨ تحركت الفرق العسكرية الفرنسية بحرص نحــو المديــنة، أما الجماهير التى كانت قبل ساعات فقط تنتحب، وتلطم على الوجــوه صــائحين: وأســفاه لقــد أصبحنا عبيداً للفرنسيين فقد تحولوا إلى مراقبة ما يحدث من جنود الفرنجة (Poilus) فى خلال النهار، وهم يتسكعون فــى الأسواق بدون سلاح، وصاروا يضاحكون الناس الذين ابتلعوا دهشتهم. ولــم يضيعوا الوقت فى إبتياع كل ما يحتاجونه بأعلى ثمن(**) وسرعان ما أخذت الأسواق تتاجر بفرح، وأعيد فتح المقاهي، وفى الساعة الرابعة من بعد ظهــر ٢٦ يولــيو، دخل بطل فرنسا الثورة إلى القاهرة الكبرى وسط عزف الأبــواق وقــرع الطبول، ونزل فى أكثر قصور المماليك فخامة وترفاً وهو قصــر الألفــى بك فى الأزبكية والذى، أصبح مكانه الآن فندق شبرد(***)، وبالنســبة لنابلــيون بونابــرت فإن أحلامه عن الإمبراطورية الشرقية بدأت تتشــكل، أما بالنسبة لمصر نفسها فقد دفعت فجأة إلى عالم القرن التاسع عشر الوليد، وبدأ فصل جديد فى تاريخها... فصل تسيد فيه الأوربيون. وقد وصل هــذا التسيد إلى قمته بعد ١٥٤ عاماً، إلى أن جاء نفس اليوم، بل جاءت نفس الساعة التى قادت مصرفيها ثورتها وظهر فيها بطلها.

وفــى عشرة مجلدات هامة تعتبر أثمن إنجازات الحملة كلها، جمع العلماء الفرنسيون صورة مفصلة كاملة وهائلة عن مصر فى هذه الفترة، كذلك سجل بونابرت انطباعاته، إنه لمن المثير أن نرى القاهرة كما كانت تبدو فى القرن

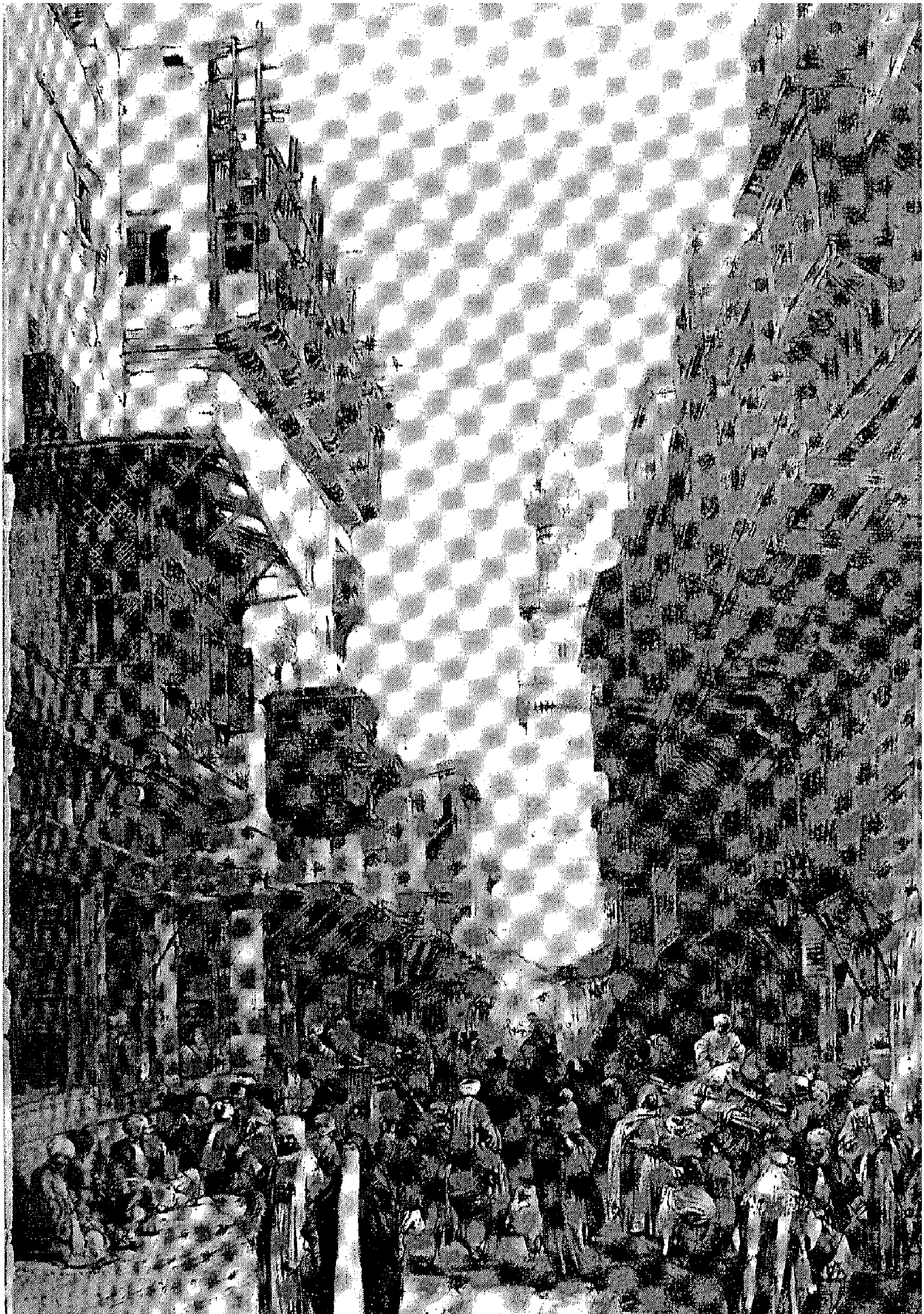
(*) نفس المرجع ص: ١٢. (المترجم).

(**) نفس المرجع السابق ص: ١٤.

(***) يقصد شبرد القديم الذى احترق فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ (المراجع).

الثامـــن عشـــر مـــن خلال عيون ذلك القاهر الحادة، والبالغ من العمر تسعة وعشـــرين ربـــيعاً، وقـــد استهلها كما يفعل الجندى الحقيقى بإلقاء نظرة على المشـــكلات الأساســـية مثل مياه الشرب والتحصينات. فالقاهرة تقع على بعد نصـــف فرسخ من النيل، مصر القديمة وبولاق هما مينائيها. وهناك قناة تشق المديـــنة، غـــير أنهـــا علـــى الدوام جافة ولا تمتلىء إلا أثناء الفيضان، وفي اللحظة التى يفتح فيها السد وهى عملية لا تتم إلا إذا بلغ فيضان النيل منسوباً معيـــناً تكـــون مناسبة لاحتفال عام، عندئذ تقوم هذه القناة بتصريف مياهها علـــى مصارف عديدة، ويصبح ميناء البكير (الأزبكية) وكذلك معظم ميادين وحدائـــق القاهرة مغمورة تحت الماء، ويتم التنقل بين هذه الأماكن عن طريق القـــوارب خـــلال موسم الفيضان، وتهيمن على القاهرة القلعة القائمة فوق تل والتى تشرف على المدينة كلها، ويفصلها عن تلال المقطم وادى ولهذا السبب يوجـــد فـــى مصر القديمة برج هائل وعال مثمن الشكل، يحتوى على خزان ترفع إليه مياه النيل عن طريق آلة هيدروليكية ومنها تصعد المياه إلى مجرى العـــيون. وكذلك كانت القلعة تستمد مياهها من بئر يوسف، لكن ماءها لم يكن فـــى عذوبة ماء النيل، أما القلعة فلم تكن مؤهلة للدفاع عن المدينة، بل كانت مهملة وأيلة للسقوط. والقاهرة محاطة بأسوار عالية بناها العرب يعلوها عدد من الأبراج الكثيرة، حتى أن هذه الأسوار كانت فى حالة سيئة وتتهاوى على مر العصور وذلك لأن المماليك لم يرمموا شيئاً منها، والمدينة كبيرة ونصف أســـوارها تـــتاخم الصحراء لدرجة أننا نواجه الرمل عندما نخرج من بوابة السويس أو تلك التى تتجه إلى بلاد العرب .

وبعـــد أن دبر المتطلبات الأساسية للجنود، كان لدى بونابرت الوقت لإلقاء نظـــرة عامـــة على المدينة كما كان فى مقدرة أى سائح أن يفعل: إن سكان القاهـــرة كثـــيرون جداً فهم يقدرون بنحو ٢١٠,٠٠٠ نسمة، ومنازلها عالية الارتفـــاع وشـــوارعها ضـــيقة، لكى تحقق لهم الحماية من الشمس المحرقة، ولـــنفس السبب فإن البازارات أو الأسواق العامة مغطاة بالقماش أو الحصر، وللـــبكوات قصـــور فارهة على الطراز الشرقى تشبه قصور الهند أكثر مما تشـــبه قصورنا. وللشيوخ أيضاً منازل أنيقة، أما الوكالات فهى مبانى مربعة



أحد أسواق القاهرة المملوكية العثمانية كما وجدها نابليون

الشكل، شاسعة المساحة بها صحون داخلية كبيرة تشمل نقابات التجار، فهناك وكالـــة لتجار الأرز السيورى Seur ووكالة لتجار السويس، وأخرى خاصة بالشـــوام، كما كان لكل واحد منهم حانوت ضيق يطل على الشارع، مساحته عشرة أو اثنا عشرة قدماً مربعاً، يعرض فيه التاجر عينات من بضاعته، وفى القاهـــرة عـــدد كبير من أجمل مساجد العالم، مآذنها أنيقة وعديدة، والمساجد عادة تستخدم كمأوى للحجاج وينامون فيها، وبعضها كان يتسع لقدر كبير من الحجـــاج قـــد يـــبلغ ثلاثـــة آلاف من بينها الجامع الأزهر (أى جامع جامعة الأزهـــر)، والذى يقال أنه أكبر مسجد فى الشرق، وهذه المساجد عادة عبارة عـــن صـــحون (ساحات) محاطة بعدد كبير من الأعمدة تحمل السقف، وفى داخلها يوجد عدد من الأحواض وخزانات المياه للشرب وللاغتسال. وفى أحد الأحـــياء الهامـــة وهو الحى الأفرنجى يعيش عدد قليل من الأسر الأوروبية وفـــيها نشاهد عدداً من البيوت مثل تلك التى قد يملكها تاجر فى أوروبا دخله ما بين ٣٠,٠٠٠ ٤٠,٠٠٠ جنيه سنوياً، وهى مؤثثة على الطراز الأوربى، وبهـــا كراســـى وأســـره، وهـــناك كنائس للأقباط، وبعض الأديرة للسوريان الكاثوليك. وهناك عدد كبير من المقاهى يستطيع الناس فيها احتساء القهوة أو الشربات أو حتى الأفيون، ويتناقشون فى شتى الشئون العامة.

ثم عرج بعد ذلك إلى بحث موضوع الرق. ولاحظ أن كل من مراد وعلى كانـــا قـــد بيعا إلى بعض البكوات فى سن مبكرة بعد أن جلبهما نخاسون من بـــلاد الشـــركس، ونفـــس الشىء حدث مع الباشوات والوزراء والسلاطين. وأضـــاف ســـاخراً دون أن يقصد ليس قبل أن يمر وقت طويل حتى يدرك المصريون أن كل الفرنسيين ليسوا عبيداً لى .

كمـــا كـــان هناك أشياء أخرى وجدوا من الصعب عليهم فهمها. وبالنسبة للمصـــريين فـــإن كثـــير من مظاهر الاحتلال الفرنسى بدت غير بعيدة عن إدراكهـــم، فوســـط طوفان من البيانات التى تلفت النظر باستخدامها اسم الله القـــادر بشـــكل صـــريح، علم هؤلاء المواطنون الذين عاشوا كل حياتهم فى ظلال القلعة، متعودين بشكل جيد على القرارات ذات الطبيعة الاستبدادية – علمـــوا مندهشين أن مزايا حقوق الإنسان – كما يفسرها ابن حقيقى للثورة –

ســوف تــنهال علــيهم. أن هيئة بونابرت وقد ارتدى زى إمام الشيوخ، وهو يشــارك فــى المناســبات الدينية كان يلقى منهم السرور والابتهاج، غير أن مسلك جنوده بالرغم من أنه سلوك متوقع بالنسبة لجيش احتلال - كانت كافية لإثــارة حساســيتهم الإســلامية. فقد شاهدوا الفرنسيين وهم يشربون الخمر، ويتــبادلون الشــتائم، ويمارســون الحــب علناً، كما لفت نظرهم بمقت شديد تصرفهم غير الملتزم ليس مع النساء الأوربيات فحسب، بل مع الحريم الذين شجعوهن على الظهور سافرات، وكان يثير ثائرتهم أن يروا الأقباط والشوام واليهود وقد بدأوا يتصرفون فى خيلاء. كما أنهم استشاطوا غضباً عندما أمر قــائد ســارى العســكر بهدم بعض المساجد والمقابر فى مشروعه لتنظيف المديــنة، وقــد بــدى لكثير منهم أن كل شئ كما لو كان قد تحطم إلا إيمان الإنســان بالإســلام وبــالله الذى أنزل بــهم هذا العقاب جزاءً للذنوب التى ارتكبوها فجعل الكفار ينتصرون عليهم.

وفــى هذه الأيام الأولى القليلة التى كان فيها متهوراً،شعر نابليون - مهما كانــت نيته حسنة، ومهما كان جاهلاً بأساليب الشرق - بثقة كاملة أن سياسته الخاصــة بالــتعايش الســلمى قد بدأت تعطى ثمارها صحيح - كما جاء فى خطابــه إلى مينو - أنه وجد من الضرورى قطع رقاب خمس أو ستة رجال كــل يوم فى شوارع القاهرة، لكن على الجانب الآخر اختار ديوانين للشيوخ لكــى يــتولى الحكم تحت سلطته التشريعية. وكانا يثبتان تعاونهما معه بشكل يدعــو للســرور، كما أن مغازلته للإسلام التى ذهبت إلى حد إقامته الصلاة الإســلامية، وأن يظهر بالرغم من غرابة منظره، مرتدياً الجلاليب المصرية الفضفاضة، كانت عملاً يدل على أنه داهية سياسى، وأيضاً صورة مغرية من صــور الانغماس فى الذات، غير أنه لم يكن هناك أى مشروع يمكن أن يثير الحمــاس أكثر من مشروع الإحياء الحقيقى لمصر، وهو ما خطط له المعهد العلمى للقاهرة، الذى أسسه حديثاً.

ولــو كــان هناك طيف يقلقه، فهو مسلك جوزيفين، إذ أن حماقاتها لم تعد ســراً علــى أحد حتى فى القاهرة. وأيضاً وبالطبع نيلسون، لكن لم تكن لديه أنباء كلية عن نشاطاته.

الفصل الثالث

نهاية حلم

بالمـــثل كان نيلسون فى جهل تام عما يحدث، فقد كان لا يزال يتجول بلا هـــدف فى البحر المتوسط دون أن تكون لديه أدنى فكرة عن الأحداث الجسام التى كانت تحدث فى مصر. وحتى أقرب ضباطه إليه كان يدرك بصعوبة كم جعلـــه البحـــث العقـــيم يشعر بمرارة اليأس، فقد اشتكى لمستشاره الطبى من متاعـــب فى قلبه، وقد شخص هذا السيد المبجل حالته بأنها عسر هضم ناتج مـــن القلـــق. وقد أصر الأميرال أن انعدام الأنباء عن العدو قد حطم قلبه، ثم أضـــاف بانفعـــال غريب على رجل البحرية: " ربما يموت أناس بسبب القلب المحطم أكثر ما تعتقد".

ثـــم جـــاءت الأنـــباء فجأة، ففى ٢٨ يوليو عام ١٧٩٨ علم من قائد جناح فرنسى ثم أسره أن هدف نابوليون هو مصر، تماماً مثلما كان هو نفسه يشك مـــنذ البداية. وفى مساء نفس اليوم جاء تأكيد ذلك من المصادر التركية، وهنا اختفـــت أعراض مرض القلب، حيث استغرقت رحلة عودته إلى الإسكندرية أقـــل من أربعة أيام. وسرعان ما لمح أسطول نيلسون جزيرة فاروس وعمود بومـــبى (عمود السوارى) وقد رفرفت عليه الراية ذات الألوان الثلاث (علم الـــثورة الفرنسية) بالرغم من خلو الميناء من أى سفينة فرنسية، وبعد مرور ســـاعة هـــرول صف ضابط بحرى يحمل الأنباء حتى أنه فى غمرة انفعاله نســـى أن يـــؤدى التحـــية لجـــناح الضباط قائلاً: " أشرعة العدو على مرمى البصر! ".

وقـــبل أن يخـــتفى داخـــل عمـــق مصر، كان نابليون قد أصدر أوامره إلى الادميرال دى بروى De Breuys، بأنه إن لم يستطيع البقاء فى الإسكندرية نفسها، فعلـــيه أن يبحر إلى جزيرة كورفو Corfu(*) التى كان الفرنسيون قد احتلوها، أو

(*) جزيرة تقع على الساحل الغربى لبلاد اليونان.

أن يجـد لنفسـه مكانـاً مناسباً ليلقى مراسيه على طول الساحل، ولما كانت المؤن غير كافية للقيام برحلة إلى كورفو، وأن معظم مخازن عتاد الحملة لا يـزال على ظهر السفن، فقد اختار دى بروى خليج أبى قير حيث احتمى فى هـذا المنحنى نصف الدائرى فى الغرب من وراء لسان منخفض من الأرض يتصـل بجزيـرة صغيرة محصنة بسلسلة من الصخور المحفوفة بالمخاطر. وبالرغم من أنه ألقى مراسيه على بعد ميلين تقريباً من الساحل لأن الماء كان ضـحلاً، إلا أن دى بـروى شعر بأنه على ثقة بأن اصطفاف سفنه فى خط واحـد، ووجود خمسمائه مدفع تغطى المنطقة القريبة من البحر، فأن خطورة أن يؤخـذ أسـطوله علـى غرة كان نادر الاحتمال. ولقد كان من باب الحظ الـتعس فـى يـوم الأول مـن أغسطس أن ينزل عدد كبير من البحارة إلى الشاطئ لكى يملأوا البراميل بالماء، ولكى يحفروا الآبار (بينما تقوم الوحدات الأخرى بحمايتهم من البدو)، كما كان نظيره الأدميرال المترصد به فى مزاج نفسى يصل به إلى حالة عدم المبالاة أو التهور.

حقـاً إن نيلسون الذى كان يكرر مقولته: « سوف أجر الأسطول الفرنسى إلـى المعركة فى اللحظة التى استطيع وضع يداى عليه » لم يكن فى مزاج أن يـدع العـدو أن يـأخذ وضع القتال تحت ستار الليل الدامس. ومهما كان الهجـوم الفورى خطراً، كان تأجيله أشد خطراً. وبلمسة العبقرية التى كانت تمـيزه كـأعظم بحار فى إنجلترا فقد لاحظ فى حينه أنه " ما دام هناك مكانٍ لسـفينة بحرية فرنسية من طراز ٧٤ لكى تدور على عقبيها فأن هناك مكاناً لسـفينة بريطانـية من طراز ٧٤ لكى تلقى مراسيها " وشرع على الفور فى مهاجمـة المقدمـة والوسط من كلا الجانبين. ولقد كان قراراً رائعاً وشجاعاً شـهده ذلك اليوم. وعندما كانت الشمس المحرقة تغيب فى وراء الأفق كانت عشر سفن من طراز ٧٤ تندفع بشدة نحو الريح متمشية مع سلسلة الصخور ملـتفة حول المخاطر فى اندفاع مثير، وما أن مرت دقائق حتى كانت تطلق نيران مدافعها على الأسطول الفرنسى من ناحية البر والبحر، وأكثر من ذلك كانت النيران بزاوية مائلة حتى أن سفن دى بروى لم تسطع توجيه بطاريات مدافعهـا الجانبية نحوها بشكل مباشر فى حين كان فى استطاعة سفن نيلسون إطـلاق النـيران على سفينتين فرنسيتين فى آن واحد، ومما زاد من كارثة

الفرنســيين أن كانــت مدافــع الميمنة مفككة، ومكومة بكل أجزائها لأنهم لم يكونوا يتوقعون قط أن يهاجموا من هذا الجانب، وكان ذلك فى حد ذاته سببا فى تمزقه شر ممزق.

وطوال الليل لم تتوقف توهجات المدافع الجانبية وهى تخترق الظلمة التى ســادها الضــباب، غــير أن المراقبين على الشاطئ لم يكن فى مقدورهم أن يتبيــنوا شــيئاً سوى وميض الفوانيس التى أمر نيلسون بتعليقها على أشرعة الســفن البريطانية لتميزها عن سفن العدو، وبالرغم من ذلك فإن الطرفين فى بعــض الأحيان كانا يطلقان النيران على سفن بعضهم البعض. إن استرجاع هؤلاء الذين شاركوا فى تلك الليلة الليلاء ذكرى ما حدث يصور دراماً مشتته فــى فوضــى أمكن بالكاد السيطرة عليها. وفى بداية القتال لقى دى بــروى مصــرعه، فقــد قصمته دانة مدفع إلى نصفين وهو يقف فى منتصف منصه الــربان لسفينة القيادة لوريانL Orient، وبعدها بقليل تلقى نيلسون جرحاً لكنه لم يكن مميتاً. وقبيل الساعة العاشرة شبت النيران فى سفينة القيادة " لوريان " وســرعان مــا انتشــرت ألسنة اللهب التى ساعد على انتشارها مواد الطلاء والجــرادل المعبأة بالزيوت الموجودة على ظهر السفينة لتشتعل جوانبها التى كانــت قــد طليــت حديثاً، وخلال نصف ساعة هجرت السفينة، وقد سجلت السيدة همنــز Mrs. Hemens فوضى اللحظات الأخيرة بطريقة مشوشة إلى حــد ما فى قصيدة لها عن الصبى الواقف على ظهر سفينة تحترق. ثم فجأة دوى انفجــار يعمــى البصــر، أحــدث دوامة قطرها عشرون ميلاً تمتد من الإســكندرية حــتى رشيد، وتساقط وابل من حطامها شديد الاحمرار مختلطاً بالجثــث، وخــلال الصمت المذهل الذى تلا ذلك عاد الظلام ليغمر كل شيء لمدة عشر دقائق كاملة، قبل أن يستأنف إطلاق النيران.

وانجلــى نور الفجر عن منظر مثير للأسطول الفرنسي وقد تحطم تماماً، فمــن بين الثلاث عشر سفينة من سفن القتال ذات الأشرعة تم الاستيلاء على تســع مــنها بيــنما احترقت اثنتان تماماً، ومن بين الفرقاطات كانت الأربعة أحرقــت واحــدة والأخرى أغرقت، ولم تنجو من المعركة سوى واحدة من طراز ٧٤ى، وكذلك فرقاطتان لتشترك فى القتال فى يوم آخر.

لقـــد أخـــذت " لوريـــان " معها إلى قاع خليج أبى قير جثة الأميرال دى بـــروى، ومعهـــا كنوز القديس يوحنا المقدسى التى تم نهبها من أهل مالطة، وكذلـــك ما يزيد على مليون جنيه ذهبى، وكذلك الماس التى كان قد نهب من جمهوريـــة سويســـرا للإنفـــاق على الحملة فى مصر، وبذلك أصبح نابليون معزولاً عن وطنه، بل أصبح مفلساً أيضاً.

ولقـــد استغرق وصول رسالة نيلسون إلى لندن التى تعلن انتصاره فى أبى قـــير مـــدة شـــهرين ويوم واحد، ولقد كان انفعال كبير اللوردات وهو يقرأها مثيراً لدرجة أنه أغمى عليه وسقط على أرضية مكتبه.

وفـــى الثامـــن مـــن أغسطس، سمع نابليون بالأنباء عندما كان فى طريق عودتـــه إلى القاهرة بعد أن قام ببعض عمليات المطاردة والتطهير فى شرق الدلـــتا، ويســـترجع المهندس المعمارى " نورى " Norry والذى تصادف أنه كـــان بصحبته وهو يركب جواده كيف أن نابليون ترجل ببطئ من فوق ظهر جـــواده، وســـار عدة خطوات بعيداً، وسمعه وهو يحدث نفسه: " هل هذه هى الـــنهاية؟ " ثـــم استدار عائداً وهو يقول بلهجة واقعية: " حسناً إن هذه الحادثة ســـوف تحفـــزنا للقيام بأعمال كبرى فى مصر، لقد كانت مصر دائماً مركز الحضارة. وعلينا إحياء الإمبراطورية المصرية".

ولتحقـــيق ذلـــك كان أول متطلباته قاهرة نظيفة وقانعة، وكما يقول: المثل العـــربى " قـــبل اليد التى لا تستطيع قطعها "، كان المصريون يفعلون الشىء نفســـه منذ قرون طويلة، إلأنهم كانوا فى تزايد أقل ميلاً لقبول الشروط التى وضـــعها الفرنسيون، وأساساً كانت المشكلة القديمة قدم الزمن وهـــى عـــدم التقـــاء الشـــرق والغـــرب. فخلال وسائله المندفعة لتنظيف (العاصمة) رغم أنها ذات نية حسنة ومفيدة، إلا أنها لم تؤد إلا لتفاقم الموقف، حتى عندما شدد بونابـــرت قبضته على مدينة القاهرة ليطور نظرياته عن الطريقة التى يجب أن تظهـــر بها الحكومة المنظمة الشعبية، كما أصبح من الواضح أن نظرياته عـــن حقـــوق الإنسان وغيرها من شعارات الثورة الفرنسية لم يكن لها سوى تأثير قليل على المصريين ذوى الاتجاه التواكلى. فمن ناحية لم يكونوا قادرين



صــورة كاريكارتورية فى المتحف البريطانى رســمتها الصحف البريطانيــة لنابليون وهو يخطب فى جنوده فى القاهــرة بعد أن سمع بتدمير الأدميرال نيلسون لاسطوله فى أبى قير علم ١٧٩٨ ، وهو يرفع ســيفه ويقســم بأنه سوف يفنى الإنجلــيز من على ظهر الأرض

علــى فهــم ما تهدف إليه، ومن ناحية أخرى فقد كانوا غير ميالين لقبول أى تغيــير، ومهمــا كان الجو العام قد يبدو كريهاً فى حوارى القاهرة لدرجة أن الإنسان قد يسترجع ما فى معدته، وكذلك أزقتها التى تفوح بخليط من روائح الــتوابل والتــبول وهراء البشر، لكنه كان ذلك الجو العام الذى عرفوه دائماً وتعودوا عليه، ومهما عاملهم المماليك بقسوة، لكن ذلك كان ما فهموه.

وفــى الأســاس فإن إيمانهم عميق الجذور بالإسلام، وبالتالى كان ولاؤهم للسلطان، والذى كان بالنسبة لهم أعظم وأقوى حاكم فى العالم.لم يعزو رجال مصــر ونســاؤها متاعــبهم إلى أى عامل آخر أبعد من " بلطجة " حكامهم المحليين، إذ لم يكن هناك فلاح واحد فى أرضه لا يعتقد أنه لو قدر له مقابلة الســلطان شخصياً، فإن ما حاق به من ظلم سوف يتبدد فى الحال، وبمعجزة تعود إليه حقوقه. والأكثر من هذا أساء الفرنسيون فهم نظرة المصريين عامة إلى الحكومة.

وبالرغم من أن الإدارة المحلية لمصر كانت سيئة، والفوائد التى تجبى من ورائهــا هزيلة للغاية، إلا أن المصريين كانوا يشعرون دائماً بأنهم معتمدون على الحكومة، وهو شر ضرورى لابد منه، لكنه يحقق لهم نوعاً من الرعاية الأبويــة، والتى كان من حقها طبقاً للتقاليد العتيقة أن تفرض عليهم الضرائب لآخــر ملــيم إن استطاعت، لجأوا إلى الذكاء، فإن هذه النسبة قد تصبح أقل. وبالــرغم مــن كل شىء فقد كان يمكن دائماً تدبير ذلك عن طريق الرشوة. وخــلال حكم المماليك، كثيراً ما كانت الضرائب تفرض عليهم بقسوة، وكانوا يعــانون من تصرفات قاسية وجشعة، لكنهم كانوا يشعرون بأنهم غير مقيدين بــأى نظــام، ففى استطاعتهم إذا أراداوا العمل، أو إذا أرادوا الجلوس تحت أشعة الشمس دون أن يفعلوا شيئاً. ففى حياتهم اليومية لا أحد يضايقهم.

أمــا الآن، وفجــأة، بــدأ بونابــرت يتعدى على هذه الحرية، وإن المدينة الحديثة لا تبدو أكثر من وابل من اللوائح المزعجة، فقد اكتشف رجل الشارع أن علــيه أن يدفــع رســوماً فــى بعــض الحالات مثل المواليد، والزواج، والوفيات، وإنه إذا أراد أن يسافر مهما كان مكان السفر عليه أن يحصل على

إذن مسـبق، وأنه مسئول عن تصرفات أى شخص يدعوه إلى بيته، وأنه قد يستدعى للسؤال إذ تقاعس عن تسليم بغلته إلى الفرنسيين، وأنه مسئول عن رش الطريق أمام بيته بالماء أثناء النهار، وأن يحرص على أن يكون مضاءً بالليل، أما الإهانة المتمثلة فى جعله ملزماً بوضع شريط مثلث الألوان فوق عمامته كرمز للخضوع، فقد كان أمراً يمكن تحمله (لأن ذلك لن يكلفه شيئاً على أى حال)، لكن شد الحزام على بطنه من أجل الاستنزاف المنظم الذى هدفت إليه الإدارة الفرنسية من أجل تعويض خسائر الكنوز التى غرقت مع سفينة القيادة كان صعباً على معدته. فكبار ملاك الأراضى كان عليهم أن يقدموا صكوك الملكية • أما إذا فشلوا - كما - كان يحدث كثيراً - فى الحصول على اعتماد الصك، فإن الأرض تباع، ويؤول ثمنها لصالح الجمهورية الفرنسية.

ومما زاد الطين بلة أن هذه اللوائح فرضت بنفس القسوة والصرامة التى فرضها المماليك، بل زاد على نهم المماليك ما فعله الأقباط واليهود الذين كان فى استطاعتهم اقتحام بيوت المسلمين تحت سبب أو آخر، بل وانتهاك حرمة الحريم، عندئذ أدرك المصريون أن حكم الفرنسيين أسوأ من حكم البكوات، فقد أحلوا البيروقراطية محل الحرية، وإذا كان المماليك يتصرفون أحياناً كالمجانين فإنهم كانوا على الأقل يتوقعون جنونهم.

وفى يوم العاشر من شهر أكتوبر(*) قضى الشيخ عبد الرحمن الجبرتى صباحاً طيباً فى مكتبة معهد القاهرة حديث التأسيس، ولم تكن هذه هى زيارته الأولى وكان دائماً مبهوراً بالطريقة الودية التى كان الأساتذة الفرنسيون يستقبلونه بها، وهو ترحيب لاحظ بقناعة أنه امتد إلى كل المصريين الذين كانوا يبدون اهتماماً بالآداب، وبهذه المناسبة أبدى إعجابه ببعض كتب التاريخ القديم التى تصور سيرة الحواريين والمعجزات التى قاموا بها، وأبدى دهشة خاصة لمجلد كبير يتناول سيرة الرسول الذى صور وهو يمسك

(*) الجبرتى ص: ٤٦، ٤٧.

بالسيف فى يده اليمنى، وفى يده اليسرى كتاب، ويحيط به صحابته، وعندما صعد إلى الطابق الأول شاهد قطعة من آلة أثارت فضوله وهو تيلسكوب يمكن فكه إلى قطع صغيرة توضع فى صندوق صغير، كما قام عالم الكيمياء بتسليته بعرض تجربة غريبة، فقد قام بصب سائل فى أنبوبة اختبار ثم أضاف إليه سائل آخر، فتكون دخان ملون، وعندما اختفى هذا الدخان تحولت السوائل إلى مادة صلبة صفراء اللون بدت كالحجر عند ملمسها، ثم كرر الكيمائى التجربة مستخدماً عدة سوائل مختلفة، ونتج عنها حجر أزرق وآخر أحمر، ثم قال بعد ذلك بتناول مسحوق أبيض، دق عليه بمطرقة فأحدث انفجارا كانفجار البندقية المنطلقة، جعل كل واحد يقفز مثل الأرنب بينما قهقه الكيمائى ضاحكاً(*).

وعندما غادر المبنى، شاهد الشيخ عبد الرحمن الجبرتى أن الأزقة والحوارى عليها بيانات معلقة، لقد كان فى نية الفرنسيين أن يفعلوا شيئاً جديداً هكذا اعتقد وهو يقرأها، فهم لم يكتفوا بالاستيلاء على البيوت التى كانت صكوك ملكيتها غير مكتملة، بل إنهم كانوا على وشك تقديم اقتراح بفرض ضريبة على جميع العقارات الباقية والخاصة بالأهالى، وبينما وهو يسير فى الشوارع المكتظة بالناس لاحظ وجود توتر ينبأ بشر فى المناخ العام، فقد كانت الجماهير قد بدأت فى التجمع كما لو أن الاضطرابات بدأت تختمر، وعندما أرخى الليل سدوله، استخرجت الأسلحة التى كانت مخبأة، وفجأة اندفع حشد كبير على رأسها السيد البدرى وهم يتصايحون على طول الشوارع. لقد اندلعت الثورة!

وبطريقة ما كان الوضع كما لو أن أحداً تأمل كرة الكريستال (التى يستخدمها من يقرأون المستقبل) التى تعكس بصورة مصغرة جدا كل الثورات المضادة للاستعمار التى سوف تنفجر خلال القرن والنصف قرن التالى، ليس فى مصر وحدها بل فى بلاد كثيرة حيث كانت أوربا تلقى بيدها

(*) الجبرتى ص: ٤٦، ٣٥.

بـــثقل كبير، الجمهور المتصايح والمسلح بالحجارة والحراب والسكاكين ذات الحـــد القاطع مثل موس الحلاقة، تتدفع عبر الشوارع، قائد المنطقة الفرنسى وحراســـة يقومـــون بأعمال وحشية، تلاها عمليات السلب والنهب بلا تمييز، وإقامـــة المـــتاريس بطريقة جنونية عندما صدرت الأوامر باستدعاء القوات، واســـتمر القتال طوال اليوم حتى فقد بونابرت صبره فأصدر أوامره بقصف المديـــنة من بطاريات المدافع المنصوبة أعلى القلعة، وأخيراً صوبت النيران نحو الجامع الأزهر الكبير ذاته(*)، وكان الجبرتى يشاهد ما يحدث وهو غير مصدق وهو يحتمى خلف أحـــد المتاريس، بينما راحت المدينة تتهاوى بفعل وابـــل من قذائف المدافع وسجل وهو حزين قوله: « فلما سقط عليهم ورأوه، لـــم يكونوا فى عمرهم عاينوه، نادوا يا سلام من هذه الآلام يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف(**) أما الشيوخ الأكثر واقعية فقد ركبوا إلى بونابرت يطلبون شروطه فرد عليهم باختصار قائلاً: « أنتم قد بدأتم الثورة وأنا سوف أنهيها» ولم يأمر بوقف إطلاق النيران إلا بعد أن رجاه الشيوخ طالبين الرحمة ».

وبعد ذلك أخذت القوات الفرنسية مواقعها فوق كل أجزاء المدينة وسمعت قعقعـــة الخـــيول فـــى ساحة الأزهر الشريف حيث اندفعت فى وضع القتال، وقـــيدت الخيول ناحية القبلة، وألقى بالأثاث هنا وهناك، وداسوا بأقدامهم على القـــرآن الكـــريم فى الأرض، ولقد شاهد الجبرتى وهو مذعور الجنود وهى تبصـــق على السجاد ويتبولون على الحوائط، وملئوا المسجد بقوارير الخمور المحطمـــة. وكان هذا كثيراً بالنسبة للثورة. لقد فرضت غرامات باهظة على الجمـــيع، ونزعت ثياب عشرة شيوخ، اعتقدوا أنهم تورطوا فى الثورة، حتى أصـــبحوا عـــرايا ثم أطلقوا عليهم النار فى القلعة، وحذر بونابرت الآخرين بقولـــه: « لقـــد ماتـــت الفتنة لعن الله من أيقظها. فخذوا حذركم ألا تورطوا أنفسكم فى كوارث جديدة ».

(*) الجبرتى ص: ٤٨.

(**) الجبرتى ص: ٢٥.

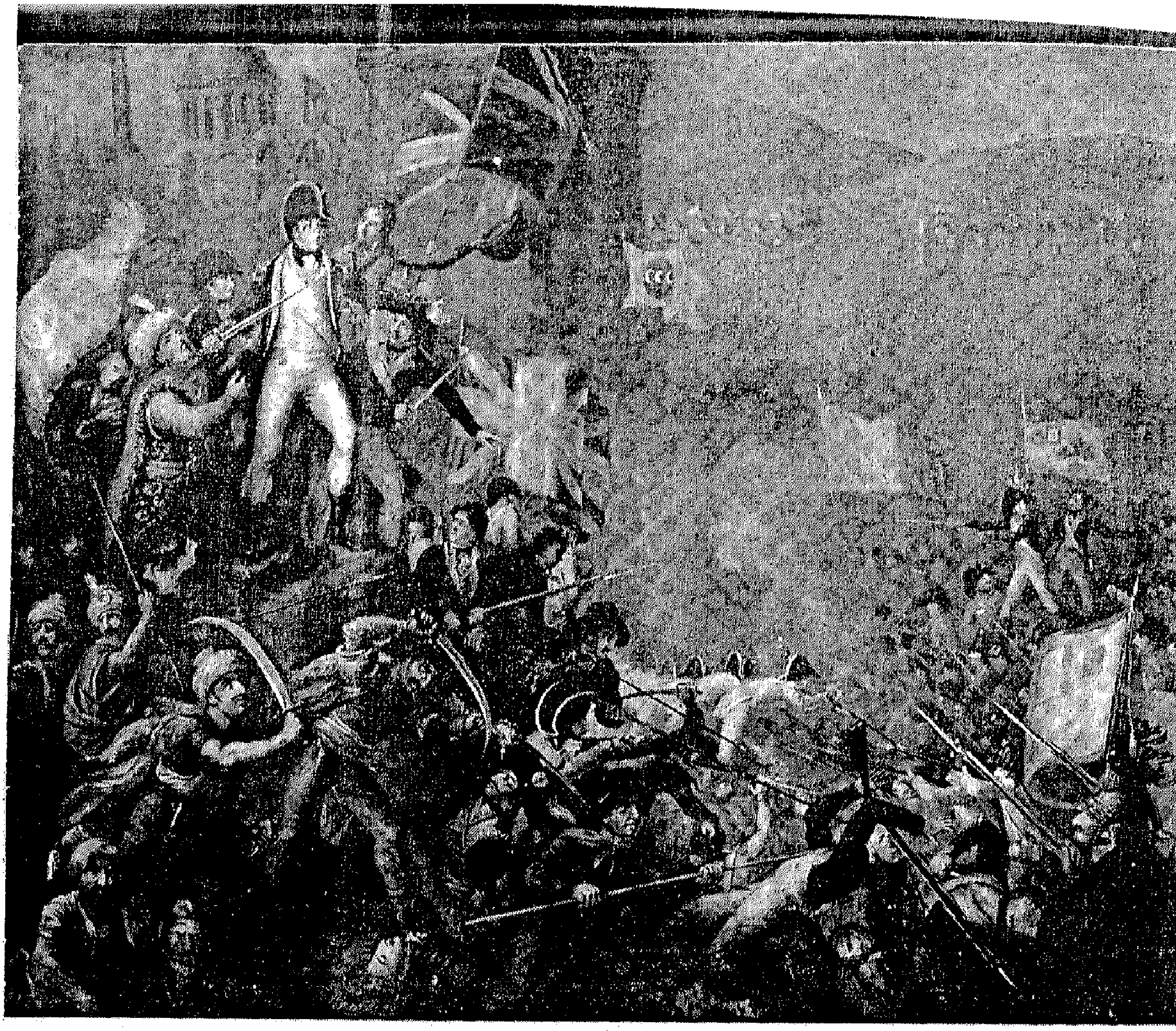
ومــنذ تلك اللحظة لم يعد يغازل الإسلام، ولم يعد مواطنو القاهرة يشيرون إليه بإعجاب باسم السلطان الكبير بونابرت، ما أن استقر التراب فى الأسواق حــتى كان المارة يتوقفون عند نواصى الطرق ليستمعوا إلى آخر الأنباء عن الباب العالى، ووزعت نسخة من الفرمان السلطانى الذى وصف الفرنسيين « بــأنهم كفــار وكذابــون ووحوش بكل ما تعنيه الكلمة ». وسرعان ما أصبح معروفاً أن تركيا أعلنت الحرب على فرنسا.

وقــف برتيــيه Berthier يتصــبب عــرقاً، وقد حل رباط بزته العسكرية الرســمية الذهبى التى كانت تصل حتى أذنيه، إذ أن شعارات الثورة: الحرية والمســاواة والمؤاخــاة Liberte, egalite et Fraternite لم تقلل بأى حال من الأحوال تذوقه للثياب المبهرجة Constumes de Fantaisie لقد كان «برتييه» ضــئيل الحجم شديد الإخلاص، مشهود له بالكفاءة، وقف يستمع غير مصدق إلــى خطــط رئيسه بخصوص الحملة على الشام، إذ لم يكن بونابرت الرجل الــذى يــدع للأتــراك أن يباغتوه بالسير ضده، وبالرغم من أنه لم يكن من المناســب أن يــترك القاهــرة فــى مثل هذه الظروف التى كانت الحالة فيها تســتدعى وضع اليد على الزناد، ناهيك عن انتشار القلق فى الأقاليم، بل أنه يكــاد أن يتجاهل جيش الأعادى الذى كان يتجمع فى رودس ولا حتى احتلال حــاكم عكا التركى للعريش (قرية ساحلية داخل الأراضى المصرية) ثم أخبر برتيــيه إذا كــان الأتراك يتوقون للدخول فى معركة فلنعطيهم معركة!! فقد يســتولى علــى عكا، ويثير مسيحيى الشام وأرمينيا ضد الباب العالى ويقلب الإمبراطورية التركية رأساً على عقب، وسرعان ما ترجمت هــذه التعليمات إلــــى أوامــر عسكرية، وفى ١١ فبراير عام ١٧٩٩ تحركــت قــوة يبلغ تعدادهــا ١٣,٠٠٠ رجــل مخترقة رمال سينــاء على أنغام نشيد ألف ولحن على عجل تقول كلماته: « إننا نرحل تجاه الشام» Partant pour la Syrie.

وقــف رجــلان فى طريق بونابرت هما: أحمد الجزار حاكم عكا من قبل الأتــراك، والســير " سدنى سميث " قائد الفليق البحرى البريطانى فى شرق الــبحر المتوســط. لقــد قيل عن الجزار (وهو جزار فعلاً لأنه بدأ حياته فى

سـلخانة القاهـرة)، أنـه طـبق مهنـته عندما مارس السياسة، فأصبح أشد الشخصـيات قسـوة وإثـارة للرعب فى منطقة جنوب القسطنطينية، أما عن سـدنى سـميث الـذى كان قد انضم إلى سلاح البحرية، وهو فى سن الثانية عشـر، ورقـى إلى رتبة كابتن (ملازم) وهو فى سن التاسعة عشرة، ورسم فارسـاً Knight (لتطوعه فى الحرب ضد السويديين) وهو فى سن السادسة والعشـرين، فقد سجل ملفه الشخصى فى قيادة البحرية بموافقة شبه مقنعة: « أنـه مـتهور فـى اندفاعه نحو الخطر، غير أن له قدرات ذهنية كبيرة، فى الخـــروج منه بثقة ». وكان قد هرب لتوه من سجن لوتمبل Le Temple ذى السـمعة السـيئة فى باريس، حيث زج به بعد تصرفاته فى طولون. فقد كان له حساب خاص يريد تصفيته مع الفرنسيين، «هذا المزيج غير المتشابه، وهـذه الحفرة التعسة هى التى جعلتنى أخفق فى قدرى » هكذا دمدم بونابرت فى سجنه فى سانت هيلينا.

كانـت عكـا تقوم على لسان من الأرض ناتئ داخل البحر، ويحميها من ناحـية البر متاريس ضخمة، ولقد لعبت عكا دوراً بارزاً فى أقدار شخصيات كبـيرة مـثل نيشو المصرى Nesho، وسولون Solon الإغريقى، وريتشارد قلـب الأسد (الإنجليزى). وعند سماعه بأن بونابرت يسير نحو الشمال، خمن السـير سـدنى على الفور أن هذا هو هدفه، وقبل وصول الفرنسيين، كان قد اسـتولى علـى سبع قوارب مزودة بالمدافع تنقل الذخيرة والمؤن، وقبل كل شـىء وأكثرها أهمية استيلاؤه على مدفعية الحصار، حتى أن نابليون عندما وصـل إلـى عكا وجد أن المدافع مصوبة نحوه من الخنادق التى كان ينتوى الوصـول إلـيها. ولذا تم بسهولة صد أول هجوم مباغت، أما الثانى فقد كان مكلفـاً فـى الخسـائر، وأقل نجاحاً من الأول. وهنا لجأ بونابرت إلى آلات الحصار البطىء المرهق، وبالرغم من قيام الفرنسيين بحفر الخنادق العميقة، وزرع الألغـام، فقد قامت القوة البريطانية بغارات لم تتوقف، ويصف شاهد عـيان مـن داخل الأسوار: « الحماس المستعر من جانب النساء المسلمات اللاتـى كـن يـدرن فى حلقة وهن فى حالة من الجنون ويلقين بالتراب فى الهـواء لحث رجالهم ببذل مجهود أكبر وإظهار شـجاعة أبرع خلال قيامهم



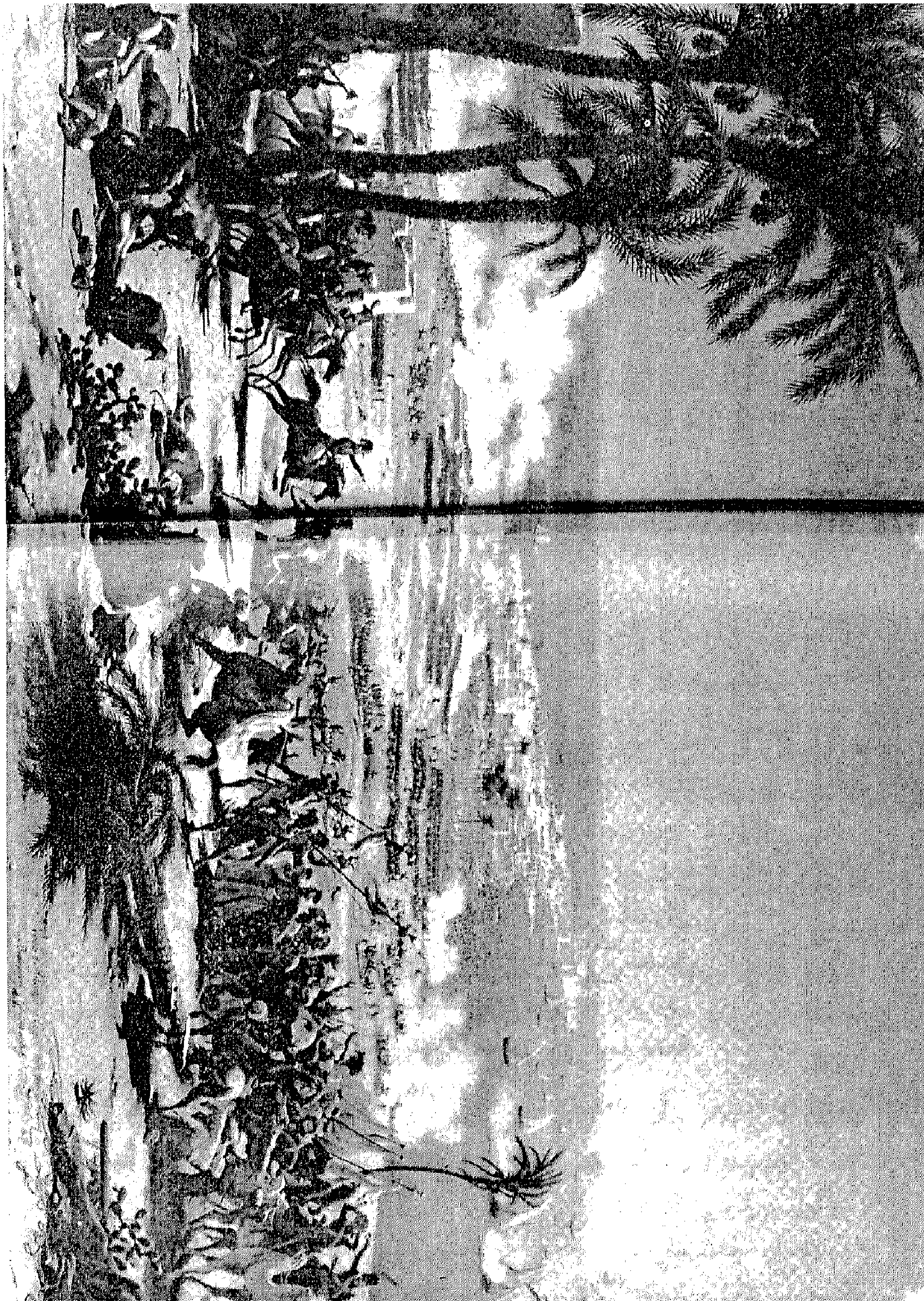
لوحة رســـمها الفنان الشهيد توماس ساتون Thomas Sutton تصور كيف دحر القائد الإنجليزى سدنى سميث Sidney Smith هجــوم نابلـــيون الخاطف على عكا عام ١٧٩٩ فى محاولته الفاشلة للاستيلاء على فلسطين

بغـــارات ليلـــية التى استمتع بها السير سدنى سميث استمتاعاً كبيراً فى تولى قـــيادتها بينما جلس أحمد الجزار عند بوابة قصره يمنح ديناراً فضياً لكل من يأتى له برأس رجل فرنسى ويلقيها تحت قدميه ».

أما بالنسبة لنابليون الذى كان يعتمد دائماً على التحرك لتحقيق نجاحه، فإن هـــذه الورطـــة كانت لا تطاق، فكأنه يضرب بقدميه بشدة فى صخرة محاولاً رفســـها بعـــيداً مسبباً جروحاً فى مقدمة ساقه. وليلة بعد ليلة راح يذرع التل الصـــغير المواجـــه لعكا: والذى لا يزال حتى الآن يعرف بقلب الأسد: نزولاً وصـــعوداً وقـــد اعتلاه النكد، وقال وهو يشير إليها بغضب: «إن قدر الشرق يـــتوقف علـــى هذه المدينة الصغيرة... لاحظوا إنها المفتاح إلى القسطنطينية وإلى الهند».

لقـــد كانت مفتاحاً شاء له القدر ألا يستولى عليه أبداً مهما حاول أن يلطف مـــن حالـــة الإحـــباط الـــتى انتابـــته بـــأحلام كـــبرى « إننى سوف اجتاح الإمبراطورية التركية، وأقيم فى الشرق إمبراطورية كبرى سوف تخلد اسمى للأجيال القادمة ربما سوف أعود إلى باريس عن طريق أدريانوبل أو عن طـــريق فييـــنا بعد أن أبيد الأسرة المالكة فى النمسا ». أنه لمن الواضح أن مغامراته فى الشرق قد تحولت إلى كارثة ذات مذاق كريه بالنسبة له، وأكثر مـــن ذلـــك أنـــه بعد مضى شهرين من حفر الخنادق، وزرع الألغام، والقيام بغـــارات مباغتة وقصف المدفعية المتبادل، واجه الفرنسيون خطراً مهلكاً من جانـــب عـــدو يحاربهم بقدر ما يستطيع. فطبقاً للإحصائيات لقى ما يزيد عن ألـــف رجـــل حتفه بسبب وباء الطاعون (مقابل ١٢٠٠ لقوا حتفهم على أيدى العدو) أما عدد المرضى والمصابين فقد بلغ ٢٣٠٠ رجل.

وجـــاءت اللحظة الحاسمة فى اليوم الواحد والخمسين من الحصار عندما ظهر فى الأفق أسطول كبير من العتاد التركى، وفى هذه الليلة قام نابليون فى بدمـــج رماة القنابل من كل الكتائب فى حائط بشرى سميك من جنود العاصفة Sturm Truppen، وقـــام بشن آخر هجوم عاصف، إلا أن هذه المحرقة التى اســـتغرقت عشر ساعات لم تجد من الأمر شيئاً بالرغم من أنه تمكن من رفع



لوحة تسجيلية رسمها الرسام بولوز Bulloz تصور
جانبا من معركة أبو قير (١٧٩٩) التى نجح فيها
نابليون فى ارغام الجيش التركى على الانسحاب إلى
البحر المتوسط



رســم للفنان آلكين Alken أحد الرســامين المعاصرين للأحــداث يبين الطريقــة التى كان يقاتل بها فرســـان المـمــاليك وقد هزمهــم نابليون فى معركــة الأهرامات (١٧٩٨)، ثم تخلص منهم محمد على فى مذبحة القلعة عام ١٨١١

علـــم الـــثورة الفرنسية مثلث الألوان لوقت قصير فوق أحد الأبراج، وما أن بدأت الإمدادات التركية فى النـــزول إلى البر، حتى بدأ يتضح أن هجومه باء بالفشـــل بشكل كامل حتى إنه لم يكن لديه خيار سوى أن يجمع شتات ما تبقى له من قواته الضاربة ويعود أدراجه عبر السهل إلى مصر.

بعـــد ذلك بدأ العدوان اللدودان فى استخدام أقلامهما كل على نحو يميزه، فقـــد كتب البحار (ويقصد سدنى سميث) وهو يلوى سكينة برشاقة فى الجرح يقـــول: « أيهـــا الجـــنرال إن الظروف تذكرنى لو أنك تأملت فى تقلب أمور البشر. هل حقاً مر على خاطرك أن سجيناً مسكيناً فى زنزانة فى سجل التمبل قـــدر له أن يرغمك على أن ترفع حصارك الذى ضربته حول نجع بائس يكاد أن يكـــون بلا حماية أو خط دفاع. وأنت وسط رمال الشام، يجب أن تقر وتعترف أن هذه الأحداث تفوق حسابات البشر صدقنى أيها الجنرال إن آسيا ليست مسرحاً لمجدك.. هذه رسالة تشفى القليل الذى أرضى به نفسى ».

أمـــا نابلـــيون الـــذى قيل أنه لم يغفر له ذلك فقد ذكر أنه كان مدركاً إدراكـــاً شـــديداً مدى تقلب أمور البشر وكذلك مدى أساليب التلاعب بالناس، فالبـــيان الـــذى أرسله إلى القاهرة كان محرفاً مثله كمثل أى بيان يصدر فى القـــرن العشرين، فقد أعلن للمصريين: « أننى خلال أيام سوف نبدأ المسيرة إلـــى القاهـــرة، وســـوف أجلب معى عدداً كبيراً من السجناء والبيارق التى اســـتولت علـــيها. لقـــد أطحت بقصر الجزار وأسوار عكا، وقصفت المدينة بالقـــنابل، حتى أن حجرا واحداً لم يبق في مكانه.. وولى السكان الهرب عن طريق البحر... أما الجزار فقد تلقى جرحاً قاتلاً ».

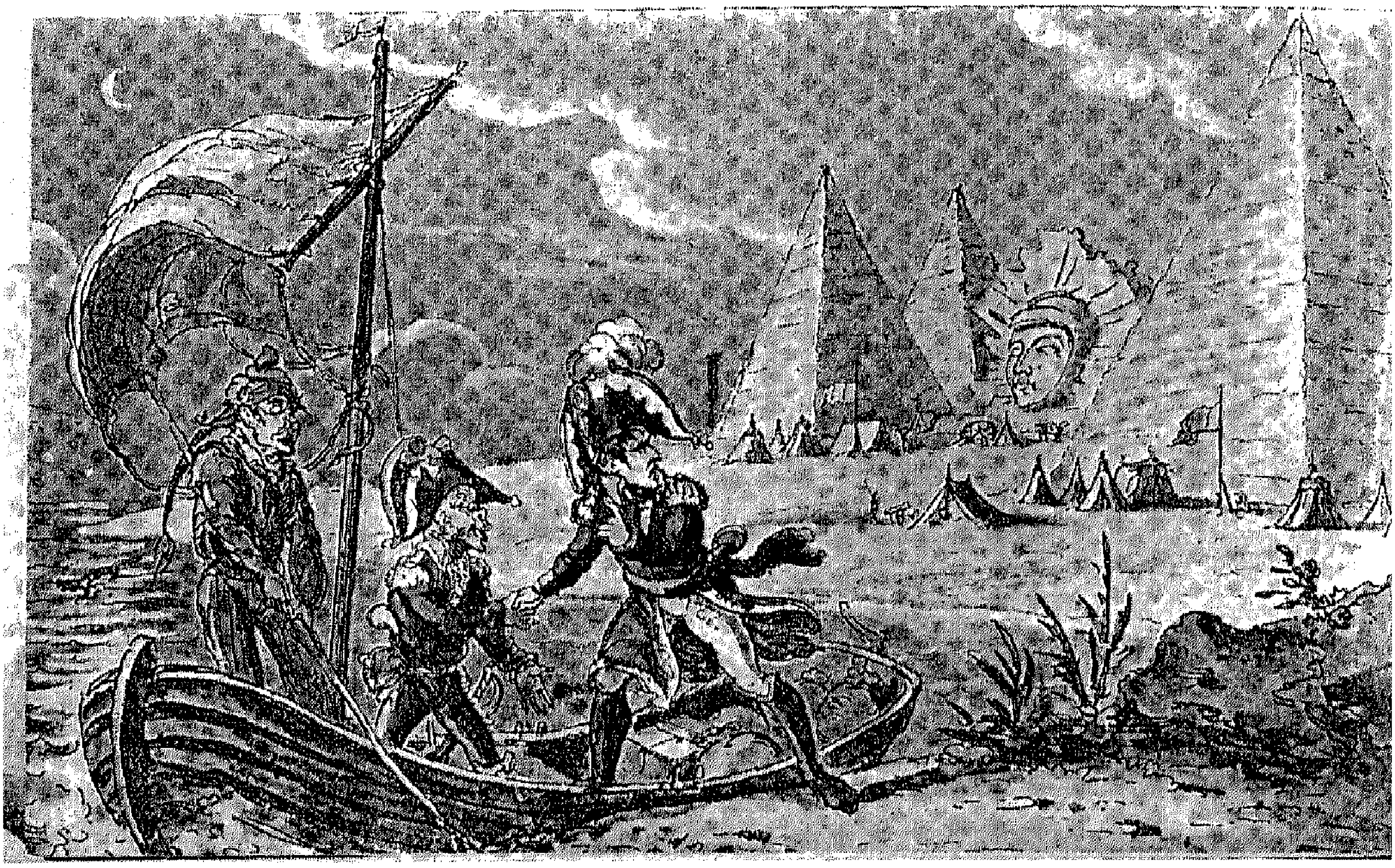
لقد كان الانسحاب الفرنسى إلى مصر كارثة محققة، فقد تركوا من ورائهم نيـــلاً متعرجاً من المرضى والعاجزين خلال سيرهم فى الصحراء، غير إن دخولهـــم إلـــى القاهرة لم يكن كذلك، بل كان موكب نصر كما يتمناه أى من الغوغـــاء، فالبـــيارق مـــرفوعة، والطبول تدوى مما جعل بقايا جيشه المنهك تقضـــى خمـــس ساعات لكى تشق طريقها عبر الشوارع التى تظللها أشجار النخيل، إلا أن الأمر لم ينطلى على المصريين تماماً، فقد أثار فضولهم بشكل

واضـــح أن يلاحظـــــوا مـــدى الشحوب والإرهاق الذى بدا على الجنود بعد تجربـــتهم فى الشام. وفـــى الشهر الثانى وجد بونابرت عذراً حقيقياً لكى يقوم بإجراء استعراض موكب نصر.

وأخـــيراً ظهـــر فى الصورة فى أبى قير جيش الأتراك الذى كان يجمعه حســـن بك مصطفى فى رودس. وقام بالاستيلاء على القلعة التى كانت تحتلها فصيلة فرنسية واحدة، وكانت ساعتها تحتل الشريط الضيق من الأرض الذى يشـــكل اللســـان الغربى للخليج بطريقة غير واضحة. وبشكل غير حاسم كان هجـــوم بونابرت وهو الهجوم المثير الذى كان لا يزال يتذكره بالحسرة والندم عـــن عكـــا، ولهذا شن هجوماً عنيفاً على مواقعهم المخندقة. وفى هذه المرة نجح فى تحقيق نصر فى ذلك اليوم.

ويقول السير سدنى سميث الذى وجد نفسه مرة أخرى فى خضم المعمعة: « وعندما كان الطابور الأزرق يتقدم للهجوم، رد على أعقابه خاسراً مرتين، غير أن عادة الأتراك البربرية فى قطع رءوس أعدائهم القتلى جعلهم يندفعون إلـــى الأمام غير مبالين وبطريقة غير منظمة، مما ساعد على انفجار بركان الغضـــب بيـــن مشـــاه الفرنســـيين الذين جمعوا شتاتهم، وقد تسببت عودتهم المفاجئة لمهاجمة المدافعين عن هذه الخطوط غير المتناسقة وغير المترابطة قلقاً لهم، وسرعان ما امتلأ البحر بمئات الهاربين الذين كانوا يسبحون نحونا، وكـــان من بين هؤلاء ضابط ألبانى شاب اسمه محمد على، وهو الذى أصبح فيما بعد حاكماً على مصر».

ومـــرة أخرى سار نابليون فى موكب النصر عبر شوارع القاهرة غير أنه فـــى هذه المرة كان يسير إلى جانبه مصطفى بك ذليلاً وأسيراً. غير أن ذهنه لـــم يكـــن فـــى القاهرة بل كان بعيداً عنها، ففى أثناء الإجراءات الشكلية بعد المعـــركة سلم السير سدنى كنوع من المجاملة المدروسة، أو ربما كنوع من الدهـــاء والخبث، لفافة من الصحف التى كان قد مر على صدورها شهران، ومنها عرف أن لعنة الله Gottendammerung والتى كان يتوقعها على الدوام، قـــد نزلت على الحكومة العاجزة فى باريس، فمقترحاته فى إيطاليا ردت على



رســم كاريكاتورى ظهر فى الصحف البريطانية فى ذلك الوقت يسخر من خروج نابليون مذعوراً من مصر من منظر الأهرامات وأبى الهول رداً على خطبته إثر مروره عند الأهرامات والتى قال فيها لجنوده: "إن أربعين قرناً مــن الــزمان تــنظر إليكم" الصورة من كتاب الدكتور ســنتاكس Syntax عن نابلــيون، وهى ضمن مجموعة ما نسل Mansell Collection فى لندن

أعقابهــا. ومــن خلال الخريطة بدت الجيوش الفرنسية وهى تتقهقر من كل جهــة، بل أن فرنسا ذاتها كانت في قلب المعاناة بسبب الصراع الأهلى، وأن الوطن La Patrie ذاته كان معرضا لغزو خطير حقيقى.

وفــى مصــر بــدا المســتقبل مظلمــاً، وعلى أى حل ماذا كانت تساوى انتصاراته على ضفاف النيل إذ ما قورنت بالسلطة والبريق الاستعمارى الذى يــتوهج باللونين اللازوردى والقرمزى والذى يستطيع أن يستنشقه فى باريس. إن هجــر جيشه يبدو أمراً بسيطاً فى مواجهة الخطر الشامل. فبعد ليلة واحدة قضــاها فى قراءة الصحف اتخذ قراره: فقد تظاهر بأنه يقوم بجولة روتينية لــزيارة الأقالــيم، وانســحب فى هدوء خارج القاهرة حيث أبحر تجاه فرنسا بصــحبة مجموعة قليلة من المساعدين انتقاها بحرص. وقد ظل رحيله سراً مغلقــاً جــتى أن كليــبر الذى عينه خليفة له - علم بأمرها من خلال رسالة تســلمها فى وقت متأخر بحيث لا يستطيع طلب تفسير وعلى نحو مميز كتب بونابرت: « عندما أصل إلى باريس سوف أطارد هذه العصابة من المحامين الذين خدعونا وسوف أدعم هذه المستعمرة الرائعة » ولكن فى الحقيقة لم يكن هناك أحد يعلم الحقيقة خير منه بأن حملته كانت عملاً فاشلاً.

وسرعان ما امتلأت قاعات الاستقبال فى باريس بالاسكتشات المثيرة التى تصــور انتصارات جيش النيل، وبدأ رسامو القصور ينجزون لوحات كبيرة على القماش الناعم تصور القاهر فوق صهوة جواده تحت سماء صافية وهو يــتأمل أبا الهول، أو تصوره وهو يبث الحمية فى قلوب رجاله الشجعان لكى يدوســوا بأقدامهم الأعداء من البشرة العاجية وهم يلتوون من الألم. غير أن الرســائل الــتى كــان يرسلها هؤلاء المحاربون إلى ذويهم فى الوطن والتى اعترضــها الأسطول البريطانى فى البحر كانت تصور جانب مخالفاً للرواية. فقــد كتب ضابط إعتلاه اليأس يقول: « إن مصر الجهنمية ليست سوى أرض قفــر تغطــيها الــرمال. فمنذ وجودنا هنا لم نفعل شيئاً »، بينما ناح آخر « باســمك اللهم Nom de Dieu أجلب لنا متاعنا والبراندى الخاص بنا، فالجيش كلــه قــد أصيب بالدوسنتاريا من شرب المياه المحلية باسمك اللهم نريد النبــيذ والبراندى والروم » وناح عقيد آخر قائلاً: «أننى أخشى أننا قد خدعنا

إلـــى أقصـــى حد بهذه الحملة التى يتباهون بها. إن أى منطقة مهجورة وغير مـــزروعة فـــى فرنســـا أجمل ألف مرة من هذه الأرض الموعودة تخيل مجموعـــة مـــن أبـــراج الحمام القذرة سيئة البناء إذا أردت أخذ فكرة عن الإسكندرية أما عن القاهرة أعلى وأكبر وأفخم مدينة فى العالم فهى أيضاً أكثر المدن ازدراء وأكثر حظائر الكلاب تعاسة على وجه الأرض ».

والـــذى لا شـــك فـــيه فأن الحملة يجب أن تسجل كعملية فاشلة. فبالنسبة للمصـــريين فهـــى ليســـت سوى مرحلة منقضية من مراحل تاريخهم سوف تصـــبح فـــى طـــى النسيان خلال سنوات قليلة، غير أن نتائجها كانت طويلة المدى، فقد ألقت بمصر فى حجر أوربا القرن التاسع عشر، فهى تشكل بداية الـــنهاية بالنســـبة للممالـــيك. وبفضـــل معهـــد القاهرة I institut du Caire وموســـوعتهم الـــرائعة Description de L'Egypte حدث انطلاق لمشروعات كبـــيرة. كما يعزى إليها الكثيرة من التأثير الثقافى الفرنسى الذى هو باق حتى الـــيوم. أما دارسو ظاهرة صعود الاستعمار سوف يلاحظون أنها كانت أولى المحـــاولات الصـــريحة الـــتى قام بها بلد أوربى لاستعمار هذه المنطقة. أما أولـــئك المعجـــبون بشخصية نابليون فسوف يعترفون أن مغامراته فى مصر كانت بمثابة رفع الستار عن النشاط المتوهج الذى تلا ذلك.

إن الـــترحم على نابليون فى مصر عبر عنه كليبر بإيجاز بليغ، إن لم يكن بطـــريقة رائعـــة أيضـــاً عندما وقف يقرأ رسالة الرجل الذى كان رئيسه: إذ انفجـــر غاضـــباً: «ابـــن الحـــرام التافه هذا قد غادر المعسكر وسرواله ملئ بهـــرائه: Ce petit Salaud foutu le camp avec ses culottes pleines de merde!.

وفـــى الســـابع من شهر مارس عام ١٨٠١ بعد مرور ثمانية عشر عاماً بالكاد انحنى شاب إنجليزى ذو وجه أحمر على جانب سفينة مبحرة فى خليج أبـــى قير، وانتهى به خياله المترقب إلى تلهف شديد الرعب، إذ شاهد طلائع قـــوة حملـــة السير رالف أبركرومبى Ralf Abercromby وهى تهم بالنزول ومهاجمة المواقع الفرنسية على الساحل.

وقـد كتـب مورجان مورجان كليفورد Morgan Morgan Clifford من الكتيبة الثانية عشرة من سلاح الفرسان خفيفة الحركـة light Dragoons فـى صـحيفته يقـول: « لقد شاهدنا قواتنا تتزاحم فى قوارب مفلطحة، وهم يجلسـون وبنادقهم عير محشوة، وغير قادرين على الرد على أى من النيران الكثـيفة الـتى كـانوا يتعرضون لها، وشاهدنا عدداً كبيراً من القوارب وهى تغرق أو تتمزق إرباً إرباً من فعل القذائف بينما كان الرجال يصارعون فى المـاء، وما أن وصلوا إلى طلائع العدو المتموج والذى كان آنذاك مختف حـتى اندفعـوا كالعاصـفة نحو الساحل: « لقد سمعنا ثلاث هتافات للجنود الإنجليز، ورأينا قواربهم تصل إلى الشاطئ ثم رأينا الجنود وهم يقفزون منها إلـى البر، واندفع العدو نحوهم، بينما كانت جماعة من فرسانهم تهاجم بعنف طلائعنا التى كانت على الجانب الأيسر وسرعان ما تحول الموقف إلى دخان وفوضى ».

وبعـد مرور ربع ساعة، انجلى الموقف إذ ظهر الإنجليز على المرتفعات فـى الخلـف وهم يتعقبون عدوا يتقهقر « الآن ساد الجميع المرح والسرور وبقـدوم الساعة العاشرة كانت قوة الحملة بكاملها قد نزلت إلى البر، وزحف أبركرومـبى Abercromby بعـد أن ضـمن لنفسه موقعاً على الساحل نحو الإسـكندرية. وبالقـرب مـن المكان الذى يقع فيه الآن نادى سبورتنج وقع التحامان دمويان، (وقد أبلغ القائد البريطانى عنهما بقوله « لم أرى فى حياتى مـيداناً وقد افترش بالجثث بمثل هذه الدرجة » وتنبأ مورجان كليفورد بأنهما سوف يقرران مصير مصر، والذى لم تستطع الكرة البللورية لقراءة المستقبل أن تتنبـئ عـنه وهـو أن ظهور العلم البريطانى Union Jack فوق الأرض المصـرية سـوف يبدأ قرناً ونصف قرن من العلاقات الأنجلو مصرية حتى تلقـى هـذا الرمـز - والذى كان حيناً محبوباً وأحياناً كثيرة مكروهاً - فى الـنهاية ضـربه قاضـية فى بورسعيد قبل يومين من عيد الميلاد بعد مرور ١٥٥ عاماً.

ومـن سخرية القدر إنه إذا كان الإنجليز قد وصلوا إلى مصر فى النهاية فـإن ذلك كان نتيجة لحالة من التشوش سادت مبنى الهوايتهول، فما أن هجر

بونابرت جيشه فى القاهرة لكى يصبح القنصل الأول فى حكومة باريس حتى كتــب السير سدنى سميث من موقعه المؤثر فى الميدان، يصف الموقف كما بــدا له وهو على ظهر Le Tigre (أى النمرة) كتب إلى قائده البحرى يقول: «إن لديــه الأدلــة الإيجابــية للقــول بأن كليبر هو أشد أعداء بونابرت مقتاً وكــرهاً، وفــى رأية أن آخر شىء يتمناه نابليون هو أن يرى كليبر وجيشه يعودان إدراجهما إلى فرنسا وأنه لو أمكن تسهيل خروج الفرنسيين من مصر فــإن ذلــك سوف ينقذ الجيش التركى من إبادة محتملة » إذ أنه لا أحد غيره يعــرف إلى أى حد كانت حالة الفوضى التى هم عليها بل سيكون ذلك بمثابة إطلاق قط جائع بين الحمام فى فرنسا.

كــان الجــنرال كليبر رجلاً متغطرساً من أبناء إقليم الألزاس وينتمى إلى المدرســة القديمة، تصالح مع الحكومة الثورية التى كانت يحتقرها فى قرارة نفسه، ويمثل القوة المضادة لنظرياتها الثورية، إذ لم يكن لديه الأحلام الكبرى التى كانت لدى سلفه، ولهذا كان دائماً فاتر الحماس إزاء الحملة على مصر، ولما تزايدت المصاعب أمام الاحتلال، زادت نظريته التشاؤمية، وسرعان ما أصبح تفكيره هو إخراج الفرنسيين من مصر بأقل الخسائر.

وفــى ضــوء هــذه الظروف لم يكن من العسير التفاوض لعقد اتفاق بين الأتــراك والفرنسيين والذى بمقتضاه يمنح الفرنسيون فرصة للانسحاب الآمن وبكــرامة مــن مصر فى غضون ثلاثة أشهر. وفى مطلع عام ١٨٠٠ ذكر الســير ســدنى الذى كان قد حقق نجاحاً فى الاستنباط عن طريق قلمه ما عجــز عــنه بتهوره عن طريق سيفه فى تقرير له رفعه إلى لندن يستهل بالسعادة بأن الفرنسيين يقومون بالجلاء عن مصر.

غــير أن الــرد جــاء مــن قيادة البحرية كصدمة غير سارة، فبينما كان الفرنســيون مشغولين فى الاستعداد لتسليم القاهرة إلى الأتراك، كانت فرقاطه فــى طــريقها إلى البحر المتوسط تحمل تعليمات صارمة من الهوايتهول بأنه يجــب ألا يسمح للفرنسيين تحت أى شروط من الشروط بمغادرة مصر ما لم يسلموا أسلحتهم ويستسلموا كأسرى حرب.

كـــان سكان القاهرة يراقبون رحيل الفرنسيين بفرح يصعب كتمانه وكانوا في حيرة من أن استئناف النشاط العسكرى المفاجئ والمحموم فى عاصمتهم. وأعلـــن كليـــبر - ذو الوجه الأحمر - لقواته شروط البريطانيين، وقال وهو يـــزأر من فوق منصة تغطيها الأعلام مثلثته الألوان: « أيها الرفاق ليس عند الجـــندى الفرنســـى غير رد واحد على هذه الاتصالات الوقحة... النصر » وقـــبل أن تهـــدأ أعصابه كان الفرنسيون قد أبادوا جيش الصدر الأعظم عند المطرية، وبذلك أصبحوا مرة أخرى وبحزم سادة على مصر.

ولمـــا وصـــلت أنباء هذا الكارثة غير المتوقعة إلى قيادة البحرية فى لندن بعـــد ثلاثـــة أشهر لم يتملكوا أنفسهم من الإحساس بالأسى، بأن السير سدنى ســـميث كـــان مسئولاً عن هذه الحالة من الأمور غير المقنعة. إذ قال مستر فوكـــس Fox وقـــد مـــلأه الغـــيظ: « لماذا تشغل مصر هذه الأهمية بالنسبة للفرنســـيين؟»، وهو أمر لم يكن قادراً على اكتشافه، وبالرغم من ذلك شعر: «أن شـــيئاً ينـــبغى عملـــه » وأعـــدت عدة مذكرات لتوضيح الأمر للوزراء المعنييـــن بالأمر. وفى الوقت المناسب اتخذ القرار بإرسال قوة سريعة تحت قيادة السير رالف أبركرومبى للتعامل مع الفرنسيين.

وفـــى أثـــناء ذلك اشتعلت ثورة أخرى فى القاهرة، فقد راح ما يقرب من ٦٠٠٠ تـــركى كانوا قد هربوا من المطرية وتسللوا إلى العاصمة يحرضون المواطنين على القيام بانتفاضة عامة ضد قوات الاحتلال، لكن بالرغم من أن الفرنسيين كانوا يستعيدون سيطرتهم بعد شهر من الاشتباكات، سويت خلالها ضـــاحية بولاق بالأرض، فقد وقع حادث أثارهم لدرجة أن كانوا على وشك من تدمير بالقاهرة بأكملها.

ففـــى عصر أحد أيام شهر يونيو المشجعة على النعاس، وبينما كان كليبر يتمشـــى بـــدون حراســـة فى حديقة قصر الألفى، وقعت حادثة اغتياله. فقد اســـتؤجر شـــاب عربى مسلم من حلب للقيام بهذه المهمة التى حرضه عليها ضـــباط أتـــراك فـــى فلسطين، إذ تسلل إلى الجنرال كما لو كان يطلب منه صـــدقة، ثم طعنة بالسكين أربع مرات مـــات كليبر على أثرها. وعندما شاع

الخبر، اندفعت القوات الفرنسية مسعورة، فقد كتب سارجنت (رقيب) لأسرته متشفيا يقول:« لقد مزقنا بسيوفنا كل من صادفنا من الرجال والأطفال ». أما الجبرتى الذى كان مرعوباً مثل أى فرد آخر من الانتقام الذى يتلو ذلك، فقد اعتلته الدهشة أن سليمان الذى اعترف بجريمته قدم لمحاكمة رسمية بدلاً من قتله على الفور، غير أن النتيجة كانت واحدة، فقد نفذ حكم الإعدام فى سليمان (ومعه عدد قليل من المشايخ لأسباب معقولة) بطريقة شملت كل أنواع التعذيب التى قدرت المحكمة على التوصية بها - لقد ظن (سليمان) أنه ضرب ضربته من أجل الحرية، ولكن من باب السخرية أن العمل الذى قام به لم ينتج عنه سوى شئ معاكس وهو مد فترة الاحتلال. إذ خلف كليبر الذى كان كل همه إخراج جيش بلاده والعودة إلى فرنسا - مينو Menou وهو رجل قصير القامة، سمين، يبدو من هيبته أنه أقرب إلى هيئة " الفطاطرى " منه إلى هيئة جنرال. وكان مفتوناً بالبقاء فى مصر لدرجة كبيرة حتى أنه اعتنق الإسلام رسمياً، وغير اسمه إلى عبد الله مينو بل وتزوج من فتاة مصرية(*).

لم تسفر الخمسة عشر شهراً من الاشتباكات التى كان من أهم معالمها المعارك الدامية خاصة حول الإسكندرية عن شيء سوى توكيد الوقوع فى ورطة. وما أن اقترب عام ١٨٠٢ حتى خارت قوى الطرفين لدرجة أن مينو كان مستعداً للترحيب بقبول معاهدة أميان Amiens والتى بمقتضاها يجلو عن مصر كل من البريطانيين والفرنسيين على طول الخطوط التى كان السير سدنى سميث قد أعدها من قبل إلى حد كبير. إن الحقيقة العارية هى أن الحملة على مصر بعد مغادرة نابليون، كانت قد تضاءلت إلى ما يشبه الاستعراض الجانبى. لكن ابن الحرام التافه Petit Salaud كان قد أعطى للحملة وضع النجومية ولا شيء غير ذلك.

وبالتالى كان قد مهد الطريق - وهو لا يدرى - لخليفته محمد على الذى أصبحت سيرته هى سيرة مصر طوال نصف القرن التالى.

(*) هى زبيدة بنت محمد البواب، (صورة عقد الزواج معروضة فى متحف رشيد).

الفصل الرابع

مؤسس الأسرة العلوية

وبينما كان الفرنسيون يطاردون جنود الحملة التركية ناحية البحر فى أبى قـير ١٧٩٩ تمكن السير سدنى سميث الذى كان قد نجا بالكاد من الموت من أن يـنقذ جـنديا كان على وشك الغرق بسحبه إلى قاربه الصغير، وقام بعمل تـنفس صـناعى لذلـك الشاب الألبانى ذى اللحية الكثة والعينين الرماديتين الخارقتيـن، ثم نقله فى أمان إلى سفينة القيادة معتقدا أن هذا الشخص القصير المزرى النظر سوف يسلم الروح خلال خمس دقائق على الأكثر.

هكـذا دخل إلى المسرح المصرى ذلك الرجل الذى قدر له أن ينجح فيما فشل فيه نابليون، فعن طريق سلسلة الإنجازات الصارمة والحاسمة تمكن هذا الجـندى الألـبانى غـير النظامى من أن يفرض نفسه سيدا على البلاد، وأن يكون المؤسس لمصر القرن التاسع عشر بكل النوايا والأهداف. فبينما تفاخر الإمـبراطور أغسـطس أنـه تسلم روما مدينة من الطوب وتركها مبنية من الـرخام، كـان فـى مقدور محمد على أن يقول أنه وجد مصر فى حالة من الفوضـى وتـركها بلدا مستقرا. لقد كان دكتاتورا من الطراز الشرقى القديم امتد نفوذه بعيدا خارج حدود الدلتا. فقد ضم الأماكن المقدسة فى بلاد العرب، ونشـر الذعـر فى السودان، وأحدث الخراب ببلاد اليونان، ومد سلطانه إلى حـدود تركـيا ذاتهـا، حتى أنه فى ذروة انتصاراته كان ملكا بكل صفاته لا ينقصـه سـوى اللقـب، ويمـتلك إمبراطورية توازى امتدادها إمبراطورية الـبطالمة. فقـبل ظهـور لينيـن و مـاو بقرن كامل، حول محمد على مصـر إلـى الدولة المزرعة الواحدة Single State Farm; جاعلاً من نفسه أكـبر ملاك الأراضى والتاجر الأوحد. وعلى طول خمسة عقود من الزمان غطت سيرته أحـداث الشـرق الأوسـط. خالقـا ما اصطلح على تسـميته بالمسألة المصرية التى سببت خلقا لحكومات أوروبا.

ولكن بطريقة غريبة شاء القدر أن يمكن هذا الصبى المتنمر الذى جاء من

مقدونيا ليؤسس أسرة حاكمة استمرت تتوارث العرش حتى عام ١٩٥٢، كما آل على نفسه بالرغم من نفوذه ومهارته الدبلوماسية ألا يأخذ الخطوة الأخيرة بـإعلان اسـتقلال مصـر الكـامل،إذ ظل حتى النهاية حاكما تابعا لمولاه التركي،وبوضـعه العـربة أمـام الحصـان، حـول محمد على مصر إلى إمبراطورية قبل أن يجعلها أمة فعلا.

وكمـا اعتاد أن يروى لزواره أنه ولد فى نفس العام الذى ولد فيه نابليون (عـام ١٧٦٩) وفـى نفـس المكان الذى ولد فيه الإسكندر وهو ميناء كافالا الصـغير Cavalla فى مقدونيا لكننا لا نعرف سوى القليل عن أصوله، لكن يتضح أنه عانى مرارة اليتم منذ نعومة أظفاره، وتولى رعايته عمدة المدينة، الـذى زوجه وهو فى سن الثامنة عشرة من إحدى قريباته الثريات. وبعد أن أثبـت جدارته كعامل ضرائب ومكوس، وأظهر كفاءة أكبر كتاجر تبغ، شعر أنـه قـد ضاق ذرعا بالبقاء فى كافالا، فتقدم للتطوع كضابط فى الكتيبة التى أرسـلتها تركـيا للانضـمام إلـى البريطانيين لطرد الفرنسيين خارج مصر وعـندما غادر الإنجليز والفرنسيون مصر عام ١٨٠٢ بعد توقيع اتفاق أميان Amiens استمر محمد على فى خدمة الباشا الذى عينته تركيا لحكم البلاد.

وما أن اختفى البريطانيون والفرنسيون حتى انفجر بركان الفوضى، وذلك عـندما بدأت التحزبات السياسية المتنوعة فى الدخول فى صراع مسعور من أجـل السـلطة. ومـن بعيد وبقدر ما استطاعت حاولت القوى أن تأخذ جانبا معيـنا، فقد ساندت فرنسا الألبان، بينما ساندت بريطانيا المماليك الذين كانوا قـد فقدوا بطشهم العسكرى الحقيقى منذ معركة الأهرامات، بالرغم من أنهم كانوا من الناحية الفعلية يسيطرون على البلاد، ولقد كان جليا بالهوايتهول أن تناصـر بشـدة هذه الطبقة الأرستقراطية المثيرة بالرغم من أنها كانت فى مـرحلة الاحتضـار. وكان الألفى بك الذى لفت بأبهته أنظار لندن حيث كان يـروح لإنشاء شركة تتولى الإشراف المالى على ثروته فى مصر هو مرشح بريطانيا لمنصب الباشا.

وفـى نظـر محمد على – الذى أصبح الآن الرجل الثانى فى قيادة الفرقة

الألبانــية – أن هــذه التحزبات كانت تتقاتل من أجل هدف واحد لا يزيد عن السـلطة لكــى ينغموا فى أعمال اللصوصية المشروعة. ولكونه يدرك أهمية موقــع مصــر الاســتراتيجى والتجارى ودورهما كممر حيوى لبلاد العالم، ويرســم الــبحر والصحارى حدودها الطبيعية وعلى وعى بخصوبة أرضها، وســهولة انقــياد شــعبها، فقد كان مفتونا بالمجال الشاسع للقوة التى تعطيه مصر. ولم يمر وقت طويل حتى بدأ يخطط للإمساك بفرصة العمر.

لا تذكــر الســجلات اسم صاحب الخنجر الذى تم به هذا الحدث، لكنها تذكــر أنــه فى فجر أحد الأيام، ألقى برأس تخرير صديقه وقائده من إحدى نوافــذ القاهرة وبالتالى أصبح محمد على الذى يليه فى المرتبة – على رأس قــيادة القــوات الألبانية – وكما يشرح ألان مورهيد Alan Moorehead فى كــتابه النــيل الأزرق The Blue Nile وعن طريق هؤلاء الجنود الأجلاف، الذيــن سرعان ما أصبحوا حراسة الشخصين أمكن إعطاء تأييده ومناصرته لكــل مــن الأتــراك والمماليك خلال الحرب الأهلية، وفى نفس الوقت كان يــتظاهر بأنه ليس سوى رئيس الشرطة يتولى حفظ النظام فى العاصمة وأنه صديق حميم للمصريين. ولا يفوت على أى دارس لسير المغامرين وزعماء التحزبات أن يلحظ مدى براعة وقوة مناورات هذا الرجل الماكر. فهو يرقب مــن على جانب الملعب بعين لا تبالى ولا تغفل كعين السحالى حتى يضرب ضــربته فــى الوقــت المناســب ففى بادئ الأمر كان يؤيد المماليك ضــد الأتــراك، ثــم بعد ذلك لما وطد المماليك أنفسهم مرة أخرى فى السلطة، قام بإجــبار زعــيمهم البرديســى على جمع ضرائب باهظة لدفع رواتب جنوده الألبان لدرجة أن القاهرة انفجرت مرة أخرى فى ثورة، عندئذ قام هو بتهدئة أعمال الشغب عن طريق إجبار البرديسى على تخفيف الضرائب بطريقة فيها شىء من التباهى، ثم قام بمطاردة وجود المماليك إلى خارج القاهرة، كما قام بمصادرة ممتلكاتهم.

كــل ذلــك أنجــز ببراعة باسم السلطان، فقد كان محمد على حريصاً كل الحــرص فــى جميع تصرفاته أن ينافق الباشا التركى خورشيد الذى كان فــى السلطة من الناحية الاسمية فقط، غير أنه فى نفس الوقت بقيامه بفرض

النظام فى الشوارع فقد قدم نفسه للجماهير كزعيم لها، وفى هدوء كون لنفسه أتباعا من بين الشيوخ ومن الطبقة الوسطى شبه المتدينة ومن صغار تجار السوق. وهؤلاء هم المصريون الحقيقيون الذى كانت عواطفهم الوطنية تتأجج، وهم الذين سوف يأتون فيما بعد بعرابى وزغلول وناصر إلى السلطة. لقد كانت مساندتهم أمرا ضروريا فى صراع القوة الأخير الذى لم يعد هناك وقت لتأجيله. ففى المحافظات كان قطاع الطرق وعصابات اللصوص تنهب الفلاحين حتى أنهم هجروا قراهم. وفى القاهرة نفسها كانت جنود الأنكشارية والمماليك والباشيبا زوقBashiba Zouk، ورعاع الجند من كل صنف ونوع تقوم بنهب المتاجر وانتهاك حرمة الحريم. وهو أمر يفوق طاقة التحمل لدى المصريين الذين طالما عانوا من الظلم والاضطهاد.

وفى صباح أحد أيام شهر مايو علم ١٨٠٥ جاءت الضربة الساحقة عندما فاض الوعاء بما فيه، بحيث لم يعد فى مقدورهم التحمل أكثر مما كانوا فيه، فقد تجمهر شعب القاهرة يقودهم المشايخ، ورؤساء الحرف المختلفة فى جمع غفير أمام بيت القاضى مقر المحكمة وقدموا شكوى ذات ضجيج وصياح للعرض على الحاكم وطوال اليوم كانت الأسواق تغلى وتزيد كلما اشتدت المظاهرات، ولما لم يرد الحاكم على شكواهم، اتجهت الجماهير إلى بيت محمد على، وراحوا يتصايحون مطالبين بأن يكون الباشا عليهم. وباسم الشعب قام الشيخ الشرقاوى إمام الأزهر والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف بالقيام فيما يشبه بأول مظاهرة حقيقية للضمير الوطنى المصرى، تنادى بعزل الحاكم التركى وإلباس محمد على عباءة من الفرو وقفطان الباشا[1] استنادا إلى استقامته وأريحته وطبقا للشروط التى وضعها الناس وقد تم بطريقة أثارت دورفيتى Dorvrtti القنصل الفرنسى حتى أنه أرسل تقريرا حاد إلى باريس عن ذلك الشعب الذى لم يسمع حكاية الضفادع التى طالبت بأن يكون لها ملك.

(١) عبد الرحمن الجبرتى – نفس المصدر – ص: ٤٧٩ – ٤٨٠.

أما بالنسبة للحاكم التركى فقد كان ما حدث إهانة لم يسمع بها أحد من قبل فقــد أثــارت ثائــرته أن يرى الفلاحين وهم يخذلون قوة الباب العالى، فوجه مدافعه من أعلى القلعة نحو الجماهير القابعة عند سفحها، غير أن محمد على لــم يكن يسمح أن يوقع به بمثل هذه الطريقة السهلة، فوجه هو الآخر مدافعه إلــى أعلــى تلال المقطم ثم قام بمحاصرة الباشا التعس فى القلعة ذاتها، وفى اللحظة المناسبة قام الباب العالى بطريقته المترفعة البرجماتية المعتادة بتثبيت تعييــن محمد على خليفة للباشا وبذلك سمح أم يتخذ الفلاحون الأميون، ذوى الطبــيعة ســهلة الانقــياد، والــذى طالما احتقروهم بعد قرون من الخضوع والخــنوع خطــوة إيجابية لتوكيد حقوقهم هكذا بالرغم من أنه كان تابعاً للقسطنطينية إلا أن محمد على أصبح حاكماً بناء على اختيارهم الشعب -.

فــى الإمبراطورية العثمانية، كان حصول شاب غامض يعمل تاجراً للتبغ علــى الســلطة أمر، والاحتفاظ بها أمر آخر، فبعد شهور قليلة ظهر أسطول صــغير قــبالة الإســكندرية يحمــل فرماناً إمبرطورياً بنقل محمد على إلى ســالونيكا بالــيونان ولم يتم التغلب على هذا الموقف الكريه إلا عن طريق قــبول الأدمــيرال الــتركى رشــوة مقدارهــا ٤٠٠ كيس وهى تمثل ثروة شخصــية لمــرابى قبطى صادرها محمد علىّ على عجل لإغراء السلطان الــذى كان اهتمامه بمصر فى المقام الأول اهتمام المرتزق منها، وأنه يمكنه توقــع المــزيد مــن الأموال من جانب محمد على أكثر مما يتوقع من جانب المماليــك. وبــالفعل تم فى نوفمبر عام ١٨٠٦ تثبيت محمد على مرة أخرى كباشا على مصر .

لكن لم يكد تمر أربعة شهور حتى واجه تحديا خطيراً.

فــبعد محاولــة فاشــلة لإغراء السلطان للانضمام إلى جانب الروس ضد فرنســا والتى بلغت ذروتها فى ضربة مباغتة فى الدردنيل تم إحباطها، قرر الإنجلــيز الذيــن عــادوا مرة أخرى للخصام مع تركيا أنه من المفيد لهم أن يضعوا أيديهم على مصر. وكانت حجتهم أنه لم تم إعادة الألفى بك ومماليكه إلــى الحكم،فــإن بريطانيا لن تصبح صاحبة السيادة على السواحل المصرية

فحســب، بــل يضاف إلى ذلك المزايا التجارة البحتة. وعلى ذلك فقد أرسل الجــنرال فريزر على رأس حملة تحمل ما اتفق عليه فى المصطلح الرسمى حملة استطلاع A. Re-Connoiterring Expedition لكى يرى ما يمكن القيام به. لقد كان يدرك تماماً أنه من الصعب عليه أن يتوقع من جانبه فتح بلد بقوة محدودة تعدادها ٧٠٠٠ رجل فى حين فشل نابليون فى تحقيق ذلك بقوة تربو علــى خمســين ألــف رجل لكنه كان يمتلك تعاوناً نشطاً من جانب المماليك لتمهيد الطريق أمامه.

لم يخف محمد على – الذى كان فى صراع مع المماليك فى صعيد مصر فــزعه فقد وضعت السروج على الخيول للهرب شرقاً إلى فلسطين فى حالة الضــرورة ، إلا أنــه كــان يحتفظ بخدعة أخرى فى جعبته. إذ تصادف أن مــات الألفــى والبرديســى فجأة فى وقت واحد من جراء عسر الهضم بعد احتســاء القهــوة[1]، وعلى أثر ذلك قام وفد من المشايخ والعلماء من القاهرة بمســاعدة محمــد علىّ على تسوية خلافاته مع ما تبقى من المماليك، ودوت فــتوى العلمــاء فــى المساجد أنه ليس للفرنسيين ملة أو دين فى حين أن الإنجليز مسيحيين أنقياء يكرهون الديانات الأخرى، وليس من العدل أن تقفوا إلــى جانــب الكفار ضد المسلمين وقد تبسم المرء لهذا المنطق، إلا أنه كان المنطق السائد. ومن ثم كان على البريطانيين أن يخوضوا المعركة وحدهم.

وكما فعل بونابرت، رست سفنهم عند شاطئ العجمى، وبعد أن تم احتلال الإســكندرية دون أى مقاومــة، أرســلت وحدة إلى رشيد، ويروى مصرى عاصــر الحدث بأنهم دخلوا فى الصباح الباكر دون طلقة نار واحدة، وراحوا يمشون الهوينا فى الشوارع الضيقة كما لو كانوا يقضون أجازة .

وما أن بلغت حرارة الشمس ذروتها، حيث راحت القوات فى زيها الأحمر الخــانق تتســاند علــى الحوائط المتشابكة من فرط الإعياء وليتفادوا حرارة القــيلولة. حــتى أعطــى القائد المصرى الإشــــارة، عندئذ انهال وابل من النــيران القاتلة من كل نافذة ومن كل عتبة بيت أو ناصية شارع. ثم واجهت الوحــدة التعسة فجأة أشخاصاً معممين يلوحون بسيوفهم البتارة، حيث أخذوا

على غرة، ولقى الضابط القائد الجنرال وشوب Wauchope وبضع مئات من رجاله مصرعهم قبل أن تتدحر الوحدة فى حالة من الفوضى العارمة بقدر ما استطاعت عائدة إلى الإسكندرية.

وفـــى القاهرة، سرت أنباء هزيمة الكفار سرى الكهرباء، مما أتاح لمحمد علـــى الفرصة التى كان فى حاجة إليها ليعاود الظهور على مسرح الأحداث، فقد انضم إليه حتى أشد المماليك تشككا فيه، وسار كل من كان فى مقدرته أن يســلح نفســه وراء الجــيش الــنظامى إلى رشيد، تحثهم خطب عمر مكرم والعلماء. وهنا قام الجنرال ستيورات Stewart ومعه الفصائل ٣١، ٣٥، ٧٨ من المشاة بأخذ مواقعهم فى منطقة الحماد وفرضوا حصاراً على المدينة. ولم يكــن فى استطاعة الجنرال الحصول على الخيول من الإسكندرية، ولم تكن انفعالاتـــه – وهو يراقب قوات محمد الحربية المتدفقة حماساً – وهى تتدفق أمامـــه تحمـــل أدنـــى قدر من السرور بأى حال من الأحوال. وشن الفرسان المصـــريون هجومهـــم تملأهـــم الثقة بالنفس، وخلال معركة استمرت ثلاث ســاعات أوقعـــوا بهـــم واحـــدة من أكبر الهزائم المهينة التى خبرتها القوات البريطانية فى الشرق.

لقـــد نجحـــت القـــوة الـــبحرية البريطانـــية من منع وصول أنباء الهزيمة إلى أوروبـــا. غـــير أن الـــرأى العام فى إنجلترا الذى كان قد أبلغ كثيراً من الأخبار غـــير الســـارة القادمـــة مـــن قارة أوروبا كلما استمر نابليون فى طريقه الذى لا يـــرحم أصـــيب بصدمة عنيفة عندما علم أن خمسمائة جندى بريطانى قد سيقوا كأســـرى فـــى أســـواق الرقيق بالقاهرة يحفهم من الجانبين رءوس عدد كبير من رفـــاقهم القـــتلى محمولة على أسياخ. ولما وجد أنه عاجز عن شن هجوم شامل لـــم يكـــن أمـــام فريـــزر من فرصة سوى أن يطلب التفاوض، وكان محمد على ســـعيدا جـــداً بقبولها لأنه كان يتوقع فعل عنيف من جانب بريطانيا. وفى سبتمبر أبحـــرت القـــوة الاســـتطلاعية عائدة. وكان الأثر الوحيد الذى تركته من ورائها هـــو شـــــاهد قبر جندى من الفصيلة ٧٨ وهو موجود حاليا فى فناء البطريركية اليونانـــية بالإســـكندرية. أما بالنسبة لمحمد على الذى كان قد قاتل جنبا إلى جنب مـــنذ ســـت سنوات سبقت – مع أبروكرومبى – فقد اعتبر ذلك نصراً ذا قيمة لا

حـــد لهـــا. فخلال أسبوعين توقف وصف الباشا بالمغامر أو قائد الباشيبازوق بعد أن أصـــبح قـــوة يعمـــل لها ألف حساب، إذ لم يعد ينظر إليه كألبانى أجنبى، بل بطـــلا مصـــريا خالصاً ومدافعاً عن مصر الإسلامية ضد الكفار. وعلى الجانب الآخـــر كـــان بكـــوات المماليـــك يتآمرون مع البريطانيين ضد الباشا قد أحرقوا مراكـــبهم. وإلـــى أن يحيـــن موعد حسابهم تركهم محمد على لفترة من الزمن، بيـــنما راح يخطـــط لضربة قاضية Coupe de grace لتصفيتهم كلية وللأبد. لقد كان يوم تصفية الحساب مع المماليك آت لا ريب فيه.

ثـــم حـــل يوم الانتقام، ولقد علق الدكتور برونج Dr. Bowring – عضو مجلـــس العموم الإنجليزى والذى جاء فى بعثة إلى مصر – على هذه الحادثة فى تقريره على ما حدث فى عصر يوم الجمعة الموافق الأول من مارس عام ١٨١١ بقولـــه: إن كل نقطة دم سفكها محمد على فى ذلك اليوم أنقذت أكثر مـــن إنســـان بـــرئ كما ذكر أيضاً فى تقريره الذى رفعه إلى مرءوسيه فى لـــندن أنـــه نـــادراً ما شهد شعب القاهرة مثل هذا المنظر المبهر، فقد كانوا يـــتزاحمون فـــى الســـاحة الكبرى أسفل القلعة، ويتدفقون نحو الأسواق، أما المـــتفرجون فقـــد كان يدفعون بعضهم بعضاً على طول الطريق الذى سوف يســـير فيه الاستعراض العسكرى. أما المناسبة فهى الألغام على طوسون بن محمـــد علـــى وكـــان صبياً فى مرحلة ما قبل العشرين من العمر ببدلة التشريفة وهو فى طريقه إلى الجزيرة العربية على رأس حملة للاستيلاء على المدينتيـــن المقدستين مكة والمدينة، ووجهت الدعوة إلى كل بكوات المماليك وأتباعهم. وما أن انتصف النهار حتى شرع ركبهم الذى يتكون من خمسمائة راكـــب يصـــحبهم أتباعهم فوق خيولهم المطعمة بكل ثمين وغال. ثم صعدوا المدخل المنحدر، وعبروا بوابات القلعة المحظور دخولها، والمزينة بالرايات والشـــعارات الدينية. ولم يتخلف عن الحضور سوى إبراهيم بك ذلك العجوز الحـــذر مثل الثعلب فى الحكايات الشعبية، فقد بلغ به الحرص على ألا يغادر حصـــنه فى بنى سويف وبعث برد غامض معددا أولئك الذين قادتهم أقدامهم إلـــى عريـــن الأسد. أما بالنسبة للآخرين فقد كانت مناسبة مرحة تعيدهم إلى مـــباهج القاهـــرة، وأشـــار إلى أن الباشا كان يظهر حتى وقت ليس بالقصير

ســلوكا يمــيل نحو المصالحة مع المماليك الذين كانوا قد انسحبوا إلى أقاليم مصـــر العلــيا منذ عام ١٨٠٧، وشغلوا أنفسهم بضم المزيد من الأفدنة إلى أراضيهم أكثر من اهتمامهم بإثارة المشــاكل السياسية. بالإضــــافة إلىذلك فإن تقـــاليد الضيـــافة تؤمن لهم الحماية وأن الباشا إذ كان يدور فى ذهنه أمر فهو على الأرجح أن يقدم لهم غصن الزيتون.

وأكد حدسهم ذلك الترحيب الحار الذى لاقاهم فى القلعة، إذ استقبل محمد علـــى باحــتفاء غامــر ضيوفه فى بهو الاستقبال الكبير، مصافحا كل واحد بــدوره. ثم قدمت القهوة والحلوى، ومررت النرجيلة عليهم، وتم القيام بأداء الواجــبات التقليدية، لكن ما أن انسحب الباشا وفى صحبته المشايخ والقضاة وغــيرهم من كبار المستخدمين ليفسحوا الطريق أمام الاستعراض العسكرى، حــتى لاحظ بعض الناس أن وجه الباشا الذى كان فى العادة متورداً بدا أكثر شحوبا.

وفـــى الوقـــت المحدد بدأ الاستعراض يتهيأ بحيث كان المماليك فى مكان الشـــرف فى الوسط، وتحرك موكب الفرسان على خيولهم المبهرجة ببطىء نحـــو الممر المتعرج المنحدر والمتجه إلى بوابات المدينة القلعة كان يتقدم الموكب فرقة من الأكراد ومن خلفهم بعض الأنكشارية، يليهم الألبان، يتبعهم المماليك فوق جيادهم وقد راحت أرديتهم المطعمة بالجواهر النفيسة وأسلحتهم تتلألأ فى ضوء الشمس ويأتى فى مؤخرة الموكب السرايا التركية. ولقد كان من السهل أن يلاحظ أى فرد أن الجنود الألبان كانوا متميزين بشغلهم المواقع الهامـــة علـــى طـــول الطريق الذى يمر به الموكب، لكن المماليك لم يشموا رائحـــة الغـــدر إلـــى عندما أغلقت بوابة الغرب فجأة، وفى نفس اللحظة فتح الألـــبان الـــنار، ثم شرعت الفرقتان التى فى المقدمة وتلك التى فى المؤخرة بـــالهجوم، ووجد المماليك أنفسهم وقد وقعوا فى كمين من النيران القاتلة التى انهالـــت علـــيهم من كل جانب، لقد كانت سيوفهم البتارة عديمة الجدوى فى مواجهـــة البـــنادق، وتحـــول الممر الضيق إلى جحيم من الخيول المضطربة والرجال الذين يتصارعون من أجل النجاة ولم يستغرق ذلك الحادث أكثر من

خمس عشر دقيقة، غير أنه من خلال هذه الدقائق الخمسةعشر تم استئصال الطبقة العسكرية التيأمسكت بقبضتها هذا البلد لقرون طويلة وبطريقة لا تعرف الرحمة إلى قلبها سبيلا.

وعندما صفا الجو من الغبار، انتشر جنود الباشا فى المدينة بوجه عابس بعد أن خلفوا وراءهم منظراً يشبه سلخانات الجزارين، وراحوا يعملون قتلا ونهباً، وسرت شائعة فى الأسواق التى سادها الذعر أن المماليك قد هلكوا عن أخرهم، ودار الهمس أن واحداً من البكوات – واسمه أمين – نجا بمفرده من المذبحة إذ تسلق المتاريس وهو فوق صهوة جواده، ثم قفز فى الهواء خمسين قدما ليستقر على الصخور القائمة أسفل المكان ثم توجه هارباً إلى الصحراء، وبذلك وضع النهاية الأخيرة لملحمة المماليك.

وفيما بعد روى الطبيب الخاص بالباشا – وهو من جنوة – لأسرته جانباً مما حدث أن محمد على كان يقطع مجرته الصغيرة على قدميه جيئة وذهابا، وعندما جاء له بالأخبار وهو يتمتم بتدلل: ياله من يوم عظيم لجلالتك لم يرد عليه الباشا إنما كل ما نطق به هو: ماء.. ماء.

ولقد سجل شاب إيطالى من قرية زيللو Zello القريبة من فيرار Ferrar والذى كان فى القلعة من بين أفراد الفرقة الألبانية. سجل وصفاً لتلك المجزرة الأسطورية من موقعه فقد كتب يقول: بدأ قرع الطبول قبيل الفجر على طول المدينة وعرضها، تدعو القوات للتجمع من أجل القيام باستعراض كبير، قليل منا كانوا قد تلقوا إفطاراً مسبقاً عن ذلك. ومن ثم فقد هرول الجميع من كل جانب للاستفسار عما يحدث، ثم صدرت الأوامر لهم بالتوجه إلى القلعة، ولما وصلوا إليها وضعوا فى مواقعهم هناك.

ولم يكن هناك أى أوامر قد صدرت، غير أن كل فرد كلف بمهمة بشكل صارم بعد فحص سلاحه، وأمر بألا يغادر موقعه تحت أى ظرف من الظروف وأن يظل فيه حتى صدور تعليمات أخرى.

ثم اقتربت ساعة الاستعراض، وقد اصطف ما يقرب من خمسمائة ضابط

من المماليك من ذوى الرتب العليا والصغرى فى طابور وهم يقدمون أنفسهم عـــند بوابـــة القلعة ثم سمح لهم بالدخول. وقد قاموا باستعراض رائع، وكان يـــتقدمهم ثلاثـــة من كبارٍ قادتهم من بينهم صايم بك Saim Bey هكذا دون اســـمه الذى كان متميزاً عن الآخرين فعندما دخلوا مباشرة نحو القصر الذى يشـــغل أعلـــى موقـــع، وما أن أعلن عن وصولهم لمحمد على وحسون باشا اللذيـــن كانـــا معـــاً فـــى حجرة المداولة، حتى صدر على الفور أمر بإدخال الـــزعماء الـــثلاثة حيـــث استقبلوا بالحفاوة والترحاب الفياض. ودخل معهما الباشـــا وصـــاحبه فـــى حوار لوقت ليس بالقصير تبودلت خلالها الكثير من المجاملات والرقة.

"وبعـــد وهلـــة وطبقاً للتقاليد الشرقية، أحضرت القهوة، وأخيراً النرجيلة، وفـــى اللحظـــة التى كانت تقدم فيها هذه الأشياء، وقف محمد على وانسحب، كمـــا لو كان ذلك جزءا من الأيتكيت أو لإعطاء ضيوفه الإيحاء بالاسترخاء، ثـــم اســـتدعى على انفراد قائد حرسه. وأعطى أوامره بإغلاق بوابات القلعة، مضـــيفاً بأن تطلق النيران بمجرد أن يخرج صايم بك ورفاقه ليركبوا جيادهم حـــتى يسقطوا صرعى، وفى نفس الوقت تعطى الإشارة للقوات فى مواقعها فـــى كافة أنحاء القلعة بتوجيه بنادقها نحو أى مملوك يأتى فى نطاق نيرانهم. وفـــى نفـــس الوقت أرسل الأوامر إلى ما كانوا فى المدينة أسفل القلعة، حتى هـــؤلاء الذين كانوا يعسكرون خارجها حول سفح الحصن، أن يتابعوا أعمال التصفية لجميع الشاردين منهم أينما وجدوا حتى لا يهرب أحد من العدو الذين أبيحـــت دماؤهم وأموالهم. ويصنف جيوفانى Giovanni بلمسة من الاستقامة والـــتقوى: ولـــدى مـــبرراتى أن أكون شاكرا فالبرغم من أننى كنت جنديا أعســـكر فـــى القلعـــة فى ذلك الصباح إلا أننى لم أسفك دماء أى من هؤلاء الرجال التعساء، فقد كان لحسن حظى أننى وضعت عند حارة لم يحاول أحد منهم المرور عبرها أو حتى اقترب منى، لهذا فإن مسدسى وغدارتى لم تطلقا أبداً ولقد استمرت أعمال السلب والنهب طوال ستة أيام وبالرغم من أننى كنـــت حاضراً عندما حدث الكثير من هذه المناظر ومعى زميل لى، إلا أننى لـــم أشـــارك فيها إلا بالقليل، أنه من الصعب أن يوجه إلىّ اتهام بأننى نهبت

قــدراً كبــيراً من الغنائم، يقدر ما أتذكر باستثناء سرج مزين بطبقة كثيفة من الفضـــة، وجاريـــة من الرقيق كانت من ممتلكات أحدهم وبذلك لم أستفد من الأذن الصادر بأن أى شىء نجده فى منازلهم هو مكافأة لنا .

مـــنذ ذلـــك الوقت أصبح مؤكداً أن طبقة المماليك لم يعد لها وجود أما ما تبقى منهم أو تخلف مع إبراهيم فى الصعيد فقد فروا جنوباً إلى السودان، أما نســاؤهم فقــد تزوجن بضباط من جيش محمد على، أما صبيانهم الذين أبقى على حياتهم فقد قيدت أسماؤهم كمتطوعين فى المؤسسات العسكرية والبحرية الجديــدة. ولقــد كتــب القنصــل البريطانى يقول: إن مذبحة المماليك كانت جــريمة بشعة، لكنها كانت مقدمة ضرورية لكل الإصلاحات اللاحقة ومن يا ترى سوف يستفيد من هذه الإصلاحات فذلك موضع آخر.

والآن وبعد أن أزيح الفرنسيون والبريطانيون عن طريقه، وبعد أن سحقت المعارضـــة الداخلـــية، أصبح ذلك الألبانى، ضئيل البنية، شرس الطباع من الناحـــية الفعلـــية دكـــتاتوراً، أما الحقيقة التى لا لبث فيها، فهى أن الناس لم يغـــيروا شيئا سوى سادتهم فقط، إذ أن لصا بدرجة باشا حل محل مائة لص بدرجـــة بـــك. فمثل المماليك نظر محمد على إلى المصريين كجنس مستعبد، تنحصـــر فـــائدتهم فى تحقيق مطامعه الشخصية، لكن لم يكن يعينه رخاؤهم. وكمـــا وضـــح ذلك مرسى سعد الدين: لقد أصبحت مصر فردوساً للأتراك والألـــبان وكـــل سائر المأجورين والمرتزقة. وفى الحقيقة كان سكان مصر الأصليون فى ذلك الوقت مجرد لفظ: الفلاحون أو القرويون.

إن الفـــارق الوحـــيد هو أن محمد على عرف كيف يستغلهم بذكاء ونجاح يفـــوق مـــن ســـبقوه بكثـــير، وفى أثناء ذلك أخرج البلاد من ظلام العصور الوسطى، وحقق لها كل أنواع الاستقرار.

وبغريـــزة الدكـــتاتور الحقيقة، كان الاهتمام الأول عنده هو التأكد أن لديه جيشـــا لا يقهـــر للحفاظ على وضعه، وأن يكون لديه خزانة مليئة بشكل جيد للإنفاق منها، ولكى يهتم بهذا الجانب الأخير، فقد استخدم منطق النبى يوسف

الــذى جــاء فى سفر التكوين «أن الأرض أرض الفرعون(*)» وقياسا على الــنظام الإســلامى «العتيق» والذى كان يرسم خطا غير واضح للتمييز بين الملكــية الخاصة والملكية العامة، فقد أصدر قراراً بنزع ملكية كل الملاك بما فــى ذلــك ملكــيات المؤسســات الدينية وأراضى الأوقاف وبذلك ركز كافة المصــادر الزراعــية للــبلاد فــى يــده وبعد الحصول على المحاصيل من مصادرها. لم يكن من العصب أن يبيعها بالربح الذى يبغيه.

وبعــد احتكار الإنتاج الزراعى، كانت الخطوة التالية خطوة نسبياً قصيرة وهــى أن يجعــل نفســه المالك الأوحد للسلع المصنعة والمستورد والمصدر الوحــيد. وسرعان كل منتجات وممتلكات البلاد تحت سيطرته المباشرة. أما بالنســبة لعملــيات الاســتيراد والتصدير فقد كون شراكة مع قناصل القوى الأجنبــية التجاريين مما حقق له ميزة وهى وضع الدبلوماسيين المحليين فى جيــبه. من الناحية الأساسية كان رجل عمل أكثر من صاحب نظرية بالرغم من أنه التقط القليل من الفلسفة السياسية خلال مراسلاته المطولة مع جريمى بنــتهام Jeremy Benthan(**). كانــت الفكرة الاقتصادية التى استولت على خــياله والتى شجع عليها المستشارون الأجانب الذين اشتموا رائحة العملات

(*) ســفر التكويــن: ٤٧: ٢٠ - ٢١ والمقصــود هو الأرض مقابل الفتح، كما ورد فى القرآن الكريم قوله تعالى { ونادى فرعون فى قومه أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون } الزخرف: ٥٠ «المترجم».

(**) جــريمى بنــتهام: فيلسوف وعالم فى الاقتصاد وفقيه فى القانون وأحد المدافعين عن نظرية المنفعة وأن السعادة القصوى فى إسعاد العدد الأكبر، ولد فى لندن عام ١٧٤٨ وتوفــى فــيها عام ١٨٣٢. تأثر بآدم سميث صاحب نظرية دعه يعمل Laissez Faire، وبالــرغم مــن أنــه ولد محافظاً حيث تخرج فيجامعة اكسفورد عام ١٧٦٣ حتى درس القــانون والفلســفة والاقتصاد، إلا أن عشقه للنظرية السياسية للتنوير جعلته أقرب إلى الديمقراطــية. غطت شهرته كناقد للقانون والتشريع وبناء المؤسسات السياسية للدولة على شهرته كفيلسوف (المترجم).

المالــية هى أنه مادامت المواد الأولية متوافرة والأيدى العاملة رخيصة، فإن المشــكلة تتحصــر فقــط فى استيراد الآلات والمساعدات الفنية من أوروبا لــتحويل البلاد إلى بلاد صناعية، ولوضع أساس ثورة صناعية موازية لتلك الــتى شــهدته بريطانيا وفرنسا. كان ذلك تفكيرا حالماً بالنسبة للظروف التى كانــت سائدة فى مصر منذ قرن ونصف قرن، ولذا تطلب ذلك بعض الوقت لتتضــح معالمــه. وبينما انطلق الباشا بحماس شديد نحو التصنيع على غرار أى دولــة نامية فى عصرنا هذا دون أن ينتظر أى مساعدة من الخارج لدعم مشروعاته.

ففــى عــام ١٨١٨ افتــتــح فى القــاهرة ٥ مصانع لصناعة الصوف الخشن (صوف العسكرى) للجيش، وبعد ذلك بعام عندما لفت خبير ميكانيكى نظــره، لم يضيع وقتاً فى بناء مصانع لحلج وغزل ونسج القطن: ولم يمض وقــت طويــل حتى كان هناك تسع وعشرون مصنعاً تعمل فى هذا المجال؟ وخــلال عشــر سنوات فقط تكاثرت المصانع على طول البلاد، والتى كانت تنــتج ســلعاً متــنوعة مــثل السكر، والسلاح، والبارود، والدوبارة (الحبال) والطرابيش، وكانت مسابك الحديد وأعمال الصلب والنحاس وحوانيت الآلات يدعمهــا سلســلة متكاملة من الغزالين والنساجين، والحدادين والحفارين على الخشــب واللحامين وأصحاب المسابك كل كانت تحت إدارة الباشا كمالك لها. ولقــد كان أسلوبه فى الإدارة يثير فى بعض الأحيان الدهشة، ولنضرب على ذلك مثلاً. فعندما كانت ترعة المحمودية المعروفة بكثرة إنحناءتها والتواءتها تحــت الإنجاز، سأل محمد على مهندس فرنسى عن رأيه فى تصميماتها فرد الخبير قائلاً:

- عفــواً يــا صــاحب السمو إن ملاحظتى أن قناتك سوف تكون متعرجة فاستفسر الباشا بلطف واضح.
- هل الأنهار عندكم فى فرنسا تجرى فى خطوط مستقيمة؟
- بالطبع لا.
- من الذى صنعها أليسَ هو الله؟
- نعم وبكل تأكيد يا صاحب الجلالة.

- عندئذ رد الباشا بلهجة المنتصر.
- حسناً، إذن هل تعتقد أنا أو أنت أننا نعرف أفضل من الله كيف يسير الماء؟ لقد قلدته فى قناتى، وإلا فإنها سوف تصبح مصرف مجرد مصرف جاف وليس ترعة!!

كانت المعضلة أمام مثل هذه الإدارة المركزية والتى لقيت فى البداية اهتماماً من الصحافة فى أوربا كعمل من أعمال المشروعات الحرة ذات النفوذ هى العثور على أناس مناسبين لكى تبقى عجلات المصانع تدور. ولم يكن غريباً أن مشروعاته فى مثل هذه الظروف كان يعوزها بشدة من الناحية الفعلية ذلك التفوق الذى ربما كانت تتضمنه نظرياً. فمنذ بدايتها كان طراز المصانع بخسارة، وبدون جهاز محاسبين يأخذ فى الاعتبار الأسس والحقائق الاقتصادية فى الحياة موضع الاعتبار وسرعان ما تورط الباشا فى سباق لا نهاية له لمواجهة العجز المالى فى سياسته الداخلية،، بل أيضاً لمواجهة العجز المالى لتلبية نفقات الحروب الممتدة والتى كان يخوضها دون توقف. وبالتالى عادت الضرائب تقصم ظهور الناس كما كانت زمن المماليك وعاد عمال الضرائب المحليون إلى وسائلهم البربرية لاعتصار آخر قرش من دم الفلاح التعس، وكما قال وليام لين William Lane ابن شقيق الرسام الشهير جينزبارة Gainsbarough – والذى ارتدى الزى العربى، ووضع على رأسه طربوشاً حوله عمامة، وحرث بقدر الإمكان أن يظهر فى مظهر العربى حتى أن جيرانه ظنوه بالفعل من العربية (السعودية)(*). وكان يقطن فى بيت يقع بالقرب من خان الخليلى، حيث كان يدعو أصدقاءه من المسلمين لتدخين النرجيلة وشرب القهوة. ومن خلال بعض الشخصيات مثل الشيخ أحمد وهو درويشى من طائفة السعددية، والذى كان ولوعاً بمضغ الأفاعى الحية وزجاج الشمعدانات، وكذلك إلى ما يسمعه يوماً بعد يوم من الأسواق، تمكن من جمع

(*) تلك إحدى هفوات المؤلف، إذ لم تكن المملكة العربية السعودية قد قامت فعلاً فى ذلك الوقت، إنما الذى أسسها وأعطاه اسم السعودية هو جلالة الملك عبد العزيز آل سعود.

مـــادة كافـــية لكتابة عمله المبهج والذى أصبح مصدراً كلاسيكياً عن أحوال القاهـــرة فـــى مطلع القرن التاسع عشر(*). وبالرغم من ذلك فقد أقر أنه لمن الصعب عليه أن يكون فكرة محدودة عن الباشا، ويرجع سبب ذلك فى المقام الأول إلـــى السرية التامة غير العادية التى كانت تحيط بكل ما كان يحدث فى القلعـــة خاصة فى الأمور السياسية، وبينما كان " لين " قادراً على أن يلاحظ أن رجل الشارع أصبح فى فقر متزايد، كذلك استنبط حقيقة أخرى وهى أن الفوضى أدت إلى السكينة، والتطرف غير المقنع أدى على الأقل إلى نوع من التســـامح . لقـــد كانـــت سلطة الباشا استبدادية لدرجة تثير الأعصاب فمجرد إشـــارة أفقية بسيطة من يده كانت كافية لتنفيذ حكم الإعدام فى أى من رعاياه فـــى نفـــس الموقـــع دون ضجة، غير أنه - كما يعتقد (لين) - لم يكن ميالا للقســـوة أو الاستبداد، بل كان له لحظاته الطريفة، فمثلاً - عندما تمكن رجل عجـــوز مـــن الجـــرى نحوه وأمسك بتلاليب أكمامه رافعاً شكواه بأن حاله قد تحـــول إلـــى العـــوز رافعاً بعد تجنيد كل أبنائه فى الجيش، لم يحاول الباشا التخلص منه وصرفه، إنما أصدر أوامره أن يقدم له أغنى رجل قريته بقرة.

وبالإضـــافة إلـــى ذلك فإن العقوبات وضعت بحيث تناسب الجريمة فمثلاً عقوبـــة الجزار الذى يبيع اللحم ناقص الوزن كانت الأوقيات الناقصة تعوض لحـــم من ظهره، والمسئول الذى يسئ معاملة الخباز كان يخبز حياً فى فرن مخبـــزه. فـــالعدل علـــى الطريقة الشرقية - كما لاحظ " لين " كان له سحر جارف ساذج كذلك الذى نراه فى ألعاب رياض الأطفال.

وقد روى (لين) حكاية فلاح استدعى أمام الناظر المحلى لكى يسدد ١٣٥

(*) ولـــيام إدوارد لين (١٨٠١ - ١٤٧٦) الكاتب البريطانى ومؤلف العمل العظيم «تقرير عن أخلاق وعادات المصريين المحدثين».
An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians.
والـــذى صـــدرت طبعته الأولى عام ١٨٣٦ ومن مؤلفاته الأخرى حول اللغة العربية والإسلام.

قرشـــاً قــيمة الضـــرائب. وكـــان كل ما يملكه الرجل هو بقرة، ومن ثم فقد عرضـــت فـــى مزاد غير أنه لم يكن لدى أحد من سكان القرية كاف لشراء الـــبقرة، عـــندئذ أسر الناظر جزاراً بأن يذبح البقرة وأجبر ستين فرحاً على شـــراء حصة (لكل واحد) مقابل قرش لكل حصة،أما الجزار فقد حصل على رأس البقرة مقابل ما قام به من عمل.

أمـــا الفلاح فقد تمكن من تقديم شكوى استدعى على أثرها كل من الناظر والجـــزار والســـــتون فلاحاً وكذلك شيخ القرية للمثول أمام القاضى. وسأل القاضـــى: هـــل كانـــت قيمة البقرة تساوى ستين قرشا فرد الفلاحين: لا يا ســـيدنا إن قيمـــتها فـــى الحقـــيقة كانت أكثر من ذلك عندئذ أعلن الشيخ أن الناظر يوقع الظلم على أى فرد يقع تحت طائلته. وهل كانت البقرة لا تساوى علـــى الأقـــل مائـــة وعشرين قرشاً، لكنه باعها مقابل ستين قرشا وهذا ظلم ألحقـــه بمالكها . عندئذ أمر القاضى بتجريد الناظر من ثيابه ثم يقيد بالأغلال، وبعدها التفت إلى الجزار قائلاً:

– أيها الجزار لا تخاف الله لقد ذبحت بقرة بدون حق.

عندئذ احتج الجزار أنه كان مجبراً على طاعة أوامر الناظر وإن لم يمتثل لأوامره فإنه كان سيضرب وبيته يخرب، ثم سأله القاضى: أننى سوف أمرك أن تفعل شيئاً فهل ستنفذه؟ فرد الجزار وهو يرتعش من الخوف: على السمع والطاعة.

فقـــال القاضـــى: اذبح الناظر وعلى الفور قطع الجزار رقبته، ثم قال له: والآن قسمه إلى ستين حصة! ثم استدعى الستين فلاحاً الذين كانوا قد اشتروا لحـــم الـــبقرة لكى يتقدموا، وأجبر كل واحد منهم على دفع قرشين مقابل كل حصـــة مـــن لحم الناظر أما الجزار فقد منح الرأس، وأما المائة والعشرين قرشاً التى جمعت فقد أعطيت لصاحب البقرة.

الفصل الخامس

إمبراطورية لا أمة

«طـــاخ!! وانطلقـــت رصاصة محدثة صفيرا مرت بالكاد بالقرب من أذن ضـــابط فرنسى كان يقوم بتدريب المجندين فى صحراء أسوان المحرقة، ولم يكـــن ذلك أول حالة يقوم فيها مجند بإطلاق الرصاص تجاه الكولونيل سيف Colonel Seve الـــذى أصدر أوامره بأن تصطف السرية، وأمسك بكرباج فرســـه، وبعد أن اتهمهم بالغباء والإهمال، والأسوأ من هذا كله سوء التنشين، وبطـــريقة غـــير رســـمية أخذ يجلـــد كل متطوع واحداً بعد الآخر، ثم ألقى بالكـــرباج بعـــيداً، ووقـــف أمـــامهـــم فى حالة انتباه وأمرهم بحشو بنادقهم وإطـــلاق الـــنار علـــيه إن شاءوا. عندئذ شعر هؤلاء الشباب بالخجل فألقوا بأسلحتهم واندفعوا يبكون عند قدميه.

وبهـــذه الوسيلة الغريبة كسب ذلك الجندى السابق الذى حارب فى ووترلو Waterloo وأصـــبح فـــيما بعد يعرف باسم سليمان باشا (والذى كان يطلق اسمه على أحد شوارع القاهرة الراقية حتى وقت قريب) احترام تلك العناصر صـــعبة المراس، والذى كلف بتدريبها ليصنع منها هيئة منظمة من الضباط، فوضع بذلك اللبنة الأولى لبناء جيش نموذجى على الطراز الحديث.

كـــان الحـــب الأول لمحمد على هو "الجندية: لأنه كان فى الأصل جندياً، ولمـــا كانـــت سياسته الخارجية شاملة تقوم على أساس إما تقديم الرشاوى أو تخويـــف الســـلطان لمـــنحه الســـلطة الوراثية على مصر (وأن يحصل على الاســـتقلال بإثـــارة القـــوى المختلفة ضد الباب العالى) فقد كانت ضرورة أن يكون تحت يده جيش جاهز أمراً ذا أهمية قصوى. ولقد أدت محاولته الأولى فى تدريب بنى جلدته من الألبان – الذين ساعدوه فى الوصول إلى السلطة – ليصبحوا قوات منضبطة – إلى اندلاع حركة تمرد ضده كادت أن تودى به إلـــى نفس المصير الذى لقيه المماليك (والتى أفلت منها بقيامه بفتح الأهوسة وإغـــراق القاهـــرة). وكانت تجربته التالية استخدام الرقيق الذين جلبهم من

السودان بالمثل مخيبة لآماله فقد قيل أن من بين العشرين ألف سودانى الذين ساقهم فى قطعان إلى ثكناته فى مصر لم يتبق منهم على قيد الحياة سوى ثلاثة آلاف، بينما مات الباقون من الاكتئاب كما تموت الحيوانات فى أقفاصها. فقد كانت حياة الجندية تفوق قدرتهم(٧). ومن ثم لم يكن هناك ملاذ آخر أمامه سوى أن يلتفت إلى المصريين السكان الوطنيين..

وإذا كانت مصر قد رزحت تحت الهيمنة الأجنبية لقرون عديدة، فإن ذلك يرجع فى المقام الأول إلى أن الفلاح لم يحارب أبداً، بل وفى نظر الكثير من الناس أنه لن يفعل ذلك أبداً، فعلى رأس كل المحن التى عاناها المصريون تحت حكم محمد على كان التجنيد أشدها كرها بالنسبة لهم، وحتى لا يدعون أبناءهم ليؤخذوا منهم ليدخلوا الجيش، فقد كانوا يفضلون إحداث العاهات بهم.ويصف كاتب مصرى من هذه الفترة أن الفلاحات كن يتلفن إحدى عينى أولادهن باستخدام سم الفئران. ولما كان الأقباط معفيين من الخدمة العسكرية، فإن بعض الشباب من المسلمين كانوا يرسمون وشم الصليب على معصم أيديهم، والبعض الآخر من الفلاحين كان يخلعون أسنانهم لأنهم كانوا يعرفون أن الجندى يحتاج أن تكون كل أسنانه سليمة لنزع فتيل القنابل.

أما القرويون الفقراء الذين لم يكن فى استطاعتهم دفع رشوة لشيخ البلد، فقد كانوا يساقون كالأنعام إلى الثكنات مقيدين بسلسلة واحدة، وبالرغم من أن أعداداً غفيرة منهم كانت تموت، إلا أن محمد على تمكن بقدوم عام ١٨٢٠ من بناء جيش وطنى على درجة عالية من الكفاءة والتدريب، استطاع بواسطته أن يغير ميزان القوى فى شرق البحر المتوسط خلال عشرين عاماً بشكل كبير. بل وتحدى الباب العالى ذاته إلى الحد الذى جعله يحول مصر بمساعدة هذه الفرق من الفلاحين الفقراء من ولاية ينظر إليها بازدراء فى إمبراطورية متصدعة إلى قوة عسكرية ينظر إليها بإعجاب. ويمكن القول أن محمد على قد تم على يديه عودة الروح إلى المصريين الخالصين، فمهد بذلك الطريق لظهور أول قادة للحركة الوطنية المصرية وهما عرابى وعلى فهمى.

لقد خاض أربعة حروب: فى شبه الجزيرة العربية، وفى السودان، وفى

اليونان، وفى الشام. كانت أولى هذه الحملات من أجل أن يفوز بالحظوة لدى السلطان. فوقتها كان الوهابيون – وهم إحدى الفرق الإسلامية شديدة التزمت قـد اسـتولوا على المدينتين المقدستين مكة والمدينة، ولأن باشا دمشق وباشا بغداد كانا لا يميلان لعمل أى شئ حول ذلك الموضوع، فقد انتهز محمد على الفرصـة لـيطوق عـنق السلطان بدين، ولكى ينصب من نفسه بشكل علنى زعـيماً جديدا فى العالم العربى. ولذا فقد بعث بابنه طوسون على رأس حملة عسكرية إلى الجزيرة العربية. وما كاد طوسون يرسو عند "ينبع" على ساحل الجزيـرة العربـية الغـربى، حتى التحم على الفور مع الوهابيين فى منطقة البوغاز الجديد ذات التلال الرملية والتى تبعد عدة أميال فى العمق. كان قائد الحملـة الذى يبلغ السابعة عشرة ربيعا يحظى بشعبية عارمة بين قواته، غير أنـه لـم تكـن لديه الخبرة والتجربة فى فن الحروب. ومرة أخرى ترك لنا جـيوفانى فيـناتى Giovanni Finati وصفاً للحدث الذى شـارك فيه. إذ يـتذكر ذلـك الجـنـدى المرتـزق الشـاب الذى جاء من فيرارا(*): تقدم طوسـون بنفسه ليبث الحمية فى قلوب رجاله ويشـد من أزرهم: مناديا على الكثير منهـم باسمه الشخصى، مستحـلفاً إياهم بالدين والوطن، غير أن الوهابيـن من نقطة تجمعهم أعلى التلال كان فى استطاعتهم أن ينهالوا علينا بالرصاص ونحن أسفل منهم دون أن نتمكن من الإفلات. وقد تسبب عن ذلك مذبحة مروعة جداً ».

وعند الظهيرة و حرارة الشمس كانت تنعكس بشدة من الأرض القفر. فإن درجـة الحرارة أصبحت لا تطاق حتى أن القتال لم يعد ممكناً، وعن طريق ثمـة اتفـاق متبادل بين الطرفين توقف القتال فى هدنة لعدة ساعات، وراح الجـنود يـترنحون ليرتموا فى ظل أى نخلة تصادف وجودها وهم يقرشون الـتمر بصوت مسموع. وبعد حين أصبح الإحساس بالعطش شديداً لدرجة لا تحـتمل " لدرجة أن إشارة استئناف الاشتباك التى أعطيت فى الساعة الرابعة عصـراً، استقبلت بحالة من اليأس أشبه بالسرور.. إن الشراسة وسفك الدماء

(*) مدينة فى سهل البو شمال إيطاليا بالقرب من نابولى.

الـــذى تلـــى ذلـــك لا يمكن وصفهما فقد استمرت إلى وقت طويل بعد غياب الشمس عندما حول بعض الذعر أو الكارثة فجأة مسار المعركة، ولقينا جميعاً أشـــد الهزائم، كان هنـــاك فر وكر غير أنه: فى جو من الفوضى والارتباك حـــتى أن البقـــية التعســـة التى تمكنت من الوصول إلى المعسكر فى صحبة طوســـون أدركـــت أنـــه من المتعذر عليهم مواجهة عدو يملك السيطرة على مـــيدان القـــتال « وبعـــد أن بقوا وقتاً كافياً قاموا بإشعال النيران فى معدات المعسكر وفى الخيام، تاركين فى عجالتهم خزانة الصراف وفروا عائدين إلى السفن».

أمـــا جـــيوفانى ومعه فتى آخر - بعد أن بلغ بهما الإرهاق والعطش حداً لايمكـــن احتماله - فقد تمكنا من الزحف إلى قمة بعض الكثبان الرملية، حيث دفـــنا نفســـيهما فى الرمال، وأصبح أمامها بانوراما شاملة لما يحدث. وما إن انتصـــف الليل حتى زحفا على أيديهم وأرجلهم هابطين، وشقا طريقهم بحذر عبر حطام المعسكر، متجنبين الوقوع فى طريق أولئك الذين كانوا ينـــزعون الثـــياب عن الجثث بحثا عن الأسلاب: ولقد كان جليا أن الآلهة (؟) تقف إلى جانـــبهما، فقد وقعت عيونهما على بعض المؤن، وبعد أن أكلا وشربا، عثرا مصـــادفة على ٤٠٠ كروان(*) ذهبى مبعثرة على الأرض (وآخر مرة سمعنا فيها عن جيوفانى أنه ترك الجيش وعمل مرشداً سياحياً فى القاهرة).

وفيما بعد، بعد أن تلقى إمدادات وفيرة من ميناء القورصير Korsier(**) (القصـــــير) أصـــبح فـــى إمكان طوســـون أن يتقدم إلى المدينة ثم مكة، وللدهشة كان أول من وصل إلى قبر النبى رجل اسكتلندى اسمه كيث Keith الـــذى أشـــهر إســـلامه وبالتالى عين حاكماً على المدينة المنورة، غير أن الوهابيـــن كـــانوا أكثر من ند لطوسون فى صحارى بلاد العرب الشاسعة،

(*) عملة إنجليزية تساوى شلنان وست بنسات.

(**) كانـــت القصـــير تعرف عند التجار الأوربيين منذ القرن الثامن عشر الميلادى باسم القورصير (المترجم).

وبالـــتالى لم يتمكن من إحراز النصر عليهم إلا بعد أن تولى محمد على نفسه ومعه ابنه إبراهيم قيادة الحملة. وأخيراً فى شهر سبتمبر عام١٨١٨ وبعد سبع ســنوات كئيبات من القتال الضارى، نجح محمد على فى سحق الوهابيين فى الدرعــية، وألقــى القــبض علــى قــائدهم عبد الله بن سعود، وأرسله إلى القسطنطينية لينال العقاب التقليدى الذى يلقاه الثوار.

وبالرغم من ذلك فإن " الوهابية " التى تلزم الفرد على أداء كل طقس من الطقــوس وكــل شــعيرة مــن الشعائر كما جاءت فى السنة النبوية بطريقة صــارمة، والــتى كانــت تحرم تدخين التبغ واستخدام العطور، وكل مظاهر الــترف، لــم تمت وتندثر. فاليوم يتحدى واحد من سلالة ابن سعود ادعاءات القومية العربية التى يرتطم تيارها بسواحل العربية السعودية(*).

وعلى أى حال تركت حملة الجزيرة العربية محمد على وهو يعانى نقصاً مدمــراً فى المال والرجال، ولكى يجد ترياقاً يشفيه من هاتين المعضلتين، فقد ولى وجهه جنوباً نحو السودان، وكان هناك دافعان يحضانه على التوغل فى الأدغــال جنوب أسوان وهما: الذهب والرقيق، فقد كان ثمن الفتى السودانى الــبالغ فــى أســواق القاهــرة أربعيــن جنــيها، كما أن الرحالة السويسرى بوركهــارت أثــار شهية الباشا بما كان يرويه عن الثراء الكثير الذى تحويه جــبال النوبة Ethiopia. وفى شهر يونيو عام ١٨٢٠بلغ السيل الزبى، وبدأ موكــب مــن القوارب يشق طريقه الوعر من بولاق إلى أعالى النيل. وكانت الحملــة تــتكون من٣٤٠٠ رجل و١٥٠٠فارس، وبعض المدافع وكتيبة من عرب العبابدة، وتولى القيادة إسماعيل بن محمد على الأصغر.

كــان العامان اللذان استغرقتهما الحملة يتصفان بسلوك رتيب من الوحشية ويتــناوبان القســوة لدرجــة تدعــو للتقزز، إذ لم تلق أى مقاومة تذكر حتى وصلت إلى انحناءه النيل الكبيرة عند كوستى. وهناك سحق إسماعيل بسهولة

(*) يقصد جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود.

قبـيلة الشـايقية Shagiyeh واحـتل بربرة، وبعدها بقليل استسلمت شندى، وشق جيش إسماعيل طريقه مكافحاً متقدماً نحو رأس الخرطوم(*) عند التقاء النـيل الأبـيض بـالأزرق، وقد أطلقت عليها هذه التسمية لأنها كانت تشبه خـرطوم الفـيل (وفـى هـذا المكان ذاته أسست مدينة الخرطوم بعد ثلاث سنوات) وعند هذه النقطة اتجه أحمد الدفتردار (زوج أخته) تجاه الغرب بحثا عن العبيد الزنوج بينما كان بريق الذهب يجذب إسماعيل للتوغل جنوباً. وقد كتـب رجل فرنسى كان يسافر فى ركابه يقول: كان التعطش للحصول على الذهـب هـو الدافـع الأول الذى حدا بهذا الأمير إلى هذه الدرجة للتقدم نحو الأعماق وحتى الآن – ومن وجهة النظر العسكرية البحتة، فإن هذه العملية العسـكرية كانـت سهلة سهولة سرقة الحلوى من الأطفال. فكان الذهول قد استولى على مشاعر القبائل المحلية لدرجة عدم إبداء ثمة مقاومة تذكر، غير أن مـنذ تلك اللحظة أصبح الطقس، وليس السكان – هو العامل الذى تصدى لإسـماعيل وأجـبره على التباطؤ ثم بعد ذلك على التوقف، فبعد مسيرة ألفى مـيل جنوباً إلى أعماق ما هو بالفعل "أمعاء أفريقيا المجهولة" وجد نفسه وقد خـاض فـى مسـتنقع مـن الأمطار، حيث اكتسحت الملاريا والدوسنتاريا الصـفوف. وبالـرغم مـن ذلك فقد اضطر أن يعود أدراجه خالى الوفاض وبدون ذهب باستثناء عدد هزيل من الرقيق الذين أرسلهم إلى القاهرة.

وفـيما عـدا بث الرعب فى السودان، لم يحقق شيئا يذكر، بل الأدهى من ذلك أنه أوقد نارا لكراهية ضده وضد الأتراك على طول امتداد النهر. والتى أصـبحت أشـد تأججاً فى ذلك الوقت، واشتد غليانها عند شندى فى طريق عودته.

ربمـا كان الإحباط والإرهاق من جراء حملة بلا ثمارهما العاملان اللذان حديا به أن يتجه إلى "مالك نمر" حاكم شندي – المعتز بنفسه – والذى كان قد أهانـه مـنذ ثمانية عشر شهراً سبقت، عندما اتهمه بأنه قد أخفى الذهب فى

(*) وهى الآن تعرف بالمقرن أى اقتران النيل الأبيض بالازرق (المترجم).

دنقــلا، فقد صرخ بغطرسة وبصوت أجش: " أمامك خمسة أيام لتملأ قاربى بالذهب وإلا فأتى سوف أدفع عصاى لتخترق قلبك " (ويروى شاهد عيان أنه أيضا ضرب الحاكم بعصاه على وجهه). وفى تلك الليلة، بينما كان إسماعيل يقـيم ولـيمة فـى خيمته المزينة بأغصان الشجر، زحف بعض رجال نمر، وأضرموا فيها النيران: ومات إسماعيل وبطانته داخلها.

و لقـد كـان انـتقام محمد على لموت ابنه فوريا ومروعاً، فقد أخذ أحمد الدفتردار وقد جن جنونه ينشر الخراب أعالى النيل وأسفله، يحرق كل مدينة أو قرية حتى يسويها بالأرض، مخلفاً من ورائه سلسلة من الأعمال الوحشية التى ترتعد لها الفرائص.

فحـتى عـام ١٨٢٣ كـان ما يقرب من خمسين ألف سودانى قد سفكت دمـاؤهم، ومـن الناحية الفعلية كان وادى النهر كله من أسوان جنوبا ـ يبابا وخرابا، وأضيف إلى حدود مصر أكثر من ٢٠٠٠ ميل من الأرض المحروقة حتى حدود الحبشة.

والآن أصبح المغامر الألبانى فى الخمسينات من عمره، وقد ترك لنا وليم تـيرنر Wiliam Turner مـن وزارة الخارجـية (البريطانـية) الذى مر بالقاهـرة أثـناء خدمـته كعضـو فى هيئة مساعدى السفير البـريطانى فى القسـطنطينية وصـفا له: " وفـى الساعة الثامنة، ركبت مع المستر عزيز لـزيارة الباشا الذى كان يقيم فى قصر صغير يقع مباشرة خارج بوابة مدينة القاهـرة فى الطريق إلى بولاق وجدنا الباشا يجلس فى أحد أركان حجرة صـغيرة، ثـم أومـأ لى بالجلوس، وقد فعلت ذلك على الفور دون أن أخلع قبعـتى، كان يرتدى قفطانا ((Pelisse ذا لون قرمزى داكن وفوقه صديرى مقلم بالذهب، ويضع على رأسه عمامة كبيرة بارزه، ويتمنطق بسيف وخنجر مزينيـن بعـدد كبـير من الجواهر البارزة، كان رجلا نحيفا ذا ملامح داكنة وماكـرة وعيـنان نافذتـان، وكانت نظراته توحى بشىء من الشراسة، حتى ابتسامته تذكرنا بقوة الملك رتشارد الثالثRichard III : « أن يبتسم ويبتسم

ثم يغتال وهو يبتسم(*)».

لقــد كانــت ابتسامة القاتل هى التى أصبحت الآن تلقى الاحترام:"بلطجى" القرية الذى أصبح طاغية قوى الشكيمة، والذى كان قد ركز طموحاته على آفــاق أبعد من وطنه مسقط رأسه. فلقد اثار كفاح اليونانيين البطولى من أجل الاســتقلال الــذى ألهــب خيال اللورد بيرون Byron والشعوب ذات العقلية الليبرالية فى كافة أنحاء أوربا – محمد على بالمثل ولكن لسبب آخر مختلف. فكمــا فكر نابليون رأى محمد على أن الفرصة متاحة لاستخدام مصر كرأس حــربة فى مواجهة الإمبراطورية العثمانية ذاتها: وأن هناك طريقين يؤديان إلى القسطنطينية:

طــريق بحرى عبر بحر إيجه، وطريق برى عبر مقدونيا. وكانت القوات المصرية سواء البحرية أو البرية أشد قوة من الجيش والأسطول التركى الذى لايمكن الاعتماد عليهما.

.وكخطــوة أولـــى اســتولى على كريت عام ١٨٢٢ وأرسل حقيبة مملوءة بالآذان البشرية إلى السلطان كدليل على ما قام به، وكانت مكافأته أن حصل علــى اللقــب الشــرفى " باشا الجزيرة " وبعد عامين آخرين توجه السلطان مباشرة إليه يطلب المساعدة:

ولأن الأمــور كانــت تســير إلـــى وضع يائس بالنسبة للأتراك فى بلاد الــيونان؛ فقــد وعده الباب العالى إن هو أثبت جدارته بقوة السلاح ليستحق

(*) رتشــارد الثالــث. ملك إنجلترا من عام ١٤٨٣-١٤٨٥ وهو آخر سلالة ملوك يورك اكتســب شهرة على أنه قاتل ومتآمر وشرير وصل إلى العرش بطرق ملتوية، ويدافع بعض المؤرخين عنه بأن التشهير بسمعته جاء فى عصر الأسرة التيودورية فى القرن الســادس عشر، وكان شكسبير معاديا له عندما كتب مسرحيته رتشارد الثالث وهذه الأبيات مختارة من هذه المسرحية.

اللقـــب فســـوف يعيـــن باشا على المورة كلها. لقد أدهشت الحملة التى قادها إبراهـــيم باشـــا عبر البحر المتوسط (٦٠ سفينة حربية، ١٦,٠٠٠ من القوات محمولـــة فى مائة سفينة نقل) كل فرد فى أوروبا، فقد كان أمرا لا يصدق أن يتمكـــن محمـــد علـــى من بناء مثل ذلك الجيش والأسطول القويين فى مصر خلال سنوات قليلة ومن لاشيء. لقد أدى الكولونيل سيف مهمته التى كلفه بها سيده على خير وجه.

لقـــد قصمت حملة إبراهيم ظهر الثورة اليونانية، فقد سقطت أثينا ثم تلاها (وبعـــد حصـــار طويـــل) ميســـولونجى Messolongi ، غير أن نجاحه أو بالأحـــرى قسوته البشعة التى لازمته، كانت بداية لأفوله. فمحو بعض المدن من علي وجه الأرض، وبيع سكان البعض الآخر فى أسواق الرقيق قد يكون مقـــبولا فى مجاهل بلاد العرب أو أواسط أفريقيا، ولكن ليس فى بلاد اليونان ذاتهـــا، وذلـــك تحـــت تأثر النظرات المركزة لقارة أعطى التعليم فيها لبلاد الـــيونان مكانة عاطفية. ولذا فقد كان الرأى لعام فى أوروبا يتوقد غيظا بشدة مـــن مسلك إبراهيم. ودعى إلى عقد مؤتمر فى لندن (١٨٢٦)، وأرسلت كل مـــن بريطانـــيا وفرنســـا (تلك الدول التى بدأت تتخوف من احتمال أن تؤدى الأحـــداث إلـــى انـــدلاع حـــرب أوربـــية شاملة) أساطيلها مجتمعة لمراقبة الـــتطورات. وربمـــا كـــان مجرد سوء حظ (لمحمد على) أنها دخلت ميناء نافاريـــنو Navarino فـــى عصـــر أحـــد أيام عام ١٨٢٧ حيث كان يرسو الأسطول التركى المصرى ولأن جندى تركى مضجر، يعشق إطلاق النيران، اختار طاقم قارب بريطانى هدفا للتمرين على الرماية. وكمن قرب عود ثقاب مـــن البـــترول اندلعت معركة. وما أن آتى المساء حتى كان أسطولا مصر وتركـــيا مجتمعين قد دمرا تماما، وحتى قبل أن يظهر الأميرال كادرنجتون Cadrington قـــبالة الإسكندرية يحمل إنذارا، وقبل أن ترسو حملة فرنسية فـــى المـــورة، أدرك محمد على أن اللعبة قد انتهت، فقد فقد أسطوله، وعاد إبراهـــيم إلى الإسكندرية ومعه أقل من نصف عدد الجيش الذى كان قد خرج به، بالإضافة إلى ذلك أوقف السلطان دفع المكافآت التى كان قد وعد بها على أساس أن المصريين فشلوا فى تنفيذ المطلوب.

لقــد كان شيشيرون هو الذى وصف معاصريه بأنهم رجال ثقال graves(*)، وقــد ظهر محمد على فى عيون الأتراك على الأقل بمثل هذا الوصف تماماً، فقــد تحول هذا الزعيم المحلى، والشريك المفيد، إلى عبء ثقيل يشكل خطراً داهمــاً. غــير أن عينيه اللتين كانتا كالخرز لم تغمضا، فمن قصره الذى بناه حديــثاً فــى رأس التين والذى يشرف على ميناء الإسكندرية كانتا تفحصان الــبحر المتوســط بدقــة، وكانــتا مدركتين دون أن تغمض لهما جفن — أن المجهــودات الــتى بذلها نيابة عن مولاه فى جزيرة، العرب وبلاد اليونان لم تعــود علــيه بــأى فائدة، فولاؤه للسلطان قد استنزفت تماما أغراضه بشكل واضــح، إلا أن اكتشــاف مؤامــرة دبرها السلطان لاغتياله هى التى دفعت الأمور إلى حد الصدام.

وفــى عــام ١٨٣١ ضرب ضربته، إذ أرسل ابنه إبراهيم (ولكن فى هذه المــرة عــبر ســيناء (إلى فلسطين حيث انضم إليه أسطول عند يافا، ونجح المصــريون فــى اقــتحام عكا والاستيلاء عليها: وكان نجاحا باهرا (إذا ما تذكــرنا إخفاق نابليون فى نفس الموقع) أعطى للحملة قوة دافعة جعلتها تسير مــن نصر إلى نصر عبر الشام والأناضول، ضاربة عرض الحائط بالفرمان السلطانى المذعور الصادر فى ٢ مايو عام ١٨٣٢ والذى يعلن أن محمد على خــارج علــى القانون ويقرر عزله من باشوية مصر. وقرب نهاية العام كان إبراهــيم قــد سحق جيشا تركيا عرمرمًا داخل حدود آسيا الصغرى، واحتل قونية العاصمة القديمة لسلاطين العثمانيين، وحيث كانت القسطنطينية ذاتها لا تبعد سوى مائة ميل فقط.

وكما لاحظ د.أ. كاميرون D.A Cameron فى دراسته عن محمد على أن "إبراهــيم قــد حقق المحال. وهذا تم على يد الفلاحين المصريين فى قلب الشــتاء علــى جــنس مســيطر كان يحكمهم كعبيد... لقد سحق المصريون

(*)Cicero: *Republic, I,43.*

شيشيرون: الجمهورية الكتاب الأول فقرة ٤٣.

العنصـــر الـــتركى في ثلاثة معارك ضارية رغم مزاياه، لقد تغلبوا عليه فى القـــتـــال، وتقدمـــوا عليه فى الزحف، وتفوقوا عليه فى المناورات، وأخذوه أسيرا، هذا هو اللغز الموروث فى أرض مصر، فعلى طول الزمن الذى كان فـــيه ذلك الباشبوزق التركى يتنقل من قرية إلى قرية، يلهب ظهور الفلاحين بالســـياط، ويســـوقهم كقطعـــان الأغـــنام ليدربهم كيف يهزمون أبناء بلدته. وبمساعدة من جانب قدر قليل من الفتية والباشوات الأتراك، وبضع مئات من صـــغار الضـــباط، تمكـــن محمـــد على من جمع المال والرجال لكى يحقق المصريون النصر على الإمبراطورية العثمانية.

كـــان كـــل مـــن بالمرســـتون Palmerston وولنجتون Wellington عازمين على منع محمد على من الوصول إلى القسطنطينية، وعلى تجديد قوة الـــباب العـــالى (فقد كان جوهر السياسة البريطانية فى ذلك الوقت هو الإبقاء علـــى الإمبراطورية العثمانية فى وجه الطموحات الروسية)، فقد كان أولهما وزيرا للحرب، والآخر قائدا عسكريا عندما نجحا فى الإطاحة بنابليون، وكان لا يطـــيقان وجود أى مغامر عسكرى خاصة إذا كان ذلك المغامر قد اكتسب شهرة بغيضة فى بلاد اليونان. وبدأ محمد على يتعرض لضغوط لكى يسحب جيشـــه مقابل أن يلغى السلطان الفرمان الذى أعلن فيه خروجه على القانون وأن يصدر فرمانا جديدا (٦ مايو ١٨٣٣) يمنحه بمقتضاه باشوية الشام.

لقد أصبح الآن يسيطر على أراضى تمتد من أفريقيا الاستوائية حتى جبال طـــوروس، ولكن عن طريق البراعة ــ الغريبة فى حد ذاتها ــ التى مد بها حدود ولاية مصر لتصبح إمبراطورية شاسعة قبل أن تصبح أمة مستقلة، فإنه يكـــون قـــد بالغ فى مد ذراعيه عن آخرهما، وضغط على مصادر البلاد بما يفـــوق كل الحدود الممكنة. فسوريا القرن التاسع عشر التى شملت: فلسطين، ولبنان، ودمشق، وطرابلس، وحلب، وأطنة كانت مثل مساحة دلتا النيل خمس مـــرات، كمـــا أن عناصـــرها السكانية المتنوعة لم تكن مثل الفلاحين سهلة الإنقـــياد، إنما ترفض الخضوع لأى شكل من أشكال الطغيان يأتى من خارج بلادهم، خاصة تلك الأساليب القاسية شديدة الوطأة التى اتبعها إبراهيم، ويزيد

علـــى ذلـــك أن محمـــد على كان يتجه يوما بعد يوم نحو الإعلان الصريح للاســـتقلال. ومـــن وجهة نظر السلطان كان الموقف لا يطاق كما قد تبدو لنا ثـــورة ايان سميث Ian Smith(*) فى روديسيا بعد قرن ونصف بعد قيامها. كمـــا أن بالمرســـتون قام فى مجلس العموم بمقارنة وضع محمد على بوضع اللـــورد قـــائم قـــام الملك فى أيرلندا الذى يحاول أن يجعل من نفسه صاحب سيادة وراثية على أيرلندا وأسكوتلندا.

أمـــا محمـــد على فقد رأى الأمور من زاوية مختلفة، فقد اشتكى للقنصل العـــام الـــبريطانى أنـــه لـــن يسمح أبداً أن يترك كل شيء قام به: الترسانة، الأســـاطيل، المصـــانع بآلاتهـــا الحديثة، العمال الذين تم تدريبهم فى أوروبا، المـــدارس والمناجم، الطرق والترع، جميع إمبراطوريته الخاصة تضيع من بيـــن يديـــه وتذهب إلى الباب العالى، بينما يصبح بقاء أسرته الحاكمة مهددًا. فقد كان ذعره ذعر رجل عصامى.

لكـــن ما أن عاد بالمرستون إلى انجلترا حتى لم يعط مخاوف محمد على أى اعتـــبار. فقـــد كـــان جـــل اهتمامه هو الحفاظ على وحدة الامبراطورية التركـــية، ولأن ذلـــك ســـيؤدى إلى قيام الصراع بينه وبين السلطان، والذى سينتهى بهزيمة الأتراك عندئذ سوف يسارع الروس لمساعدتهم وتقوم حامية روســـية باحـــتلال القســـطنطينية والدردنيل وما أن يصبحا فى حوزتهم فلن يخرجوا منها أبدا.

(*) رئـــيس وزراء روديســـيا الأبـــيض / (الآن زمبابوى بعد الاستقلال) وأحد مؤسسى سياســـة الفصـــل العنصرى بين الأفارقة والمستوطنين الأوربيين، تمرد على الحكومة الإنجلـــيزية فـــى مطالع الستينات، وتحت الضغط الدولى والمقاومة الوطنية الأفريقية، ألغى نظرية الفصل العنصرى، وأجرى الانتخابات قياسا على أساس صوت واحد لكل رجـــل واحـــد، وكانت النتيجة نجاح الحزب الوطنى الإفريقى فى الوصول إلى الحكم واستبدال اسم روديسيا الاستعمارى باسم زمبابوى(المترجم)

وعلى الجانب الآخر فإن الفرنسيين سيلعبون على الطرفين لوضع أقدامهم فـــى المعســكرين فبينما يؤكدون علنا للسلطان تأييدهم، كانوا يشجعون سرا محمد على على أمل أن يزيدوا من نفوذهم فى مصر.

وصـــلت الأمــور إلى حد الصدام فى عام ١٨٣٨ عندما تم توقيع معاهدة تجاريـــة بيـــن بريطانيا وتركيا والتى بمقتضاها فتحت الإمبراطورية التركية أبوابهـــا للتجارة مع بريطانيا(*)، وبالتالى هددت النموذج المميز الذى أوجده محمـــد علـــى وهـــو أن تكون التجارة حكراً على الدولة، عندئذ طالب نائب الإمـــبراطور بالاســـتقلال عـــن الإمـــبراطورية فـــى مجـــال التجارة، ورد الإمـــبراطور بـــإعلان أنـــه متمرد وبدأ فى غزو الشام[٨]، وخاض الطرفان معـــركة بالقـــرب من نزيب Nezeb على الحدود بين تركيا والشام. وللمرة الثانية قام إبراهيم بسحق الأتراك.

ومـــن المحتمل أن تكون أنباء هذه الهزيمة هى التى قضت على السلطان العجـــوز محمـــود، بـــل الأكثر احتمالا أن يكون ذلك قد تم بفعل السم الذى وضـــعه له وزيره، ولكن مما سبب إحراجاً أكثر للخليفة السلطان عبد المجيد الـــبالغ مـــن العمـــر ستة عشر عاما هو هروب الإدميرال التركى، ومعه كل أسطوله الذى يتكون من سبع سفن حربية وعشر فرقاطات، فبدلا من أن يقوم بقصف الإسكندرية كما كان متوقعا، سلم الأسطول ببساطة ووضعه بين يدى محمـــد على، ولوهلة بدأ الموقف كما كانت الإمبراطورية التركية بكاملها قد أضحت الجائزة التى حصل عليها باشا مصر.

كـــان فـــى الإمكـــان أن يكون هو الرجل المناسب لتحمل مصير الإسلام والخلافة، ولكن بالمرستون لم يكن مستعدا أن يرى تركيا وقد طرحها أرضا مغامـــر عســـكرى، فقـــد كان ينظر إلى محمد على على أنه عنصر خطير، ومخرب يجب التخلص منه، إذا ما أريد للإمبراطورية العثمانية أن تبقى على

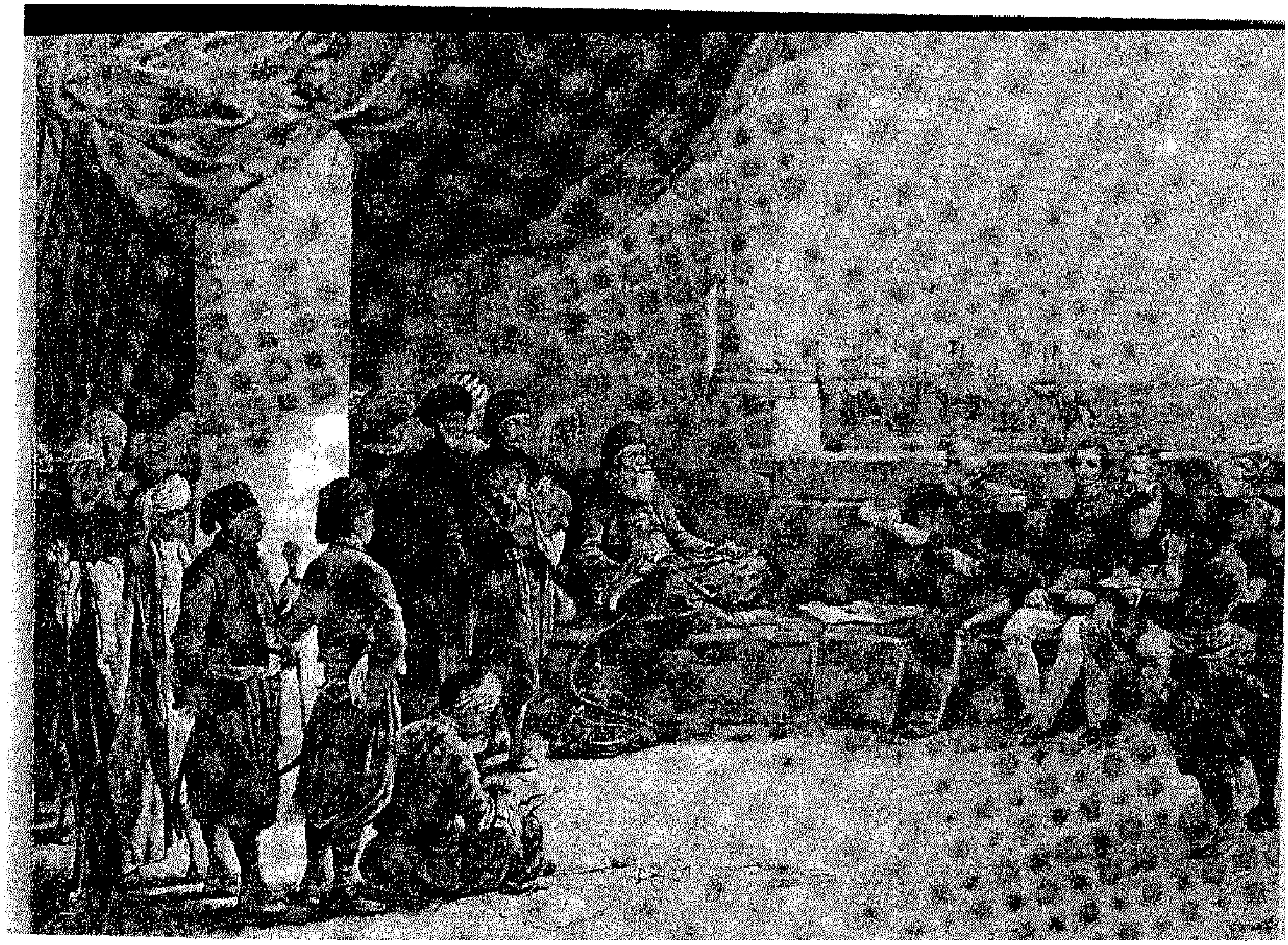
(*) معاهدة بالطة ليمان.

وجــه الأرض، وإذا مـــا أريد كبح جماح الروس ووقفهم عند حدهم. وهناك آخـــرون – وفرنسا بالذات – قد يتحدثون عن "رجل أوروبا المريض" وعن موتـــه الوشـــيك، ويضـــعون الخطط لتقسيم الإمبراطورية العثمانية، غير أن بالمرســـتون رفض ذلك فقد صرح: " أنها سوف تبقى إلى ما بعد عصرنا إذا مـــا حاولنا دعمها وليس هدمها" وكان اقتراحه الفورى هو إرسال الأسطولين الـــبريطانى والفرنســـى إلى الإسكندرية، وأخبر السفير البريطانى فى باريس: "عليـــنا أن نساند السلطان بشدة بالتعاون مع فرنسا وذلك إذا ما تعاونت معنا وبدونهـــا إذا رفضـــت " وكلما تناول الأمر بالتفكير كلما زاد اقتناعاً بأنه لن يكـــون هناك حل دائم بدون أن ينسحب محمد على إلى قوقعته فى مصر غير أن الفرنســـيين لـــم يكونـــوا ميالين لهذا الرأى، فقد كان لهم أسبابهم لمساندة الباشـــا، فقد كان يسعدهم أن يقروا بامتلاك محمد على وورثته كل الأراضى الـــتى كان يسيطـــــــر عليها فى ذلك الوقت، فامتلاكه للشام بفضل التدخل الفرنســـى – ســـوف يـــتركـــــه سيداً على كلا الطريقين البريين فى شرق الســـويس والفـــرات، وهذا يعنـــى السيادة الفرنسية على كلا الطريقين وعلى المنطقة برمتها.

وفـــى خـــريف عـــام ١٨٤٠ وصل الخلاف إلى درجة الغليان لدرجة أن بالمرســـتون هدد بتقديم استقالته، فقد كانت بريطانيا وفرنسا على شفا الدخول فى حرب، وقد دوى صوت بالمرستون كالرعد وهو يقول:" أبلغوا المسيوتيير Thiers(*) أنـــه لـــو أن فرنســـا ألقت بالقفاز على الأرض فإننا لن نرفض الـــتقاطه، وأنهـــا إذا شرعت فى الحرب فإنها بكل تأكيد – سوف تفقد سفنها ومســـتعمراتها وتجارتهـــا، وسوف يتوقف جيشها فى الجزائر على أن يكون مصدر قلق لها، أما محمد على فإنه سوف يطرد إلى ضفاف النيل».

ولـــولا الخطـــوة الحازمة التى اتخذها الملك لويس فيليب باستبدال «تيير» بآخـــر وهـــو جويزو Guizot لاشتعلت الحرب فى أوربا بسبب محمد على

(*) رئيس وزراء فرنسا فى ذلك الوقت (المترجم).



محمد على يستقبل ضباط الأسطول البريطانى فى الإسكندرية فى مايو ١٨٣٩ وهو شعر بأن أحلامه قد انهارت (لوحة من رسم دافيد روبرتس David Roberts من مجموعة مانسيل بلندن)

وبذلـــك تركـــت حرية، التصرف لبريطانيا لإعادة الباشا لحجمه الطبيعى. فقد قـــام فيلق بريطانى بقصف عكا بالقنابل، وتفجير مخزن إبراهيم باشا للعتاد، وثار السوريون وحاصروا المصريين، واضطر إبراهيم ـ الذى كثيرا ما قاد الفلاحيـــن مـــن نصـــر إلـــى نصر ـ مثلما حدث لنابليون من قبل أن يقوم بانسحاب مكلف من سيناء عائدا إلى مصر، فمن بين الثمانين ألف مقاتل الذين تـــركوا دمشق لم يرجع منهم بالفعل سوى ١٥,٠٠٠ من بينهم ٥٠٠٠ حملوا إلـــى المستشفيات. وكتب القنصل الأمريكى فى القاهرة تقريراً قال فيه: " كان هـــذا نتيجة بضع سفن أوروبية وحفنة من القوات البحرية النمسوية والبحرية بالتعاون مع الجيش التركى والانتقام المجنون للشعب السورى الغاضب "

وحـــتى الأســـطول التركى الهارب لم يكن بذى فائدة كبيرة لمحمد على، ولـــذا كان عليه أن يستخدم أسطوله لمراقبة الأتراك الساخطين، ولابد أنه قد تبين له أن اللعبة قد انتهت قبل أن يرسو العميد البحرى نابييه Napier أمام الإســـكندرية، ومعه ستة سفن، وجعله يذعن لإجراء بعض الحديث الصريح الـــذى يتصـــف بـــه هذا البحار. فقد قال له باختصار: " لو لم يذعن جلالتكم لمناشـــدتى لكـــم بـــأن تكفوا عن إبداء المزيد من المقاومة الحمقاء.. وأيم الله ســـوف أنهال عليك بالقنابل، وسوف أقذف بقنبلة فى نفس ذلك المكان الذى تجلس فيه ".

ولكن محمد على لم يفقد كل شىء، وكما حققت له سياسة البوارج المزودة بـــالمدافع النصـــر ذات مرة، بذل بالمرستون كل ما فى وسعه لطمأنة الباشا المنزعج، فبمقتضى الفرمان المؤرخ فى ١٣ فبراير عام ١٨٤١ كذلك التوقيع على معاهدة لندن فى شهر يوليو التالى عام ١٨٤١ ترك لمحمد على السيطرة الفعلـــية على مصر تحت السيادة التركية الاسمية، مع حق أن يرث العرش أكبر الذكور من صلبه ومن داخل أسرته.

وهكـــذا بهـــذا الضـــمان الدولى، نال الرجل الذى استولى على بلد بأكمله الاحـــترام، فقـــد يكـــون فقـــد إمبراطورية، لكنه أسس أسرة حاكمة وراثية، وبالإضـــافة إلى ذلك فأنه وضع مصر تحت أضواء الشهرة. فما أن استرخى

الـــتوتر، حـــتى بـــدأ الـــزوار يتدفقون عليها، وكان من أوائلهم ذلك الصبى المـــزارع المغامر الذى جاء من برستون كيبس Preston Capes فى إقليم نورث هامبرلاند North Humberland الذى تحول من الفلاحة إلى البحر. بـــدأ فـــى عام ١٨٤١ يساعد فى إدارة الفندق البريطانى بالقاهرة، والذى كان يقـــدم الطعام للمسافرين براً إلى الهند، وبعد خمس سنوات تلت شيد صمويل شبرد Samuel Shepherd فندقا حمل إسمه وكان واحدا من أهم العلامات المميزة للقاهرة الحديثة التى كانت لا تزال تعيش فى مناخ العصور الوسطى، ولـــم يمـــض وقت طويل حتى أصبح فندق شبرد بحماماته الحجرية العميقة المشـــيدة علـــى الـــنمط الأوروبى لتحقيق وسائل الراحة، على رأس برنامج الرحلات لكل إنسان. وطبقا لسجلات الفندق أقام فيه أو كنجليك Kinglake أثـــناء اندلاع وباء الكوليرا، وخلد زيارته لأبى الهول بوصف بهيج أعظم ما خطه قلمه، إلى جانب قطعة غراء من أدب الرؤيا، إذ كتب يقول:" إن تمثال أبـــى الهـــول الذى لايمت إلى عالم الأرض بصلة راح يراقب ويراقب بنفس العينين غير الهازلتين كالعناية الإلهية، وبنفس المسحة الحزينة الهادئة توالى الأسر القديمة الأثوبين، والملوك المصريين، والإغريق، والرومان، والعرب، والعثمانيـــن ويرقـــب، المعارك والطواعين، والبؤس الذى لا ينتهى للعنصر المصـــرى، وكذلـــك الـــرحالة ذوى العـــيون المدققـــة: هيرودوت بالأمس: ووربـــيرتون Warburton الـــيوم، على كل أولئك وأكثر كان (أبو الهول) شاهداً ».

.. إنـــنا ســـنموت والإســـلام ســـوف يخبو نوره، وسوف يغرس الرجل الانجلـــيزى وهـــو ينحـــنى بشدة ليمسك بحبيبته الهند ــ ويضع أقدامه على ضفاف النيل فى ثبات. وسوف يجلس فى مقاعد المؤمنين.. أما تلك الصخرة الـــتى لا تغفل ولاتنام، فستظل تراقب وتراقب إنجازات هذا العنصر البشرى الجديد كثير العمل، بنفس العينين الحادتين الحزينتين، وبنفس المسحة الحزينة الهادئة الأبدية"(*).

(*) اسمه بالكامل ألسكندر وليام كنجليك، مؤرخ وأديب بريطانى عرف عنه تعصبة الشديد ضد الإسلام والدولة العثمانية، ولد عام ١٨٠٩، وتوفى عام ١٨٩١. درس وتخرج فى

وفى غضون ذلك طال بقاء الباشبوزق العجوز فى مقاعد المؤمنين لبضع سنوات أخرى وهو يحافظ على النظام القديمة للأشياء سليما، ولكن منذ عام ١٨٤١ فصاعدا بدا واضحا أن محمد على قد أصبح رقما ماضيا فى حسابات العالم الخارجي. فقد انتهى تأثيره فى الشئون الدولية. ومع انتهاء سياسة الاحتكار الاقتصادى تدهور نفوذه التجارى الشخصى، وخيم التراب والرمال على مصانعه، وحتى ذاكرته بدأت تخونه فى آخر الأمر. وفى أيامه الأخيرة، قام بزيارة يسودها الحنين إلى الماضى إلى القسطنطينية، كما شرع فى بناء قناطر على النيل عند قليوب. وشيد مسجداً رائعا فى القلعة لا تزال مناراته العلمية الشكل تشرف على القاهرة الحديثة. وربما كان مسجده هذا رمزاً للرجل ذاته، هام أكثر منه جميل يستطيع المرء أن يتأمله من بعد أكبر بشكل أفضل، وتحت أضواء معينة.

كمبردج، وبعد تخرجه قام بسياحة كبرى فى ولايات الإمبراطورية العثمانية خاصة مصر التى زارها فى عصر إسماعيل خلال وباء الطاعون حيث كانت بريطانيا تسعى لمد نفوذها المالى على مصر أملا فى احتلالها مستقبلاً. بلغ به التعصب ضد العرب الإسلام أن اشترك مع الفرنسيين فى قمع ثورة الجزائر وكذلك فى حرب القرم. سجل نبوءاته والتى تمثل الكراهية للإسلام والشرق فى كتابه الذى أسماه «بالنبوءة» Eothen حيث نقل المؤلف هذا المقطع الأخير. انظر.

A.W. Kinglake: Eothen or Traces of Travel Brought Home From the East with introduction and notes by Robin Feden, Chapter XX, (The Sphinx) pp. 235 236 Methuen & Company LTD. (المترجم).

الفصل السادس

باشوات ونهابون

(خلفاء محمد على)

يقـــال إن محمد على وهو على فراش المرض همس قائلاً: « إن أحفادى سوف يحصدون ما بذرت » وقد علق السير جورج يونج على ذلك بقوله: « لقــد حصــدوا كل شىء بتهور شديد، ولم يبذروا حباً لمحاصيل أخرى غير الانغماس فى الشهوات.

لقــد جــاء حفــيده عباس فى المقدمة(*)، كان رجلاً نكد المزاج، مصمت الشــفاة، يعتريه مرض نفسى يجعله يكره أىشىء أجنبى أو مبتدع، كان حقاً مــنطوياً على نفسه، جاعلاً كل همه هو جمع المال وبناء سلسلة من القصور المشــئومة فى الصحارى، توارى فيها عن الأنظار كما توارى (الإمبراطور الــرومانى) تيــبريوس فى جزيرة كابرى، لا يحيط به شىء سوى حفنة من العبــيد، وأقفــاص مــن الوحوش الضارية. بالإضافة إلى ذلك كان سوداوى المــزاج إذ كــان يســتهويه جلــد الفلاحيــن، وجلد نسائه أيضاً. ففى إحدى المناســبات عندما أدينت امرأة بارتكاب جريمة الزنا، ووضعت – وقد سادها الرعـــب – فى جوال استعدادا لإلقائها فى النيل (وهى العقوبة التقليدية للبنات اللائـــى ضللن الطريق)، اقترح عباس لتسلية النظارة إضافة شىء جديد، إذا أمـــر أن يضـــم الجـــوال قطة وأبنائها الصغار قبل أن أن يلقى بالضحية فى الماء.

وبالمـــثل جاءت نهايته كنهاية «الأراجوز الكبير» «Grand Guinol»، ففى أحـــد قصـــوره النائية فى بنها، قام فتيان من العبيد أرسلهما أحد أقربائه من القســطنطينية بخـــنقه، وذلك فى إحدى أمسيات شهر يوليو عام ١٨٥٤. ولقد حـــاول الباشـــوات الذين عقدت الدهشة ألسنتهم أن يخفوا خبر الجريمة، ربما لكى يعطوا لابنه إلهامى الفرصة حتى يعود من الخارج ويتولى منصب نائب

(*) عباس الأول (١٨٤٨ – ١٨٥٤).

السلطان، فقاموا بوضع جثته فى عربة مغلقة، وتجولوا للنزهة فى صحبتها عبر الشوارع لإعطاء الإيحاء بأن عباس يقوم بجولته المسائية على عربته كما اعتاد أن يفعل. وبالرغم من ذلك تسرب الخبر، كما أن موجه الحر الخانق أقنعت المصريين أن أبواب جهنم قد فتحت لتستقبل حاكمهم الراحل.

ومنذ قرن مضى كانت القاعدة التى أعتاد المؤرخون وضع بصماتهم عليها أن يدمغ شخصياتهم بوصف: إما « طيب » أو « شرير »، وكان عباس يصور دائماً بمثل هذه الألوان الكئيبة، حتى أنه لم يكن هناك شك بأنه لا يستحق الحديث عنه. فبعد أن عين وليا للعهد منذ أن بدأت ذاكرة جده محمد على تخونه رفض حضور جنازة أبيه، وعلى الفور شرع فى نقض وإعادة كل شيء فعله الباشا العجوز إلى ما كان عليه من قبل، فقد أغلق ما تبقى من مصانع، وصرف المستشارين الأوروبيين، وأنهى وجود الأسطول، وانسحب معتزلاً خلف ستار من دخان الغموض الإسلامى، لكن ربما لم يكن المؤرخون عادلين فى الحكم عليه فقد شارك عباس فى الحملة على الشام(*)، ورأى بنفسه عدم جدوى بناء الإمبراطورية الشخصية فى مواجهة المعارضة الأوربية، كما شاهد الانهيار الكامل لطموحات محمد على، وبات مقتنعاً أن ما تحتاجه مصر فى حينه هو التخلص من المشروعات الخيالية لطموحة، والاحتكارات التجارية غير المفيدة، وفترة من السلام والهدوء. لقد وجد نفسه محاطاً بحفنة من الأوروبيين النهمين والمتزلفين من أبناء البلد، الذى كان همهم الأول الإثراء على حساب البلاد(**) ولهذا لاذ إلى العزلة فى مناخ العصور الوسطى، وإذا كان له أى اتصال فقد كان مع البريطانيين الذين كانوا أقل فساداً من الآخرين. وهناك نقطة واحدة بيضاء فى سجل حكمة الأسود والذى بلغ خمس سنوات، وهو إنشاء أول خط حديدى فى الشرق

(*) وهى من ١٨١٣ - ١٨٤٠. وقد أغفل المؤلف أن عباس أرسل فرقة مصرية لكى تحارب إلى جانب العثمانيين فى حرب القرم Crimem war المترجم.

(**) كان على رأس مستشاريه نوبار باشا ويوسف حقيڤان بك (المترجم).

يربط بين القاهرة والإسكندرية(*)، وقد تم ذلك على يد ابن روبرت ستيفنسون Robert Stevenson.

هـــناك حكايتان تعطيان لمحه عن الرجل، ففى إحدى المناسبات روى أن حسن باشا المانسترلى (مستشاره) حاول إقناعه بتوقيع قرار يحظر بيع مخدر الحشـــيش، لكـــن عباس رفض ذلك وهو يلقى بالطلب جانباً قائلاً: « لو أننى حظـــرت تعاطى الحشيش فأنهم سوف يشترون مشروب العرقى بدلاً منه من عـــند اليونانيين، الذين سوف يدخلون إلى رءوسهم أفكاراً ثورية. أن الحشيش يسبب الغباء. والعرقى يفعل العكس ولهذا فأنا أفضل الحشيش! ».

أمـــا الثانية فقد اشتكى لمهندس فرنسى قائلاً: « إنك دائماً تأتى وتزعجنى بخصـــوص قـــناطرك. لقـــد خطـــر ببالى فكرة... هذه الأكوام الضخمة من الحجـــارة الـــتى تسمى الأهرامات تقف بلا فائدة. لماذا لا تنزع الحجارة منها لإنجاز العمل. أليست تلك الفكرة جيدة؟ وهنا قال المهندس الفرنسى وقد علته الدهشـــة متلعثما: « بهذه الأهرامات »؟ فكرر عباس مبتهجاً: « نعم ولم لا؟ هـــل أنـــت غبى لدرجة تبجيل هذه الأكوام القبيحة من الحجارة التى لا فائدة تـــرجى منها؟ وإذ كنت لا تستطيع استخدامها فى بناء القناطر. فقد استخدمته من قبل فى بناء القاهرة ».

لقد كان يعنى ما يقول، غير أن المهندس الفرنسى بعد أن قضى ليلة جافاه فـــيها الـــنوم، خطـــرت بـــباله فكـــره أن يلعـــب على جشع عباس لكى ينقذ الأهرامات. فقد حمل معه ورقة كبيرة مليئة بأرقام وحسابات، وعاد فى اليوم التالى إلى نائب السلطان. وسأله عباس متشككاً: « ما هذا كله؟ ما هذا الهراء

(*) بدأ تشغيل هذا الخط عام ١٨٤٥. وكان يستغرق ٤٢ ساعة لقطع المسافة بين القاهرة والإســـكندرية، لكـــن بناء كوبرى كفر الزيات فى عام ١٨٥٩ اختزلت مدة الرحلة بين العاصـــمة والـــثغر من ٤٢ ساعة إلى سبع ساعات فقط (يونان لبيب: الأهرام ديوان الحياة المعاصرة، الحلقة ٣٠٣ ص ١٦ سبتمبر ١٩٩٩).

الذى تحضره لى؟» فرد المهندس قائلاً: « يا صاحب السمو بعد تلقى أوامرك بخصـــوص خلع الحجارة من الأهرامات لبناء القناطر، رأيت أنه من واجبى أن أجرى حسابات تقديريه حول التكاليف.. وها هى ».

فقال عباس متعجلاً: « حسنا كم سيكلف ذلك؟ » عندئذ ذكر المهندس رقماً فلكياً كتكاليف لنزع الحجارة ثم نقلها. وأخيراً أقنع عباس بترك الفكرة.

ولقــد أخـــبر القنصـــل الأمريكى فيما بعد أنه قال له: « تصور يا سيدى Figurez - vous Monsieur وتخـــيل احساســـاتك أن يشار إلى أبنائك فى كل مكان كأبناء الرجل الذى هدم الأهرامات! ».

لقد حل محل عباس شخصية أكثر تفهماً(*)، فكل واحد تقريباً (حتى أولئك الـــذي لـــم يقـــرأوا عن هنرى الرابع قط) نظر إلى سعيد بنوع من الهيلمان الشـــرقى Oriental Falstaff رجـــل عملاق ذو وجه أحمر، ولحية وشارب كـــث، يأكل ويشرب، ويسب، ويلعن، ويضحك فى وقت واحد مبدياً فى ذلك استمتاعاً يفوق الوصف ويقول يونج Yong فى كتابه: « تاريخ مصر » « لقد كـــان هـــناك حالـــه مزاحـــية رابيلاســـية Rabelaisian حـــول ذلك العملاق Gargantua الـــذى يزن خمسة وعشرين حجراً(**) والذى تتجسد فيه كل ما هـــو كومـــيدى فـــى نظـــرة الغرب عن الشرق، أوفى فى نظرة الشرق عن الغـــرب. لقـــد كان مثل السلطان فى ليالى ألف ليلة وليلة مع إضافة شخصية جابوتن الصعلوك Gabotin فى الحى اللاتينى، فقد كان يطيح برءوس الشيوخ الذيـــن يســـيئون التصـــرف وقـــد غمرته السعادة. كما أشعل نيران مطالباته بالمـــتأخرات الضريبية فى القرى بشكل مرح، والبالغ مقدارها ثمانين مليون قـــرش. كما كان يسلى زواره من الحكام الأجانب بقصص فرنسية مضحكة،

(*) تولـــى ســـعيد من ١٨٥٤ - ١٨٦٣ بعد مصرع ابن أخيه عباس. وقد أعاد نشاط أبيه محمد على فى تحديث مصر (المترجم).

(**) أى ١٥٨,٥ كـــيلو جـــرام، والحجـــر (Stone) وحدة وزن انجيلزية تعادل ١٤ رطلاً والرطل يعادل ٤٥٣ جرام (المترجم).

كمـــا كـــان يجعـــل باشواته يخوضون معه فى مساحيق البارود السائب وفى أيديهـــم شمعة مضاءة ليختبر قوة أعصابهم.. غير أن الحياة مع سعيد لم تكن أبـــداً مملة فكثير ما كان يصيح " أعطه مائتين " دون أن يوضح عما إذا كان المقصود هو ضربات الكرباج أو البقشيش!".

ومنذ اللحظة التى جلس فيها على العرش كنائب للسلطان، كان واضحاً أن سعيد ينوى الاستمتاع بشئون إدارة البلاد. إذ بدأ بتغيير زخرفة بهو الاستقبال فـــى قصـــره بتكاليف قدرها عشرة ملايين فرنك (مليون دولار حسب أسعار الصـــرف فـــى هذه الأيام)، تلى ذلك أنه متع نفسه بشئون الجيش، فقد ألبس الجـــنود زيـــاً صـــممه بنفسه. ومن أكثر الأمور لفتاً للنظر تكوينه فرقة من النوبييـــن العمالقـــة وهم يرتدون من الرأس إلى أخمص القدم سلاسل الدروع علـــى غرار الصليبين القدامى، كما ظهرت فرقة أخرى مكسوة بالذهب ولها دروع صدر من النحاس اللامع على جانبى الخيل والرجال، وخوذات نحاسية تـــبرق. وكـــان يطيـــب له تدريبهم بنفسه فى ساحة استعراض خاصة مغطاة بصفائح الحديد لمنع تطاير الغبار حتى لا تلوث ملابسه الباريسية الصنع، كما كـــان يطيـــب له أيضاً أن يقوم بمناورات فى الصحارى يكسب فيها معارك وهمـــية، والـــتى كانت بالنسبة له أكثر ملاءمة من الحملات الحقيقية الدامية. ولكـــى يســـعد الجميع، فقد خفض مدة الخدمة العسكرية إلى عام واحد. وكان أولاد الـــذوات jeunessse dore فـــى البلاط يتباهون فرحين بأزيائهم، كما قام بمـــد توصـــيلات الســـكك الحديدية لكى تصل إلى القصور حتى إذا ما شعر بـــالملل كـــان فـــى استطاعته أن يأوى إلى عربة خاصة مصممة على غرار البيت ويبقى فيها لحين من الوقت فى ناحية ما.

أما أيام الطيش فكان يقضيها فى باريس، وكان يتخيل نفسه كرجل حاضر الـــبديهة، فعندما كان فى لندن لحضور المعرض الكبير تصادف أن كان الجو مكفهـــراً كمـــا يحدث دائماً فى فصل الصيف، وفى يوم من الأيام عندما كان يـــتجول حـــول قصـــر الكريستال لاحظ سعيد أن شعـــاعاً من أشعة الشمس يخـــترق الســـطح الـــزجاجى للقصـــر، فالتفت إلى ذو الفقار باشا الذى كان بصـــحبته قـــائلا: "انظر.." لأن الشمس نادرة فى هذا البلد.. ولذلك وضعوها للعرض فى المعرض".

ذات مــرة أبدى بسمارك ملحوظة عن فيلهلم الثانى قائلاً:" إن القيصر يود أن يحــتفل بعيد ميلاده كل يوم » ولقد كان فى مقدور بسمارك أن يبدى نفس الملاحظــة عن سعيد، فقد أصبح قصر نائب السلطان أكثر الأماكن فى العالم تقديمــاً لكرم الضيافة، فكل شخصية تلقى الترحيب الواجب، أيا من كانت ما دامــت تنــتمى إلى أبناء الأسر de famille من العائلات التركية أو الأجانب ومــن ثــم فقد كانوا زواراً مناسبين لاستعراض مظاهر الأبهة والعظمة. إن بعــض الممارســات المحدودة والتى كانت لا تزال باقية منذ أيام محمد على فتحــت لهــا الأبــواب عــن آخرها. فقد أعيدت الملكية الخاصة للأراضى، وتحــررت الــتجارة، وبدأت الزراعة تزدهر وعلى رأسها محصول القطن، وبدأت الأشغال والمشروعات العامة تزدهر تنمو.

وفجأة بدت مصر كما لو كانت أرض الميعاد. وتحول عدد الزوار الهزيل إلى طوفان جارف، فقد ذكر قنصل فرنسا فى الإسكندرية فى تقرير له: " من كــل ركــن مــن أركان أوربا جاء الأفاقون، والباحثون عن الذهب فى شكل جماعات ليتساقطوا على مصر كما لو كانت كاليفورنيا" فقد كان متوسط الذين وصلوا إلى الإسكندرية ما بين أعوام ١٨٥٧– ١٨٦١ حوالى ٣٠,٠٠٠سنوياً، وكــانوا جمــيعهم مــن الناحية الفعلية حثالة البحر المتوسط.. جمهور أشبه بالمافيا لا يهمه سوى شيء واحد، وهو أسرع وأقصر الطرق لجمع المال.

لقــد وجــد سعيد نفسه محاطا بزمرة من المضاربين الذين بلغ بهم الشره درجــة لا تؤهلهم لتطوير أى خطة يحاول التفكير فيها، ومن ثم لم يكن لديه أدنــى فرصة. وربما كان فى مقدوره فقط أن يتحكم فى مشروعاته الخاصة من خلال مصفاة الإدارة المركزية، لكنه على نحو مميز كان يفضل الصفقات الشخصية على مفاوضات السوق العامة. وعلاوة على ذلك فقد كان موضوعاً فــى موقــف صــعب بســبب ذلك التنظيم الغريب والعتيق المعروف باسم " الامتــيازات " الأجنبــية التى كانت تعطى حصانة قانونية لأى شخص يحمل جــوازاً أجنبــياً ويقيم داخل حدود الإمبراطورية العثمانية. إن مبدأ الحصانة

يعود تاريخه إلى أيام سليمان القانونى(*) فى القرن السادس عشر. وكان يقوم على أساس أن القانون التركى قانون شخصى أكثر منه قانون إقليمى، وبذلك فــإن المسيحيين داخل الأراضى التى تخضع للسيادة العثمانية كانوا يمنحون الحمايــة مــن العــنف المحــتمل، أو الظلم الذى قد يقع عليهم من السلطات المحلــية. وبناء على ذلك فإن شئون الأجانب القانونية كان ينظر فيها محاكم قنصلية خاصة بهم.

وطوال الفترة التى كان فيها عدد قليل من الأجانب يشملهم هذا النظام، فقد كــان يعمل بهدوء تام، ولكن ما أن تدفق الصعاليك على البلاد حتى أصبحت الامتــيازات الأجنبــية مصــدر إفساد وفساد مناف للمنطق. فباستثناء موافقة قنصل بلده. الذى كان يحميه ظالماً أو مظلوماً، كانت حرمة الأجنبى تقريباً لا تنــتهك علــى الــدوام، كما أن الممثلين الدبلوماسيين لبعض البلاد الصغيرة (وكــانوا أنفســهم رجال أعمال أكثر منهم شاغلى مناصب رسمية) ذهبوا فى تصرفاتهم إلى حد غريب فى تأييد موكليهم، بل أنهم لم يكونوا أنفسهم بعيدين عن اتباع بعض أنواع الحيل المعقدة مقابل نسبة مئوية من العائدات ليضمنوا انتقال أموال السلطان إلى جيوب من هم تحت مظلة حمايتهم.

إنه أمر حقيقى أن بعض درجات الحماية للأوربيين كانت ربما ضرورية، ففــى دولة بدائية كمصر فى ذلك الوقت لم يكن من المحتمل أن يتلقوا معاملة عادلــة من الموظفين المسلمين الذين كانوا ينظرون بأسى إلى الأيام الخوالى عــندما كان ينظــر إلى الكفار بأنهم قوم محتقرون، وأقلية مهانة[١٠]، والذى لا شــك فــيه أن قــدراً كبــيراً من كراهية الأجانب نبع من سوء معاملتهم وادعائهم التسامى المتعجرف على ابن البلد المصرى.

(*) ســليمان القــانونى (١٥٢٠- ١٥٦٦) الســلطان العــثمانى عرف عند الأتراك باسم القــانونى وعــند الأوروبيين باسم سليمان الأبهة والعظمة The magnificent، تشبهاً بالنبى سليمان كما وردت سيرته فى التوراة (المترجم).

إن الذيـــن يعـــرفون مصــــر الــيوم بحكومتها "الكبيرة" التى فى مقدورها مصـــادرة الملكيات حينما تشاء، وتطرد ممثلى الدول العظمى عند ظهور أول بـــادرة للــتأزم الدبلوماسى ليدهشون كيف سمح سعيد لخزانته أن تنهب بهذه الطريقة المكشوفة، وبالطبع أن الإجابة على ذلك ليست لأن بندول الساعة قد مـــال لدرجة أن سعيد لم يكن فى مقدرته أن يقول لا لأى شخص، لقد كـــان مـــن الأيســـر له أن يعطى موافقته لكى يزيح عن كاهله شئون المال المرهقة بحركة فيها شيء من الإذعان. إن صورة العاهل الكريم المتألق كانت تقتضى مـــنه أن يغدق بوابل من السخاء على من حوله بكلتا يديه، وإلى صاحب أي فكـــرة ذكـــية أياً من كان، فمثلاً عندما جاء مضحك القصر يشتكى أن تقديراً لحســـابه بالليرة الإيطالية جاء ضئيلاً، وللتغلب على هذه المشكلة فقد تم تغيير علامـــة الليرة إلى علامة الإسترلينى (وهى نفس العلامة بالإيطالية على أية حال).

وبالطـــبع فإن المال الوفير يقبع وراء التعاقدات والامتيازات التى تمنح من أجـــل الأشـــغال العامة والخدمات والإمدادات. وكان الأوروبيون وحدهم هم الذيـــن يقومـــون بهـــا، فهـــم وحدهم منذ احتكارات محمد على الذين قتلوا المواهـــب الـــتجارية المحلية، وكان تحت أيديهم رأس المال والمعرفة للقيام بمهمـــة بناء مصر على النسق الأوربى الغربى. وفى حين أنه من الخطأ أن نظـــن أن كل العقود كانت عملاً من أعمال الاحتيال، إلا أنها كلها وبكل تأكيد وبـــدون اســـتثناء حاولت اعتصار أكبر قدر من الفائدة من أى مشروع. فكل فـــرد فـــى بطانة سعيد وعلى رأسهم المسئولين الأتراك وضعوا أصابعهم فى جـــرة العســـل ما دامت هناك فائدة يمكن أن تعتصر عن طريق الضغط الذى يمارســـه القناصـــل حتى من غير العقود: مثل الخسائر الحقيقية أو الوهمية، والمطالبات الفلكية للغاية التى كانت تجئ من كل ناحية، والأدهى والأمر أنها كانـــت تسدد. فقد كان سعيد – الذى أحاط نفسه بحفنة من المتزلفين المتذللين يســـخر مـــن مشاكله، إلا أنه من آن لآخر كان يبدى القليل من مظاهر الغيظ مثلما حدث عندما قاطع محادثته مع مقاول فرنسى ليطلب من خادمه أن يغلق الـــنافذة، مطلقاً إحدى نكاته قائلاً: لو أن البرد أصاب هذا السيد المبجل فإن

ذلــك سوف يكلفنى ١٠,٠٠٠ استرلينى » فيما عدا ذلك فقد استمر فى حرق الشمعة من طرفيها وهو يبتهج: الطرف الأول هو تجاربه الأوروبية، والثانى هو بذخه الشرقى مما زاد من أحلام النهايين.

غير أن أكبر عملية نهب فاقت كل شىء كانت على وشك الظهور.

الفصل السابع

قناة عند خليج السويس

كـــان فرديـــناند ديلســـبس قـــد عين قنصلاً سامياً Consul lve مقيماً فى الإسكندرية حيث كان أبوه قد شغل من قبل وظيفة الممثل الدبلوماسى لفرنسا، ولمـــا وصـــل إلـــى مصر شعر بالسخط عندما كان عليه أن يقضى فترة فى العـــزل الصحى (الكارانتينا)، ولكى يبعد عن نفسه الضجر خلال فترة هذين الأســبوعين، أخذ معه تقريراً كان لوبير Lepere قد وضعه منذ ثلاثين عاماً بـــناء علـــى طلب نابليون حول مشروع ربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر. وسرعان ما ألهبت الفكرة خياله.

لقد كان يعرف أن فكرة شق قناة عبر خليج السويس فكرة لا جديد فيها إذ كانـــت فى الواقع – واحدة من أقدم المشروعات التى فكر فيها المصرى بعد قـــيام الحضارة، كما أن تفاصيل شق أول طريق مائى يربط نهر النيل بالبحر الأحمـــر فقدت فى ضباب التاريخ القديم، فطبقاً للتراث كان أول من شقها هو سيزوستريس(*) أحد فراعنة الأسرة الثانية عشرة حوالى ٢٠٠٠ ق.م. حيث ربطت ما بين الفرع البيلوسى للنيل على مسافة ليست ببعيدة من مدينة بلبيس الحالـــية، ثم تتبعت حزام وادى الطميلات الأخضر متجهة نحو الشرق حتى البحـــيرات المـــرة، ثـــم وصلت إلى البحر الأحمر عند ميناء القلزم Clysma القديم بالقرب من السويس.

(*) هـــو سنوسرت الثالث سادس ملوك الأسرة الثانية عشرة (١٨٧٨– ١٨٤٣ ق.م) من الدولـــة الوسطى ونسب إليه حفر قناة ما بين النيل وخليج السويس، عن طريق وادى الطمـــيلات والبحـــيرات المرة، وتعد هذه القناة أقدم طريق مائى مباشر يصل ما بين الـــبحر المتوسط والبحر الأحمر عن طريق النيل. وقد سماها المؤرخون الأغريق قناة سيزوستريس وهو الاسم الذى أطلقوه على سنوسرت الثالث. (المترجم).

ولمــدة تزيد على ألف عام ظلت قناة الفراعنة تربط "منف" ووادى النيل بالبحر الأحمر، ولكن عند قدوم الغزو الفارسى عام ٥٢٥ ق.م كان الغرين قد ردمهـا، لأن نقش دارا يسجل أنه فى عام ٥٢١ ق.م أمر (دارا) بإعادة حفر القـناة مـرة أخرى. وقد ذكر هيرودوت أنها تتسع لمرور سفينتين من السفن ذات الـثلاث طوابق من المجدفين تبحران جنباً إلى جنب، وأن الرحلة كانت تسـتغرق أربعة أيام. وقد اختصر الرومان المسافة عن طريق شق قناة أكثر اسـتقامة عرفت باسم قناة تراجان، وهى التى اتصلت بالنيل من مكان لا يبعد كثـيراً مـن مواقـع القاهرة الحديثة والتى كانت تعرف وقتذاك باسم بابيلون Babylon(*). وبعـد الفتح العربى أعيد تشغيلها تحت الاسم الرنان (قناة أمير المؤمنيـن). أمـا عن مشروع شق قناة مباشرة من بحيرة التمساح إلى البحر المتوسـط، فقد توقف فقط بأمر من هارون الرشيد على أساس أنه من الخطر الفـادح أن يفـتح ساحل بلاد العرب إمام جيوش الروم. وفى القرن الخامس عشـر درس البـنادقة المشـروع بعد أن اكتشف فاسكو داجاما طريق رأس الـرجاء الصـالح، إلا أن الأتـراك اعترضوا على ذلك. كذلك أشار ليبنتز Leibnitz علـى لويـس الرابع عشر بنفس الفكرة، وقد قام مهندسو نابليون بمسـح المـنطقة وتوصـلوا إلى نفس الاستنتاج الخاطئ الذى كان الإغريق والـرومان قـد توصـلوا إلـيه منذ ألفين سنة سبقت بأن البحر الأحمر يزيد ارتفاعـه مـا يقرب من عشرة أمتار عن البحر المتوسط، وأن هناك خطورة بـأن تغـرق مصـر السفلى، وتوصلوا إلى أن ذلك يبطل أى إمكانية لتنفيذه وبالـرغم مـن ذلـك فإن السان سيمونيين استمروا يروجون للمشروع(**)

(*) هذا خطأ من الكاتب لأن القاهرة لم تكن قد بنيت بعد، إنما بنيت عام ٩٦٩م.

(**) السـان سـيمونيون هـم Saint Simonians: هم أتباع الفيلسوف الاجتماعى سان سـيمون. ولـد فـى بـاريس عام ١٧٦٠ وتوفى فيها عام ١٨٢٥ أسس الاشتراكية المسـيحية، ودعا إلى اعتبار كل البشر أخوة وإلى التنظيم العلمى للصناعة والمجتمع. عاصـر الـثورة الفرنسية. دعا إلى إحلال العلماء محل القسس والكهنة، وتنبأ بثورة التصنيع فى العالم كما دعا إلى إلغاء الملكية خاصة تلك التى تأتى عن طريق الإرث،

ويعارضون النتيجة التى توصل إليها الخبراء من قبل.

كانــت قــناتا الســويس وبنما جزءاً من برنامج الكونت دى سان سيمون Conte de Saint Simon لإعــادة " تجديــد شــباب " العــالم، وعندما جاء بروســبير إنفانتين Prosper Enfantin فى صحبة مجموعة من السانسيمونيين Saint Simonians إلــى مصــر عام ١٨٣٣، زادت المناقشات المطولة التى دارت حول مائدة العشاء القنصلية من حماس ديليسبس de Lesseps.

لكــنهم ولا غــيرهم ممــن تقدموا بطلبات للحصول على هذا الامتياز. أحرزوا أى تقدم مع محمد على الذى كان يخشى لو أنه تم توصيل مياه البحر الأحمــر بمياه البحر المتوسط. فإن وضع مصر سوف يصبح مهدداً(*)، وأنه ســوف يتبع ذلك بكل تأكيد غزو يقوم به واحدة أو أكثر من القوى الأوربية. لكن بينما كان يرفض السماح له بحفر القناة، كان الباشا من الناحية الشخصية

واســتبدالها بالملكــية الجماعية. أصدر منذ عام ١٨٣١ صحيفة "العالم" Le Globe. عــاش السان سيمونيون عيشة جماعية على القليل ويمارسون الطهارة. كانوا يتخيرون عــباءاتهم الــزرقاء Blue tunics وقبعاتهم الحمراء تركت فلسفته الإصلاحية تأثيراً كبــيراً على فلسفات القرن التاسع عشر مثل جون ستيورات ميل، وتومس كارليل، بل تأثــر بهــا فريدرش إنجلز شريك كارل ماركس مؤسس الماركسية أما تلميذه الأول وخليفــته هــو بارتلمى بروسبير انفانتن Barthelmy Prosper Enfantin وكان ثرياً يمتلك مزرعة وكان يعول تلاميذ سان سيمون بعد وفاته، قام بعد وفاة أستاذه بالتبشير لنظريــته بنشر الصناعة والعلم. وهو الذى اصطحب مجموعة من العلماء إلى مصر عام ١٨٣٣ (المترجم).

(*) من الطريف أن الفرعون نخاو الثانى توقف عن تنفيذ هذا المشروع لأن نبوءة ظهرت بأنــه هــذا المشروع سوف يكون فى صالح الأجانب: هيرودوت الكتاب الثانى ١٥٨: (انظر هيرودوت فى مصر) ترجمة صقر خفاجة وأحمد بدوى دار القلم ١٩٦٦ ص ٢٩٢ (هامش ٣، ٤) (المترجم).

شـــديد الإعجـــاب بديليســـبس وكانت القنصلية الفرنسية المكان الوحيد خارج القصر الذى كان يسمح فيه لابنه المفضل سعيد بزيارته.

وبالـــرغم مما أشيع أن محمد على قد أنجب ما يربو على ثمانين طفلاً، إلا أن أربعـــة مـــنهم فقط عاشوا من بعده أكبرهم سعيد. وربما لأنه كان قلقاً من هـــذه النســـبة العالية للوفيات، فقد أولاه محمد على اهتماماً خاصاً فى تنشئته. فمنذ أن كان طفلاً، كان سعيد سميناً جداً، ولذلك وضع له والده حمية صارمة (ريجـــيم) علـــى النظام الأسبرطى، إذ فرض عليه أن يقضى أيامه وهو يقوم بـــأداء تمريـــنات لعضلاته الجسمانية مثل تسلق الأشرعة والصوارى، وكما عين ضابط تدريب عسكرى يتعقبه جرياً حول أسوار القصر. أما عن وجباته الغذائـــية، فقـــد كان يسمح له بطبق من الفول وبعض "السلاطة" ولم يكن من المســـتغرب كلمـــا وجد عذراً - كان الصبى التعس المفرط فى السمنة يتسلل إلـــى داخل القنصلية الفرنسية عندما كان ديليسبس يعلمه ركوب الخيل حيث كـــان القنصـــل الشـــاب وزوجـــته يشعران بالعطف عليه ويقدمان له بعض الســـعرات الحـــرارية الإضافية. واكتشفا أن أكثر شئ يحبه هو "الاسباجيتى" وأمـــام الأطـــباق المملـــوءة بأكوام "الاسباجيتى" والتى عليها "الصلصة" نشأ ربـــاط من الصداقة بينهم، ولم ينس سعيد قط هذا العطف الذى حظى به من جانبهما.

كـــان ذلك فى عصر صيف عام ١٨٥٤، عندما كان دى ليسيبس منشغلاً بإصـــلاح ســـقف بيـــته، وهو عبارة عن قصر عتيق يقع بالقرب من بورج Bourges والـــذى كـــان فـــى وقت ما من ممتلكات اجنس سوريل أن ظهر ســـاعى البريد فى المدخل ومعـــــه خطابات من باريس. وكان لا يزال فوق الســــطح عـــندما علم دى ليسيبس أن عباس الأول قد مات وأن محمد سعيد خلفه كنائب للسلطان على عرش مصر.

فبالنســـبة لهذا الدبلوماسى النشط، الذى قاده سوء الحظ حديثاً أن يصطدم مع لويس نابليون، وكان يجد فى اعتكافه التى تلى ذلك أمراً مملاً، فأمام هذه الأنـــباء فجأة وجد مشروعات تشرح الصدر. وكما روى وهو مبتهج لصديقه

الهولـــندى ريسنايرس Ruysenaers: "وعلى عجل نزلت من السقالة وسارعت لأكتـــب لنائـــب السلطان خطاب تهنئة. وشرحت له أن الظروف السياسية فى الوطن قد وفرت لى وقت فراغ يسمح لى بتقديم احتراماتى له شخصياً مجرد أن يعلمنى بتاريخ عودته من القسطنطينية".

وعلـــى الفور رد محمد سعيد موجها الدعوة إلى ديليسبس أن يلحق به فى الإسكندرية فى مطلع شهر نوفمبر، ولم يساوره أدنى شك حول الغرض الذى يدعوه للحضور من أجله.

إن الســـمة الممـــيزة للمقـــاول الناجح – كما أريد لنا أن نعتقد – هو ذلك الشـــعور بالابـــتهاج الذى يساوره، عندما يضع أشياء إلى جانب أخرى حتى يـــراها تكبر، كما أن دوافعه – كما يفسرون لنا – ليست مادية لدرجة كبيرة بـــل نتـــيجة إلحـــاح خالص خلاق. لقد أدلى أخيراً أحد مليونيرات ما نهاتن بتصـــريح قـــال فـــيه: "لو أن الفنانين تركوا مهمة إسعاد العالم ليسعوا وراء متطلـــباتهم الماديـــة فإن الناس سوف تتفهم ذلك. أما الذى لا يفهمونه هو أن كثـــيراً مـــن رجال الأعمال لديهم نفس الدوافع الخلاقة، ويستمدون منه نفس الإشـــباع مـــثل الفنانين تماماً فالتقاط فكرة مشروع وبعث الحياة فيه هو عمل خلاق". (مجلة التايم ٣ ديسمبر عام ١٩٦٥).

وإذا نظرنا إليه من هذه الزاوية، فإن فيرديناند دى ليسبس يبرز كواحد من أعظم فنانى عصره، وبكل تأكيد كان واحداً من أعظم مقاوليه، إذ أن حجم ما أنجـــزه كـــان خرافياً لكن نشأ اعتقاد ظل ينمو باضطراد أنه فى عصر غير لافت للنظر فى أمانته فإنه كان أيضاً والد كافة المحتالين الذين يسلبون الناس أموالهم بعد كسب ثقتهم. فالشئ المؤكد أنه منذ اللحظة التى خطط فيها لرحلته إلى مصر، لم يكن فى ذهنه سوى هدف واحد هو أن ينتزع من صديقه الذى لا يشك فيه – امتيازاً – لاقى كل من تقدم به الرفض.

إن أوراقـــه الخاصة التى يجب أن تقرأ إجبارياً من أجل تسويق المشروع تظهـــر الحيطة والحذر الشديد الذى سلكه، فخلال مقابلاته القليلة مع سعيد، لم

يذكـــر كلمـــة واحدة عن المشروع الذى يقبع فى مقدمة رأسه، لقد ناقش معه موضـــوعات كثيرة من ضمنها عدد يخص شئون الحكومة، لكن لم نسمع ولو همســـة واحدة عن القناة، فقد كان دى يليسبس مصمماً ألا يفصح عنه قبل أن يكون واثقاً تماماً من الأرضية التى يقف عليها وحتى كما يقول هو: « يصبح ناضـــجاً لدرجـــة أن الأمير يتبناه كما لو كان إحدى أفكاره ». وتدريجياً عن طـــريق الـــنفاق وتقديم الأموال، كسب إلى جانبه بطانة نائب السلطان، وقام هـــؤلاء بدورهـــم فـــى تمهيد الطريق مع سعيد، وبعد وقت طويل: بينما كانا يســـافران عـــبر الصـــحراء مـــن الإسكندرية إلى القاهرة، تملك دى يلسبس إحســـاس قوى أن المناخ بات مناسبا. وكان تاريخ ذلك اليوم هو ١٦ نوفمبر عام ١٨٥٤ إذ يروى فى مذكراته: " فى حوالى الساعة الخامسة صباحاً، كان المعسكر كله فى حالة هرج ومرج عندما سحر بصرى ظهور قوس قزح مفاجـــئ ذى جمـــال غير عادى. لقد رأيت فى هذا التجلى فى السماء علامة الميـــثاق تلـــك التى وصفها الكتاب المقدس. لقد جاء اليوم لأناقش الأمور مع سعيد.

وطـــوال اليوم، وبينما كانا يطويان الصحراء، فإن دى يلسبس كان ينتظر بـــتلهف اللحظـــة المناســـبة، ومع اقتراب الغسق صدرت الأوامر بالتوقف. وكعادته أمر سعيد ضباطه بإجراء بعض التمرينات على التنشين على أهداف معيـــنة، ولسبب أو لآخر لم يصب أياً منهم الهدف، وهنا رأى دى يليسبس أن فرصـــته قـــد حانـــت فأرسل فى طلب بندقيته، ثم سدد بحرص نحو الهدف، ويـــتذكر بلغـــة بليغة: "ان قدر مصر يتوقف علي هذه الثانية"، ثم ضغط على الزناد، ولم يخذله قوس قزح. وجاءت طلقاته تماماً فى قلب الهدف.

وفـــيما بعـــد كتب بلهجة المنتصر يقول: "وهنا تفتحت زهور من الابتسامات علـــى وجـــه الباشـــا، ولوهلة أمسك بيدى، ثم طلب منى أن أجلس إلى جواره فى الديـــوان وكـــنا بمفـــردنا، ثم أطلقت العنان لأفكارى دون أن أدخل فى التفاصيل. وتـــابع ســـعيد ما كان يتوجب عليّ قوله بولع واهتمام، ثم استدار نحوى قائلاً: " لقـــد أقنعتـــنى.. إننى أقبل خطتك. وخلال ما تبقى من رحلتنا سوف نبحث الطرق والوسائل التى بها تنفذ خطتك.. لقد حسم الأمر. تستطيع أن تعتمد على".

وجاء وقت الغداء، وصفق سعيد بكلتا يديه لإعداد المائدة، وبينما كان طقم الأطباق الفضية الكبيرة توضع على المائدة، انتاب نائب السلطان الفرحة لهذه المفاجأة، فشمر عن ساعديه، وأخبر بطانته بما قرر، وأعلن والسعادة تغمره: "لقــد منحــت صــديقى المســيو دى يلسبس امتيازاً.. هذه هى خطتنا أليست كذلــك؟". ولــم يخطر على باله أبداً أنه بذلك التصرف يبيع حق مصر، كما وصــف دى يلســبس ذلك. وبينما كان ينصت كانت ابتسامة الرجل الفرنسى المغرية لمرة واحدة صادقة تماماً: ولكن بالرغم من أن النجاح حلو المذاق إلا أنــه يصبح مستساغاً مرتين عندما يتم التوقيع بسلام، وتطوى الوثيقة وتربط بأحكــام بشريط أحمر، وبعد مرور أسبوعين حول دى ليسبس الامتياز إلى عقــد رسمى يلفت النظر بصفاقته وتحيزه لجانب واحد، وذلك من خلال بنود الاتفــاق الــتى توالت. ويقال أن سعيد وقع على الوثيقة دون أن يكلف نفسه عــناء قراءتــها. وعلــى أى أساس، كما جاء فى الجدل سمح لنفسه أن يكون فريســة للخداع بهذه الدرجة من السذاجة الواضحة. وكيف يقدم على المقامرة مستخفاً برفاهية شعبه وحقوق وطنه؟

وإذا كــان قــد قــرأ شيئاً منها قط، فربما تلك المذكرة المقدمة لها والتى أرسلها صديقه الحميم" مع الاتفاقية والتى تقول: " إن أسماء الحكام المصريين الذيــن شيدوا الأهرامات. تلك الآثار التى تمثل زهو الإنسانية وغرورها، لا تــزال غــير معروفة. أما اسم الأمير الذى سوف يفتتح القناة البحرية الكبرى سوف يلقى التمجيد من قرن إلى قرن حتى "تتوقف عجلة الزمن".

ومهمــا كانــت الوسائل والسبل التى اتبعها لتحقيق أهدافه الملتوية، ومهما كانــت هــذه الأهــداف موضع شك، إلا أن النشاط الذى بذله دى يلسبس فى تأســيس "الشركة العالمية Compagnie Universelle يجب أن يجعله فى منزلة أعظــم العبقريات فى مجال التنظيم إبان القرن التاسع عشر. فمنذ البداية وجد نفســه وحــيداً مــن الناحــية العملية، كداوود التاجر وهو يصارع جوليات الفوضــوى حول مصالح متضاربة، فقد كانت إنجلترا مصممة على وقفه عند حــده، بينما لم تكن فرنسا تقف إلى جانبه بأى حال من الأحوال. فى حين أن السلطان العثمانى كان مذبذباً بين تهديدات لندن وتأكيدات القاهرة.

ولــولا ضربة الحظ التى تلت، ما كان له أن ينجح. فقد حدث أن ابنة عمه "يوجيـــنى دى مونتـــيجو" Eugenie de Montigo اقترنـــت بنابلـــيون الثالث، وبمعاونة الإمبراطورية التى كانت تعمل من أجله من وراء الستار، وبمعاونة البطانة الجشعة التى التفت حول الإمبراطور، ما كان له أن يشق طريقه نسبياً للمشروع. وبعد أن قدم الرشاوى إلى الزمرة الصغيرة التى كانت تدير شئون السياســة الداخلــية للإمــبراطورية الثانــية، أعلن لبورصة باريس أن نائب الســلطان قــد قدم ضماناً للأسهم، وفى نفس الوقت كان يؤكد لسعيد الساذج دائماً أن الجمهور قد أقبل على الاكتتاب. وحتى بعد أن افتتح باب الاكتتاب للشـــركة العالمية لقناة السويس البحرية Compagnie Universelle du Canal Maritime de Suez فى خريف عام ١٨٥٨، لم يشترى الجمهور إلا ما يزيد قلــيلاً عن نصف الأسهم البالغ عددها ٤٠٠,٠٠٠ سهم. غير أنه بوجود أمير بلحمه وشحمه وبعض الأسماء ذات النفوذ فى فرنسا فى مجلس الإدارة أصبح لديـــه قليل من التخوفات أن يساء فهم وضعه أمام السلطات.. فى النهاية وجد محمــد ســعيد: « إن صـــديقنا المســيو دى يلســبس » قد تحمل مسئوليات والــتزامات مالية تفوق بكثير أى تقدير كان يمر بخياله. فعن طريق عبارات الإطــراء الــتى كانـــت تقطر من لسان هذا الأستاذ فى فن التسويق أن القناة سوف تجلب له الخلود كفرعون السويس (بل وحتى عن طريق الأمل الواهى بأنهـــا ســوف تكون وسيلة لتأمين استقلال مصر) وجد سعيد نفسه وقد تحمل وزر ٤٤ فـــى المائـــة من رأس المال الكلى، وفى غضون أسبوعين تحولت مســألة القـــناة إلى مسألة عالمية. ففى لندن وباريس والقاهرة والقسطنطينية بـــدأت التفاصـــيل تتجمع. فالهوايتهول عارضت المشروع لأنها كانت تفضل لأســباب اســتراتيجية الطـــريق البطئ ولكن الآمن حول رأس الرجاء الصـــالح. فطريق النقل البرى من الإسكندرية إلى السويس والذى كان يعمل بـــنجاح كامل، شعروا أنه وسيلة تناسب جيداً خدمة البريد السريع وتحركات الجـــيوش إلى الهند. وأن القناة سوف تقلب ميزان القوى رأساً على عقب، بل من المحتمل أنها سوف تطرح المسألة المصرية من جديد، بالإضافة إلى ذلك

فـإن القسـطنطينية سـوف تكون أقرب إلى الهند عن طريق البحر منها إلى لـندن. غير أن كل ذلك لم يجد من الأمر شيئاً. وعندما سعى دى يلسبس إلى بالمرستون على أمل إقناعه. تلقى منه رداً سريعاً قاسياً وشرح له بالمرستون قائلاً: " دعنى أفصح لك عن تخوفاتى. إن هذا المشروع سوف يقلب علاقات بريطانـيا العظمى التجارية والبحرية رأساً على عقب. وإن فتح طريق جديد للـتجارة قـد يتسـبب فى فقداننا للمزايا التى نمتلكها الآن بين أيدينا كما أنه يسـاورنى الخوف أيضاً ماذا سيكون عليه مستقبل علاقاتنا مع فرنسا. وأعتقد أنـه من واجبى أن أتصرف كما يتصرف رجل الدولة وهو أن نأخذ فى عين الاعتبار ما قد يكون فى رحم الزمن".

لقد أخفت هذه الآراء التى عبر عنها باعتدال تصميماً لا ينثنى لوقف حفر القناة مهما كان الثمن. وكان حجم الضغط الذى مارسه بالمرستون على الباب العـالى كبيراً لدرجة أن سعيد الذى أربكته الانفعالات التى أطلق لها منح هذا الامتـياز العـنان، أصبح مقتنعاً أن إنجلترا مصممة على عزله وفى مواجهة هذا المصير غير المستحب، كان مستعداً حتى لأن يغفر لديلسبس خداعه إياه حول مسألة الأسهم إذا ما تمكن صديقه من إنقاذه من الإنجليز.

وفـى الحقيقـية سـرعان ما فعل القلق بجسمه أكثر مما فعلته التمرينات الرياضية التى كان يمارسها فى شبابه، فقد حولته المعاناة النفسية إلى شخص نحـيف البنـية. وفـى ذات مرة دخل عليه دى يلسبس وهو جالس فى بهو الاسـتقبال فـى قصر رأس التين، عندئذ أشار سعيد إلى معطفه الذى أصبح الآن أوسـع حجمـاً عدة مرات. وقال بنبرة حزن: " انظر ما فعله بى هؤلاء الإنجلـيز.. ثم أضاف أنه يأمل أن يتمكن " صديقه المخلص" من إخراجه من ورطـته. وفى أثناء ذلك أخبر دى ليسبس أن حفر القناة يجب أن يؤجل حتى يبرد الجو العالمى الساخن قليلاً.

كـان دى ليسبس يعرف جيداً كيف يستغل مثل هذه النقاط من الضعف، إذ لـم يكن لديه مانع أن يطلب المزيد من الجمائل من محمد سعيد. لقد استنزف

نائـــب الســلطان حتى أصبح شاحباً عندما حصل على الامتياز، فقد منح حق حفـــر القـــناة، كمــا منح هبات من الأرض لا تقدر بثمن ومعها الإعفاء من التكالـــيف، كمـــا وعد بتقديم عمال السخرة، وفى عبارة أخرى تقديم العمل دون دفـــع الأجـــور، إلـــى جانـــب ذلك كله وافق على أن يتحمل شراء ربع الأســـهم، أكثر من ذلك فرض عليه بأسلوب المراوغة والخداع الذى قد يؤدى بأغلـــب الـــناس إلـــى السجن أن يدفع ٨٥,٠٠٠ استرلينى. وكان كل هم دى يلسبس أن يدعم المزايا التى حصل عليها.

لـــم يكن نائب السلطان حاضراً فى الحفل متقن التنظيم الذى أقيم عندما بدأ العمـــل فى ٢٥ أبريل عام ١٨٥٩، وبالرغم من أن دى يلسبس قد خذله علناً، إلا أن ســـعيد أدرك أن الإمـــبراطور كـــان يدعم حفر القناة، ولم يجرؤ على استخدام القوة لوقفه. وكل ما كان فى وسعه أن يفعله هو أن يقضب جبينه فى القاهرة، وأن يضع العراقيل فى طريقه.

وطـــبقاً لشـــروط العقد، طالبت الشركة بـــ ٥٠,٠٠٠ رجل. فلقد كانوا فى حاجـــة إلى مثل هذا الجيش الجرار من العمال لأن أدواتهم كانت بدائية، فقد كـــان من الأفيد لهم اقتصادياً أن يستخدموا اللحم والدم على البخار والمعادن. غير أن سعيد لم يتمكن إلا من إرسال ١٢,٠٠٠رجل.

هذه التسوية ضايقت كلا من بالمرستون ودى يلسبس، فقد ركزت الحرب الأهلية الأمريكية الأنظار على الرق. والعمال الذين بعث بهم سعيد للعمل فى الحفر بدون أجر لم يكونوا مجرمين أو رقيق، بل كانوا فلاحين انتزعوا قسراً مـــن حقولهـــم. وقـــد اتهم البريطانيون سعيد (وبالمناسبة فقد فات عليهم أن يتذكروا أن استخدام سخرة مشابهة حدث عند مد خطوط السكك الحديدية إلى الســـويس، والتى مولتها شركة P.& O قبل سنوات قليلة) بارتكاب أعمال غير إنسانية. واستصدر دى ليسبس قراراً من مجلس الإدارة يحمل سعيد مسئولية أى خسائر تنتج من تأخير عملية الحفر.

وبســـبب وقوعـــه فى مصيدة مباراة الغضب بين إنجلترا وفرنسا، أصبح

ســعيد يائســاً أكــثر وأكثر، وراح يتذبذب بين الغضب والتوسل، بين الحل الوســط والمماطلة، ولذا تضاءل وزنه أكثر وأكثر إلى أن جاء الحل لأزمته فى مطلع عام ١٨٦٣. فقد قضى نحبه.

الفصل الثامن

الثمن الباهظ لمظاهر التبذير والترف

حـــتى وقـــت قريب اعتاد أحد الباشوات الجلوس كل مساء تقريباً فى ركن من أركـــان الـــبار فـــى "رووف" فندق شبرد، ويتحدث عن الأيام الخوالى فى مصر، وهـــو لـــم يعـــد باشا - بالطبع - منذ إلغاء الألقاب عام ١٩٥٢، وبالرغم من أن الحكـــم الـــثورى قـــد صادر أغلب ممتلكاته، إلا أنه كان لا يزال يحتفظ بمظهر الســـنيور Seigneur. وكـــان ســـلوكه ومظهـــره هـــى نفسها التى كانت لأسلافه عـــندما كـــانوا يدبـــرون المكائد بلطف فى شرفة شبرد منذ قرن مضى، فقد كان فـــى زيـــه الرســـمى، وعصـــاه الذى يغطى الذهب أحد طرفيها، وفنجان القهوة الصـــغير (ســـادة أو محـــوج جـــيداً) وســـيجارته المسطحة فى المبسم العاجى، والســـبحة الصـــغيرة ذات الحـــبات من الكهرمان، وقبل كل شىء وجهه النفيس الشـــبيه بصـــفحة من الرق، به عينان طيبتان ولكن ماكرتان، وحديثه الناعم الذى يمزج بين حسن النية والخبث، والذى يرمز إلى حكمة الشرق دائمة الترديد.

وقـــد يقـــول: قـــد يتخيل الرجل الغربى أن العقلية الشرقية غامضة لأن هـــناك حاجـــزاً، ومن ثم فهو لن يقدر على فهم حقيقة المصرى. ولكن الأمر لـــيس كذلـــك؛ إذ لا يوجد شىء شديد الغموض حول الطريقة التى نفكر بها. إنهـــا ببساطة ينبغى عليك ألا تحاول أن تحكم على الشرق بمفهوم الغرب. أو تنظر إلى مصر من خلال العيون الأوربية ".

وقـــد يســـتطرد فى حديثه بابتسامة شاحبة: " فنحن - كما تعرف - شعب عـــريق الجـــذور.. فهناك موضوع التقاليد، فعلى سبيل المثال قانون الخلافة الإســـلامى، فقد كان من الأمور الخطرة فى الإمبراطورية العثمانية أن يتولى أحـــد وراثـــة العرش. وإذا نظرت إلى أسرة محمد على سترى أنه قلما ورث ولـــى العهد الجلوس على العرش.. فمثلاً إبراهيم والأمير أحمد. ولذلك فهذا هـــو أحد الأسباب التى جعلت إسماعيل يتلهف على صدور الفرمان الخاص بتوريث الابن الأكبر العرش .

وقد يتذكر الواحد منا أن إسماعيل نفسه لم يكن ولياً للعهد. فخلال حكم عباس قاد إسماعيل حركة معارضة قام بها الأمراء، ووجد أنه من الأكثر أماناً أن يدبر مؤامرته خارج البلاد. وكان على علاقة صداقة مع سعيد، كما كان يترأس المجلس الأعلى للقضاء. وكان الشخص التالى لوراثة عرش نائب السلطان هو النبيل أحمد. وهو رجل بخيل عرف عنه أنه كان ماهراً كرجل أعمال.

وفـــى عـــيد الأضـــحى عـــام ١٨٥٨ أقـــام ســـعيد ولـــيمة كبـــيرة فى الإســـكندرية أرســـل مـــن أجلهـــا بطاقات الدعوة - بلهجة تصل إلى حد الأمـــر إلـــى كـــل أفـــراد أســـرته. ولـــم يتغيـــب مـــنهم أحد سوى إســـماعيل؛ لأنـــه كـــان مريضـــاً. وقـــام قطـــار خـــاص بنقلهم فى طريق العـــودة إلـــى القاهـــرة، وعـــند كفـــر الزيات وسط المسافة بين الإسكندرية والقاهـــرة. يوجـــد كوبـــرى بـــناه روبـــرت ستيفنون Robert Stevenson، وكـــان فـــى وســـطه فـــتحة بيـــن دعامتيـــن تفتح وتغلق لكى تسمح بمرور الـــبواخر الـــتجارية والفـــيلوكات (جمـــع فيلوكة)، وعندما أقبل القطار يلوح مـــنه الـــبخار، فوجـــئ ســـائقه الـــذى اعتلاه الرعب بأن الكوبرى مفتوح، وكـــان الوقـــت مـــتأخراً لتجنـــب الكارثة، فاندفعت عربات القطار بمن فيها مـــن الأمـــراء إلـــى قـــاع النـــيل، وفـــى اللحظة التى كانوا معلقين فيها فى الهـــواء فـــوق الـــنهر، تمكـــن الأمـــير حليم من القفز إلى الماء سليماً، أما أحمـــد لأنـــه كـــان ســـميناً مـــترهلاً فقد غرق، وبذلك أصبح إسماعيل ولياً للعهـــد. وبالـــرغم مـــن أن لا أحـــد اكتشف عما إذا كان ذلك حادثاً عارضاً أم لا، فقـــد زعمـــت دوائـــر القصـــر أن إســـماعيل كان له يد فى الحادث، ومهمـــا كـــان الأمـــر، فقـــد غير هذا الحادث قدر مصر، فلو قدر لأحمد أن يتولى الحكم بدلاً من إسماعيل لسارت الأمور على نحو مختلف.

«غـــير أن إسماعيل (استطرد الباشا العجوز) لم يكن حقيقة ذلك الشخص المحـــير كما كان كثيراً ما يفهم. ففى شبابه كان إقطاعياً ناجحاً، فالقطن الذى يـــزرعه كـــان الأفضـــل، ومصنع السكر الذى يمتلكه كان فى إدارته الأكفأ،

وعلــى مــدى وقت قصير للغاية ضاعف من قيمته الصناعية. ولم يكن مديناً لأحــد بمــال ولو يؤخذ عليه شيء هو أن الناس لاحظت عليه – لأنه عاش عيشــة الكفــاف – أنــه يميل إلى الشح. ففي فندقه في باريس– مثلاً – كان يــرفض أن يعطــى أي "بقشــيش"، ولكــن منذ اليوم الذى أصبح فيه نائباً للسلطان تغير كل ذلك تماماً، وقد يكون في مقدرة علماء النفس أن يفسروا لنا الســبب الــذى يجعل أميراً شاباً شحيحاً يتحول إلى حاكم مسرف، ربما يكون خمر السلطة قد لعبت برأسه، والأكثر احتمالا أنه مثل جده محمد على اعتبر مصــر ملكــية شخصــية لنائــب الســلطان أى أنها ضيعة خاصة يجرى اســتغلالها على النحو الذى يراه مناسباً، فقد رأى نفسه تجسيداً لمصر، وكان مصمماً أن يحقق لبلاده العظمة من خلال تعظيم نفسه وأسرته الحاكمة، غير أنه بدلاً من أن يحقق ذلك بالحرب اختار أن يحققه بالمال.

في القرن الخامس عشر اشتهر لورينزو دى مديتشى Lorenzo d' Medici باســم العظيم Il Magnifico ليس من باب التباهى بحياته الخاصة، بل بسبب إنســانيته والمجد الذى حققه لفلورنسا، أما إسماعيل فقد كان على النقيض من ذلك. ولو أن إسماعيل سمى أيضاً بالعظيم The Magnificent فإن ذلك بسبب المجــد الــذى حققــه لنفســه، فكلما كانت دولته أكثر بذخاً كلما كان تبذيره الشخصــى أكــبر، وكلما بدت مصر أكثر جاذبية في عيون أوروبا. كان هذا مــنطقه. ولكى يحقق الاستقلال لبلده كان عليه أولاً أن يرفع مصر إلى منزلة عالمــية سامية في مظهرها على الأقل وأن عليه أن يحاذى إن لم يكن يسبق الأمــم الكــبرى في خلق وسائل الراحة ومظاهر القوة. ومنذ أن اكتشف أن الــدول المتحضرة في أوروبا كانت تطلق العنان باستخدام أرصدتها في تقديم القــروض، فقد فعل نفس الشيء. فالمال أمره سهل، لكن بعد النظر فهو الذى يعتد به.

ولكــن بالــرغم مــن كل بعد النظر الشامل الذى تباهى به، لم يكن لديه إحساس بالتناسق، كما كانت قدرته على خداع نفسه لا حد لها، فقد خدع نفسه أكــثر مما خدع أى شخص آخر، فقد كان يصدق خداع نفسه، وعندما حدث الإفلاس كما كان محتماله أن يحدث، كان لا يزال يبقى في ذهنه وهماً بأنه لا

يــزال الخديــوى بمقتضى ثمة حق إلهى، وأن: "مثل هذه القداسة التى تحيط بالملك لا يمكن للخيانة معها إلا أن تسترق النظر إلى ما قد يحدث":

There is such divinity doth hedge a king that treason
can but peep to what it would"

ومـــن ثـــم فإن الانقلاب القوى coupol, etat أخذه على غرة، فاستسلم له دون أى مقاومة.

لقـــد كانـــت بدايـــته طيـــبة، فقد كان خطاب توليه العرش نموذجاً للتعقل والتواضع:«إن أساس الإدارة السليمة هو النظام والاقتصاد القائم على المالية، إننى سوف أتبع هذا النظام وهذا الاقتصاد بكل وسيلة ممكنة، وسوف أضرب المـــثل للجمـــيع لقد قررت أن أهجر النظام الذى اتبعه أسلافى، وأن ألزم نفسى بمخصصات للأسرة المالكة لن أتجاوزها أبداً».

كانـــت المخصصات الملكية التى اقترحها تبلغ ضعف مخصصات الملكة فيكتوريا، وهذا غير مهم، إنما المهم هو النوايا.

غـــير أن الأمـــور لم تكن بالبساطة التى ظنها، إذ لم يترك له سعيد عرشاً حـــل بـــه الفقـــر فحســـب، بل ترك له الشئون العامة فى حالة من الفوضى المـــزرية، فقد كانت هناك مسألة قناة السويس، كما كان هناك مائة وواحد من مصاصـــي الدمـــاء فى أبهاء الاستقبال بالقصر ذاته حيث ينتظرهم قناصلهم، وهـــم يمارسون الضغط للحصول على مطالبات تثير الغضب، كما كان هناك الـــباب العـــالى وقد سن أنيابه وأظفاره كالعادة، وكان عليه أن يشترى سكوته بدفـــع الرشـــاوى الـــباهظة، ولولا مدافع قلعة سامتر Fort Sumter(*) لوجد

(*) قلعـــة فـــى مـيـــناء شارلســـتون Charleston جنوب ولاية كاليفورنيا الأمريكية قام الانفصـــاليون الجنوبيون بالاستيلاء عليها فى ١٣ أبريل عام ١٨٦١ عندئذ اعتبر ابراهام لنكولـــن رئـــيس الولايات المتحدة أن ذلك عملاً من أعمال الحرب بين الشمال والجنوب والـــتى تعرف بالحرب الأهلية الأمريكية التى استمرت من عام ١٨٦١ حتى عام ١٨٦٥ (المترجم).

إســماعيل نفســه مفلســاً قبل أن يشرع فى الحكم. فكما حدث خلقت الحرب الأهلــية الأمريكية خلال إسبوعين طلباً على القطن المصرى بشكل لم يسبق له مثيل.

فحــتى عام ١٨٦٠ كانت الولايات المتحدة تسد حاجة ما يربو على ثمانين فــى المائــة من طلبات أوروبا من القطن، غير أن حصار الاتحاد البريطانى دفــع المضــاربين فــى البورصة إلى أيدى المزارعين الهنود والمصريين، وبالنسبة لهذين البلدين، كانت الهند تنتج القدر الأكبر البالغ ست مرات ضعف ما تنتجه مصر، غير أن نوعية القطن المصرى بتيلته الطويلة جعلته الأفضل بشــكل لا يقــارن، ومن ثم وعلى غير توقع وجدت الاسكندرية نفسها وهى تتقلــب علــى الذهب، فقد ارتفع سعر القطن من ٧,٥بنس للرطل عام ١٨٦١ إلــى ٢٦,٥ بــنس فــى صيف عام ١٨٦٢ ثم إلى ٢٩,٧٥بنس عام ١٨٦٣. وبصــفته أكبر مالك للأرض (لقد أصبحت شهيته لامتلاك الأرض بعد توليه العــرش أكــثر نهمــاً، حتى أنه سرعان ما أصبح يمتلك ٢٠% من الأرض المزروعة فى البلاد بالتمام والكمال) فقد وجد إسماعيل نفسه فى قلب الرواج فلم يكن جنون المضاربات التجارية يجاريه سوى حمى البناء التى انتابته.

وبالنســبة لإســماعيل فقــد جاءته فرصة عمره لكى ينغمس فى طقوس مفــرطة للأشــغال العامة هدفها تحديث مصر وتحويل القاهرة إلى عاصمة جميلة مثل أى مدينة أخرى فى أوروبا. فبين عشية وضحاها بدأ فى مشروع علــى نطــاق واسع من الإنفاق، وبالنسبة لفترة حكمه القصيرة نسبياً، فإنه قد أنجــز الكثــير فى مجال الأشغال العامة يفوق ما يقوم به أى حاكم آخر فى الأزمــنة الحديــثة، حتى بمعيار اليوم فإن قائمة إنجازاته تبدو مذهلة، ولكن نذكــر بعــض المشــروعات على سبيل المثال: فقد تحقق لمصر بحلول عام ١٨٧٩ حفــر ٨,٤٠٠ مــيل(*) من الترع النيلية و ٤٥٠ كوبرى و ٦٤ مصنع ســكر وحوالــى ١٠٠٠ميل(**) من السكك الحديدية، كما أقام إسماعيل أكبر

(*) أى ما يعادل ١٣٥٠٠ كيلو متر. (المترجم).

(**) أى ما يعادل ١٦٠٠ كيلو متر. (المترجم).

ميناء على البحر المتوسط عند الاسكندرية، وأقام سلسلة من الفنارات على طول الساحل، كما أصبح واحداً من الموقعين المؤسسين لاتحاد البريد العام، بل أنه مد خطوط التلغراف جنوباً حتى أسوان، كما أسس شركات الشحن بالبواخر، وافتتح ما يقرب من ٦٠٠٠ مدرسة تعلم كل أنواع المعرفة التى قد تخطر على البال مثل الموسيقى: اللغات، والزراعة، والقانون، والطب، والعلوم العسكرية، بل كان هناك مدارس للبنات تحت رعاية إحدى زوجاته، كما إنه هو الذى افتتح السويس ومدينة الإسماعيلية الجديدة التى تقع عند منتصف الطريق إليها، كما قام بتحديث الإسكندرية وإلى حد ما بورسعيد والسويس.

غير أن أحب المشروعات إلى قلبه كان تجميل مدينة القاهرة. وعندما شرع فى ذلك كانت المدينة قد اتسعت إلى ما وراء أسوارها التى ترجع إلى العصور الوسطى، وكان هناك ما يزيد على ميل(*) من الأرض القفر تقع ما بين حدائق الأزبكية التى تحف بها المقاهى، وبين شاطئ النيل. فقام إسماعيل بشق الشوارع العريضة التى على جانبيها الأشجار، وتحف بها البواكى المسقوفة على غرار بوليفار ريفولى (بباريس). وقد شقت البواكى طريقها عبر الحارات المتدخلة كقصور التيه فى الأحياء الوطنية القديمة، وعمل على تطوير كل المنطقة تجاه النهر والتى تشكل الآن وسط القاهرة الحديثة. كما شق طريقاً عاماً يؤدى إلى القصر مشمشى اللون على شكل حرف E المقام على ضفاف النيل، والذى اشتهر بسوء السمعة عن جنود قوات الحلفاء فى الحربين العالميتين كأكثر الثكنات امتلاء بالبق فى العالم (اعتاد الجنود البريطانيون عندما ينظرون من ثكناتهم أن يجزموا أن الأسدين البرونزيين كانا يزأرون عند كل مرة تمر فيها فتاة عذراء وأضافوا أن ذلك لم يحدث منذ سنين). واليوم يقوم فندق النيل هيلتون فوق قصر النيل، والمنطقة القريبة من جسر إسماعيل الكبير المؤدى إلى جزيرة "الجزيرة" وكل وسط مدينة القاهرة الحالية من تخطيط وتنفيذ إسماعيل الذى قسم الأراضى، وخفف من شروط

(*) ١٦٠٠ متر تقريباً (المترجم).

الدفـــع لهـــؤلاء الذيـــن كانوا يرغبون فى إقامة منازل لهم. وباستثناء قصر عابديـــن الجديـــد الشاسع بواجهته ذات الطراز الإيطالى، والذى أصبح المقر الرســـمى لإقامته، كما دقق فى اختيار المواقع الطبيعية لبناء القصور بما فى ذلـــك قصـــر الجزيرة الذى تم تنفيذه فى أقل من ستة شهور بمناسبة زيارة الإمـــبراطورة يوجينى Eugenie، ولمرتين خلال مائة عام (منذ التسعينات من القرن التاسع عشر وحتى اليوم) أصبح الفندق المفضل لدى السائحين.

بـــل امتدت أعمال البناء إلى الصحراء، خالقا عين ماء كبريتية فى حلوان، وألحـــق بها فندقا كبيرًا خاصًا بالحمامات على الطراز الشائع عند الأوربيين، ويقوم على خدمته خط سكة حديد خاص يبدأ من القاهرة. وفى ظرف شهور ثلاثـــة أنشـــأ شارعاً جديداً يؤدى صعوداً إلى الأهرامات، مستخدماً قوة عمل قوامها ٣٠,٠٠٠ عامل حتى يتمكن الضيوف المميزون الذين وفدوا لحضور افتـــتاح قـــناة السويس من التوجه لمشاهدة الآثار فى سهولة ويسر. لقد كانت طاقـــته للعمـــل تدعـــو للإعجاب. فأينما وليت وجهك قامت هناك فجأة مبان جديـــدة، وتماثيل وشوارع مشجرة، ونافورات، وقد أدلى بملاحظة ذات مرة قـــال فيها: " إن أغلب الناس يتيهون جنوناً بشىء ما، أما جنونى أنا فهو فى الحجر والملاط " وما فعله لويس الرابع عشر لباريس فعله إسماعيل للقاهرة. وإنـــه لمن الغريب أن تظن أن كان فى شوارع القاهرة مصابيح تضاء بالغاز قبل أن يتحقق ذلك لباريس. لقد صمم إسماعيل على أن يجد الزوار الملكيون أنفسهم عندما يأتون لافتتاح القناة أنهم فى عاصمة جديرة بحاكمها العظيم.

ولقـــد شغلته مسألة القناة منذ البداية، فهو لم يبتكر المشروع إنما ورثه عن ســـعيد كتركة مثقلة. ولو رغب إسماعيل أن يكمل ذلك، لربما رفض صراحة الاعـــتراف بشرعية الامتياز التى كان يعمل بمقتضاها دى يلسبس، ناهيك أن الســـلطان لـــم يكن قد أعطى موافقته بعد. إلا أن إسماعيل لم يكن مستعداً أن يـــتخذ خطاً معادياً لفرنسا (ذلك البلد الذى كان شديد الإعجاب به). لقد كانت فكرة القنال تعجبه، لكن الذى رفضه هو الشروط، وعلى الأخص شرط تسليم شـــريط مـــن الأرض على جانبى المجرى المائى، واستخدام العمل الإجباري لبنائها. فقد أخبر دى يلسبس أنه من أنصار القناة Canaliste مثله تماماً، لكن

امتـــياز الأرض يجـــب أن يلغى، واستخدام السخرة يجب أن يتوقف، وأصر علـــى أن مصر هى التى يجب أن تمتلك القناة وليس القناة هى التى يجب أن تمتلك مصر!.

لقـــد أخفى دى يلسبس مشاعره، غير أن أوراقه كشفت بوضوح وكم كانت تلك مفاجأة. كان تمويل القناة مهتزاً، فكل حساباته قامت على أساس استخدام العمـــل غـــير مدفـــوع الأجر، كما أن تركيا لم تكن محبذة للمشروع ووزارة الخارجـــية البريطانية كانت مصممة على وقفه، ولم يكن أمامه سوى طريق واحـــد وهو أن يقنع الحكومة الفرنسية بالوقوف وراء مشروع القناة كأمر يهم المصلحة الوطنية. وقبل أن ينقضى وقت طويل اندلعت معركة دبلوماسية بين لـــندن، وباريس، والقسطنطينية، والقاهرة. ومرة أخرى ضغط على "يوجينى" لـــتقدم خدماتها، وفى النهاية وافق إسماعيل بدرجة كافية من السذاجة على أن يحـــيل الأمـــر إلـــى نابلـــيون الثالث للتحكيم:"كجنتلمان" إلى آخر as one gentleman to another " ولـــم يكـــن فـــى مقدرتـــه أن يدرك بالطبع – أن الإمـــبراطور لا يعترف به كند له فى المقام بالمفهوم الأوروبى على الأقل، وبالطبع لم يتوقع أن قرار الشرف الإمبراطورى سوف يسمح لنابليون الثالث أن يصـــدر حكماً مميناً بدرجة ملحوظة بمنح تعويض عن الخسائر قدرة ٨٤ مليون فرنك أى بما يقارب نصف رأس المال الأصلى للشركة كتعويض عن إلغاء نظام السخرة فى العمل، والأراضى الصحراوية على جانبى القنال، ولكـــن التقلـــيد الخاص بشرفه – أو على أى تقدير – كبريائه – منعه من أن يرفض قبول حكم الإمبراطور.

هكـــذا أصبحت الشركة قادرة على شراء أجهزة حفر الأعماق مما أعطى العمـــل دفعـــة إلى الأمام بعد أن أعيد تمويلها على حساب مصر، أما بالنسبة لإســـماعيل فـــإن ذلـــك الحمل المالى الإضافي الذى تزامن مع تدهور سوق القطـــن كان سبباً للعجز المالى، لقد فاقه الفرنسيون فى الذكاء فى وقت كانت فيه مشروعاته الكبرى تمتد على نحو شاسع. ولم تعد التيلة الطويلة البيضاء ذات الوبـــرة هـــى المحصول الذهبى كما كانت، وكلما جمع المال كلما زادت

حاجته إليه.. من تلك اللحظة فصاعداً كان السوق مفتوحًا أمام مقرضى المال الجشعين واليهود.

ولحســن الحظ كان فى استطاعة إسماعيل أن يظن وهو جالس القرفصاء فــى ديوانه (ومن حين لآخر يلعب بأصابع قدمه أثناء حديثه مع زائريه). إن رصــيده علــى ما يرام، ولم يكن هناك نقص فى المرشحين لإقراضه بلايين القــروش الــتى كان ينفقها بغير حساب. فرجال البنوك قد هالهم حياة الأبهة المحيطة به أكثر مما هالهم مظهره الشخصى كنائب للسلطان، فقد كان يرتدى الــزى التركى الأستامبولى الفضفاض (وهو نوع من عباءة راعى الأبراشية) وسروال متدلى يتسع عند الركبتين، وخفين مطاطين عند جوانبها اللذين كثيرا مــا كــان يخلعهما. وقد يدهشهم قبح وجهه الجامد الذى به نمنمات الأكزيما، وخصــلات شــاربيه الحمراويين، ومن عينيه التى كانت إحداهما على الدوام مغمضــة بينما الأخرى ترمش، لكنهم لم يقاوموا أبداً انجذابهم إلى الطربوش الــذى كــان يــرتديه بأناقة على جانب رأسه، ودفئ ابتسامته، ومهارته فى الحديث، وكرم ضيافته السخي.

كــان هــذا التــبذير جزءاً وقسماً من شخصيته الغامضة. كان المال هو الوســيلة التى اتبعها لشراء مركز دولى له، وفى آخر الأمر لاستقلال مصر مــن السلطان. وقد نجح أخيراً فى عام ١٨٦٦ فى تأمين فرمان يعطيه درجة كبيرة من الاستقلال ولقب خديوى مصر(*)، مقابل مليون جنيه استرلينى عداً ونقــداً، ومضــاعفة قيمة الضريبة (إلى جانب طقم مائدة من الذهب المشغول

(*) لقــب فارسى - تركى يعنى "اللورد"، وقد منحه السلطان العثمانى عبد العزيز لسلالة أسرة محمد على عام ١٨٦٦، وقبل ذلك كان حكام مصر من أسرة محمد على يحملون لقب الباشا أو نائب السلطان. وكان محمد على وأولاده يحملون لقب الخديوى بطريقة غــير رسمية، ولما أعلن الإنجليز الحماية على مصر عام ١٩١٤ حولوا لقب الخديوى إلى "السلطان" لتوكيد انفصال مصر عن الدولة العثمانية، ثم استبدل لقب السلطان بلقب "الملك" بعد إعلان استقلال مصر من جانب واحد عام ١٩٢٢ (المترجم).

بالجواهر من أجل السلطان، ومائة ألف جنيه إضافية دفعت في شكل رشاوي)، وبعد أن أحاط به المرابون من رجال البنوك، أصبح " أفندينا " مستعداً لكي يبهر ذوى التيجان في أوروبا، وفى نفس الوقت يترك أثراً في عالم مقدمي الديون، بثرائه الذى لا يصدق ومن ثم يغريهم لكي يستمروا في تقديم الديون له.

وجاءت فرصته عند افتتاح قناة السويس، فقد انتوى إسماعيل أن يجعل منه استعراضاً وهكذا كان. في البداية انطلقت الألعاب النارية لتغرق سماء بورسعيد حتى كادت أن تهدمها، ثم في عشية الافتتاح اكتشف وجود صخرة تحت الماء يبلغ ارتفاعها خمس عشرة قدم(*)، وقد تم نسفها بالديناميت فانهارت جوانب القناة، وأخيراً عندما تحرك الركب المتألق تجاه مدخل القناة، قام زورق خاص بالشرطة بالدوران حول نفسه، وكان على وشك من أن يدمر الافتتاحية كلها، لولا أن دى يلسبس قفز مسرعاً ودمر القارب بأكمله، وحتى فيردى Verdi فشل في إكمال الترتيلة Hymn في الوقت المحدد من أجل افتتاح دار الأوبرا لجديدة التى بناها إسماعيل خصيصاً لهذه المناسبة والتى افتتحت رسمياً في الأول من نوفمبر عام ١٨٦٩ وعرضت أوبرا ريجوليتو Rigoletto بدلاً منها(١٢).

غير أن أحداً لم يعر ذلك أى اهتمام، فقد كان الترف عارماً بينما رؤساء الدول يتوالون في الوصول إلى القاهرة من كل أنحاء العالم منذ بداية شهر نوفمبر لينقلوا على حساب المضيف إلى مصر العليا لمشاهدة آثار الأقصر، ثم إلى بور سعيد التى كانت تبدو في ذلك الوقت في أبهى حللها. وامتلأ ميناؤها الذى كان يسبح في الشمس بالسفن التى ترفع أعلام اثني عشرة دولة.

وفى ١٣ نوفمبر ١٨٦٩ وصل إسماعيل على ظهر المحروسة، ثم تلاه إمبراطور النمسا، وولى عهد بروسيا، وأمير وأميرة هولندا، وأعضاء الأسر الملكية الأخرى، ثم السفراء والضيوف المميزون من كل وصف.. وأخيراً

(*) أى حوالى أربعة أمتار ونصف المتر (المترجم).

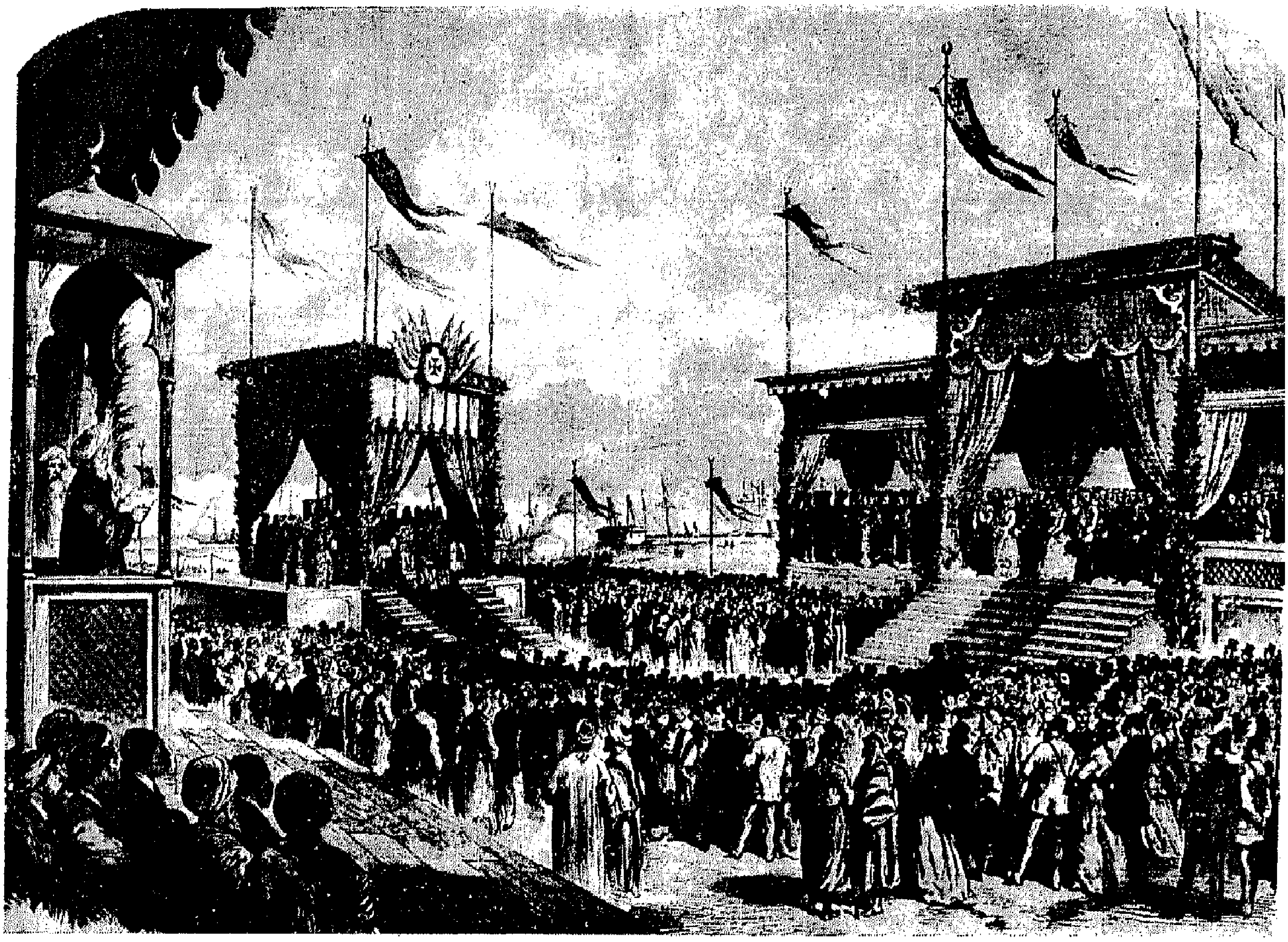
فـــى الساعة الحادية عشرة من صباح ١٦ نوفمبر بدأت مدافع القطع الحربية الـــبحرية وبطاريـــات الســـواحل تـــزأر عـــندما أقدم اليخت الإمبراطورى الفرنســـى"لاجل" L.Aigle(*) يتهادى، وعند مؤخرة ظهره وقفت الإمبراطورة يوجيـــنى، وصـــاحت الأميرة وقد غمرتها البهجة: لم أشهد فى حياتى منظراً بهـــذا القـــدر من الجمال!" وشاهد المراقبون أجمل امرأة فى أوروبا والدموع تتســـاب مـــن عينيها. ولقد استغرق موكب المرور عبر القناة ذات الأربعين مـــيلاً(**) حـــتى بحيرة التمساح اثنا عشرة ساعة. وعند مغيب شمس اليوم الـــتالى تقـــابل الموكـــب البحرى مع قافلة من السفن المصرية التى كانت قد أقلعـــت مـــن الـــبحر الأحمر فى اتجاه الشمال. وتحت أضواء عشرة آلاف فـــانوس جلس إسماعيل ويوجينى فى قصر الخديوى الجديد فى الإسماعيلية علـــى رأس وليمة ذهبت مثلاً فى التاريخ كواحدة من أكثر المآدب بذخاً، بينما انطلقت الأنباء بسرعة البرق بأن التقاء البحرين قد أصبح أخيراً حقيقة.

وبين إجراءات الاحتفالات، طلبوا من إرنســـت رينان Ernest Renan أن يلقـــــى خطـــبـــــة رحب فيهـــــا بضم دى يلسبس إلى عضوية الأكاديمية الفرنســـية L'Academie Francaise ووصـــفه بأنه "مبعوث القدر"، فقد أعلن ببصـــيرة تدعـــو للدهشة قائلاً: « إن البرزخ الذى تم حفره الآن سوف يكون مستقبلاً ساحة للمعارك. أن بوسفور واحد يكفينا حتى الآن لمشاكل العالم، لقد خلقـــت برزخا ثانيا يفوق فى أهميته الأول بكثير! ففى حالة الحرب... سوف يكون ذا أهمية قصوى... إنها نقطة الاحتلال التى من أجلها سوف يتصارع العالم بأكمله... لقد حددت الميدان للمعارك الكبرى فى المستقبل ».

يجـــب أن يكـــون واضـــحاً كل الوضوح أنه فى الوقت الذى شهد أعمال إســـماعيل العظـــيمة فـــى مجال الأشغال العامة، والرشاوى التى كان يدفعها للســـلطان، واستضافته للأمراء التى كانت تتكلف مبالغ طائلة تفوق بكثير ما

(*) أى العقاب (المترجم).

(**) أى حوالى ٦٥ كيلو متر (المترجم).



لوحة تصور جانبا من جوانب الحفل الباهظ الذى أقامه الخديوى إسماعيل فى مدينة بور سعيد فى ديسمبر ١٨٦٩ فى حضره ضيوفه من ملوك وأمراء أوروبا

(مجموعة مانسيل في لندن)

كـــان لدى الخديوى أو لدى مصر، وقد يكون فى إمكان هذا البلد أن يسددها علـــى المدى الطويل كما حدث فى بعض الأحيان، لأن مصر فى الأصل بلد غـــنى بدرجـــة غير عادية، ولكن بذخ إسماعيل وإسرافه فى ذلك الوقت فاق بكثـــير مصـــادر خزانـــته. لقد أدخل مصر إلى مجال المشروعات الخاصة، والـــتى لكـــى يمـــول تنميتها كان عليه أن يستدين بكثرة من البنوك، غير أن الديـــون توالـــت دين يتبع دين، يفصل بينهما فترات فاصلة قصيرة خطيرة، وســـابق رجال المال البارزين بعضهم بعضاً، وكان أشدهم جشعاً الأوربيون فـــى محاولتهم لغشه. وكما لاحظ إميل لودفيج Emil Ludwig: " بالفائدة التى يـــبغونها، والعمـــولات والمدفوعـــات الوهمية، وبكل جيل بورصات باريس ولـــندن، وبطـــريقة قـــد تؤدى بالرجل البسيط إلى غياهب السجون. فالرجل الإنجلـــيزى فـــى ذلك الوقت كان يطلق على كبار رجال البنوك حثالة "أوربا" لأنهم كانوا يدفعون بالفعل للملك المبتهج ستين فى المائة فقط من الديون التى دونت على الورق".

فمـــن المؤكد أن ديون الدولة التى عقدت مع بنوك جوشن Goschens فى أعـــوام (١٨٦٢ /٦٤/٦٦) و اوبـــنهايم Oppenheim (١٨٧٣) ومع روتشيلد Rothschild (١٨٧٩)، تظهـــر أن من المبلغ القانونى وقدره ٧٧ مليون جنيه تسلمت مصر فى الحقيقة ٥٠ مليون جنيه فقط. ومن دين اوبنهايم عام ١٨٧٣ الـــذى كان رسمياً ٣٢ مليون جنيه بالإضافة إلى رسوم سنوية تقدر بـــ ٣,٥ ملـــيون جنيه، لم تتسلم مصر منه سوى ١٨ مليون جنيه. إن اليهودى التعس الـــذى طـــرد مـــن مصر فى أعقاب أزمة السويس قد يجد تبريراً أخلاقياً لما حـــدث له فـــى الخطايا التى ارتكبها أباؤه لأنه على حد ملاحظة جورج يونج اللاذعة: "لم يحدث نهب للمصريين بهذا الحجم قام به شعب الله المختار[١٣]".

ولـــم يكن العبرانيون وحدهم. ففى خلال حمى البناء التى انتابت إسماعيل ســـمح لـــبعض العقود أن تكافأ بمبالغ عالية لدرجة لا تصدق، كانت فوائدها تذهـــب إلـــى خارج البلاد، فعلى سبيل المثال قامت شركة بريطانية معروفة ببناء رصيف ميناء الإسكندرية، وكانت قيمة العقد ثلاثة ملايين جنيه فى حين يرى السير ريفرز ولسون Sir Rivers Wilson (فيما بعد أصبح الممثل المالى

لبريطانيا) أن نصف هذا المبلغ كان كافياً.

وعــندما حــدث الإفــلاس، كان هناك حديث كثير عن الظلم الذى أوقعه أصـــحاب الديـــون والمرابين بالبلد، لكن لم يحظ رجال البنوك ولا الخديوى بـــالعطف، فلـــو أن هـــناك ظلماً وقع، فإنه بلا شك ذلك الذى حاق بالمواطن المصرى لأنه كما يحدث دائماً، فإن الذى يسدد الحساب فى النهاية هو الفلاح المســكين، ولنستعير من قول جورج يونج مرة أخرى: إن معاناة الفلاحين المصـــريين سواء خلال سنوات العمل الإلزامى أو من خلال الإبتزاز المالى الـــذى تـــلاه لمواجهـــة فؤائد الديون التى كانت على القناة، يضع أوروبا فى مقدمـــة الدائنيـــن. دين شرف لأوروبا لمصر، التى لم نسمع عنها كثيراً كما نسمع عن الالتزامات الأقل قيمة من جانب مصر نحو أوربا.

إن قـــناة السويس مثلاً بالرغم من أنها شقت بالعمل المصرى، وسددت تكالـــيفها مـــن المـــال المصرى، كانت خسارة مميتة حقيقية لذلك البلد خلال الثمانية والثمانين عاماً التالية، وباستثناء المشاكل السياسة التى سببتها، وتحت حجـــة طـــرق المواصلات للإمبراطورية كان هذا المجرى المائى واحداً من الأســـباب الرئيسية لسبعين عاماً من الاحتلال، كما أنها وضعت نهاية لتجارة الترانزيـــت البرى التى كانت وقتذاك تحقق دخلا وتقدم فرص عمل، والأكثر مـــن ذلك خلال السنوات الست التى تلت افتتاح القناة، تسبب إفلاس إسماعيل فى فقد مصر حتى لنسبتها الضئيلة فى أسهم هذا المشروع.

لقـــد تأرجحت وجهة النظر البريطانية تجاه القناة من النقيض إلى النقيض. ففـــى الـــبداية فعل بالمرستون كل ما فى وسعه لوقف المشروع، فقد قال أمام مجلـــس العمـــوم.: إننـــي اعتقد أنه يأتى فى مرتبة المشروعات الفقاعية الكثـــيرة فقد قام على تأملات بعيدة المدى فيما يتعلق بالوصول السهل إلى ممتلكاتـــنا فـــى الهـــند. إنـــه مشروع بكل تفاصيله معادى ومناوئ للمصالح البريطانـــية »: فعلـــى طـــول خمـــس عشرة سنة ظلت حكومة جلالة الملكة تمارس نفوذها فى القسطنطينية ومصر لمنع تنفيذ ذلك المشروع. ولكن ما أن تـــم حفـــر القناة وأصبحت جزءاً من جغرافية العالم الطبيعية والسياسية حتى

أصـــبحت قصة مختلفة. فقد كتب ايرل كلارندون Earl of Clarendon وزير الخارجـــية إلى دى يلسبس يقول: إن الافتتاح الناجح للقناة قد استقبل برضاء كبـــير علـــى مســـتوى العـــالم . ثـــم استمر فى إطرائه المفرط قائلاً: إن المـــزايا السياســـية والـــتجارية الـــتى قد نتوقعها بكل ثقة سوف تكون نتيجة لمجهوداتـــك ". لقـــد تغـــير توجه السياسة البريطانية الأن بشكل محتوم نحو السيطرة على ذلك المجرى المائى الذى ربط بين بحرين وفصل بين قارتين. وبعد افتتاح القناة بست سنوات جاءتهم الفرصة لأن يفعلوا ذلك.

ولعقـــد كامل، ظل إسماعيل يندفع بتهور نحو الديزن، راهناً كل شىء نافع مـــن أجل أن يحصل على ديون جديدة حتى أنه أصبح أخيراً فى عام ١٨٧٥ علـــى شفا الإفلاس. ولم يتبق لديه من الممتلكات ذات القيمة سوى أسهم قناة الســـويس. ولقد رفع ستانتون Stanton القنصل البريطانى فى القاهرة تقريراً يقـــول فيه إن مجموعة مالية فرنسية تتفاوض على شرائها وفى حوار خاص أخـــبر دزرائـــيلى Disraeli اللـــيدى برادفـــيلد Lady Bradfield واللـــيدى تشســـترفيلد Chesterfield أنه لو تمت هذه الصفقة فإن: قناة السويس بأكملها سوف تصبح ملكاً لفرنسا وسيكون فى استطاعتهم إغلاقها. ومهما كان الأمر، فقـــد أبـــرق إلـــى ستانتون فى ١٧ نوفمبر بأن الحكومة البريطانية نزلت إلى الســـوق لشـــراء الأســـهم. وفـــى ٢٣ نوفمـــبر رد ستانتون أن الأسهم قد عرضـــت على بريطانيا العظمى مقابل أربعة ملايين جنيه وأن هذا العرض صالح لمدة ثمان وأربعين ساعة فقط .

ولقـــد وضع ذلك دزرائيلى فى مأزق. فقد كان البرلمان منفضاً حتى شهر فبراير، وعلى ذلك لم يكن هناك من سبيل للحصول على الاعتماد المالى بعد التصـــويت عليه. ولم يكن فى إنجلترا كلها غير رجل واحد فى استطاعته أن يكتب "شيكاً" بمثل هذا المبلغ فى الحال. وأدخل سكرتير دزرائيلى على اللورد روتشيلد Rothschild الذى كان قد فرغ لتوه من تناول غذائه.

- كم المبلغ ؟ هكذا سأل رجل البنوك وهو يمرر إليه شراب البورت.
- أربعة ملايين جنيه.





١ – مــن علــى اليمين صورة دى ليسبس فى صورة ماســح أحذيــة لبريطانــيا. إشــارة إلى الاذلال البريطانى له (مجموعة مانسيل – لندن)

٢ – مــن علــى اليسار صورة كاريكاتورية ظهرت فى مجلة بنش Punch وقد ظهر فيها دزرائيلى وهو يفاصل الخديوى على بيع أسهم قناة السويس وقد ظهــر الأســد الــبريطانى يمسك بمخالبه مفتاح الدخول إلى مصر (مجموعة مانسيل)

- ومن يكون الضامن.
- الحكومة البريطانية.
- واستنشـــق روتشـــيلد كـــأس البورت، ثم ابتسم، ثم أفرغ الكـــأس وأجاب بهدوء: سوف تحصل عليها.
- وهكـــذا أمنـــت الأســـهم بسلام ومنذ تلك اللحظة أولت بريطانيا اهتمامها كمالكـــة للعقار الذى حصلت عليه، وبالتالي فى اهتمامها بحكومة وشئون مصـــر. لقـــد أصـــبحت نبوءة كنجزليك فى طريقها للتحقق وكذلك نبوءة رينان.

الفصل التاسع

حديث بلنت

كتبـــت ابنته تقول: «إن ولفريد بلنت Wifrid Blunt ولد مثيرا للشغب من رحـــم الخداع الشرقى، والنفاق الأيرلندى، وأنه كان شكاكا مخادعا مع النساء » غـــير أن الدكـــتور سيد محمود ـــ وزير الخارجية الســـابق فى الحكومة الهــندية أعلن: أخيرا « إن أفكار "بلنت " وعمله سوف يخلدان ذكرى عظمة انجلـــترا للأبـــد » وقبل ذلك كتب يقول: « لقد تعلمت منه الأمانة فى السياسة قبل أن أقابل غاندى بوقت طويل ».

وأينما كانت الحقيقة تقبع ما بين هذين الحكمين فإن " ولفريد سكاون بلنت" Wilfrid Scawen Blunt الـــذى توفـــى عام ١٩٢٢ وهو يناهز الثمانين من عمـــره خلـــد للأجـــيال التالـــية صورة موثقة جيدا عن تتابع فوضى الخطط الاستعمارية البريطانية. فقد كان من كبار ملاك الأراضى ومن أقطاب حزب المحافظيـــن. وكـــان لديه من الثراء ما جعله يفعل ما يريد، كان أيضا رساما ونحاتـــا، بـــل وحـــتى شاعرا، وكما لاحظ عنه ذات مرة إ.م فورستر E.M. Forster "كـــان شـــامل المـــزاج لكـــن محـــدد الإنجـــــــاز " Wholly by temparament but only partly by achivment لكـــن قـــبل كل شـــىء كان مثيرا للدعاية السياسية، ومعاد للاستعمار فى وقت كان المرء يحتاج فيه إلى الشـــجاعة لـــيكون كذلك. لقد كان البطل المدافع عن القضايا الخاسرة حسب تقاليد بيرون وشللى الأرستقراطية، ولابد أنه كان مصدر إزعاج تام لأصدقائه الذيـــن كانوا يوجهون دفة السياسات فى انجلترا. غير أن مقته للدجل والخداع والاســـتعمار عامة، تبدو كما لو كانت نبعت ليس من نقص فى ولائه لوطنه بل على الأصح من إحساسه العميق بالعطف على ضحايا الاستعمار.

وفـــى سن الثامنة عشر التحق بالعمل بالسلك الدبلوماسى، والتحق بالبعثات البريطانـــية فى مختلف أنحاء أوروبا، لكن سرعان ما خاب ظنه عندما وجد أن دور الســـكرتير هـــو أن يتحرك فى المجتمع، وأن يمتع نفسه بطرق لائقة

ولكــن علــيه ألا يــبدى أى اهتمام فى الأمور الجارية تحت أى ظرف من الظــروف، ولفــترة قصــيرة كتب شعرا أكثر مما كتب برقيات، وساهم فى بعــض الدرامـــا الــتى عاصرها فى أوروبا كمشاهد، بعد ذلك تقاعد ليربى الخــيول فـــى ضــيعته بضاحية ساسكس Sussex، ولم يكن قبل عام ١٨٧٣ عــندما هرب من الشتاء الإنجليزى هو وزوجته حفيدة اللورد بيرون – ليقوم بــرحلة إلـــى الشــرق، فسافر عن طريق بلجراد جنوبا ثم من الدانوب إلى القســطنطينية، وعــندما كانا فى السفارة هناك اشترى نصف دستة خيول من ســوق " المــيدان "، وقضى بضعة أسابيع مبهجة، وهو يتجول فى تلال آسيا الصــغرى الــتى يغطيها زهور الخشخاش. وقد تأثر بشدة من أمانة وصداقة الناس وشروروحكومتهم. وقد أبدى " بلنت " ملاحظة فى تعليق ذى نبرة تكاد أن تكــون ملاحظة بيئيــة: « لقد كان جلياً أنه بالرغم من وجود القمع المالى الشــديد توجــد حرية شخصية بدرجة كبيرة عند الفقراء فى ريف تركيا مما يتناقض بشكل غير مقبول فى وطننا إنجلترا المكبل بالشرطة والمحاكم».

وفى الشتاء التالى ذهب إلى الجزائر، وصادف ذلك قيام الانتفاضة العربية الــتى ســحقها بشراســة الفرنسيون الذين – فى رأى بلنت – انتهزوا فرصة حــدوث الــتمرد ليصــادروا ممــتلكات الســكان الوطنيــن، وتسليمها إلى المســتوطنين Colonsالفرنســيين فكتــب يقول: " وهناك شهدنا منظراً آخر أعطانـــا الزاد للتفكير: أن شعبا شرقيا فى حالة خضوع شرس لشعب غربى. مـــع حبى للفرنسيين (وقد كنت فى باريس خلال الحرب وكنت شديد الحماس فـــى المقاومة وقت الحصار الذى ضرب عليها) إلا أننى وجدت تعاطفى فى الجزائر يتجه بكامله تجاه العرب ".

كانـــت أول نظـــرة ألقاهـــا بلنت على مصر أثناء مروره عبر بحيرة المنزلة شـــمالاً علـــى طـــول قناة السويس فى عشية العام الجديد لعام ١٨٧٥، وفى هذه الأيـــام كانـــت البحـــيرة مـــنطقة بكـــرا، ومـــن ثم سحرته أسراب الطيور مثل الفلامـــنجو، والـــبط والـــبجع، وأبو قردان، والتى كانت تغطى سطحها، وكذلك كمـــيات الســـمك التى كانت تقفز بأعداد كبيرة حول مقدمة السفينة، ولما وصلوا إلـــى الســـويس كـــان فى انتظارهم أنباء الكارثة التى حلت بالجيش المصرى فى

الحبشـــة. وســـرت شائعة تقول أن ابن إسماعيل نفسه قد وقع فى الأسر ومثل به، وفـيما بعـد نفى ذلك. وكانت تلك بالطبع أنباء لا تسر ولذا قرر الزوجان بلنت، بدلاً من مواصلة الرحلة حتى كسلا أن يغيرا من خططهما ويمكثان فى مصر.

لـم يكـن لديهمـا الرغـبة أن يتـبعا مسارات السائح العادى، ولما كان بحوزتهمـا أدوات المعسـكر، فقـد استأجرا جمالاً عند السويس، وركبا عبر الصحراء إلى القاهرة، ولابد أنها كانت لحظة بغيضة عندما أخطئا فى اختيار موقع إقامة معسكرهما خلف مرمى ميدان التدريب على إطلاق النار الخاصة بـالخديوى، إذ هبا من نومهما مذعورين من صفير الطلقات، غير أنهما كانا محظوظين لأن المجندين كانوا ضعافا فى التنشين، ثم وصلا القاهرة سالمين، ولم يتوقفا بها إلا لتسلم الرسائل الخاصة بهما قبل أن يتجها فى طريقهما إلى الأهـرامات. وعند غروب الشمس توقفا عند قرية "الطالبية" الصغيرة ولأنها كانـت فـى – الطريق – إلى الأهرامات فكل الأجانب كانوا يعتبرون غنيمة مشـروعة، إلا لأنهمـا لدهشتما استقبلا بترحاب كبير. والحقيقة لأنهما توقفا عـند القـرية وقضـيا فـيها ليلة فقد اعتبرهم السكان ضيوفا، فمن بين كافة الأوربيين الذين مروا بهذا الطريق لم يتوقف أحد قط لقضاء الليل. وكان ذلك أول اتصال بين الشاعر والفلاحين.

لقـد لمس بلنت أن الفلاحين فى وضع مزر، فقد كان إسماعيل يترنح على شـفا الإفـلاس، وكان إسماعيل صديق – ذلك المفتش سىء السمعة – فى الحكـم. وكان الأوربيون من حاملى الكوبونات السريعة يتصايحون مطالبين بحصصهم، وكان على الفلاحين أن يدفعوا. وقد انتشر جباة الضرائب فى كل مكـان يمسكون بالكرباج فى أيديهم، وكانت مدن الأقاليم مليئة بالنساء اللاتى يعرضـن حليهن الفضية للبيع، بل حتى ملابسهن على المرابى اليونانى الذى لـيس أمامهن غيره، وقد اشترى "بلنت" منهن بعض حليهن الصغيرة واستمع إلـى حكاياتهن، وشاركن فى صب اللعنات على مثل هذه الحكومة التى كانت تبغيهن عرايا، غير أنه لم يفهم أكثر مما يفهم الفلاحون أنفسهم – أن الضغط المـالى من جانب أوروبا كان هو السبب الحقيقى للمآسى التى تحيق بهم. ولم يكتشف إلا مؤخرا أن بلاده كان يقع عليها قدر من اللوم.

وبكـــل تأكيد، كان القرويون صرحاء بما فيه الكفاية، فقد كان للإنجليز فى هذه الأيام شعبية فى البلاد الإسلامية، فقد كانوا ينظرون إليهم كمتحررين من مخططـــات " الفرنجة " الآخرين السياسية، وأنهم كأفراد أمناء فى معاملاتهم الـــتجارية. وفى مصر بالذات – كانوا يوضعون فى موضع مناقض تماما من "حـــاملى الخرج " Carpot - baggers من بلدان البحر المتوسط: كالإيطاليين، واليونانييـــن، والمالطيين، الذين كانوا بكل معانى الكلمة يمتصون دماء الحياة من الفلاحين المسلمين. وكان هناك همس عن احتمال تدخل أوربى وفى نظر الفلاحيـــن (إذ ما كان ذلك من جانب الإنجليز) فإن ذلك لم يكن غير مستحب، فقـــد كانـــت الأحوال لا تطاق حتى أن أى تغيير فى نظرهم سيلقى الترحيب بالفـــرح والســـرور. وبالنسبة للفلاحين فإن حالة العوز التى هم فيها، بعد أن نهبوا وضربوا وهلكوا من الجوع، فقد بدت إنجلترا معها فى نظرهم أنها مثل المـــبعوثة الربانية كثيرة الغنى، شديدة النزاهة، التى ترد الظلم عن أصحابه، وتصادق المضطهدين مثلما بدا السواح البريطانيون فى كثير من الأحيان وهم يـــتجولون، باســـطى الأكـــف، وعلى وجوههم مسحة من التعاطف. لقد شعر "بلنت" بالخجل والخزى بمرارة أن يشعر هؤلاء البسطاء بمثل ذلك الشعور، وقلـــيلا مـــا كـــان يعتريهم الشك أن الأنانية فى التجارة هى التى قادت أبناء وطـــنه بارتكـــاب كثـــير من حالات العدوان على كثير من أجناس الأرض الضعيفة.

فقـــد كتـــب فى صحيفته يقول: " إن لدى الفلاحين كل الخصائص الكافية لخلـــق مجـــتمع سعيد وثرى، فهم مرحون، محبون للعمل، مطيعون للقانون، ومقتصـــدون بشـــكل واضـــح.. عطوفين على كبار السن، وعلى الشحاذين والـــبلهاء.. أمـــا العيـــب الكبير فيهم هو حبهم للمال، ولكن علماء الاقتصاد السياســـى على استعداد أن يغفروا لهم هذه المزية، إنه لمن الصعب أن نعثر فى أى مكان على شعب يبدو أكثر قبولاً لأن يطبق عليه النظرية الاقتصادية وهـــى توفـــير أكبر سعادة لأكبر عدد من الناس. وفى مجال السياسة لم يكن لديهـــم أمل سوى أن يعيشوا ويتركوا ليعيشوا، وأن يتركوا ليعملوا ويحتفظوا بـــثمار عملهم، وأن يشتروا ويبيعوا دون تدخل من أحد، وأن يتهربوا من دفع

الضــرائب، لقــد لقوا معاملة سيئة لعصور طويلة دون أن يفقدوا طيبة القلب الــتى لديهــم، فقد كان لديهم قليل من الفضائل الفطرية، وهم ليسوا متطرفين ولا متعصبين فى وطنيتهم ولا كرماء بدرجة رومانسية، غير أنهم خالون من الشرور الفطرية. وكل واحد منهم يعمل لنفسه، وعلى الأكثر من أجل أسرته. وهم لا يفهمون فكرة التضحية بالنفس من أجل الصالح العام، وهم أبرياء من المكائد لاستعباد زملائهم.. وبالرغم من القمع البشع الذى هم ضحاياه، إلا أننا لــم نســمع مــن جانــبهم كلمة واحدة عن الثورة، وليس ذلك بسبب نظرتهم الاعتقادية الخرافية تجاه حكامهم لأنهم ليس لديهم انحياز سياسى مسبق، ولكن لأن الــثورة فى طبيعتهم ليست أكثر مما يحدث لقطيع الأغنام. لقد كانوا على اســتعداد لأن يهــتفوا لملكة إنجلترا أو البابا أو حتى ملك الاشانتى(*) بنفس القدر من الحماس، لو أن أحداً من هؤلاء جاء لهم بهدية، وهى تخفيض بنس واحد فى الجنيه فى تقدير الضرائب!.

هــذه هى الانطباعات الأولى للشاعر، ولكنه كان لا يزال غير مدرك للأفكار السياســة الــتى كانت تسمع فى المدن، وللوطنية التىبدأت تنشط، وكان عليه أن يــدرك التأثــير الكامل للتمويل الدولى فى المصاعب التى كان الفلاحون يعانون مــنها، وعــندما عــاد إلــى القاهــرة سرعان ما أصبح لديه فكرة عن الورطة الاقتصــادية الــتى وقعــت فــيها البلاد، وحجم الكارثة التى سببها إسماعيل، فقد وصــلت فوائــد الديون الأجنبية إلى أربعة ملايين جنيه إسترلينى فى السنة، وكان الــتقدير العــام أن تكاليف الفترة التى حكم فيها فاقت مبلغ ٤٠٠ مليون جنيه وهو مــبلغ هائل بالنسبة لذلك الوقت.ولذا صادر كل ما اقتصده الفلاحون عبر سنوات الــرخاء، ومعهــا كــل ماشيتهم التى يستخدمونها فى الزراعة، والأدهى من ذلك أنهــم كــانوا مدينين من ناحية خاصة بمبلغ يقارب العشرين مليونا من الجنيهات للمرابين اليونانيين وغيرهم من المرابين المحليين.

وقــبل أن يغــادر القاهــرة كان " ولفريد بلنت " ضيفا فى إحدى المآدب

(*) مملكة قامت فى غانا فى القرنين السابع والثامن عشر.

الفارهـــة الـــتى أعدهــا إســـماعيل لأعضاء إحدى البعثات المالية عند سفح الأهــرامات، وبيـــنما هم يتناولون أطايب الطعام بوفرة، ويحتسون الشمبانيا تحـــت نظـــرات جمهـــور جائع من الفلاحين. رأى ذلك المنظر الذى يناسب الوصـــف بكـــل الـــترف والبؤس المحيط. أنه الحس المسبق الحقيقى للسببين التوامين للثورة القادمة(١٤).

وسرعان بعد ذلك أن حدثت مراوغة غريبة من جانب الدبلوماسية العالمية تاركـــة مضـــاعفاتها علـــى مصر. فعندما كان دزرائيلى شابا قدم فيما يشبه المـــزاح فى روايته تانكرد Tancred فكرة بناء إمبراطورة أسيوية تحت التاج الـــبريطانى نواتها جزيرة قبرص، ربما مستعيدا إلى الأذهان الحقيقة التاريخية بأن رتشارد قلب الأسد كان حاكما لها. ولابد أنه ضحك بينه وبين نفسه عندما وقـــع على اتفاق سرى فى مطلع عام ١٨٧٨ مع السلطان الشاب عبد الحميد ســـلطان تركـــيا والذى بمقتضاه قبل أن تؤجر قبرص إلى انجلترا مقابل تقديم ضـــمان إلـــى السلطان (الذى كان يتعرض فى ذلك الوقت لضغط شديد من روسيا) بالحفاظ على كل ولاياته فى آسيا.

لـــم تكـــن قـــبرص فى حد ذاتها بذات فائدة خاصة لانجلترا، وفى أحسن الحـــالات كان ذلك وهماً من جانب دزرائيلى سببه أحد التقارير المزيفة عن شـــراء الجزيـــرة قدمـــه أحد القناصل الذى كانت له مصالح فيها. كان هدف دزرائـــيلى الحقيقى هو أن يفرض بشكل غير رسمى ولكن بطريقة مؤثرة — الحماية البريطانية على تركيا الأسيوية.

وبعـــد مـــرور شهر فى على افتتاح مؤتمر برلين الذى عقد لتقرير مصير تركيا الأوربية، قدم اقتراح أنه يتوجب على كل حكومة أن تتعهد بشرف أنها لـــن تلجـــأ إلى عقد أى ارتباطات سرية فى هذا الشأن، ولأنهما فوجئا بالأمر، فقـــد أعطى كل من دزرائيلى واللورد سالسبورى كلمتهم مثل الآخرين. ولما نشـــرت إحـــدى صحف لندن المسائية فى اليوم التالى النص الكامل للاتفاقية حـــول قـــبرص، شعرا بالإحراج الشديد، ولقد كان ذلك بالطبع من باب سوء الحـــظ (فقـــد باع مترجم تلك المعلومات لمجلة " العالم " The Globe مقابل

خمســـة جنيهات إسترلينية) غير أن الصدمة كانت مزعجة، فبعد أن أدين أمام المجلـــس بـــتهمة الكذب المباشر، انسحب دزرئيلــــى إلى مقره تاركا الأمر لولـــبرى وهو يحاول التخلص من هذه الورطة بقدر ما استطاع، ولقد حصل الوفـــدان الفرنسى والروسى على أفضل المزايا، وقد خرجا وهما يتظاهران بالغضــب الشـــديد، ولقـــد كانت هناك حاجـــة إلى عبقرية بسمارك لإرضاء الفرنســـيين، والتوصـــل إلى اتفاق وسط الذى بمقتضاه، أن تترك فرنسا لتحتل تونـــس فـــى مقابل حصول إنجلترا على قبرص، بل حتى ـ كما زعم ـ أن يعـــترف لها بحق المطالبة بسوريا، وعلاوة على ذلك، بل الأهم من ذلك كله أن يكـــون لفرنســـا رأيـــا مساويا لإنجلترا فيما يختص بالترتيبات المالية التى كانت تجرى فى مصر.

هكذا دفع الثمن لفرنسا، وقد وضح " ولفريد بلنت " إلى أصدقائه وهو على ظهـــر الـــباخرة ميســـاجيرى ماريتيمز Messageri Maritimes والتى كانت تـــنقلهم مـــن مارسيليا إلى الإسكندرية أنه ساعد دزرائيلى فى العودة إلى لندن لكى يفاخر فى العلن أنه أعاد السلام مع الشرف[١٥].

لقـــد اعـــتقد أن الوصف الأكثر ملائمة هو " السلام مع الخراب " بعد أن روعـــه هـــذا الإعـــلان عن الاستعمار الذى لا يقوم على مبدأ فإلى مؤامرة قـــبرص تعزى سلسلة طويلة من الجرائم ضد حرية الشرق وشمال أفريقيا. فقـــد وضعت تونس تحت أقدام فرنسا، وأطلقت شرارة التقسيم الكبير لأفريقيا بيـــن القوى الأوروبية، وجعلت المسلمين يشعرون بالمرارة إزاء إنجلترا، بل كـــان ذلك السبب الحتمى بعد مرور عام للسيادة المشتركة Condominium الأنجلو فرنسية على مصر.

وفـــى خريف العام التالى، وجد "بلنت" نفسه مرة أخرى وهو يتجه صوب الشـــرق بحـــثا عـــن المهـــور العربية للاصطبل الذى كان يملكه فى كرابت Crabbet وبيـــنما كـــان يجلـــس على ظهر السفينة مع السير ريفرز ولسون (والـــذى كـــان قـــد عين كوزير مالية للتمويه على فرض الحراسة القضائية الأجنبـــية) تـــرامى إلـــى أســـماعه ما كان يحدث فى القاهرة خلال العامين

المنصـــرمين. وكـــان ذلـــك بالدرجة الأولى حول سجل الجرائم التى ارتكبها إسماعيل. ولكن بالرغم من ذلك كان عند ولسون آمال عراض لإعادة مصر إلـــى الازدهـــار وإنقـــاذ الفلاحين من الأسر المالى لقد كان يعلم أن إسماعيل سوف يكون خصما عنيدا ومجردا من المبادىء الأخلاقية، ولكنه اعتمد على قدرته فى التمكن من الوصول إلى اتفاق معه. وبالرغم من المثل القديم القائل "ما دام الوزير ارمينى فالخراب قريب منى". An Armenian Visier & Ruin is near فقـــد وضـــع ثقته فى نوبار (رئيس الوزراء الجديد) وظن أنه يمكن جعلـــه يقـــف من ورائه ليس فقط فى تأييد وزارة الخارجية ولكن الأكثر من ذلـــك أهمـــية فى تأييد أسرة روتشليد، فقد نجح فى إغرائهم فى باريس بتقديم قـــرض بفـــائدة يقـــدر بتســـعة ملـــيون جنيه مصرى بضمان كافة ممتلكات الخديـــوى، ولقـــد انتهى ذلك الأمر أن يكون تصرفاً مميتا، عجل بالصدام فى القاهرة.

لقـــد كانـــت الفـــترة القصيرة التى شغل فيها (ولسون) وزارة المالية فشلاً ذريعـــاً، لأنـــه فى المقام الأول كان عليه أن يصارع ضد أصحاب القروض الأوروبييـــن الجشـــعين، كما أنه اعتمد كثيرا على نوبار الذى اكتسب شهرته كـــرجل أرميـــنى كـــون ثـــروته من تلقى عمولات من مقدمى القروض من الأوروبييـــن، ومن ثم كان الاعتماد عليه أشبه بالاعتماد على قشة هشة. وإذا كـــان إســـماعيل بمقتضـــى قرار عرف باسم مرسوم عام١٨٧٨ سلم إدراته الشخصـــية للدخـــل إلـــى وزارة نوبار ــ ولسون، فقد كان ذلك بمثابة البديل لإعـــلان إفلاســـه الفعلى، وكان لديه النية الخالصة للتخلص منها بأسرع ما يســـتطيع، ولـــم يكن من العسير عليه أن يثير مشاعر المسلمين ضد ولسون الـــذى هـــو أجنـــبى ومســـيحى، خاصـــة أنه بدأ بعقلية المحاسب فى سلسلة التوفـــيرات القاسية بين الموظفين المصريين فى نفس الوقت الذى زاد فيه من مرتـــبات الأوروبييـــن، كمـــا أن ولسون رغم كل نواياه الطيبة لم ينجح فى تخفـــيف الأثقـــال عن كاهل الفلاحين. لقد كان أساسيا أن يبقى الخديوى قادرا على الوفاء بديونه وهذا يعنى ان الفائدة على هذا الكم الهائل من الديون يجب

أن تسدد في مواعيدها تماما(*) واستمر حكم الكرباج بلا رحمة كما كان دائما فـــي القرى، كما أن المسح للدخول الذى أجرى بطريقة سيئة، فسر على أنه مقدمـــة لفـــرض ضـــرائب أبهظ على الأرض جعل الأمور تسير إلى أسوأ. وعـنـــدما ذهـــب ولســـون إلى تقديم اقتراح بإلغاء تنظيمـــاتالمقابلة» Moukabalah (والـــتى كـــان يعـــنى فـــى الواقع أن تصادر الحكومة مبلغ ٩,٥٠٠,٠٠٠ جنـــيه مصرى دفعها ملاك الأراضى مقدما على ملكياتهم من الأراضـــى)، فقـــد نشـــأ اعـــتقاد أن هناك ما هو أسوأ يمكن توقعه من هذا المحاســـب الإنجليزى بدرجة أكثر من ذى قبل. أما بالنسبة "لبلنت" فقد بدا له أنـــه أمر مناف للعقل أن يقوم أى شخص ذكى وجاد مثل صديقه بإحداث مثل هـــذه الفوضـــى فى الشئون. وتطرق إلى ذهنه أن بعض الإجراءات التى كان "ريفـــرز" يـــتخذها لابد وأن تكون من اقترحات الخديوى نفسه لكى يشوه من ســـمعته. وكانت قمة بلاهته إقدامه على تخفيض أعداد الجيش، وتسريح عدد كبير من الضباط دون أن يدفع لهم متأخراتهم.

يقول المثل الشرقى: " دع الخنازير تقطع حلوقها وهى لا تدرى ". فقد دبر الخديـــوى مظاهرة للطلبة وصلت حتى مكاتب الحكومة فى الوقت الذى كان فـــيه الوزراء يغادرون مكاتبهم، وما أن وصل نوبار إلى عربته حتى أحاط به الشـــباب وهـــم يهتفون ثم شدوه من شواربه، وضربوا أذنيه بقبضاتهم. عندئذ أطلـــق حرس الخديوى الذى كان مختبئا وراء الكواليس ـــ بضع طلقات فوق

(*) صـــدرت هـــذه القوانيـــن عـــام ١٨٧١ أثناء حكم الخديوى إسماعيل بهدف الحد من المصـــاعب المالية المتسببه عن النقص فى دخل الحكومة. وقد عرضت هذه القوانين أمـــام واضـــعى الضرائب فرصة تحقيق ٥٠% إذا ما سددوا للخزانة المصرية مبلغاً يعادل ضرائب ست سنوات مقدماً، كما شمل مزايا أكثر إذا سددت ضرائب اثنا عشرة عامـــاً مقدماً. وكان لهذه القوانين آثاراً مدمرة إلى أن الغيت فى أكتوبر ١٨٧٩ على يد الإدارة المالية الأوربية.

رءوس الـــتجمع، ثم ظهر الخديوى وأمر المتظاهرين أن يعودوا إلى منازلهم. وعن طريق هذه التمثيلية الهزلية Opera bouffe بدا أن إسماعيل قد نجح فى إقـــناع القنصـــلين الإنجليزى والفرنسى انه لولا تدخله ونفوذه الشخصى فإن أمـــورا كثـــيرة كانـــت ستحدث ونصح نوبار أن يقدم استقالته. وعين راغب باشـــا– مرشح الخديوى رئيسا للوزراء بدلاً منه. وبعد قليل جاء الدور على ولســـون ففـــى الثلاثيـــن من أبريل عام ١٨٧٩ كتب إلى "بلنت" يقول: ربما تكون قد سمعت أننى قد انزعجت من جراء ذلك الخديوى الوغد التافه. أنه لم يدبـــر اغتيالى تماما ولكن دبر عملية الهجوم على فى الطريق حيث عوملت بفظاظة... إن حكومة جلالة الملكة بولائها المعتاد لوكلائها تركتنى لقدرى».

غير ان ولسون كان أيضا يعرف المثل الشرقى، ولأن حكومته تركته فى وضـــع حـــرج ومخيب للآمال، فقد سافر عائدا إلى الوطن عن طريق باريس حيـــث حـــذر آل روتشـــلد من مغبة جريان أموالهم فى القاهرة، وأخبرهم أن الخديـــوى ينوى رفض الاعتراف بالديون كلها ، ولكى يغطى على تصرفه، سوف يعلن حكومة دستورية فى مصر ـــ فإن لم يمنعوا حدوث ذلك فسوف يجدوا أنفسهم خاسرين. وفى ضوء هذه النصيحة تصرف آل روتشلد، وبدأوا يدعـــون إلى تدخل فعلى من جانب القوى العظمى،غير أن الحكومة البريطانية الـــتى كانـــت تواجه المتاعب فى جنوب أفريقيا، لم تكن فى مزاج يسمح لها بالـــتدخـــل. وبالمثل كانت باريس. ولما بلغ اليأس مبلغه اتجهوا إلى "بسمارك" الـــذى كـــان دائمـــا يولـــيهم عطفه ومساندته منذ أيام فرانكفورت، ثم جعلوا البريطانيين والفرنسيين يفهمون أنهم إن لم يقدروا على حماية مصالح حاملى السندات فى مصر فإن الحكومة الألمانية سوف تقوم بذلك. مما حسم الأمر.

ففـــى الســـادس والعشرين من يوليو عام ١٨٧٩ سلمت برقية من الباب العـــالى إلـــى رئيس الوزراء المصرى وكانت موجهة: "إلى الخديوى السابق إســـماعيل باشـــا" وللحظة خانت الوزير أعصابه. ثم استجمع قواه ودلف إلى مكتـــب الخديوى وبدون أن ترتعش عضلة واحدة من عضلاته، قرأ إسماعيل عبارة عزله، ثم اتجه بهدوء إلى رئيس الوزراء قائلا:



الخديوى إسماعيل خديوى مصر قبل أن
يعزله السلطان العثمانى عام ١٨٧٩

«أرســل فـــى طلب الأمير توفيق! » وعندما دخل عليه ابنه، نهض وسار إليه عبر الحجرة، وبحركة رزينة رفع يد توفيق إلى شفتيه قائلاً:

- أحيــيك يا سيدى الخديوى !، ثم وضع كلتا يديه على كتفه وقبله على خديـــه، وهــو يقــول: « أتمـــنى أن تكون أكثر نجاحا من أبيك »، ثم غادر الحجرة.

وفـــى خارجهـــا قال للوزراء: " سوف أكون أول من يطلق عليه، ويسجل اسمه فى الكتب كأول ملك على مملكة مصر الحديثة ذات السيادة.. دعنا الآن لنذهب ونلعب دورة " ترك ــ تراك " Tric- Trac(*).

وبعـــد أيـــام قليلة ركب متن يخته المحروسة وأبحر إلى إيطاليا تماما مثلما قـــدر لحفيدة أن يفعل ذلك بعد ثلاث وسبعين عاما. وكان آخر تصرف قام به هو أن يملأ جيوبه بالمال السائل الذى كان لا يزال موجوداً فى الخزينة.

(*) إحدى لعبات التسلية لشبيهة بلعبة تنس الطاولة اليوم.

الفصل العاشر

إخضاع عرابى

أيهـــا المصـــريون هيا	اهجروا النـــوم مليـــا
دافعــــوا عن دينـــكم	وعــــــن أرضــــــكم
ثراؤكم قــــــد نهـــب	وأبناؤكــم ليسوا سوى عبيد
العـــلم كان شمســـــكم	الــتى أضـــــاءت الدنيـــا

والـيــــوم أنتم فى غـــروب

(صالح مجدى – الديوان)(*)

(*) هو السيد صالح مجدى بك. ولد عام ١٨٢٦ بقرية أبو رجوان القبلى مركز البدرشين محافظـــة الجيزة. درس فى كتاب قرية فرغونة المجاورة، ثم التحق بمكتب (مدرسة) قـــرية حلوان وهى إحدى المدارس التى أسسها محمد على باشا عام ١٨٤١. وبعد أن أتـــم دراسته بها التحق بمدرسة الألسن تحت نظارة رفاعة بك رافع الطهطاوى حيث تخصص فى دراسة اللغة الفرنسية والعربية، ثم تحول إلى مجال الترجمة من الفرنسية إلـــى العربـــية التى برع فيها خاصة فى المجالات العلمية والرياضيات والطوبوغرافيا والجيولوجيا والهندسة الوصفية، ثم انتقل إلى مدرسة المهندسين ببولاق عام ١٨٤٣م، حيـــث عكف على ترجمات العلوم الهندسية والحربية وعلوم الميكانيكا بعدها انتقل إلى آلاى المهندســـين حيـــث عين بوظيفة باشمترجم وحظى برعاية الخديوى محمد سعيد باشـــا الذى كتب فيه العديد من قصائد المديح فى عدة مناسبات، وبعد وفاة سعيد تحول ولاؤه إلـــى إسماعيل باشا الذى أكثر من المديح فيه، كما مدح بعض الشخصيات سيئة السمعة مثل إسماعيل باشا المفتش..كما مدح باى تونس المرحوم محمد الصادق الذى أنعـــم عليه بعدة نياشين. وبالرغم من حرص صالح مجدى على ولائه للأسرة العلوية إلا أنه كان يحث من حين لآخر أبناء الفلاحين كمصريين كان لهم يوماً ما شأن عظيم

بوجهــه الرقــيق الذى ينم عن الزهد، وبلحيته السوداء المتليفة، وبعاطفته المشــبوبة التى تسرى فى كيانه، كان ذلك المعمم من أفغانستان ثوريا بمعنى الكلمــة. فليلة تلى ليلة فى قهوة الفيشاوى بالقرب من الأزهر، كان يحيط به جمهــور مبــتهج من الشعراء والنحاة والطلاب والصحفيين حيث نجح جمال الدين الأفغانى فى بلورة عواطفهم إلى كلمات.

كانــت رسالته واضحة، وهى: حض المسلمين على النهوض، واكتساب القوة والزعامة، حتى يتمكن المجتمع الإسلامى من اللحاق بأمم العالم المتقدمة . كــان الــرجل مقتنعاً بأن المصريين يملكون كل المقومات لبناء الأمة مثل الشــعور الديــنى العمــيق، واللغة ذات الجذور الضاربة فى الأرض، وكيان وتقالــيد كونوها عبر القرون، غير أنه – كما أدرك – أنه ينقصهم الإحساس بالكــرامة، وأنــه ليس لديهم التعطش للمغامرة، وكما قال لجمهوره: بسبب خوفكــم مــن المــوت تدهور بكم الحال إلى الموت... إن سنوات الخضوع جعلــت المصريين لا هدف لهم، فاترى الشعور، مستكينين، ينقصهم المثابرة ومتذللين لدرجة لا تطاق!.

ولمــا اشــتدت ورطة البلاد تدهوراً خلال سنوات حكم إسماعيل الأخيرة المشؤمة، بذر الأفغانى أولى بذور الوطنية القومية، وبالفعل شرع فى محاولة مــنظمة لتأليب الشباب على السلطة، وبدأ الوطنيون من الشباب يوزعون فى الشــوارع لــيلاً منشــورات غــير موقعة تهاجم الخديوى، والطبقة التركية الحاكمــة، ولقد وحــدت احساســـاتهم بالإحباط متنفساً فى نظم الشعر مثل تلك المنسوبة إلى صالح مجدى:

ويحــث جيش الخديوى على الكفاح والجهاد لرفعة الدين والوطن وقد بحثت فى ديوانه الذى نشــــره ابنه محمد مجدى بك بعد وفاته بالمطبعة الأميرية ببولاق المحمية عام (١٨٩٤م / ١٣١١هــــ)، عن ترجمة للأبيات التى أوردها المؤلف بالحرف الواحد فلم أجــد، وقــد اســتعنت بالأســتاذ الدكــتور عبد اللطيف عبدالحليم الأستاذ بدار العلوم والمتخصــص فــى شعر هذه الفترة، فنصحنى بالترجمة الحرفية لما ورد عن المؤلف وإلقاء المسئولية عليه فربما نشرت هذه الأبيات فى مناسبات خاصة. (المترجم).



"ولفريد سكافن بلنت" (١٨٤٠ - ١٩٢٢) شاعر وأديب وسياسى بريطانى، تزعم الدفاع عن مصر والعرب وتحدى السياسين الإنجليز الاستعماريين فى قمة التطرف الوطنى البريطانى وكان صديقاً لأحمد عرابى (قاعة عرض اللوحات الوطنية بلندن National Portrait Gallery)

« لقــد زجــوا بوطــنكم إلى الجحيم... ليستمتع النذل اللئيم، وأموالكم قد بعثرت على الخطاة والبغايا... الرجل عادة تكفيه زوجة أما هو فيبغى مليون زوجــة والرجل عادة تأويه دار أما هو فعنده تسعون دارًا. أيها المصريون هناك عار من حولكم. فاستيقظوا استيقظوا ".

ومــن بين مختلف الطلاب الذين واظبوا على حضور دروس الأفغاني، لم تسحر بلاغة الشيخ أكثر مما سحرت محمد عبده. فيما بعد عندما أصبح كبير فلاســفة عصــره، وصف الأفغاني بوصف يكاد أن يكون صوفيا، كولى من أولــياء الله الصالحين وكمخلص، وعندما انتهى الأمر بالقبض على الأفغانى وطــرده مــن الــبلاد. كانت آخر كلماته على أرض مصر: إنى أترك لكم الشيخ محمد عبده.. فهو يكفى مصر.

وفــى ســبتمبر من عام ١٨٨٠، عين محمد عبده رئيساً لتحرير الجريدة الرســمية الوقــائع المصــرية. وخــلال وقت وجيز، تمكن من تحويل هذه الجــريدة الكئيــبة – لسان حال السلطة – إلى أداة لتوعية الرأى العام، فكان يصــر على أن يكون المساهمون فيها من ذوى المستوى الأدبى الراقي، مما أتــاح للجــيل الجديد من المصريين فرصته للتعبير الواضح والناضج. وكان يعــظ أنــه من الضرورى أن تتم الإصلاحات الداخلية فى مصر بمجهوداتها الخاصــة. أما تطلعاته للتعبير فكانت تتأرجح بين فكرة المستبد العادل (هل يا تــرى يــبرز مســتبد عــادل فــى الشــرق؟)، إلى إيضاحات عن متطلبات الديموقراطــية: إن الخطــوة الأولى لتحقيق قدر معين من الحرية يتمثل فى تكوين المجالس القروية، ثم يتلوها بعد بضع سنين المجالس البلدية شريطة أن لا تكــون وســيلة لســيطرة هذا أو ذاك، بل تكون مصدراً للآراء ووجهات الــنظر، بعــد ذلك يجىء التمثيل البرلمانى ، وعند الضرورة لم يتردد فى أن ينــتقد الحكومــة ذاتها. فقد وصف مرة الجيش بأنه يقوده عساكر ذوى عقلية بلهاء! ».

كــان هذا هو الزاد والزواد لبعض الضباط المصريين من أبناء البلد. فقد كانوا غاضبين ليس من مسلك الأجانب فحسب، بل كانوا ساخطين من الترف

وكذلـــك من المحاباة والتحيز الذى يظهر بوضوح تجاه الأتراك والشراكسة. وعـــندما وقعت الهزيمة المهينة فى الحبشة تلاها الإجراء الاقتصادى الصارم الذى قام به ريفرز ولسونٍ والذى خفض بمقتضاه إلى النصف رواتب ٢٥٠٠ ضـــابط، وســـرح عـــدداً آخر لا حصر له، وزاد على ذلك كله تعيين عثمان رفقـــى - وهو جركسى سيء السمعة ومعدوم الجماهيرية - وزيراً للحربية: مما أوصل غيظهم إلى درجة الغليان. فقد بدأت مجموعة من رتب الجيش من الشـــباب تجتمع من آن لآخر فى بيوت بعضهم البعض فى محاولة للتخطيط لوضـــع نهايـــة للمحاباة نحو العناصر التركية فى الجيش حتى وإن استدعى الأمر عزل الخديوى. وعندما نما إلى علمهم ذات مساء أنهم فى طريقهم إلى التسريح، قرورا أن يتجه قائدهم البكباشى أحمد عرابى(*) مباشرة إلى رئيس الوزراء ليقدم التماساً(١٦).

غير أن رد الفعل من جانب رئيس الوزراء لم يكن مشجعاً بتاتاً، إذ تحدث إلـــيهم بلهجـــة خشنة وحذرهم أن مثل هذا العصيان جريمة تستوجب الإعدام شـــنقاً، ثم أضاف بلهجة شديدة السخرية: هل فى نيتهم أن يغيروا الحكومة ولـــو كـــان ذلك كذلك فبمن ينوون استبدالها؟ فرد عرابى: هل مصر امرأة عاقـــر لـــم تنجب سوى ثمانية أبناء؟ وهو فى ذلك يشير إلى رئيس الوزراء وأعضـــاء حكومـــته السـبعة، عندئذ لوح رئيس الوزراء له بيده غاضباً لكى يخرج من مكتبه. وهنا بدأت فصول الدراما تتوالى.

فـــبعد أيـــام قلائل، استدعى البكباشية الثلاثة الذين كانوا قد وقعوا على العريضة إلى ثكنات قصر النيل على زعم التخطيط لإقامة استعراض بمناسبة زواج إحـــدى الأمـــيرات، وما أن وصلوا إلى هناك حتى ألقى القبض عليهم، وجـــردوا مـــن أسلحتهم. وبدأت محاكمة عسكرية عاجلة. وكان عرابى يؤكد دائمـــاً أن النـــية كانـــت معقودة على وضعهم على ظهر باخرة تقف خارج الثكنات، وتلقى بهم فى هدوء فى النيل بعد وضع أثقال حول أقدامهم. غير أن

(*) كان أحمد عرابى « أمير الاى » وليس « بكباشى » (المراجع).

« الميرالايات » كانوا قد أخذوا حذرهم، فلم يظهروا فى الوقت المحدد، بينما قامت جنود فرقهم بالسير إلى الثكنات حيث اقتحموا المحكمة العسكرية. وكان علـــى القـــادة الشراكسة أن يشقوا طريقهم متقهقرين بطريقة مهنية، فقد هرب عثمان رفقى من خلال فتحة نافذة فى حين سار عرابى وأصدقاؤه على رأس قواتهم عائدين منتصرين.

هكـــذا حـــاول عـــرابى أن يسبق التاريخ إلى حد ما بطريقة خرقاء ولكن درامية. لقد كان صورة نموذجية للفلاح، فارع القامة، ثقيـــل الأطراف، بطئ الحـــركة، وكمـــا صـــورته كلمـــات (ولفـــريد بلنت): إنه يعتمد على القوة الجسمانية الضخمة التى هى صفة لفلاح الدلتا الكادح... لقد كان هناك تصنع فـــى حـــركاته لكـــى تعطيه ذلك الوقار الذى تراه عند مشايخ القرى وأحيانا كانـــت تبدو فى عينيه نظرة الحالم شارد الذهن غير انه حين يبتسم كان يعلو وجهه إشراقة شديدة التواضع كإشراقة الشمس على منظر طبيعى معتم .

لـــم يكن عرابى فى عيون الطبقة التركية الحاكمة سوى مجرد فلاح جلف من النوعية التى سيطروا عليها لقرون عديدة. وفى البداية شك فى أمره حتى مصلحو الأزهر من رجال الفكر على أنه قوة سياسية، لكن بالنسبة لطبقته من الفلاحين فقد كان بطلاً على شاكلتهم وواحداً منهم.

لقد كانت ثورة ١٨٨١ فى المقام الأول حركة للفلاحين المصريين من أهل الـــبلاد الأصـــليين موجهـــة ضد طبقة رجال البلاط الأتراك الذين تسببوا فى خـــراب الـــبلاد، كما وجهت أيضاً كراهيتها نحو الأوروبيين بعد أن انحازت السيطرة الأنجلو – فرنسية علناً إلى جانب توفيق.

لقـــد قادت محاولات إسماعيل لتحـــويل وادى النيل إلى قطعة من أوروبا، وتـــزايد تدخـــل القـــوى الأوروبـــية بعد عزله، إلى قيام تحالف غريزى بين السياســـيين الأحـــرار مـــن أعضـــاء الجمعية الوطنية، وبين الضباط الذين يـــنحدرون مـــن أصول مصرية فى الجيش، وفى مواجهة الإحباط الناتج عن إغـــلاق مجلـــس الـــنواب الذى كان قد بدأ تدريجياً يتحول إلى ساحة للوطنية المصـــرية، اتجـــه الوطنيون من السياسيين إلى الجيش باعتباره القوة الوحيدة

القـــادرة على الحفاظ على الحريات فى البلاد فى مواجهة أوروبا والخديوى. وبـــرز أحمد عرابى كزعيم الوطنيين المصريين الأول، غير أن حركته كانت تمـــثل أبعـــد بكثـــير مـــن مجرد تحالف مؤقت بين ضباط الجيش الساخطين والسياســـيين الأحرار: لقد كانت الشرارة الأولى لليقظة الوطنية التى استمدت قوتها من قلب وروح أرض مضطربة، سلبية، وتواكلية.

فـــى البداية ساير توفيق المتمردين، فطرد عثمان رفقى، وبالتالى قبل قسم الـــولاء له مـــن جانـــبهم. غير أن شهر العسل بين الخديوى والبكباشية كان قصـــيراً. فمـــا أن جرؤ، حتى عين توفيق زوج شقيقته وزيراً للحربية، وقام بنقل عرابى إلى الإسكندرية والبكباشيين الآخرين إلى الأقاليم.

وببساطة رأى عرابى أن فرصته قد حانت ساعتها أو لا فرصة إلى الأبد، فلو قبلوا أن يبعدوا عن القاهرة، سوف يسهل إخضاعهم، وأحسن ما يتوقعونه هـــو طلقة رصاصة سريعة أو إغراق فى النيل. ويتذكر عرابى الأحداث التى وقعت صباح أحد أيام سبتمبر عام ١٨٨١: لقد كتبت خطاباً يتضمن مطالبنا، وبعثـــت بـــه إلـــى الخديـــوى أقـــول فيه. أننا سوف نقوم بمسيرة إلى قصر عابديـــن... كـــى نتلقى رده ؛ عندما وصل الخديوى... وجدنا نحتل الميدان، وكانـــت المدفعية والفرسان أمام المدخل الغربى بينما، أنا وقواتى أمام المدخل الرئيســـى... نـــادى علىّ الخديوى أن أترجل وترجلت، ونادى علىّ أن أضع ســـيفى فـــى غمده ووضعت سيفى فى غمده، غير أن أصدقائى من الضباط اقـــتربوا مـــنى لمـــنع وقوع غدر أو خيانة، كان عددهم ما يقارب الخمسين، وبعضـــهم وضـــعوا أنفســـهم بيـــنى وبيـــن القصر.: وعندما سلمت الرسالة وعرضـــت مطالبى الثلاثة على الخديوى، قال: أنا الخديوى وسوف أفعل ما يحلـــو لـــى . ورددت على ذلك بقولى: لسنا عبيداً ولن نعامل بعد اليوم بهذه الطريقة ولم ينبس ببنت شفه، إنما استدار ورجع إلى القصر .

إن عـــرابى كرجل ثورى – كما يتضح من روايته على الأقل – كان يبدو معتدلاً بما فيه الكفاية.

وكمـــا يبدو الموقف من الجانب المقابل، ومن خلال عيون السير اوكلاند

كولفيـــن Auckland Colvin فـــإن ما حدث كان يكفى ويزيد بالنسبة لتوفيق الجـــبان. فمـــنذ الصباح الباكر كان كلوفين يحثه على اتخاذ خطوة قوية ضد عـــرابى، غير أن الخديوى الذى كان يصيح كصياح الدجاجة المذعورة قضى يومـــه (يكاكى) ويدور من حوله متنقلاً من وحدة الحرس الخديوى إلى أخرى ليـــتأكد من ولائهم له – وفى النهاية اضطر كولفين – وهو رجل متخصص فـــى الـــتعامل مع المواقف التى تتطلب الحذر إلى إخراجه من هذا الموقف. وعـــندما خـــرجا أخـــيراً من القصر قال للخديوى: عندما يقدم عرابى نفسه أطلـــب مـــنه أن يسلمك سيفه. ثم أصدر أوامرك إلى قواته لتتفرق ثم تجول حول الميدان مخاطباً كل وحدة على حدة ثم أعطهم أمر الانصراف .

كانـــت المـــبانى الـــتى تحيط بميدان عابدين مكتظة بالمتفرجين عندما قدم عـــرابى فوق صهوة جواده. وهمس كولفيـــــن فى أذن توفيق المضطرب: «أطلـــب مـــنه أن يترجل»: فقال توفيق: انزل! فنزل عرابى، وتقدم ماشياً علـــى قدمـــيه يتـــبعه الحرس وحراب بنادقهم مسددة، بينما أمسكت الجماهير أنفاســـها، وهـــنا همس كولفين: الآن جاءت فرصتك فرد الخديوى توفيق: « ولكنـــنا محاطيـــن بأربعـــة نيران.. سوف نلقى حتفنا فرد كولفين: ألمره أن يضـــع سيفه فى غمده ونفذ عرابى الأمر بعد أن أدى التحية، ثم عرض مطالب إقالة الوزراء، وعودة مجلس النواب إلى الانعقاد، وزيادة عدد الجيش إلى ١٨٠٠٠رجل وفى، نفس المساء وافق توفيق عليها جميعاً.

وقـــد أظهر كولفين فى مذكرته التى رفعها إلى وزارة الخارجية مشاعره حـــول هـــذا الأمر إذ كتب يقول: ليس هناك من سبب يجعلنا نعتقد أن أحداً آخـــر غـــير هـــؤلاء الضـــباط أنفسهم هم المسئولون عن الحركة. لقد كانت مظاهـــرة عســـكرية بحتة. ولم يؤثر فى نفسى شيء بالأمس أكثر من عدم إدراكهـــم العمـــيق بالأخطـــار التى سوف يجلبونها على أنفسهم.. أنهم فاقدو البصيرة لعدم إدراكهم لتصرفهم .

ربمـــا كـــان ذلـــك حقاً، غير أن مصر استيقظت فى صباح اليوم التالى لتكتشـــف أن مـــا حدث لم يكن مجرد حركة تمرد، بل ثورة. وكتب (ولفريد

بلنــت): ودوت عــبر مصر كلها صيحة من الفرح والابتهاج لم يسمع مثلها مــنذ مئات السنين على ضفاف النيل فقد كان الناس يوقفون بعضهم البعض فـــى شوارع القاهرة دون أن يعرف بعضهم بعضاً ليعانق كل منهم الآخر معبريــن عن فرحتهم جميعاً لهذا الحكم الجديد المفاجئ، وللحرية والتى تدعو للإعجاب الذى بدا لهم.

لقد عين عرابى وزيراً للحربية فى حكومة رئيس وزراء من اختياره، ولم يكن هناك أدنى شك فى أنه قد أصبح الآن القوة الحقيقية فى مصر، فقد أعلن عــن ولائه الخالص للخديوى (طالما وفى بوعده)، لأنه كان يرى نفسه ممثلاً للجــيش القوة الوطنية الوحيدة التى تقف بين مصر وحكامها من الأتراك. كما كــان الراعى لمصالح الشعب. وكما شرح ذلك بقوله إن وضعنا نحن معشر العســكر كوضــع هؤلاء العرب الذين ردوا على الخليفة عمر عندما تقدم به العمــر، وســأل الــناس عما إذا كان قد اتبع طريق العدل المستقيم. فأجابوه ملــتويًا: « يــا ابــن الخطاب. إنك قد سرت حقاً فى الطريق المستقيم. وأنا لنحبك، غير إنك تعلم أننا جاهزون مستعدون إذا ما سلكت سلوكاً معوجاً فإننا سوف نقومك بسيوفنا (*).

وبالــرغم مــن كــل نوايــاه الطيبة، لم يكن لدى عرابى برنامجاً أبعد من الــتطلعات العامة والمثالية إلى حد ما من قبل الوطنيين لذلك قام محمد عبده ولفريد بلنت قرب نهاية العام بالتعاون معه فى رسم خطوط وثيقة أطلق عليها

(*) روى عــن عمــر بــن الخطــاب أنه قال يوماً على المنبر: يا معشر المسلمين ماذا تقولون لو مِلْتُ برأسى إلى الدنيا كذا - وميل رأسه - فقام إليه رجل فسل سيفه وقال: أجــل كــنا نقــول بالسيف كذا - وأشار إلى قطعه. فقال: إياى تعنى بقولك ؟ فقال: نعــم إيــاك أعــنى بقولى فنهره عمر ثلاث وهو ينهر عمر: رحمك الله. الحمد لله الــذى جعــل فى رعيتى من إذا تعوجت قومنى (خرجه الملاء فى سيرته) عن كتاب: الــرياض النفيرة فى مناقب العشيرة لأبى جعفر أحمد الشهير بالمحب الطبرى، الجزء الأول طنطا ١٩٥٣، ص٦٦ (المترجم).

(برنامج الحزب الوطنى المصرى). وهذه الوثيقة أقرت بالخدمات التى أدتها الحكومتان الإنجليزية والفرنسية لمصر، بل حتى اعترفت بأن كل مظاهر الحرية والعدالة التى تم الحصول عليها فى الماضى كانت بفضلهم وأعلنت إن الحزب الوطنى يعترف بالسيطرة الأوروبية كضرورة بالنسبة لوضعنا المالى، وأن استمرارها هو أفضل الضمانات لرخائنا، ونعلن ذلك كأمل من آمالنا أن نخلص بلادنا تدريجياً من براثن أصحاب الديون ».

وقام (بلنت) بإرسال هذه الوثيقة إلى جلادستون Gladstone على أمل أن يباركها بما عرف عن تعاطفه مع شباب الوطنيين الذين يكافحون من أجل الاستقلال، ومهما كانت تقبع عواطف جلادستون الشخصية. فقد كانت هناك ضغوط خارجية لا يمكن تجاهلها، فالسلطان كان يرغى ويزبد فى القسطنطينية، وأصحاب الديون كانوا يحثون على اتخاذ خطوة، كما كانت هناك مفاوضات وتنازلات بارعة تتم مع الفرنسيين.

كان جامبيتا Gambetta يسن سكاكينه لمواجهة الثورة الإسلامية فى كل من تونس والجزائر. فقد كان منزعجاً من الطابع العام لهذه الحركة، ورأى أن بعضاً من تأثيرها بدأ يتحرك فى مصر. وقال يجب على إنجلترا الانضمام إلى حملة صليبية حضارية – كما أطلق عليها – للحفاظ على الوضع القائم فى مصر. والذى بمقتضاه كان يعنى التنظيمات المالية القائمة (كان جامبيتا من خلال أصوله اليهودية على اتصال وثيق بأسرة روتشيلد وآخرين) أما صيغة التدخل التى كانت فى ذهنه فهى أن ترسل إنجلترا أسطولاً إلى الإسكندرية، بينما ترسو القوات الفرنسية براً.

وعلى الجانب الآخر كان الهوايتهول متلهفاً على تجديد المعاهدة التجارية مع فرنسا والتى كانت مدة سريانها على وشك الانتهاء، كما أن السير تشارلز ديلك Charles Dilke الذى كان يقود المفاوضات، أخبر جامبيتا مبتهجاً: أنه على استعداد لإدماج مصر فى معاهدته التجارية.

ولو قدر لجامبيتا ألا يسقط بعد ذلك بقليل بفارق صوت واحد معارض حول موضوع مختلف، لربما قام الفرنسيون بغزو الدلتا، ولكان تاريخ مصر

قـــد اتخذ مساراً مختلفاً جذرياً، وكنتيجة لذلك حصل ديلك على معاهدته، كما حصـــل علـــى حملته الصليبية فى شكل مذكرة مشتركة ذكرت بصراحة أن «الحكومتيـــن تعتـــبران أن بقاء الخديوى على العرش هو وحده القادر على ضـــمان النظام والرخاء لمصر وأنهما ينويان مراقبة مجهوداتهما المشتركة فى مواجهة كل أسباب التعقيد، فى الداخل أو الخارج والذى من شأنه قد يهدد النظام القائم فى مصر.

لقد كان واضحاً ما كان يعنيه جامبيتا بذلك، فقد كانت قد تشكلت قوة لحملة عسكرية فى طولون، أما ما كان يعنيه جلادستون كان يمكن لأى أحد تخمينه مـــنذ أن أضـــاف خاتمة للمذكرة بطريقة غامضة تقول: إن حكومة جلالة الملك يجب ألا تفهم على أنها تلزم نفسها بخصوص ذلك بأى شكل معين من أشـــكال التصـــرف غـــير أن التشـــابه المحزن لأسلوب موليه Mollet وهو الضـــرب بالعصا، وتذبذب تصرفاته كما حدثت فى ظروف مشابهة بعد ذلك بأربعـــة وســـبعين عاماً كان فى آخر الأمر واضحاً كل الوضوح باستثناء أنه فى عام ١٨٨٢م، كانت كل من بريطانيا وفرنسا فى أوج قوتهما الاستعمارية.

أمـــا فى مصر فقد كان تأثير ذلك كارثة، ففى صباح اليوم الذى أعلن فيه عـــن نص المذكرة، قام ولفريد بلنت بزيارة عرابى فى الوزارة، ولأول مرة كمـــا يتذكر، وجد عرابى يتأجج غضباً: فقد كان وجهه مثل الصاعقة، وكان فـــى عينيه وميض غريب فقد فاجأ الإعلان عن أن سياسة بريطانيا وفرنسا واحدة تجاه ذلك الجندى الفلاح، لأن ذلك يعنى أنه مثلما غزت فرنسا تونس، فـــإن مـــن حـــق بريطانيا أن تغزو مصر، ثم أضاف بوجه عابس: دعوهم يأتون.. إن كل رجل وطفل فى مصر سيقاتلهم.. أن نبدأ بالضربة الأولى أمر مناف لمبادئنا، لكننا نعرف كيف نرد الضربة .

لقـــد كان هناك ضجة تحدث فى مكان ليس ببعيد.ففى القاهرة كان الصدع بيـــن المصريين الثوريين، وبين طبقة بلاط القصر التركية آخذ فى الاتساع، وكانـــت تثـــير الغبار الرملى مثلما تفعل رياح الخماسين(تلك الرياح الجنوبية غـــير المـــريحة والتى تنفذ إلى كل فتحة من مســـام جســـم كل إنسان)، أما

الأوروبيون سريعو الفهم فقد كانوا يتوقعون شن حملة وحشية ضدهم فى أى لحظة.

وفـــى لـــندن بدأت الصحافة حملة منسقة ضد عرابى، صورته فيها كثائر متعطش للدماء ومتعصب خائن. وعندما يقرأ الإنجليز وهم يتناولون إفطارهم مـــن الخبز المقدد والمربى أن عرابى الذى هو الآن باشا قد سحق مؤامرة اغتـــيال دبـــرها لـــه بعـــض الضباط الأتراك، وأنه حالياً يجند فرقة جديدة للمقاومة الوطنية ضد التدخل البريطانى، فإن إقناعهم بأن حركة تمرد أخرى مـــثل تلـــك التى قامت فى الهند، وأن مذبحة للإنجليز، يعد لها لن تحتاج إلى وقـــت طويل. فقد ألقى أحد القسس عظة فى الريف قـــــال فيها: يجب تدمير عـــرابى بدانـــة مدفع واقترح أحد اللوردات المتقدمين فى العمر « أن تذهب مجموعـــة من كبار القناصة لشنق ذلك الوغد » ووجد ولفريد بلنت أنه دائماً: علـــى خـــلاف مرير مع أصدقائه بخصوص مصر . ولذا قام بنفسه بعرض موضوع عرابى على جلادستون.

غـــير أن الـــرأى العـــام كله لم يكن متحيزاً ضد المصريين، فقد أصدرت الجـــبهة المعاديـــة للعدوان Anti Aggression League نشرة أوضحت فيها أنـــه بينما ليس من واجب المواطنين العاديين أن يتدخلوا فى الشئون العامة، إلا أن علـــيهم أن يصـــروا أنه يتوجب على الحكومة ألا تجر الأمة إلى حافة الحـــرب وأن تتصـــنع أزمة مع شعب أجنبى بدون سبب مشروع كما أرسل حـــاكم ســـيلان الســـابق إلى جريدة التايمز The Times رسالة مطولة يرجو بالتصـــرف العـــادل مع الوطنيين ويقول فيها: إننى اعتقد أن الزعيم عرابى رجل أمين ووطنى واعتقد أنه لا توجد سياسة أكثر وضوحاً لإنجلترا من تأيـــيد ودعـــم الحكومـــة المصـــرية القائمة، وأنها سوف تكون آسفة بالنسبة لمصـــالحنا لـــو أنها فشلت والحقيقة أنه كلما تزايدت المؤامرات والشائعات والأحـــداث نشأ إحساس إما لصالح عرابى أو ضده بنفس القدر الذى كان فى إنجلـــترا وفـــى مصـــر. وأخيراً لجأت القوى إلى خططها التقليدية: فقد بعثت بأسطول مشترك إلى الإسكندرية تحت قيادة (بو شامب سيمور) Beauchamp Seymour. وطلب من عرابى أن يستقيل ويغادر البلاد!.

وفى السابع والعشرين من مايو استجابت الحكومة الوطنية باستسلام كاف لتجد نفسها تعاد إلى السلطة عن طريق انتفاضة شعبية عفوية فى القاهرة. وفى ظروف كانت فيها الإدارة العامة للحكومة فى حالة تفكك، بمعنى أن التعاون مع رجال الخديوى والقصر كان قد انتهى فعلاً، لم يصبح عرابى دكتاتورا عسكرياً فحسب، بل بطلاً قومياً بالمثل. وأطلقت صحف القاهرة صيحة تطالب فيها بإحياء الإسلام واستقلال مصر ؛ ولما وجدت الجالية الأوربية نفسها وقد تملكها الذعر، ولت هاربة إلى الإسكندرية لتكون فى مأمن تحت حماية الأساطيل الحربية المتحالفة. ولما كان عرابى يحاصر بالمطالب المحمومة أينما ذهب، فقد بدأ يستعد للحرب، وأشتعل الفتيل فى تلك اللحظة: وأصبح حدوث الانفجار مجرد وقت بكل معانى الكلمة. وفى العاشر من شهر يونيو اندلع الشغب العنيف فى الإسكندرية.

كانت المدينة فى عام ١٨٨٢ يونانية أكثر منها مصرية، فقد كان يسكنها جاليات كبيرة من رجال الأعمال من بلدان البحر المتوسط، كثير منهم مرابون، واختفى الود الضئيل الذى كان قائماً بين الأوروبيين والمصريين. ومن الطبيعى أن يصل هذا الإحساس المرير إلى ذروته بوصول أسطول الحلفاء لحماية المصالح الأوربية، وفى هذا الجو المعبأ كان حدوث شجار فى الشارع بين رجل من مالطة وصبى حمّار حول قرش صاغ كافيا لتفجير الموقف. فبعد ذلك بساعة انفجر الغضب فى المدينة. واندفعت الغوغاء وهى تصرخ وتنهب، وعند نهاية اليوم عندما استعاد عرابى النظام بحزم، كان هناك بضع مئات من الناس إما قتلى أو جرحى. وقد أصيب القنصل البريطانى بجرح خطير، أما القنصلان اليونانى والإيطالى فقد لقيا معاملة جافة، وبدا الوضع كما قال العالمين ببواطن الأمور فى الهوايتهول أن مصر فى حالة فوضى شاملة. وأنه يجب القيام بعمل حازم، لأن أى هزيمة لوزارة الخارجية لن تكون سوى فضيحة كبرى. لقد طلب من عرابى أن يغادر البلاد ولم يمتثل للأمر وبدلاً من ذلك راح ينظم أعمال الشغب، ثم يقوم بقمعها كاستعراض لقوته، فقد كانت شهرته تتزايد فى الشرق على حساب بريطانيا، ولو ترك ليستمر لكان فى الإمكان حدوث ثورة إسلامية شاملة فى الهند. كان

الموقف لا يحتمل، وكانت هناك ضرورة قصوى لاتخاذ إجراءات قوية.

فـــى ذلـــك الوقـــت كان جامبيتا قد استقال، وكان الفرنسيون يتراجعون، وأصـــبح الوضع يتوقف على إنجلترا وحدها، ولما كان جلادستون ممزقاً بين اقتـناعاته الشخصية وبين « شوفينية » زملائه المتطرفة، فقد بذل أقصى ما يســتطيع لتجنـــب اتخاذ قرار. ولذا قرر «أن يترك الأمر للرجل الموجود فى الموقع».

كانت مدافع السير بوشامب سيمور فى حالة استعداد فى ميناء الإسكندرية، ويتذكر رجل سويسرى عجوز من المقيمين أنه كان يشاهد الأميرال فجـــر كـــل يـــوم على ظهر السفينة مرتدياً قميصه الصدفى الضيق غير العسكرى، وتـــبرز قدمـــاه الحافيتان من سروال بيجامته، ليعاين التحصينات المصرية. واســـتطرد مواطن: « اتحاد برن » بصوت أجش ولأنه كان رجلاً ريفياً فقد كـــان مـــن الصـــعب عليه أن نتوقع من جانبه معرفة بروتوكول التواجـــد علـــى مؤخرة السفينـــة:« كان السير بوشامب يلعب لعبة "دورة جوبيتر" ويثير رعب الجميع وهو يقسم بأغلظ الأيمان » أما الحقيقة فقد كان الأدميرال ينتظر حتى يتم جلاء كل الأوروبيين قبل أن يفجر التحصينات إلى شظايا.

وفـــى العاشر من يوليو أرسل إنذارًا إلى عرابى: « سلم القلعة خلال أربع وعشـــرين ساعة أو أننا سوف سنطلق النار ». وقد رد الخديوى على ذلك – تحـــت تلقين عرابى – باحتجاج مهذب ولكنه حازم، وذلك قبل أن ينسحب من مـــنطقــــة الخطـــر (حيث قضى اليومين التاليين وهو يناقش عما ـإذا كانت كرامـــته تســـمح لـــه أن يلجأ إلى سفينة حربية بريطانية التى ربما تتعرض للإغـــراق). أمـــا السفن الأجنبية فقد أدارت ماكيناتها البخارية، وخرجت إلى عـــرض الـــبحر، وهـــى تطلـــق صفاراتها بشكل رسمى تحية لسفينة القيادة البريطانـــية، بيـــنما قامت الفرقة الموسيقية الخاصة بالإدميرال بعزف النشيد الوطـــنى المناسب لجنسية كل سفينة تمر عبرها. وكان آخر من غادر السفن الفرنسية.

وعند فجر اليوم التالى بدأ القصف.

ومن قلعة العجمي (حيث يمتلك الآن ذوى اليسار من أبناء المنطقة «شاليهات صغيرة لقضاء عطلة نهاية الأسبوع) حتى منطقة السلسلة (حيث كان يوجد قصر بطليموس قديماً، وحيث يخطط الآن لإقامة هيلتون الإسكندرية في نفس الموقع)(*) كانت القذائف تنهال. وقد ردت الخمس عشرة قلعة على النيران بكل ما استطاعت من قوة. ولكن لم يكن هناك أدنى شك في نتيجة ذلك، وقد جاء في تقرير سيمور إلى قيادة البحرية: « أن المصريين قد حاربوا بشجاعة وعناد وهم يردون على جحيم النيران من مدافعنا الثقيلة حتى بدوا كما لو كانوا قد هلكوا جميعاً. وعند الساعة الخامسة والنصف من بعد ظهر اليوم، كان أكثر من ألفي مصري قتلى، والقلاع حطام».

ولم تلتهم النيران القلاع وحدها فحسب، بل التهمت الإسكندرية ذاتها عندما تهاوت عليها القذائف التي تسبب عنها اندلاع الحرائق. وقامت الغوغاء بدورها بإشعال النيران ونهب كل شيء وقع عليه بصرهم. وسرعان ما احترق الحي الأوروبي عن آخره. واندفعت عصابات قطع الرءوس من مبنى إلى مبنى يمزقون كل شيء يصل إلى أيديهم، وينشرون الحرائق عن طريق القطن المشبع بالبرافين. وفي الصباح الباكر لليوم التالي بدأ موكب حزين من العربات التي تقعقع عجلاتها وعليها أكوام من الجثث تتجه نحو الجبانات، ومن خلف كل عربة سار جمع من النسوة وهن يولولن. وكان القنصل اليوناني أول من رسا إلى البر بعد توقف القصف ويتذكر ذلك قائلاً: " كان الرعب يتملكنا في كل خطوة أن نحاصر تحت حطام المنازل المشتعلة التي كانت تنهار في الطريق محدثة دوياً عنيفاً.. وكانت كل الحوانيت قد نهبت، وكان الطريق مملوءاً بالعلب والصناديق التي تركها النهابون بعد أن ذهبوا. وكان هناك خمس أو ست بيوت في الشارع مليئة بفجوات أحدثتها قذائف مدافع الأسطول البريطاني ". وكان شهود العيان مذعورين من حجم الخراب. وأعلن مدير شبكات المياه الإنجليزي أن كثيراً من الشوارع أصبحت لا يمكن

(*) تم إقامته فعلا بعد ذلك وهو هيلتون المنتزه.

السـير فيها. وحتى للشخص الذى يعرف المدينة جيداً لم يكن من السهل عليه أن يجـد طـريقه فـيها ". وقال: " إن الشىء الوحيد الذى بقى على حاله فى وسط المدينة هو تمثال محمد على، فيما عدا ذلك كل شىء كان حطاماً أسود اللون، حتى الأشجار آتت عليها الحرائق ».

ولقـد أسفر القصف عن انشقاق ظاهر بين حزب القصر وبين الوطنيين، فحـتى هـذه اللحظة كان عرابى يتصرف ولو اسمياً تحت سلطة الخديوى، ولكـن لما شاهد توفيق بنفسه من فوق سطح قصره فى الرمل أن البريطانيين يعـنون ما يقولون، لم يضيع وقته ليضع نفسه تحت الحماية البريطانية وتحت حراسة سرية من جنود الأسطول، ثم أصدر بياناً أعلن فيه أن عرابى متمرد، ثم جلس ينتظر هزيمة رعاياه!.

وفـى أثـناء ذلك انسحب عرابى وجيشه إلى موقع قريب من كفر الدوار والذى تحول إلى مقر لقيادة الحزب الوطنى. ولكن يبدو أن أغلب وقته ضيعه فى الاستقبالات. فقد كان هناك سيل لا يتوقف من العلماء والمشايخ والأعيان من كل الفئات يتدفق على الخيمة الكبيرة التى كانت يوماً ما خاصة بسعيد، ثم أهدتها أرملة نائب السلطان إلى عرابى. وقد لاحظ نينيه Ninet(*) السويسرى الممثل لهيئة الصليب الأحمر وجود زوار من مناطق بعيدة كالحجاز واليمن. وكـان عرابى يأمل فى الحصول على تأييدهم، وبالرغم من أن قوة بريطانية بقـيادة الجـنرال اليسون Allison كانت قد تقدمت خلال شهر أغسطس من الإسكندرية إلا أنها ردت على أعقابها خاسرة، غير أنه من الملاحظ أن قليلاً مـن الاسـتعدادات أعطيت لمواجهة هجوم القوات الرئيسية التى كان يقودها الجـنرال وولسـلى Wolseley. ولقـد تلقى عرابى تحذيراً أن البريطانيين قد يأتون من ناحية القناة لتلتف حول موقعه، لكنه صدق دى يلسبس عندما وعده بأنـه القـناة سوف تبقى محايدة، ورفض أن يعطى أوامره النهائية بردم القناة حتى أصبح الوقت متأخراً. وكانت تلك غلطته الكبرى، فقد سجل وولسلى فى

(*) نينـيه Ninet صـاحب كـتاب معـروف عنوانه « عرابى باشا Arabi Pasha » (المراجع).

تقريـــره: " لـــو نجح عرابى فى ردم القناة كما انتوى، لكنا حتى هذه اللحظة نحاصر مصر من أعالى البحار.. لقد أنقذتنا أربع وعشرين ساعة".

وبيـــنما كان « نينيه » يتجول حول المواقع المصرية خلال شهرى يوليو وأغســـطس شـــديدى الحرارة، صدم فى الواقع من عدم المبالاة أو بالأحرى وجهـــة الـــنظر القدريـــة لجيش الفلاحين، فبخلاف إقامة بعض الاستحكامات القلـــيلة من الطين، لم يأخذ المصريون سوى القليل من الحيطة، صحيح أنهم كـــانوا يقومون بالتسلل خلف الخطوط البريطانية ليلاً،ولكن ذلك فقط من أجل أن يـــروا مـــا يقـــدرون علـــى سرقته. وما أن يعودوا ومعهم بعض البزات النظامـــية لجنود الفرسان (الهوسار Hussar) والخوذات البيضاء ذات الطرف المدبب، حتى ينفجروا من الضحك وهم يرتدونها، وأكثر ما كان يضحكهم أن البريطانيـــن يـــتجردون مـــن ملابسهم قبل النوم تماماً، ولكنهم عموماً كانوا يقضـــون لـــيالى الصـــيف يستمعون إلى القرآن الكريم أو يجلسون فى دوائر ويطلقون النكات.

وفـــى الثانى عشر من شهر سبتمبر تلاشت ضحكاتهم فجأة، إذ قام جيش الجـــنرال وولســـلى الذى جاء عن طريق قناة السويس بالتسلل ليلاً لأكثر من ســـبعة أمـــيال فى الظلام الدامس ليباغتهم فجأة. لقد كانت معركة التل الكبير الـــتى حســـمت مصـــير مصر لجيلين أو أكثر، أقصر ما سجلت الوثائق، إذ يـــروى السير وليام بتلر Willam Butler: « لقد هبطنا عليهم هبوط الصاعقة على رجل نائم إذ استغرق الأمر كله خمس وثلاثون دقيقة». وربما كان أول علم للمصريين بالهجوم كان التدفق المفاجئ عندما قام رجال الحرس الأسود بـــالهجوم على التحصينات الطينية وقد خفضوا رءوسهم وسددوا حرابهم التى هـــى فـــى مقدمة بنادقهم. وبالرغم من أنهم أخذوا على غرة إلا أن المدافعين ردوا على النيران بغضب » ويذكر أحد جنود السرايا إنه: " بينما اندفع جنود الفـــرقة ٤٢ نحو الخنادق كالنمور، وبينما كانت الطلقات تدوى وتصفر وتئز أزيـــز النحل وهى تنطلق، وللحظة قصيرة كان هناك قتال السنكى للسنكى لقد حـــارب المصريون كالمجانين »، ويعبر الجنرال الليسون عن دهشته قائلاً: " لقـــد كان رجال المدفعية المصريون جادين لدرجة أنهم كانوا يقاتلون بالسنكى

مــن المؤخرة بينما كانوا يضربون بمدافعهم " ثم فجأة أقبل الفرسان الإنجليز يعدون بخيولهم وسط الغبار والفوضى والضجيج، وهذا وضع نهاية للموقف. لقــد انتهــت المعركة قبل أن تبدأ، فقد تحول جيش عرابى إلى مجرد حشود مشــتتة انطلقــت نحــو الصحراء فى كل مكان. كان عرابى نائماً عندما بدأ القــتال، ودون أن يتوقف حتى ليضع نعليه فى قدميه، ألقى بنفسه فوق صهوة جــواده. وبعــد أن استولى على قاطرة ذات محرك بخارى عند بلبيس وصل إلـــى القاهــرة وهو داخل مقصورة الوقادين ليصل فى الوقت المناسب ليشهد الاحتفالات التى أقامها الخديوى على شرف الجيش البريطانى المنتصر، (ولو أنـــه لـــم يشـــارك فيها فعلاً) وأشارت صحيفة التايمز The Times إلى حفل رســمى أقامه توفيق وهو يستقبل التحية من ١٨,٠٠٠ بريطانى الذين أعادوه إلى العرش، بينما عرابى يشاهد من نافذة سجنه فى نفس الميدان عار جيشه، فقــد بعثرت الرياح فى عشرين دقيقة عمله الطموح طوال العام ". لقد انهال توفــيق بســـخاء كبير على الجنرالات الإنجليز بكل أعمال التكريم، وكان أقل ســخاء فـــى معاملـــته لجيشه الخاص، إذ بأربعة كلمات بالتمام والكمال ألغى وجــوده، إذ أصدر توفيق قرارًا يقول « :L'Arme Egyptienne est dissolue لقــد سرح الجيش المصرى »، ولم يكن يستطيع أن يكون أوجز من ذلك، فما حققــه وولسلى فى ميدان الحرب، أكمله توفيق فى مقصورته الفارهة، بل أنه فـــى الواقـــع فعل أكثر منذ ذلك. فقد حاول كبح الوطنية ذاتها عند شعبه، فلم يمــض وقـــت طويـــل حـــتى كادت الحركة الوطنية أن تنسى، وأن يرضى المصريون بما خطه القدر وهو أن يحكمهم البريطانيون. فى أثناء ذلك سارع أصحاب الحوانيت باستبدال صور عرابى بأخرى لتوفيق. واحتلت فرقة كولد ستريم Coldstream القلعة، ووصل الفرح لدى الأوروبيين إلى حد الجنون.

وقـــد قال الباورن دى كوسل Baron de Kusel وهو يهز كتفيه مستهجناً: "الله وحـــده يعلـــم بمـــا يشعر به المصريون" أما تجران باشا وكيل وزارة الخارجية الأرميـــنى، فقـــد عبر عن الشعور بالهزيمة والضياع، فقد قال بنبرة الحزن: "لقد جرفـــتا التـــيار كجـــزع شـــجرةٍ" وترك للأفغانى ومحمد عبده وهما فى المنفـــى ليبقيـــا على لهيب الوطنية مشتعلاً من خلال صحيفتهما «العروة الوثقى».



صــورة للبطــل أحمد عرابى وهو فى سجنه بالقاهرة
١٨٨٢ بعد هزيمته فى التل الكبير على يد البريطانين
(مجموعة مانسيل)

ومنذ أن أيقظ نابليون البلاد من سباتها العميق بهزها هزاً عنيفاً قبل ثمانية عقود، عرفت مصر البعث الجديد كما عرفت الإحباط، فقد جعلها محمد على قــوة مــن قوى البحر المتوسط، لكن ذلك كان على حساب الفلاح، كما دعم إسماعيل طموحات جده بالعمل المحموم طول ست عشرة عاماً، غير أن سوء إدارتــه "للاســتعمار المالى" الأجنبى عجل بالاحتلال الأوربى للبلاد. ولعدة شــهور كــان عــرابى لسان حال ورمزاً لمصر المتعطشة للعدل والكرامة. ويؤكد جمال محمد أحمد: " أن انهيار حركته عندما واجهت القوة البريطانية، وكمــا أن معالجــة قضيته بالطريقة الملتوية فى الصحافة الأوروبية فى ذلك الوقــت، ربما جعلت منه أقل حجماً مما كان ". وربما من أهم الملامح اللافتة للــنظر فــى أحــداث ١٨٨٢ لم يكن من المستغرب أن ينبعث الجيش كقوة ثوريــة، بــل كان ذلك ببساطة أنه أصبح رأس الحربة لحركة شاملة التى قد يــنكر الوجــود الــبريطانى الاستمتاع بثمارها لمدة سبعين عاماً أخرى. هذه الثورة التى طويت صفحتها كانت المقدمة لانتفاضة عام ١٩١٩ وانقلاب عبد الناصر فى النهاية عام ١٩٥٢.

الفصل الحادى عشر

الحاكم بأمره على ضفاف النيل

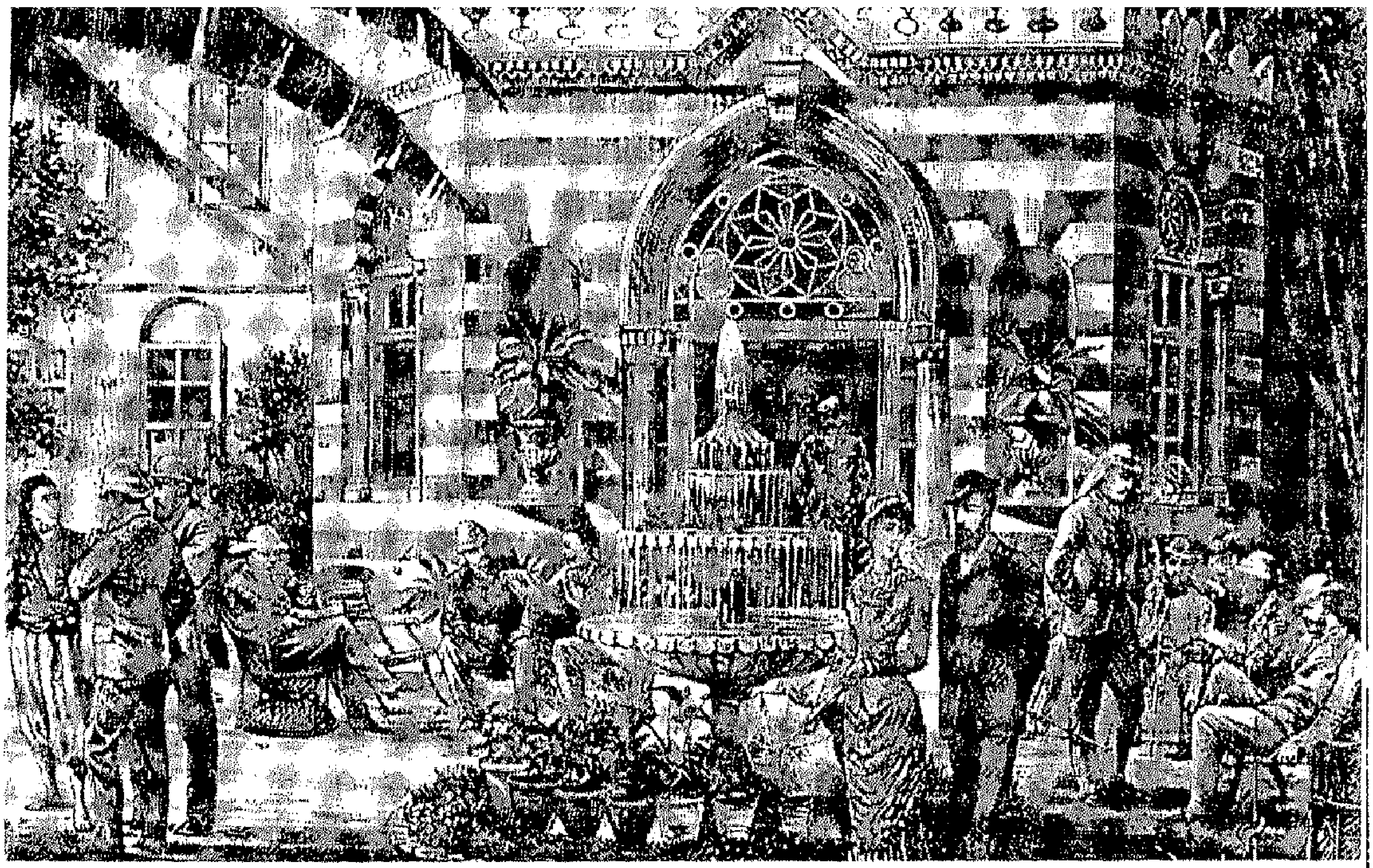
كــان الـــناس فى عصر الملكة فكتوريا بالطبع يبدون على قدر كبير من الغـــرابة، وذلـــك من خلال بكاة بيكاديللى Piccadilly Weepers ومن خلال مظهرهم، ومن تجمعاتهم المزدحمة بشكل محب للاستطلاع، غير أن الذى لا شـــك فـــيه أن الـــناس ذوو المظهر الوسيم فى أيامنا هذه قد يبدون لنا خلال خمســـين سنة قادمة فى شكل يدعو للسخرية. وبالمثل فأنه من العدل أن نحكم على اللورد كرومر المعتمد البريطانيٍ من منظور عصره، فالذى لا شك فيه أنـــه من خلال عصر كان يعتبر بطلاً، كان بكل معانى الكلمة فكتوريا عظيما ، فقـــد كان إداريا كفئا، ونائب قنصل رائع، فحتى فى شبابه كان مسئولا فى الهـــند باسم الميجور ايفلين بارنج Major Evelyn Baring(*) فقد كسب شهرة بأنـــه غلـــيظ الطـــبع حيث عرف بين رفاقه بأنه شخص لا يطاق، فما أن جلـــس علـــى كرســـى المفـــوض العـــام فى القاهـــرة وهو يخفى ســـلطاته الدكـــتاتوريـــة تحـــت اللقـــب المتواضـــع: القنصـــل العام، كما يصف ذلك هـــــ. أ. ل. فشـــر H. A. L. وسرعان ما كشف كرومر للجميع وبسرعة أنه ليس بالرجل الهازل، فى بلد قد يمارس فيه قليل من الهزل - أو على الأقل- قلـــيل من التعاطف البسيط - البلسم الشافى للشعور الوطنى المجروح - ففى الشـــرق تســـير الحساســـية المرهفة جنبًا إلى جنبٍ مع كرامة تمتد عبر ثقافة العمر، فالجرح قد يغتفر، أما الإهانة فلا تغتفر أبداً، فبنظرته الباردة كالصقيع وغير المقبولة، وبشاربيه الفظين اللذين يغطيان فمه المحكم، وباعتداد الرجل الفكتورى بنفسه الذى يجعل النفس تضيق به ذرعا فى بلد أجنبى، والذى يبدو فـــيه كرمـــز للهيمـــنة المتغطرسة للغرب النشط الجشع على الشرق المقدس الغـــارق فـــيٍ الفوضـــى وسهل الانقياد. وبالرغم من تجرده من اللباقة، كان كرومر موظفاً أميناً يؤدى كل ما فى طاقته من جهد صعب. ولأنه كان ينتمى

(*) أيفلين بابرنج كان اسم كرومر قبل أن يحصل على اللوردية عام ١٨٩١.

لأســرة معــروفة فى مجال البنوك، فقد تلقى تدريباً فى الحلقة الداخلية للنظام المــالى العــالمى، فبخبرة رجل المال جلس يتعامل مع ما وصفه اللورد ملنر Milner « الســباق لوقــف الإفــلاس » فقــد كان السبب الرئيسى للاحتلال الــبريطانى هــو الــتأكد أن مصــر قــد سددت ديونها، لقد كانت كل النوايا والأهــداف تــتجه نحو إقامة حراسة قضائية عليها ولقد مهدت البراعة التى عــالج بهــا كرومر الموقف المالى السبيل لحدوث معجزة اقتصادية صغيرة، دفعت مصر بعيدا عن الخط الأحمر بالرغم من حدوث الكثير من المناورات الخفــية مــن جانــب الفرنسيين لإعاقة هذا الشفاء، فحتى عقد الاتفاق الودى Entente Cordiale(*) عام ١٩٠٤ كانت السياسة الفرنسية مستعدة للقتال ضد الإنجلــيز لدرجــة أن فرنســا بالرغم من امتلاكها ثلثى الديون إلا أنها كانت مســتعدة لدفع مصر إلى حالة الإفلاس لمجرد أن تنسف الاحتلال البريطانى الــذى كــان مرفوضا بالمرة من جانب باريس لأنه كان يشكل بشكل واضح جرحا أصابت به فرنسا نفسها.

وعلى أى حال اعتدل ميزان المدفوعات مع نهاية عام ١٨٨٦ (وباعتراف الجمــيع أن ذلــك قد تم عن طريق بعض المهارة والحسابات المضادة) وكما عــبر عن ذلك بوضوح جورج يونج George Young لقد بدأت نقاهة شعب كــادح بعد مرض جاء من الخارج. فقد بدأت التجارة تزدهر مرة أخرى، هذا الرواج الذى دعمه الإنجليز بحرابهم هو الذى أتى بأوروبا إلى مصر. فخلال التســعينات مــن القــرن التاسع عشر، أصبح قضاء الشتاء فى القاهرة عمل مســتحب لــذوى اليسار. فقد امتلأت الفنادق الكبرى مثل شبرد ومينا هاوس

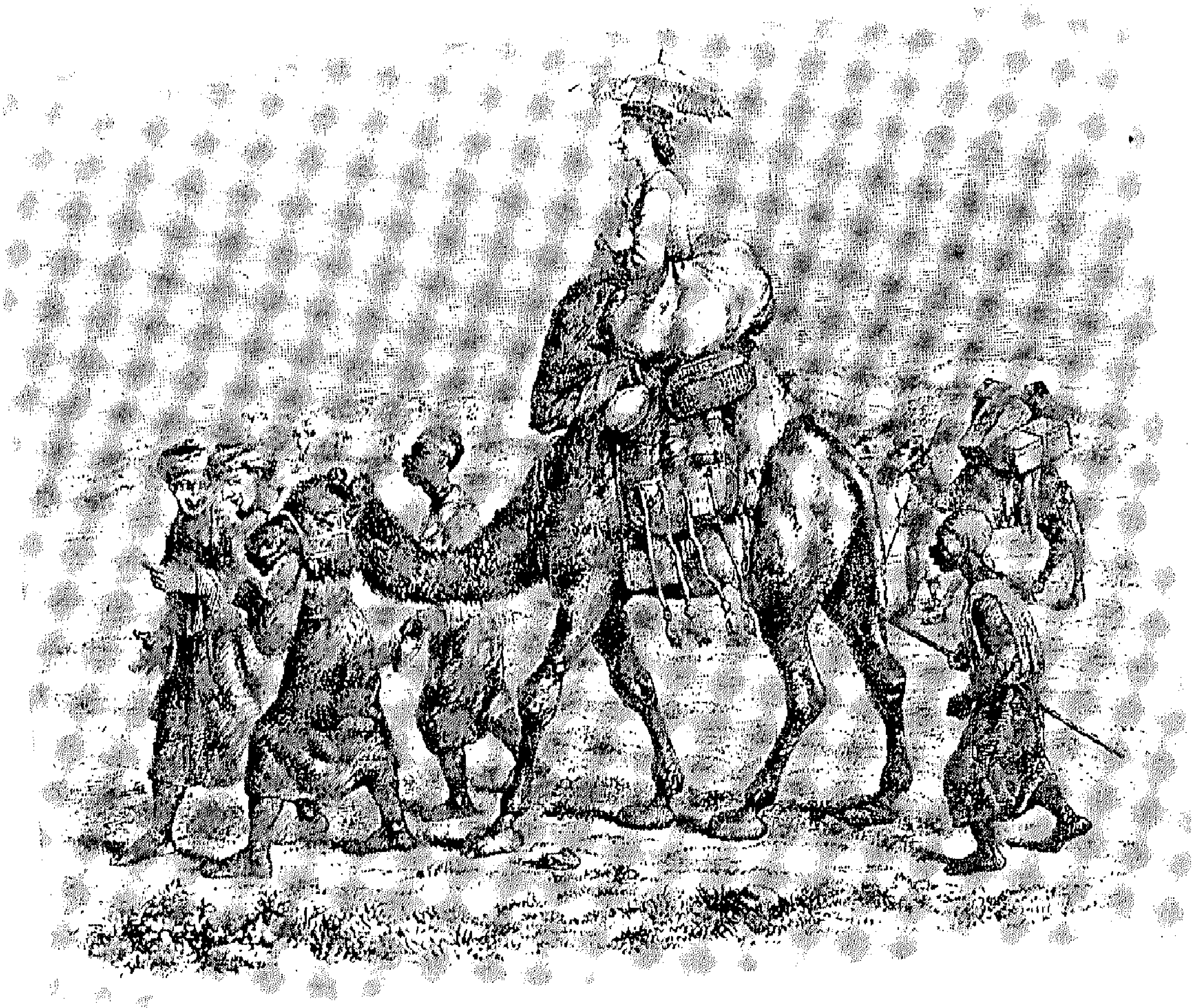
(*) اتفــاق وقــع بيــن فرنسا إنجلترا لوضع نهاية للصراع الاستعمارى بينهما على مدى ثلاثيــن عاماً خاصة حول مصر، فقد أقر هذا الاتفاق اعتراف فرنسا بإدارة بريطانيا لمصــر مقــابل إقرار بريطانيا بادعاءات فرنسا فى المغرب، وعدم تدخل صندوق الدين فى شئون مصر الداخلية أو فرض ديون جديد أو تحديد الإنفاق الحكومى. وقد اعتــبر أنصــار فرنسا من المصريين على رأسهم مصطفى كامل أن توقيع مثل هذا الاتفاق طعنة لهم فى الظهر من جانبها (المترجم).



بدأ تدفــق الســواح البريطانين على مصر لقضاء فصل الشتاء كما بدأ بناء الفنادق على النمط الأوروبى الحديث بدلاً من الخانات المملوكية والعثمانية. وكان فندق شبرد أولى الفنادق التى بناها المستثمرون الإنجليز فى قطاع الســياحة وهذه صورة لقاعة التدخين فى فندق شــبرد (مجموعة مانسيل)

وقصـــر الجزيـــرة (الذى بناه إسماعيل خصيصا ليوجينى) وعشرات الفنادق الأخـــرى بأعضاء الأسر المالكة وصفوة المجتمعات الأوروبية جنبا إلى جنب مـــع عدد من عامة الناس الذين كانوا ينوون الهروب من الشتاء الإنجليزى. فقـــد كـــان مـــن بـــاب المباهاة استئجار فيللا على الجزيرة أو اكتراء عوامة للسكنى على ضفاف النيل، وإذ أراد الشخص السياحة فيمكنه أن ينقله المستر تومـــاس كـــوك Thomas Cook إلـــى مصر العليا فقد كان قد بدأ فى تنظيم رحـــلات إلى أعالى النيل (وبقيامه بهذا العمل فقد كان بالطبع يعيد إحياء تقليد قديـــم. فقد ترك السياح فى العصور الإغريقية والرومانية أثارهم فوق تمثالى ممـــنون فـــى طيـــبة، وفوق الجرانيت المصقول فى أبى سنبل)، ومن ثم فان ضـــيوف المســـتر كـــوك كانوا يتبعون نفس البرنامج الذى اتبعه هيرودوت وإســـترابون، فقد كان فى مقدور أى شخص أن يقضى شهرا أو شهرين، ولم يكن أمامه أجمل منطقة يقضى فيها الشتاء أفضل من أعالى النيل، كما قدمت المعـــابد والمقابـــر إقبالا ممتازا لرحلات الخيول الطويلة أو تناول الطعام فى الصحراء. وعندما يعود (السائح) إلى القاهرة فهناك نادى الخديوى الرياضى الـــذى كان يقع فى الجزيرة والذى كان واحدا من أجمل النوادى الرياضية فى العـــالم. ففيه يستطيع المرء أن يرقص طوال الليل، وعندما يقترب الفجر يبدأ ركـــوب الخيل إلى مينا هاوس حيث يسبح فى الصباح الباكر، يتلو ذلك إفطار شـــهى قـــبل أن يتوجه إلى رحلات الصيد فى الصحراء، وبعد غفوة القيلولة يقضى العصر فى النادى وهو يستعد لاختيار الملبس المناسب للعشاء، ثم يبدأ الـــدورة من جديد،وبالطبع كل هذا الإجراء المحبب لم يضف شيئا يذكر لثراء مصر، أو أفاد المصريين الذين كانوا غالبا ما يهملون، أو ببساطة يتجاهلون. وبالرغم من أن قدرا كبيرا من الأموال كان ينفق خلال الموسم. إلا أن أغلبه كـــان يعـــود إلى أوروبا فى شكل أرباح الوكالات السياحية وشركات البواخر والفـــنادق الـــتى يديرها رأس المال العالمى. فقد كانت الفنادق تكاد أن تكون مليـــئة بالمديرين السويسريين، والجرسونات الألمان، أما الأموال التى كانت تـــنفق فـــى حوانيـــت القاهرة الراقية، فكانت تذهب إلى جيوب أصحابها من اليونانيين والإيطاليين، والفرنسيين، وليس للمصريين.

وبـــالفعل فإن أغلب الزوار الذين كانوا يقضون الشتاء فى القاهرة يتخيلون أن مصـــر مـــن ممـــتلكات بريطانـــيا العظمى حيث كان اللورد كرومر فى



سـائحة بريطانية تركب الجمل ومن أمامهـا وحولهـا الترجمانات وسائس الجمل، لقد بدأت السياحة إلى مصر تدر دخلاً طيبـاً لكن الثـروة كانـت تذهب إلى جيـوب الأجانب الأوروبيين من أصحاب الشركات السياحية، ولم يذهب إلى المصريين إلى النذر القليل

القاهــرة يقــوم بــدور كــرمويل(*) (فــى لندن)، وفقد كان الزى العسكرى الــبريطانى يظهــر فــى كل مكان. ومن الصعب أن نلومهم على التفكير فى ذلــك. وكــان يعلمــون أنه يوجد فى مكان ما - فى الخلفية الخديوى، وكان بالكــاد يــبدو تابعــا لإدارة شكلية من مولاه فى تركيا، إلا أن الخديوى كان حاكمــا ذا سيادة على دولة مستقلة، من الناحية الرسمية كان هذا هو الوضع. وكانت الهوايتهول على علم واضح بذلك. فبريطانيا من وجهة النظر الرسمية قــد قامــت بقصــف الإسكندرية لمجرد حماية حياة الأوروبيين الذين كانت تهددهــم الغوغــاء العسكرية، وأنها أرسلت اللورد وولسلى Woolsely على رأس جيش لاستعادة سلطة الخديوى التى أضعفتها ثورة البكباشية المتمردين، وأنهــا منذ تلك اللحظة تحافظ وتدعم سلطة الخديوى. أما الوحدات التى كانت تعســكر فــى القلعة وفى قصر الأسماعيلية على النيل، فلم تكن حقيقة حامية بريطانــية، بل بقايا جيش احتلال لمساعدة الخديوى للحفاظ على النظام العام. وفــى نظــر لندن فان مسألة الانسحاب بعد ثورة عرابى سوف تكون بمثابة ترك مصر لتسلق نفسها فى عصارتها، وقد كانت الهوايتهول على ثقة من أن ذلك سوف يؤدى إلى المزيد من اندلاع حركات التمرد والعصيان والثورات، ثــم يــتلوها تدخــل أوروبى من جهة أو أخرى. ولهذا السبب فان إنجلترا لا ضــمت مصــر إلــيها ولا جلت عنها، وكما شرح اللورد كرومر أن الرجل الانجلــو - سكســونى يؤكــد عبقريته النظرية عن طريق ابتكار نظام - قد يــبدو- غــير فعال طبقا لكل قوانين الفكر السياسى، فبينما كان لا يتدخل من

(*) كــرمويل Cromwell (١٤٨٥ - ١٥٤٠) سياســى إنجليزى ظهر فى عصر الإصلاح المــبكر. كان فى البداية رجلاً عصاميا عمل تاجراً ومرابيًا ومحاميًا، ثم أصبح عضواً فــى البرلمان. لفتت مهارته الملك هنرى الثامن فأوكل إليه شئون المملكة حتى أضحى الحــاكم بأمره خلال السنوات السبع (١٥٣٣ - ١٥٤٠). كان ثوريا ومصلحاً اجتماعياً وكان من المشجعين على فصل الكنيسة الإنجليزية عن كنيسة روما الكاثوليكية. انقلب علــيه الملك هنرى الثامن وأعداؤه المحافظون فاعدم دون محاكمة فى ٢٨ يوليو عام ١٥٤٠ (المترجم).

الناحـية الرسمية فى حرية الحكومة المصرية، ولكن من الناحية الفعلية كان مـتأكدا أن الخديوى والوزراء المصريين ينفذون بالضبط ما يطلبه منهم. كما أنـه كما يبدو لم يجد شيئا غريبا حول احتلال جزء من الإمبراطورية التركية عـن طريق القوات البريطانية، وفى نفس الوقت يتجنب بحرص شديد التعدى علـى الحقـوق الشـرعية للسـلطان، ففى نظر اللورد كرومر أن مثل ذلك التصـرف هـو الطريقة العملية الاستعمارية المعقولة (مع الغياب الكلى لأى خطة محددة) التى تميز أغلب السياسة الاستعمارية البريطانية.

بـالفعل لـم يكـن الضباط البريطانيون فى وحدات الجيش المصرى وفى وزارة الحـرب المصرية فى الخدمة البريطانية بتاتا، بل كانوا معارين مؤقتا للخديـوى لمسـاعدته فى تدريب وفرض النظام على جيشه، وبنفس الطريقة كـان الموظفـون المدنـيون البريطانيون يخدمون تحت إمرة الخديوى لتقديم العـون فى مسالك إدارته وتصريف شئونه المالية. فقد كانوا موظفين يتلقون رواتبهم من الخديوى وليس من إنجلترا. ولهذا بقى الخديوى اسميا القوة العليا فـى الدولـة فكل قرار إدارى أو مادة تشريعية كان من المفروض أن تصدر منه.

وباختصـار إذا مـا اسـتخدمنا كلمـات كرومر نفسه إن البريطانيين لا يحكمـون مصر، إنما فقط يحكمون حكام مصر وكانت وجهة نظر صريحة وواضـحة فقد كان لكل إدارة وزير مصرى على رأسها. وهؤلاء المسئولون لا يـتلقون رواتبهم فحسب، بل بدلات وظائفهم. فقد يجد الزائر الوزير جالسا فـى مكتـب كبير يحيط به السكرتارية والحجاب، وبعد أن يحتسى فنجانا من القهـوة مع الباشا، يؤخذ إلى حجرة صغيرة يجلس فيها رجل إنجليزى يعتلى وجهـه الإرهـاق علـى مكتب ملىء بالملفات، ويعطى أوامر عاجلة للكتبة والسعادة. هذا الرجل الإنجليزى هو المستشار وهو من الناحية الاسمية اقل مرتـبة من الوزير، معين لمساعدته فى عمله، ويقدم نصائحه المفيدة بقدر ما يـرى ذلك ضروريا، وهو لا يأمر » أبدا بل قد يقول فقط: أظن أنه من باب النصـح أن يصدر فخامتكم هذا الأمر » أو نما إلى علمى أن كيت وكيت قد حـدث وأنا أرجو فخامتكم أن يعتقد أنه من الأصلح أن تفعل كذا وكذا لإعادة

الأمـــور إلـــى مجـــراها الصــــحيح أمـــا إذا فشل فخامته فى الاستجابة فان المستشـــار بالطـــبع ســـوف ينقل الأمر إلى دار المعتمدية، والتى سوف تقوم بدورها على الفوز بممارسة الضغط على الخديوى، لذا لم يكن من المستغرب أن يـــريح الـــوزراء المصـــريون أنفسهم بتدخين السجائر، وقراءة الروايات الفرنســـية فـــى مكاتبهم الرسمية اللهم فى بعض الأحيان كانوا يكلفون أنفسهم عناء وضع توقيعاتهم على الوثائق التى أعدها المستشار الإنجليزى حتى دون أن يقرءوها.

هـــذه الرواية المحكمة التى يمكن مقارنتها بحكاية عن مهارة الحاج نصر الدين الذى حمل حماره فوق ظهره ليعبر به النهر حتى لا يلقيه (الحمار) من فـــوق ظهـــره إلى الماء، قد نسجت (فى مصر) إلى حد كبير لتجنب الصدام المباشـــر مـــع تركـــيا وكذلك من أجل الظهور بمظهر الرجل الطيب Bella Figura أمـــام القـــوى العظمـــى، ولكـــنها قلما تحسب حسابها لكسب رضا المصـــريين أو أقـــل مـــا يقال لكسب رضا الخديوى. وفى عام ١٨٩٢ مات توفـــيق بعد أن عاش خنوعا حتى النهاية، وخلفه ابنه عباس حلمى الذى تلقى تعلـــيمه فـــى مـــدارس فيينا Vienna ليؤمن بالسلطات الإلهية للأمراء، على عـــرش صـــورى وهـــو فـــى الثامنة عشرة من عمره، وعلى الفور اصطدم بالمعـــتمد البريطانى، وقد علق اللورد كرومر فى خطاب بعث به إلى اللورد سالســـبرى Salisbury بعـــد مـــا يقرب من شهر بعد تولى عباس يقول: إن الخديـــوى على وشك أن يصبح مصريا خالصا »، ولم يدخر وقته فى توجيه الإهانة العلنية للخديوى الشاب، فالنسبة لرجل فى عقلية كرومر كما يقول: ولفـــريد بلنـــت فـــإن معرفـــته الحقيقية عن الشرق ضئيلة لا تتعدى ما قد يتســـرب إلـــيه من خلال الوثائق الرسمية القابعة فوق مكتبه، ولذا فإن قص أجـــنحة الخديوى بالنسبة له يسبق فى الأهمية تدعيم الصداقة معه، حتى أن الســـنوات المتبقـــية من السياسة الكرومرية، أنزلت من قدر عباس إلى مدبر مكـــائد، يشـــعر بالمرارة إزاء السلطان (الذى كان يفكر فى محاربة إنجلترا) ويدبـــر المؤامرات سرا مع الحركات المعادية للمسيحية فى مراكش ومقدونيا وقد فعل السير الدون جورست Eldon Gorst الذى تبع كرومر فى المعتمدية

كــل مـــا فى وسعه لتضييق هوة الخلاف، وبالرغم من أنه قد نجح فى إقامة صـــداقة وطـــيدة مـــع الخديوى، إلا أنه لم يستطع أن يمحو الشعور المعادى لبريطانيا الذى كان ضاربا فى الأعماق والذى أيقظه كرومر من رقاده(١٧).

لقـــد بـــدأت نفس الأساليب الأوتوقراطية تثير الكراهية عند المصريين أنفسهم، فمـــن العبـــث أن يـــتوقع المحـــتلون أن يكونوا محبوبين فهم يظنون أن وظائفهم عمـــل بـــناء، أو أن يعتقد فيلق السلام Peace Corps أن عملهم عمل هام وخطير وإلـــى حـــد مـــا قليل الراتب، وهو يتفق كثيرا مع أجل الصالح العام، ولكنهم لا ينـــتظرون الشـــكر علـــيه، لكن يتوجب علينا أن نتذكر أنه خلال السنوات الأولى للحكـــم الـــبريطانى لـــم يكن لدى رجل الشارع شيء آخر غير الشعور بالعرفان للإنجلـــيز لأنـــه كـــان يـــتذكر حالة البؤس التى كان يعيشها فى عهد إسماعيل، وكـــبار الســـن مـــن الفلاحيـــن لم ينسوا الكرباج، ولا الاستدعاء لأعمال السخرة بمجـــرد ســـماع صـــفارة، وأن الـــذى يتلكأ ويصل متأخرا يعاقب بعشرين جلدة، والآن نســـيت جـــراح مـــثل هذا الظلم، كما أن الأمور أصبحت أحسن مما كانت علـــيه، وأصـــبح الـــرخاء علـــى مرمى البصر ولكن سرعان ما تبين لهم أن أى عصـــر ذهـــبى ســـوف يكـــون فـــى المقام الأول للأوروبيين ومن يسيرون فى ركـــابهم وقـــد يكـــون هـــناك مكان فى عربة الحظ للمصريين أنفسهم، بل على العكـــس أصـــبح الـــتمايز الاجـــتماعى أكـــثر اتساعا، فالأغنياء يزدادون غنى، «والمصـــري أفـــندى يـــدرج فى موقع مواطن من الدرجة الثانية أو حتى الثالثة، والأكـــثر مـــن ذلك بالرغم من التأكيدات المتكررة بأن الاحتلال البريطاني مجرد مســـألة مؤقـــتة (وبحساب حذر صدر فى عام ١٨٨٣ قدره بأربعين عاما) إلا أن الشـــكوك كانـــت تـــتزايد أن اللورد فى مكتبه داخل المعتمدية كان يخطط بشكل منظم لبقاء البريطانيين إلى الأبد، وتحويل مصر إلى هند صغيرة(١٨).

بدأت الحركة الوطنية فى أول الأمر فى الخفاء، فى المقاهى الواقعة حول الأزهر، ثم بعد أن اكتسبت الشجاعة بعد أن أحست بتأييد الشعب ووقوفه من ورائهـــا، بدأ صوتها يسمع مرة أخرى بعد أن كانت خامدة لمدة عشرين سنة تقريـــبا فقد بدأ مصطفى كامل من خلال جريدة اللواء يعبر عن مشاعر جيل جديد، ويلتمس أيضاً التأييد فى فرنسا.

وإذا مـــا قـــرأنا كراســـاته اليوم، فقد تبدو فى لهجتها معتدلة إلى حد كبير وتضرب على وتر حساس بخصوص موضوعات كانت قد قبلت كأمور مسلم بهـــا مـــنذ زمـــن طويل. فمثلا يعلن فى كراسته التى تحمل عنوان: الخطر الإنجليزى : نتائج احتلال مصر بواسطة إنجلترا »

le peril Anglais: consequences de l' occupatien de l' Egypte par l'Angleterre.

والـــتى نشرت فى باريس عام ١٨٩٩. ورد فيها أن الناس تتجاهل الأهمية الحقيقـــية لمصـــر: موقعهـــا الجغرافى، وأن القوى التى قد تصبح سيدة بلا مـــنازع على وادى النيل سوف تصبح من الناحية الفعلية صاحبة السيادة على أفريقـــيا... وعلـــى الأراضى المقدسة وعلى البحر الأحمر. إن قناة السويس جـــزء لا يتجزأ من مصر وتهيمن على الطريق إلى الهند والصين وأستراليا. إن إنجلترا تسيطر الآن على البحر المتوسط، وأنه لمن الأمور الحيوية للقوى الأوروبـــية الأخرى ألا تتركها تسيطر على طرق التجارة فى إفريقيا ومن ثم فـــان الاحـــتلال الـــبريطانى لمصـــر.. يمثل خطرا يهدد القوى الأخرى فى أوروبا».

ولكـــن بالنســـبة لكرومر كانت تلك هى الفوضى بعينها، وتفاهات توبيخية خطـــيرة تثبت أن المصريين لا يمكن الثقة بهم، وأن بعثة بريطانيا فى مصر ليس فى مقدرتها أن تنتهى فى المستقبل المنظور، وبالمثل اشترطت أولويات فـــيما يخـــتص بالانفاق العام، فمثلاً بينما كان مستعدا للموافقة على عدد من المشـــروعات لـــتطوير نظام الزراعة بما فى ذلك بناء السد الجديد الكبير فى أسوان، والذى كان من الناحية المادية سيطور إنتاج البلاد الزراعى(١٩)، وقد خصص أقل ما يمكن تخصيصه لشئون التعليم، بناء على مبدئه الذى يفترض بـــأن المصـــريين ليس فى مقدرتهم الالتحاق بالمدارس الخاصة على النظام الإنجلـــيزى l Anglais ومن ثم فمن الأفضل لهم أن يبقوا ملازمين للأرض حيـــث يكـــون فـــى استطاعتهم إنتاج المواد الخام المفيدة لمصانع النسيج فى مانشســـتر. إن فشـــل كرومر فى الواقع - كان على المستوى الإنسانى ذلك

المستوى الذى من أجله بدا أن عرابى المنزعج يكافح - والذى يعنى أن أى واحد من الشرق سوف يتفهم عندما يعطى الأهمية اللازمة لبعض الأشياء التى يعطيها المصرى أهمية قصوى مثل ديانته وأسرته، قريته، وطنه، أهله، كرامته، الشخصية، كل هذه الأمور التى لم يكن كرومر يهملها إلى حد ما فحسب بل تجاهلها تماما. وبالرغم من أنه حكم مصر لخمس وعشرين سنة، وهى فترة مدة حكم أى فرعون، إلا أن كرومر نادراً ما جرؤ على الخروج من دار المعتمدية للقيام بزيارة رسمية للقصر إلا لتوبيخ الخديوى حول بعض الأمور، أو لترأس سباق الخيل فى نادى الجزيرة، إنما كان يحكم من مكتبه طبقاً لما تمليه عليه أوراق الميزانية، وليس من المستبعد أنه فى سريرة نفسه لم يفكر على الإطلاق فى المصريين كشعب.

وأخيراً كشفت الأضواء عن هذه الهوة بين فكر كرومر وفكر المصريين عندما وقعت حادثة دنشواى. ففى أحد أيام شهر يونيو الحارة عام ١٩٠٦ خرج بعض الضباط الإنجليز للصيد، غير أن جمعاً غفيراً من القرويين الغاضبين أحاط بهم معترضين على صيد الحمام لأنه يمثل طعاما غاية فى الأهمية بالنسبة لهم فى وجباتهم الهزيلة، وأثناء الصخب انطلقت رصاصة من إحدى البنادق أدت إلى إصابة امرأة بجرح، ومن ثم فر الضباط طالبين النجاة، وسقط أحدهم ميتا بعد أن تلقى ضربة شمس، بينما أمسك جنود وحدة الضابط فتى قروياً لا شأن له بالأمر كله، بل أنه جاء لتقديم المساعدة للضابط، وانهالوا عليه ضربا بالعصى حتى مات. عندئذ شعرت الجاليات الاوروبية فى القاهرة بالذعر متصورين أن مذبحة عامة على وشك الحدوث.

وأدانت محكمة خاصة شكلت من ثلاثة مسئولين بريطانيين واثنين من المصريين، أربعة من القرويين وحكمت عليهم بالإعدام، كما حكمت على ثلاثة منهم بالجلد خمسين جلدة لكل واحد، وأدانت عدداً آخر وحكمت عليهم بالسجن مع الأشغال الشاقة لفترة طويلة. وصدق كرومر على الأحكام. وغلت مصر بالكراهية. وضاعت بذلك إنجازاته الإيجابية لعقدين من الزمن. ومنذ تلك اللحظة أصبح غالبية المصريين متعاطفين مع الوطنيين، وشعروا أنهم أنفسهم محاربون يقاومون عدواً مشتركاً. بالرغم من ذلك لم يشعر

كرومـــر بالفزع ففى خطاب الوداع الذى ألقاه فى العام التالى للحادث(*) عدد فـــيه مـــزايا الحكم البريطانى الذى قدر لمصر أن تهنأ به، وأشار إلى أنصار الحـــركة الوطنية باحتقار معلنا: إننى سأستنكر أى تغيير - ولو كان طفيفاً - أو أى بدايـــة جديدة تتسم بالعنف. والأكثر خصوصاً سوف أحث على أن هذه الحـــركة غـــير الشـــرعية والمصـــطنعة - والـــتى تدعو إلى تطور سريع للمؤسسات البرلمانية - لكي تعامل كما تستحقه.. ودعونى أضيف أيها السادة أنها حقاً تستحق قدراً ضئيلاً من الاهتمام.

وفى اليوم التالى سار موكبه عبر شوارع خالية إلى المحطة، وفى إنجلترا تقـــاعد، حيـــث قضى وقته على نحو يميز شخصيته معارضاً لحركة تحرير المـــرأة. وجاء تعليق مصر على خروج آخر الأوتوقراط الأجانب فى أبيات الشاعر أحمد شوقى:

أيامكـــم أم عهـــد إســـماعيلا	**أم أنت فرعون تســـوس النيلا**
أم حاكم فى أرض مصر بأمره	**لا سائـــــلا أبدا ولا مســـئولا**
يا مالكـــا رق الرقاب ببأســـه	**هل اتخذت إلى القلوب ســـبيلا**
لما رحلت عن البـــلاد تشهدت	**فكأنك الداء العـــياء رحيـــــلا**
أوســـعتنا يوم الوداع إهانـــة	**أدب لعمرك لا يصيب مثيلا(**)**

(*) هـــذا الحفـــل أقامـــه مصطفى باشا فهى رئيس الوزراء - التركى الأصل - فى دار الأوبـــرا لـــتوديع كرومـــر، وخطـــب يثنى عليه لكن كرومر ألقى كلمة أهان فيها المصـــريين وأهان الخديوى عباس حلمى الثانى فى وجود الأمير حسين كامل الذى أصـــبح ســـلطاناً علـــى مصـــر فـــيما بعد، ولم يراع كرومر مشاعر الحاضرين. (المترجم).

(**) وتنتهى القصيدة بالبيت التالى:

من ســـب دين محمـــد فمحمـــد	متمكـــن عنـــد الإلـــه رســـولا



صــورة للورد كرومر الحاكم الفعلى لمصــر عام ١٨٨٤
والصورة تعبر عن الصرامة والقسوة وكراهية المصريين
وقد خلفه السير إلدون جورست عام ١٩٠٧ وكان لا يقل
عنه قســوة ولكن يرتدى قفاز من حريــر (صالة عرض
اللوحات الوطنية بلندن National Portrait Gallery)

لا شـــيء يصــور التغيير بعيداً عن الكرومرية أفضل من حفل الاستقبال الـــذى أقامته الدولة فى صيف عام ١٩٠٧. فسلطة الخديوى قد تكون وهنت ولكـــن، الأبهة الملكية استمرت فى بذخها بنفس الدرجة التى كانت عليها فى أى قصـــر مـــن قصور أوروبا، فقد اصطف أعضاء السلك الدبلوماسى وقد ارتـــدوا بـــدلات التشريفة ذات الطراز الرسمى وقد غطى وجوههم قليل من العـــرق وهـــم يمـــرون ببطىء فى طابور طويلٍ أمام عرش الخديوى حيث ينحنون لجلالته. وكان أعضاء الوفود يتقدمون طبقاً لأقدمية التعيين، ففى أول الصف وقف وكيل شركة بواخر هولندية متقدم فى السن ممثلاً لملكة هولندا، يليه الآخرون حسب ترتيبهم: المندوب الأسبانى، ثم النمسوى، ثم الروسى، ثم الألمـــانى، بعدهـــا يجـــيء ما تبقى من ممثلى الدول الصغرى التى كانت لها علاقـــات دبلوماســـية، ويكـــاد يأتى فى مؤخرة الجميع رجل إنجليزى قصير القامـــة إلى حد ما يضع نظارة مستديرة ذهبية، ويبدو فى هيئة لا تلفت النظر بقـــدر الإمكـــان، يـــرتدى معطفاً مزرراً وسروالاً مزين بشريط ذهبى، وكان يتقدمه المندوب السويسرى والبلجيكى، ولم يكن خلفه سوى رجل سويدى ذات مكانـــة أقـــل منه بكثير، وقد يظن الذى لا يعرفه أنه شخص غير ذى أهمية، لكـــن هذا الشخص كان السير الدون جورست Sir Eldon Gorst الذى خلف اللـــورد كرومـــر – الحاكم الفعلى لمصر، وله من السلطة والقوة التى تفوق سلطة الخديوى وكل وزرائه مجتمعين.

كـــان جورســـت من أنصار الاتصال غير الرسمى والإقناع الناعم، فبينما كـــان كرومـــر بقبعـــته العالية يجوب شوارع القاهرة فى عربته التى يتقدمها راكـــبو الجـــياد والسياس يجرون من خلفه لاهثين، نجد خليفته يستخدم سيارة

وذلـــك رداً علـــى تقرير كتبه كرومر عام ١٩٠٦ طعن فيه فى الدين الإسلامى زاعماً أنه ديـــن لا يصـــلح لهـــذا العصـــر، كما انتقد شوقى فى هذه القصيدة سياسة اللورد كرومر الاستعمارية فى إدخال لعبة كرة القدم فى المدارس التى الهبت روح الصراع والفرقة بين صفوف جبهة الطلاب وذلك على حساب تلقى العلم: فجاء قوله:

هل من نداك على المدارس أنها   تذر العلوم وتأخذ الفوتبولاً(المترجم)

مــن ماركـــة وولسلى Woolsely ذات مقعدين، وهى أول مجموعة سيارات اســتوردتها شــركة القاهرة للسيارات، وقد فتح قميصه، ويثرثر بالعامية مع المــارة، غير أن هذا التغيير فى الاقتراب الذى جاء به صاحبه لم يفصح عن تغيير فى السياسة البريطانية.

فخــيوط السياســة ظلــت كما كانت من قبل، إنما الذى تغير ببساطة هو الغلاف الخارجى.

والحــق يقــال، كــاد أســلوب السير إلدون الناعم الذى أدهش حتى غلاة الوطنييــن وأثــار غضــب الجالية البريطانية – أن ينجح فى إخماد المشاعر المعاديــة للبريطانييــن فى مصر. ففى غضون فترة قصيرة أقام صداقة مع الخديوى، كما أرضى الطبقة المثقفة بتبنيه مشروع الجامعة المصرية الجديدة (والــتى كــان كرومــر قد اعترض عليه فى العام السابق) كما أطلق سراح ســجناء دنشــواى، وقلل من درجة غليان الوطنيين باستقطاب أكثرهم نفوذاً وتعييــنهم فــى مناصب عامة. وبتحريض منه تولى رئاسة الوزارة مصرى خــالص، ولكــن بسبب حادث مؤسف ساهم ذلك أكثر من أى عامل آخر فى إفســاد تجربــته الشــجاعة فى المصالحة. فقد كان رؤساء الوزراء السابقون خــلال فترة الاحتلال جميعا من عنصر أجنبى: شريف باشا ومصطفى باشا فهمــى كانــا أتراك، بينما كان نوبار باشا أرمنى، ورياض باشا يهودى، غير أن بطرس باشا غالى وهو شخصية عامة كبيرة فى البلاد كان قبطياً. والأكثر مــن ذلــك كــان الــرجل الذى ترأس محكمة دنشواى. ومن ثم عندما أشار جورســت إلــى بطرس: كأول مصرى حقيقى وصل إلى قمة المناصب فى الــبلاد كانت تلك العبارة من وجهة نظر المسلمين عبارة مثيرة للشعور أكثر مــنها دقــيقة، وبذلك بدا كما لو كان يدق إسفيناً بين المسلمين ذوى المشاعر الوطنــية وبيــن المتعاونين معهم من الأقباط. وبالنسبة للوطنيين الذين كانوا يــتحرقون لأحــداث اختراق مثلما فعل شباب تركيا الفتاة، وكان ذلك بمثابة لطمــة علــى الوجــه. وعــندما أبدى بطرس رغبته فى تعزيز المصالح الأوروبــية بالموافقــة على اقتراح لمد فترة امتياز شركة قناة السويس لفترة أطــول مقــابل زيــادة نسبة من دخلها ثارت الصحف الوطنية والرأى العام

المصرى عن بكرة أبيه، ولم يمر يومان على هذا حتى اغتيل بطرس.

وجـاء الآن الـدور على الرأى العام الأوروبى ليغلى غضباً، فمن خلال محاولـته للسماح للمصريين بإبداء رأيهم فى شئونهم، واستمراره فى استبدال الموظفيـن الرسـميين البريطانيين بالأقباط، فقد شعروا أن جورست قد شجع علـى إحـداث موقـف خطير، فقد أصبحت حياة الأوروبيين وممتلكاتهم فى خطـر حـتى ثيودور روزفلت Theodore Roosevelt الذى ضم صوته إلى صـوت الآخريـن عـندما كـان يقضى أجازته فى مصر فقد قال متذمرا: احكمـوا أو اخرجوا Govern or Get out، ولكن فى ذلك الوقت كان السير إلـدون جورست مريضاً فى المستشفى يعانى سكرات الموت من السرطان. وقلـيل من الناس أدركوا فى ذلك الوقت مدى قيمة ما كان يحاول هذا الرجل القليل الحجم أن يعمله لمصر، ولذا فان الخديوى نفسه تحمل عناء السفر إلى إنجلـترا لكى يودع صديقه، وقد عدد السير رولاند ستورز Roland Storrs إنجازاته وهو يؤبنه: لقد خاض حربه وحيث رأى العالم فشله كان قد نجح.

He had Fought his fight and where the world saw his failure , he had succeded.(*)

وعلى أى حال كانت وجهة نظر الهوايتهول أن زمن البراعة قد ولى، وأن مصـر فى حاجة لعودة الرجل الصارم Gauleiter. وفى نوفمبر عام ١٩١٠ خـرج اللـورد كتشنر « أوف خرطوم » من محطة القاهرة بقامته الفارعة، المتصـلبة، الوضاءة بنفس العينين الزرقاويين الشاحبتين، وشاربيه المرعبين، اللتين كانتا فيما بعد تطلان من ملصقات التجنيد. وكانت فخامة وأبهة موكبه، وموكـب حراسه اللامع المتلألئ، « والسياس » فى ردائهم الأحمر والذهبى كلهـا ضـمن حسـاباته لإغراء أى مصرى وطنى أو أيا كان بأن رمسيس

(*) وهـو لقـبه اللورديـة الذى جعل عليه بعد أن قاد حملة إسقاط الدولة المصرية إعادة احتلال الخرطوم عام ١٨٩٨م (المراجع).

والإسكندر ونابليون مجتمعين جميعا فى شخص رجل واحد وأن هذا الرجل قد وصل. وربما تخيل ضابط الألغام السابق أن ذلك قد حدث بالفعل. ومن الناحية الشخصية كان يسعى من أجل الهند فمظاهر نائب الحاكم التى فرضها على دار المعتمد البريطانى، والتى اندفعت فجأة على عجل لإعداد البزات القرمزية، وطاقم المائدة الذهبى، وقاعة الرقص الجديدة، ربما كانت من أجل تعويضه عن شعوره باليأس لخداعه بتعيينه فى مصر.

وفى صبيحة يوم وصوله، تصادف إعلان إيطاليا الحرب على تركيا، ولأن ما تبقى من الجيش المصرى كان لا يزال من الناحية الرسمية تحت سيادة السلطان والذى كان من المتوقع أن يجعله تحت إمرته للقيام بعمليات ضد الإيطاليين الذين كانوا يقومون بغزو طرابلس، لكن أوضح الأمر على الفور أن مصر بالرغم من أنها لا تزال تحتفظ بالفكرة الخيالية بأنها من الناحية القانونية de Jure جزءاً من الإمبراطورية العثمانية. لكن البلاد من ناحية الأمر الواقع de facto كانت أقرب إلى أن تكون جزءاً من الإمبراطورية البريطانية.

وللسبب نفسه، صدر سيل من المراسيم: مثل قانون التآمر الإجرامى، وقانون الرقابة على الصحف، وقانون النظام فى المدارس وكانت إنذاراً واضحاً لغلاة الوطنيين عن الأسلوب الذى ينوى المستبد الجديد تناول أى مشكلة من خلاله، وخلال بضعة أيام وجد الوطنيون البارزون أنفسهم يلقون فى المعتقلات لأقل سبب واه بمقتضى قانون النفى (وهذا القانون قصد به أصلاً التعامل مع قطاع الطرق) فمثلا نفى زعيمهم فريد بك - لأنه كتب بضعة سطور كمقدمة لديوان شعر وطنى، وحكم عليه بالسجن لفترة قاسية، بينما تمت مطاردة محرر مجلة أدبية لأنها تحدثت بطريقة خارجة عن الحدود وهو بعيد فى القسطنطينية، لكن كتشنر أعاده ليقدمه للمحاكمة، حتى حال الوطنيين المتعاونين لم يكن أحسن حالاً، فقد طرد سعد زغلول من منصبه، كما قدم الصوفانى بك للمحاكمة، وهو عضو بارز معتدل فى المجلس الوطنى لأنه أصر على الدستور، ولا حتى الخديوى منح مساحة أكبر من حرية التصرف، إذ لم يكن هناك مكان فى مصر يوجد فيه رئيسان فى وقت

واحـــد. ولمـــا أدرك الوطنـــيون ذلك خافوا على أنفسهم، ولجأوا إلى العمل السـرى، بيـنما حـط مـن شـأن عباس حلمى حتى أصبح يشغل نفسه فى مضاربات تجارية مشبوهة، ويدخل فى جدل مع العلماء لكى يعترفوا بشرعية زواجـه مـن زوجته الجديدة التى كان كل فرد فى القاهرة يعرف أنها بدأت حياتها فى إحدى النوادى الليلية فى فيينا.

وحـتى كتشـنر سرعان ما تبين له أن سياسة العودة إلى أسلوب السياسة «الكرومـرية شـديدة القسوة، وإلى تعنت الدولة البوليسية، ليس سوى طريقة سـلبية للـتعامل مع الموقف فى مصر. فحاول أن يوازن بين قسوة تصرفاته فى بداية عهده ببذل مجهودات إلى حد ما لتحسين أوضاع الفلاحين، لأن حبه الصـادق لأرض مصـر قدم له فى النهاية فرصة عمره. فمنها برز نجمه – مـثل محمد على – من الغموض إلى عالم الشهرة، بوصفه كتـشـنر أوف خـرطوم (وهذا الموضوع سوف نعالجه فى الفصل الخاص بالسودان)، وبدا مثل محمد على كما لو كان قد تفهم الطريقة التى يعمل بها العقل المصرى.

ولأن كتشـنر كـان يمـتلك إلى جانب قدرته العظيمة على التنظيم مسحة مسـرحية سـاعدته على تبين مدى الأهمية التى يقدرونها للنجاح فى الشرق لقـياس الشخصية، فبينما كان كرومر وهو يقبض علي كل شئ يختفى وراء أسـوار الوكالـة البريطانية، وكان كتشز شخصاً بارزاً فى مقدرة أى أحد أن يـراه. ويقـول جـورج يونج George Young لقد طور كثيراً فى الأقاليم، فكـان يستقبل الالتماسات ويرد عليها باللهجة العامية مع تباسط الاوتوقراطى الشـرقى، وقـد تـبلورت عقليـته إلـى مزيج محير من إصدار القرارات الاسـتبدادية، والنفاق الدبلوماسى، الذى هو أمر غريب على أمراء الشرق. لقـد كانـت لغته العاميه أحياناً غير مفهومه، ولكنه كان يعرف كيف يستحوذ علـى مشـاعر مستمعيه، فلقد أخبر شيخ تقدمت به السنون السير أرثرفيجال Arthar Weigall. أنـه وضـع كلتا يديه على كتفى وقال له: ألست أنا مثال أبيك؟ هل يمكن للأب أن ينسى أبناءه؟

فـى كثير من الأحوال كان يبدو طيباً مثل كلماته، فقانون الأفدنة الخمسة

الـذى سنه والذى بمقتضاه أصبح من المخالف أن يستحوذ الفرد على مساحة مـن الأرض الزراعية تقل عن خمسة أفدنة داخل زمام قريته(*)، إلى جانب تأسيسه البنك الزراعى الذى أنقذ الفلاحين من براثن المرابين وحقق نوعاً من الاطمئـنان لأول مـرة فـى حياة المزارعين، كما تأسست وزارة للزراعة، وبـدأت مشـاريع عديـدة للصـرف والرى، هيأت للقطن بالذات أن تتوسع زراعـته. إن مثل هذه الخطوات الأولية إلى جانب صدور دستور جديد عام ١٩١٣ والـذى بمقتضاه منحت البلديات المحلية لأول مرة بعضاً من السلطة، وتأسس المجلس التشريعى الجديد. كل ذلك جعل كثير من المصريين يعبرون عـن تقديرهم لنظام حكم كتشنر بالرغم من القسوة التى اتصف بها. إنه لأمر محـير كـيف كتشـنر الذى كان فى حياته الخاصة سىء السمعة لكونه نكد المـزاج، شديد الوقاحة بدرجة لا تطاق لكل من حوله خاصة إذا ما افرط فى الشـراب - كـيف تمكن بطريقته ثقيلة الوطأة أن يقدم نفسه للمصريين بهذا الـنجاح حتى أن الحرب عندما اندلعت عام ١٩١٤ كانت العلاقات بين مصر وبريطانـيا على خير ما يرام. وأفضل بكثير مما كانت عليه فى أى وقت منذ الاحتلال.

(*) مـنع هـذا القـانون رهن الأراضى للملاك الذين يحوزون على خمسة أفدنه أو أقل (المراجع).

الفصل الثانى عشر

الحرب والثورة

لقـد غـيرت الحرب وجه أوروبا، أما فى مصر فإنها لم تفعل سوى أنها كشـفت عـن تظاهرات ولطائف وتفاصيل دبلوماسية، أقرت بما كان واضحاً للعيان منذ زمن طويل بأن مصر قد أصبحت جزءاً من الممتلكات البريطانية بأبسـط الحقـوق وهو حق الفتح، وأن لندن ليس لديها النية فى أن تخفف من قبضتها على منطقة بمثل هذه الأهمية الإستراتيجية.

ففـى نوفمبر عام ١٩١٤ أعلن الأتراك الحرب على إنجلترا بعد أن نجح الألمـان بمهارة ولباقة فى كسبهم إلى جانبهم، وبعد ذلك بقليل ألغت بريطانيا العظمى السيادة التركية وأعلنت مصر محمية بريطانية. وقامت بعزل الخديو عباس حلمى وعينت مكانه عمه حسين كامل بعد أن منحته لقب السلطان.

وفى خلال أيام قليلة، قام جمال باشا أحد أبرز رجال تركيا باختراق سيناء علـى رأس حملة عسكرية لاستعادة مصر من الكفار، وقال لأصدقائه تملأه الـثقة: سـوف أعود من القاهرة بحراً غير أن التحصينات البريطانية على طـول القـناة صدت الهجوم، ولم ينهض أحد من الدلتا ليظهر أى علامة من علامات الثورة كطابور خامس كما كان يتمنى الأتراك. ولكن حملة الصحراء الـتى مضـت بطيـئة حتى عام ١٩١٦ لفتت الانتباه الشديد إلى القناة، وبأن مصر بالرغم من كونها محايدة من الناحية النظرية، سرعان ما وجدت نفسها وقـد اسـتقر بها الحال لتكون إلى جانب الحلفاء، فخلال شهور تحولت البلاد جمـيعها إلـى قاعدة كبرى للقوات البريطانية، كما أن الشعب المصرى كان بعـيداً عن تأثير الدعاية المنادية بوحدة العالم الإسلامى، ولم يبذل أى مجهود ليعلـن الـثورة لتأيـيد الأتـراك كما كانوا يتوقعون خاصة أن معظم الطبقة الحاكمة كانت من أصول تركية.

ومـن هنا استنتج توم ليتل Tom little أن حركة الوحدة الإسلامية لم تكن

فـــى حد ذاتها قوة محركة للعمل الشعبى فى مصر، ولكنها كانت آلة المقاومة المصـــرية بعـــد أن حرمـــت من قيادتها الوطنية التى أرغمت على البقاء فى الظـــل بسبب الإجراءات الصارمة التى فرضتها الحرب، لقد عملت جماهير المصـــريين بإخلاص من وراء الحكام البريطانيين حتى وجدوا فى النهاية أن الإسلام ذاته يقف إلى جانبهم ممثلاً فى شخص شريف مكة.

لقد أعطى البريطانيون كلمتهم أن المصريين لن يدعون للخدمة الفعلية فى الحـــرب، لكن سرعان ما تخلى البريطانيون عن وعدهم، وقاموا بتجنيد فيلق للأشـــغال الشـــاقة، فـــى أول الأمر كان التطوع اختيارياً، ثم بعد ذلك أصبح إجباريا. وربما كانت الأجور المرتفعة التي كان يدفعها الجيش البريطانى هى الدافـــع الأكبر الذى يفوق أى اقتناع بقضية الحلفاء أنفسهم، ولكن تبقى الحقيقة أن أكثر من ١٢٠,٠٠٠ مصرى شاركوا فى الخدمة العسكرية ليس فى داخل مصر بل أيضاً فى الحملات على غاليبولى، والعراق و ١٠,٠٠٠ خدموا فى فرنســـا وقـــد تردد فى بعض الأحيان الرأى القائل أن مصر لم تفعل شيئاً فى الحـــرب ســـوى أنها ازدادت ثراء، غير أن ذلك رأى ملتو ولا يمثل الحقيقة. وبالـــرغم مـــن كل شيء لم يستفد من ذلك سوى رجال الأعمال من الجاليات الأجنبية أكثر مما استفاد منه المصريون أنفسهم.

ومـــع أكـــوام الذهب المتراكمة جاءت سيول من اللوائح المدنية أصدرتها مركـــز القيادة العامة البريطانى أغلبها يبدو أنه خطط لتحويل المصريين إلى بريطانييـــن، فقـــد صـــدر مـــثلاً حظر على نحر الخراف فى عيد الأضحى كأضـــحيات، وأن يحظـــر تقديـــم المشـــروبات فى المحال العامة إلا ما بين منتصف النهار حتى الثانية والنصف من بعد الظهر، وما بين الساعة السادسة والنصـــف حـــتى العاشرة ليلاً، كذلك يتذكر سكان مصر القديمة بشيء من الرهبة المتزايدة مجيء الأستراليين.

فجـــأة امتلأ المكان بأقوام لفحت الشمس وجوههم، يضعون فوق رءوسهم قبعات كبيرة من اللباد فى وضع مقلوب على أحد الجوانب، وكان تجولهم ليلا عـــبر شـــوارع القاهـــرة أشـــبه بفريق سباق القوارب الليلى. وكانوا يقومون

بغارات على الممتلكات، ويسابق بعضهم البعض فى شوارع القاهرة الرئيسية حـــتى تخور قوى جيادهم، ثم يلعبون الكرة فى ميدان الأوبرا بطرابيش رجال البوليس فالسلطة لا تعنى لهم شيئا، وتذكر بريسيلا نابييه Prisilla Napier فى مذكــرات طفولــتها الــرائعة فى مصر: لقد كانوا أشبه بصبيان مستهترين انطلقــوا لأقصى درجة فى عبث صاخب لاحد له، فقد كانوا يسابقون بعضهم بعضا فى تسلق الهرم الأكبر والنزول منه، وخلال الأسبوعين الأولين سقط عشــرة منهم من فوقه ودقت أعناقهم، ولذا فرض حظر على ذلك، غير أنهم كرروا الاستعراض فوق هرم سقارة المدرج. لقد كانوا يجلسون أعلى عربات الــترام غــيرا آبهيــن بسائقى الترام المصريين وهم يتصايحون، ويدخنون، ويضـــحكون ويغــنون وباستمرار يصعقون أنفسهم بالكهرباء وكانوا يسابقون بعضهم البعض فوق حاجز الكبارى على النيل من أجل رهان ويسقطون من أعــلاه إلى النهر ويغرقون. وقبل أن يغادروا إلى غاليبولى ذلك اللسان البارز الحزيــن والــذى لم يعد منهم سوى القليل، قاموا بالإغارة على كل الحوانيت والــبارات الــتى كان بينها وبينهم ضغينة ودمروا تماما مبنى فندق « الضوء الأحمــر »، فقد كانوا يلقون بالأثاث وبالنزلاء من النوافذ، ثم أشعلوا النيران فـــى المبـــنى، ويقـــول هـــؤلاء الذين كانوا يعرفون المنطقة أن البركة (حى الأزبكية) لم تعد تماما كما كانت.

وإذا مـــا قورنت بالصراع الشرس الذى كان يدور فى أرجاء أوروبا، فإن حـــرب الصـــحراء كانت أشبه برحلة سفارى، وتحولت مواخير القاهرة إلى أســطورة بيـــن الآلاف مـــن جنود الحلفاء الذين كانوا يتدفقون بشوق عليها لقضاء إجازاتهم القصيرة.

لقـــد كانت تلك أيام القاهرة العظيمة التى ازدحمت بمروجى الأنباء من كل صـــنف ونـــوع ابـــتداء مـــن لورانس العرب وحتى رواية المرأة المشئومة Femme Fatale والـــتى من الواضح أنها كانت على قمة الرواتب من جانب الألمان.

غـــير أن هـــذا الرواج والصخب لم يصل منه شيء لا لرجل الشارع أو

للفلاحيــن الكادحين فى حقولهم، والذين بدءوا يدركون - كلما زادت مطالب الحــرب - أن حمــيرهم وجمــالهم يستولى عليها، وقمحهم يصادر، بل أنهم أنفســهم كانوا يجندون للخدمة فى الصحراء مثلما كان الحال فى أيام السخرة فــى الأيــام الخوالى، وبالطبع كل شيء كان يدفع له مقابل من قبل السلطات الإنجليزية، غير أن كثيراً ما كان هذا المقابل يضل طريقه على يد فئة ماكرة مــن الــناس قبل أن يصل إلى جيوب مستحقيه، والذى لا مناص منه وقوع قدر كبير من الإجحاف.. كان يغذى الإحساس العام بالسخط على تلك الرقابة ذات الــبطش، وإجــراءات الأمن البوليسية التى وصلت إلى حد التعدى على حــرمة النســاء بطــريقة وصفتها جريدة التيمز The Times بأنها: الأكثر رعونــة، والأكــثر حمقا، والأقسى شراسة من أى بلد آخر وقع تحت الحكم الــبريطانى». أما عن حكومة السلطان حسين التى كانت كالدمية، فقد تعاونت دون أن تبالى، ولم يكن لدى الوزراء سوى القليل لوقف هذه التعديات، وكانوا مقتنعيــن تماما بإلقاء اللوم بسبب المصاعب والآلام زمن الحرب على عاتق البريطانييــن وبنهاية سنوات الحرب الأربع هبط البريطانيون فى نظر الناس مــن درجــة الحكــام الذين يخشى جانبهم، وينظر إليهم باحترام، إلى أناس مســتغلين يخاف الناس منهم، ويشعرون نحوهم بالكراهية كما عبر عن ذلك سيمون لاكوتير Simon Lacouture بقوله: «رجال شرطة قصيرى النظر فى أمــة متعطشة للحصول على حقوقها » فالكراهية تجاه الاحتلال وتجاه تدخل الأجانــب فىشــئون حياتهم اليومية وأن هؤلاء الأجانب يتحكمون فىبلادهم، ســرت حتىنخاع عظامهم.ولم يكن المتطرفون وحدهم الذين كانوا يتهامسون بل المصريون على كافة طبقاتهم يغنون:

إنجلترا مصيبة نزلت علينا	**بالقــوة سلبتنــا قمحنــا**
وبالقــوة سلبتنــا ماشيتنا	**وبالقــوة سلبتنــا إبلنــا**
وبالقــوة سلبــت أبناءنــا	**ولــم تترك غير الكفاف لنا**
وحبــاً فــى اللــــه الآن	**اتركـــونـــا لحــالنـــا**

ففــى مصر كما فى أى بلد آخر - برز دور الإنسان. والرجل الذى خطا

إلـــى الأمام ليلعب دور المتحدث باسم مصر كان سعد زغلول، الذى لم يكن وطنـــياً فحسب، بل كان إنسانيا Humanist وعبر عن مبادئه فى جمل بسيطة ولكـــن بصـــورة رائعـــة. فذات مرة قال لصبى حمار كان ينهال ضربا على الحـــيوان المســـكين: إن الحـــيوانات لا تـــتكلم ولكـــنها تفهم، بينما الآدميين يستطيعون الكلام لكنهم فى غالب الأحيان لا يفهمون ».

لقـــد أبقـــى ســـعد زغلول غضب العناصر الوطنية تحت السيطرة طالما اســـتمرت الحرب، وخلال ما بدا لهم أنه صيف من الغضب طويل ولا نهاية لـــه. كان دائماً يكبح مثيرى الشغب الذين كانوا يتحرقون لعمل شيء ما، أى شـــيء للتنفيـــث عـــن مشاعرهم التى كانوا يكبتونها إزاء البريطانيين. ولكن أخـــيراً بعد يومين من عقد الهدنة، ترأس وفـــداً زار السير ريجنالد وينجيت Sir Reginald Wingate ليطلب الإذن لعرض قضية مصر من أجل الاستقلال علـــى لندن. وكان التوقيت يبدو مناسبا. فمبادئ السلام التى تضمنتها الأربع عشـــرة مـــادة الشـــهيرة والتى كان الرئيس ولسون قد أعلنها منذ وقت قليل، والإعلان الأنجلو فرنسى عام ١٩١٨ الذى قصد به تحرير البلدان التى كانت مـــن قـــبل تحـــت سيطرة الأتراك، وكذلك وعود البريطانيين لبعض البلدان العربية الأخرى، كل ذلك أعطى الإحساس بأن من المتوقع عقد صفقة جديدة فى الشرق الأدنى، وأن مطالب مصر القوية للاستقلال سوف يكون الأهم.

ومـــا بـــدا توقيته مناسبا فى القاهرة كان بالنسبة للندن على العكس تماما. فبيـــنما كانـــت الجالية البريطانية فى مصر - والأوروبيون عامة - يحتفلون بابـــتهاج بانـــتهاء الحـــرب بالألعـــاب النارية والحفلات الصاخبة، وقداسات صـــلوات الشـــكر، والاستعراضات، أقام اليونانيون والإيطاليون استعراضات للنصـــر، نافســـوا فيها بعضهم البعض، انتهت بالمصادمات بين الجانبين فى قصـــر النيل، إذ رفض كل فريق أن يفسح الطريق للطرف الأخر، مما تسبب عـــنه معـــركة شرسة فيما بينهم بينما كان الناس فى إنجلترا يحتفلون بعقد الهدنـــة بطـــريقة تتســـم بالوقار، فقد كانوا مشغولين بالدرجة الأولى فى لعق جـــراحهم، وجمـــع حطام حياتهم اليومية. فمن الناحية الفعلية كان لكل واحد خســـائره الـــتى كـــان يـــبكى علـــيها. فالمواد الغذائية كانت لا تزال توزع

بالـبطاقات. وكـل شيء في حاجة إلى طبقة من الطلاء إن لم يكن أكثر من طـبقة، لقـد خرجت بريطانيا منتصرة من الحرب لكنها كانت في حالة يرثى لها ومرهقة بعد أربع سنوات من المجهود المتواصل الشامل، وأصبحت الآن تواجـه المشاكل الملحة التي تولدت عن السلام، فخريطة أوروبا يجب إعادة رسمها من جديد، كما يجب معاقبة ألمانيا ووضعها تحت الحراسة. كما كانت هـناك مـئات مـن القضايا الكبرى تنتظر الحل، ومن ثم فإن موضوع مثل مطالـب مصـر بالاستقلال كان يعتبر بالنسبة لتفكير المسئولين المرهقين في الهوايـتهول قلـيل الأهمـية للغايـة، إذ شعروا أنه ليس هو الوقت المناسب لمصـر – محور الاتصالات في الإمبراطورية وقاعدة بريطانيا الرئيسية في الشرقَ الأوسط، وأكثر من ذلك أنها بلد أصبح ثريا من الحرب – أن تبدأ في هـز القارب. وبدت فكرة طلب الاستقلال بالذات في وقت كانت فيه بريطانيا قد فرغت للتو من إنقاذها من غزو العدو لها، فكرة لا مكان لها بصورة تدعو للسـخرية. وجـاءت الإجابـة مـن لندن وهو الرفض السريع وغير القابل للتفاوض.

وقـد يكـون لـدى الهوايتهول بعض المبررات لذلك، ولكن كالعادة كان ينقصها التفاهم. هذا الرفض الجاف لم يؤد إلا زيادة تأجج النيران في صدور الوطنييـن. لقد كانت طريقة سعد زغلول الأولى لبقة، فقد قال "لوينجيت" إن إنجلـترا هـي أقـوى القـوى الكبرى، وأكثرها ليبرالية، وباسم هذه المبادئ الـتحررية التي تقودها نطلب صداقتها ولكن لما فشل في تحقيق أي مطلب تقـدم إلـى الأمام بصيحة تردد صداها: الاستقلال التام(أو الموت الزؤام) » وفي اجتماع جماهيري كبير قوبل برنامج الوطنيين بتصفيق حاد. كانت المادة الأولـى مـنه هي إرسال وفد إلى لندن، ووفد آخر إلى مؤتمر السلام، ولما رفـض ذلك مرة أخرى بالرغم من أن بلدانا صغيرة كالحجاز والحبشة مثلت رسـميا فـي المؤتمر وسمح لبلدان أخرى غير ذي أهمية بالحضور، وصل الإحسـاس بالمـرارة في مصر إلى ذروة الانفجار، وأرسل مذكرات تشرح وضـع مصـر إلى الرئيس ولسون، وإلى المسيو كلمنسو، Clemenceau(*)

(*) رئيس وزراء فرنسا.

وإلى السنيور أورلاندى Signor Orlandi(*)، وبالمثل إلى لويد جورج Iloyd George(**) وفــى مــارس عام ١٩١٩ أرسل البريطانيون زغلول ورفاقه ليس إلى باريس ولكن إلى السجن فى مالطة.

وفــى اليوم التالى انفجرت الثورة فى مصر، فقد جاءت الأنباء من أقصى الــبلاد إلــى أقصـــاها بحدوث اضطرابات وأعمال تمرد ونهب، فقد نزعت قضـــبان الســكك الحديدية، وحطمت القطارات وأعمدة التلغراف، وأضرمت النـــيران فى المبانى العامة، وتدفق الآلاف من الطلاب وتلاميذ المدارس وهم يهــتفون بالشــعارات، ودارت معــارك ضارية فى بعض مدن الأقاليم مثل طنطا، ودمنهور، والمنصورة. وحوصر النزلاء البريطانيون فى أسيوط لمدة أســبوع. لقد كانت ثورة حقيقية بكل تفاصيلها وعنفوانها تشبه انتفاضة المجر عــام ١٩٥٦، واســتغرق الأمــر أسبوعين من جانب الجيش البريطانى لكى يفرض سيطرته مستخدما العربات المصفحة والدبابات، وخلال هذه الأحداث لقــى مائة من المتظاهرين حتفهم وجرح ألف آخر منهم، غير أنه خلال هذه «الهوجــة» المفاجــئة لــم يرتكب سوى القليل من الأعمال الوحشية باستثناء ديــروط حيــث هاجمت الغوغاء قطارا وقتلت سبعة جنود بريطانيين بطريقة وحشية (مزقوا أحدهم إلى قطع صغيرة، وحمل الأطفال قطعاً منها تقطر دماً وداروا فــى الشوارع يصيحون لحم إنجليزى للبيع!!). وانتقاماً لذلك نفذ حكم الإعــدام فــى ثلاثين مصريا. حقا أنه بالرغم أن بعض الوحدات البريطانية أطلقــت العنان لمشاعرها بإطلاق النيران على الجماهير فى المليان بدلاً من إطلاق النار فوق رؤوسهم، إلا أن الجاليات الأجنبية التى كانت تتوقع أن تقع فــى أى لحظــة حمامــات الــدم، أصابتها الدهشة لمدى ضبط النفس الذى أظهــروه، إذ همهــم دبلوماسى فرنسى قائلاً: رداً على ما حدث أو ربعه أو حتى ذرة من مثل هذا التصرف لكان الفرنسيون حولوا القاهرة كلها إلى كوم رماد وربما لو قدر لهم لفعلوا ذلك أيضاً.

(*) رئيس وزراء إيطاليا.

(**) رئيس وزراء بريطانيا.

وإلى حد ما هزت هذه المشاعر الهوايتهول وأخرجتها عن انشغالها.

وقــد حــدث أن الــتقى لويــد جورج بالجنرال اللنبى Allenby فى إحدى الحفلات (وكان فى ذلك الوقت فى قمة شهرته كفاتح لفلسطين)، واتخذ قرارا ســريعاً بإرساله إلى القاهرة كمعتمد خاص لإعادة الأمور إلى نصابها. وكان أول تصرف قام به اللنبى هو الإعلان عن إطلاق سراح سعد زغلول ورفاقه مــن مالطــة، وترك الأمر لهم ليسافروا إلى باريس، وعندئذ وبطريقة محيرة متقلــبة المــزاج لا يمكن أن تحدث فى أى مكان آخر إلا فى مصر، وجدت القوات البريطانية نفسها تستقبل بالتحية كلما مرت فى الشوارع حتى السلطان فؤاد الذى كان الناس يعتبرونه فى جيب بريطانيا – لقى تصفيقا هو الآخر.

لقد فاز الوطنيون فى الجولة الأولى بالنقاط، غير أن الصراع كان لا يزال مســتمرا، فــأحد الخصمين كان يريد إنهاء الحماية، والآخر كان يريد الإبقاء علــيها وأصبح كل منهما يناور الآخر.ولقد أرادت الحكومة البريطانية كسب بعض الوقت بإرسال بعثة لتقصى الحقائق برئاسة اللورد ملنر Lord Milner والذى كان فى شبابه أحد نجوم الصحافة، وكان قد أرسل خلال الثمانينات من القــرن التاســع عشــر لتسويق فكرة الاحتلال البريطانى، أما الوطنيون فقد أدركــوا أن العنف رغم أنه مؤثر، إلا أنه يحمل المجازفة برد الفعل الذى قد يقضــى علــيهم، فلجــأوا إلــى المقاومة السلبية، وربما نقلوا هذه الفكرة عن غــاندى، وبالفعل تحولوا إلى الإضرابات وأعمال التخريب والتباطؤ المتعمد فــى العمــل مما جعل البلاد فى حالة ركود. وعندما وصل ملنر ورفاقه إلى مســرح الأحــداث، وجدوا كل مصرى قابلوه يبدو كما لو كان أصم وأبكم. وكانــت المقاطعــة للبعثة شاملة، فمثلا إذا ذهب أعضاؤها لحضور اجتماع، يعلــن على الفور تأجيل انعقاده، وإذا تحدثوا إلى فلاح أدار ظهره لهم. وبعد ثلاثــة شهور منْ هذه المعاملة عادت البعثة إلى لندن بخفى حنين، ولم يعرفوا ســوى القليل عن مصر، لكنهم عرفوا الكثير عن الحركة الوطنية المصرية. وعــندما أصدر ملنر تقريره، ظهر أنه قطعة من الخطابة المنمقة الجميلة بقلم محترف، وبالرغم من تملقه للامانى الوطنية المصرية إلا أنه يبال بها تماما، إنمــا اقــترح فــى الواقع استمرار الحماية بطريقة مقنعة مناسبة، ولمدة غير

محـــددة. وبالنسبة للقاهرة كانت قد ضاقت ذرعاً بالصبر، إذ بدا لها ذلك بأنه عــودة إلى نفس الأسلوب القديم الذى كان من قبل، فنفس اللحم المفروم يقدم اليوم، ولكن مع تغيير مناديل المائدة، وأن أى وزير يحترم نفسه لن يقبل ذلك أو يقــبل الـــتفاوض علــى هــذا الأساس، وحتى لو حاول فلن يجد التأييد أو المســاندة. هكذا أصبحت مصر فى مزاج غير قابل للحل الوسط، وعلت نبرة الاستقلال التام بدرجة أعلى، وعندما أبعد أيضاً سعد زغلول الذى كان يجسد الحلــم الوطنى والرجل الوحيد الذى كان فى مقدرته التحدث باسم مصر بقدر مؤثــر مــع رفاقــه أعضاء الوفد ونفى إلى جزيرة سيشل Seychelles عندئذ انفجرت البلاد فى غليان من جديد واندلعت أعمال الشغب والإرهاب.

وعند هذا الحد كاد اللورد اللنبى الذى كانت لديه صورة أكثر وضوحاً عن الموقــف أكــثر مــن رؤســائه فى وزارة الخارجية يفقد صبره إزاء هذه الأعمال التى لا طائل منها، وتحمل المسئولية وخرج بخطة ألغى فيها الحماية وأعلــن أن مصــر دولــة مســتقلة دون أى شروط، وبعد تبادل سلسلة من البرقــيات اللاذعة (والتى عرض فى إحداها استقالته) هرول عائداً إلى لندن حيــث تحــدث بنفســه إلى أعضاء الحكومة وشرح لهم وجهة نظره، وكانت النتــيجة الإعــلان باستقلال مصر من جانب واحد وذلك فى ٢٢ فبراير عام ١٩٢٢ ولكــن بــتحفظات أربعــة حددت بالفعل سيادتها وبقيت مسألة شائكة خلال الثلاثين سنة التى تلت[٢٠].

وبعــد مــرور شــهر وبالتحديد فى ٢٢ فبراير عام ١٩٢٢ أعلنت مصر رســميا كمملكــة مستقلة، وأصبح من حق أحمد فؤاد أن يرتدى التاج، وولى زمن الحماية، وجاء عصر الاستقلال، وبدا بذلك كما لو كان نصراً لمصر أول نصــر بالفعل حققه شعب على الاستعمار الأوروبى خلال القرن التاسع عشــر. غــير أنه لم يكن بالطبع فى حقيقته انتصارا قط: فالتحفظات الأربعة أعطــت بريطانيا تبريراً لتوجيه دفة سياسة البلاد كما تمليه عليها مصالحها. وأن تفــرض نفوذها بوضع قوات فيها أينما يحلو لها، فالملك فؤاد نفسه جلس علــى العرش بفضل وبجميل جعلاه رغم أنفه عميلاً لسياســات لندن. وهذا جعــل الوطنيين يتذمرون بحنق بأنه لا هو استقلال ولا حتى ارتباط متداخل،

إنمـــا هـــو بمـــثابة لطمة عنيفة براحة اليد استهزاء بتطلعات مصر، حقق لها مجرد احتلال متخفى يستمر تحت قناع الدستور، وكشف حقدهم عن نفسه فى زوبعـــة جديـــدة من الإرهاب، لا يسر أحدا بالمرة لأنه كان أساساً عبارة عن إطلاق النيران من الخلف على أفراد أبرياء من الإنجليز.

وفى اللحظة المناسبة، وعندما سمح لسعد زغلول لكى يعود، تحول التذمر إلـــى حمـــاس عندما انتهز ذلك القائد الوطنى الانتخابات المزمعة ليقدم نفسه كرئيس للوفد خاصة أن شعبيته بلغت فى ذلك الوقت درجة لم تبلغها من قبل. وهـــنا ظهر تأثيره الذى جعل البلاد كلها تسير من ورائه. فقد أعيد الوفديون بعد أن حظوا بتسعين فى المائة، ومن ثم أصبح سعد زغلول الذى صار بطل مصر غير الرسمى، أول وفدى أو وطنى يصبح رئيساً للوزارة.

وتصـــادف ذلـــك مـــع مجـــيء أول حكومـــة مـــن حـــزب العمال في إنجلـــترا، فقـــد كـــان رمـــزى ماكدونـــالد Ramsay Macdonald يعلن دائماً وهـــو فـــى مقعـــد المعارضـــة أنـــه يؤيد استقلال مصر، وبدا ذلك كما لو كـــان فرصـــة معـــدة وجاهـــزة للتخلص من قوات الاحتلال، غير أن سعد زغلـــول اعـــتقد أن حكومـــة العمـــال ســـوف تخضع وتسحب قواتها، وهنا خـــاب ظـــنه، فقـــد أشـــار رمـــزى ماكدونـــالد إلى دستور ١٩٢٣ قائلاً أن ذلـــك قـــدم لمصـــر كـــل الاســـتقلال الـــتى كانت فى حاجة إليه فى الوقت الحاضـــر. ولمـــا وضـــعت العراقـــيل أمـــام هذا المطلب، غير زغلول فى أوراقـــه إذ فجـــأة تحـــول ذلـــك الزعـــيم الوطنى إلى زعيم استعمارى فقد طالب بالسودان.

الفصل الثالث عشر

نظرة سريعة على السودان

كـــان المصـــريون دائماً مسحورين بالسودان، فهو بالنسبة لهم ليس مجرد جار فى الجنوب، على وفاق معه أو غير ذلك، ولكن بالنسبة لمناطق الأعماق الـــتى يكتـــنفها الغموض والتى يأتى منها النيل فهى: تذكار أبدى وملزم بأن مصـــر ذاتها هى هبة النيل. فلو قدر لمياه الفيضان ذات اللون الذى يميل إلى الحمـــرة أن تعجز عن الظهور فى مجاريها فى وادى حلفا، فإن الدلتا بأكملها تصـــبح أرضاً قفر كالصحراء المحيطة بها. ولذا فإن الصيحة " وحدة وادى النيل " ليست مجرد ألعوبة غوغائية Spiel كان يحلم بها مصطفى كامل إنما شوق قديم قدم التاريخ نفسه.

وبـــلاد الســـودان كمـــا كانت تسمى – هى فى نظر أغلب المصريين تلك الـــبراري الشاســـعة المقبضـــة، شديدة التشبع بالبخار، جمع الثروة فيها غير مضـــمون مـــثل ضربة الحظ فى اليانصيب، وذلك لمن يغامر بالذهاب إليها بحـــثا عن الثروة من خلال الحرارة والمشقة والخطر. وبالنسبة لعقلية القرن التاســـع عشـــر كان للسودان نفس الجاذبية التى هى للقمر اليوم بالنسبة لمن يمتلكون روح المغامرة والإقدام. فقد بعث إليها محمد على بحملات بحثاً عن الذهب والعاج والرقيق، كما أن سعيد قام بزيارة رسمية لها، وورث إسماعيل عـــنهما مليون ميل مربع من المناطق المجهولة، وفكر وقتها فى ضم المزيد منها. ولذا فقد أرسل السير صمويل بيكر Sir Samuel Baker على رأس حملة مصـــرية إلـــى مناطق أعالى النيل، بل عين ثم فيما بعد الكولونيل جوردون Colonel Gordon حاكمـــاً على منطقة ذات اتساع يعادل اتساع عدة بلدان من بلـــدان السوق الأوروبية المشتركة إذ ضمت مجتمعه، وتمتد من أسوان حتى خط الاستواء، ومن البحر الأحمر إلى الحدود الغربية لدارفور.

وتحـــت رعاية إسماعيل، كان جوردون مطلق اليد فى السودان، وتمكن بأســـلوبه المتقلـــب والمتفاني من اجتياز هذا البلد الشاسع من فوق ظهر جمل بطـــريقة تتســـم بالكفـــاءة والمثابرة التى لم تتوقف. لكن طبقة الموظفين التى

قويــت شــوكتها فـــى القاهرة بعد عزل إسماعيل، بدأت على الفور فى قص أجنحته. وفى عام ١٨٧٩ استقال جوردون من وظيفته كقائد عام وحاكم على السـودان وهـو مسـتاء، وحل محله رؤوف باشا وهو رجل تركى من أسوأ أنواع البلطجية، بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وقد بلغت قسوته وفساده حداً جعـل السـودانيين لا يطـيقونه، ومن ثم بدأوا يتدفقون إلى جانب شخصية مـتطرفة تعـيش فى إحدى جزر النيل، وقد همس للمقربين إليه بأنه المسيح المنتظر. فقد كان لهذا الداعية المحارب نصفه طبيب ساحر، ونصفه الآخر رجـل مظهرى، بلحيته المدببة السوداء له تأثير السحر على أتباعه فقد دعى إلى تطبيق تعاليم الإسلام الصارمة، وبسيل جارف من الخطابة حثهم على « طرد الأتراك المكروهين إلى البحر ».

ويقـول عـنه ليـتون سـتاركى Lytton Starkey: كـان لحضوره مهابة خاصة.. عيناه مكحلتان تشع منهما النيران بطريقة غير عادية.. وعندما كان يـرفع صـوته للصـلاة فى خشوع كانت الآلاف تحس بأن أبواب السماء قد فتحـت وأنهـم أقـرب مـا يكون إلى الله. كانت طبول الحرب تدعو بدقاتها المشـئومة الجمـوع إلـى حمل السلاح وترفع الرايات الخضراء والحمراء والسوداء فوق الحشود. عندئذ يتقدم الجيش العظيم إلى الأمام ".

وفـى نفس الوقت وعلى نحو لافت للنظر، ولنفس الأسباب التى من أجلها انقلـب عـرابى والوطنـيون على الحكم التركى - المصرى فى مصر، بدأ المهـدى ثورتـه فى السودان. وفى البداية لم يأخذها الباشوات ومستشاريهم البريطانـيون مـأخذ الجد، فقد كان يكفيهم ما لديهم من مشاكل كان عليهم أن يواجهوهـا فـى مصر بكل الطرق، ولكن عندما سقطت سنار أولاً، ثم تلاها «الأبـيض » فى يد الثوار، أصبح واضحاً أنه يتوجب عمل شيء. ولكن ذلك لـم يكـن بالأمر السهل على الإطلاق فى ظروف كانت البلاد تعانى فيها من نقـص فـى الأموال والرجال، وأخيراً أرسلت حملة لجس النبض كان أغلب رجالها من أتباع عرابى القدامى الذين أطلق سراحهم من السجون وبعث بهم إلـى أعالى النيل تحت قيادة ضابط إنجليزى لقمع هذه الثورة. لقد كان جيش الكولونـيل هكـس Hicks المـتداعى محـتوم عليه بالهزيمة منذ البداية فى مواجهـة الحمـاس الدينى لحشود المهدى. وأخيراً عندما تسربت الأنباء أن

الحملة قد ذبحت لأخر رجل، اشتعل الرأى العام فى إنجلترا غضباً. وبرزت مدرستان للفكر: أولهما هو الجلاء عن السودان وتركها لتستوى فى سليقتها، أما الثانية التى تبنتها الصحافة الشعبية، فقد طالبت باتخاذ عمل صارم لرد الاعتبار للكارثة التى لقيها هكس.

فى تلك اللحظة تذكر محرر جريدة يومية الحاكم العام السابق، فظهرت المانشتات بكل وقار تقول أن جوردون هو الرجل الذى يجب أن نرسله إلى الخرطوم. فبخبرته الشاسعة فى السودان يعرف كيف يعيد الأمور إلى نصابها. وعندما أجريت معه مقابلة فى لندن وافق الجنرال، فقد كان ضرورياً اتخاذ خط صارم.

وفى مواجهة هذا الصخب عما يجب القيام به لإنقاذ حامية بلد أجنبى من ثورة قام بها بلد أجنبى آخر، راحت الحكومة تدور وتلف. وكان جلادستون قد هداه تفكيره لاتخاذ قرار بالانسحاب من السودان، غير أن الرأى العام يجب أن يعمل له حساب، ومن ثم وافق على خطة وسط بالرغم من أن ذلك كان يتعارض مع حكمة الأفضل، غير أن الجنرال الذى شاعت شهرته العامة كمؤيد لاتخاذ إجراءات صارمة، أرسل لينفذ عكس الخطة المرسومة تماماً، فقد كانت مدة صلاحيته أن يضع حداً للأحداث فى السودان وأن يقوم بإجلاء المصريين والأوروبيين بأسرع ما يمكن.

وما تلا ذلك هو القصة الأسطورية لجوردون الخرطوم.. قطعة من روائع التراجيديا الإغريقية ومعها مقومات رواية ناجحة لمغامرات الغرب الأمريكى. فما أن عاد إلى مقره القديم، حتى بدأ جوردون يعيد الأمور إلى نصابها بقدر ما استطاع. فقد خفف من الضرائب، وأطلق سراح السجناء، وألغى التجاوزات المخزية التي جلبتها إدارة رؤوف، وبالمثل التزم بالتعليمات التى صدرت إليه وأعلن أنه سيتم الجلاء عن السودان. ولكن بعد ذلك طبقاً لأصدق تقاليد المدارس الراقية، أقسم أنه لم يترك الخرطوم حتى تعطى كل القوات المصرية فى الأقاليم المترامية الفرصة للانسحاب إلى مناطق آمنة. وفى أثناء ذلك كان المهدى وجيوشه الجرارة يتقدم. وحاصر أم درمان، وقطع خطوط التلغراف، وبهذا حوصر جوردون فى الخرطوم ومعه

حفنة من قوات الحامية و ٣٠,٠٠٠ من السكان المدنيين.

ومـرة أخـرى آثار الرأى العام فى إنجلترا الحكومة، ولكن فى هذه المرة مـن أجل إنقاذ جوردون نفسه. وكانت الحكومة تشعر بشكل غير واضح أنه لـو كـان فى موقف صعب، فذلك خطوء تماماً، بل فى الحقيقة ساورها شك بشـىء مـن السخط إلى حد ما أنه كل ما حدث من تدبيره لكى يضغط على الحكومة لكى ترسل حملة إنقاذ. وتبادلت إرسال واستقبال البرقيات مع اللورد كرومـر فـى القاهـرة مـاذا يحدث فى الخرطوم؟ وقالت الهوايتهول لو أن الجـنرال جوردون يستمر فى البقاء هنا، فمن الضرورى عليه أن « يحدد لنا السـبب ونوايـاه الـتى تجعله يستمر على هذا الحال » ولما هرب إليه هذا التساؤل البيروقراطى من وراء خطوط العدو تمكن من تهريب الرد على هذا الطلـب بقولـه: " إنكم تطلبون منى أن أوضح السبب والقصد من بقائى فى الخرطوم ولأنى أعرف أن الحكومة تقصد أن أغادر السودان، وللإجابة على ذلـك أقـول: أنا باق فى الخرطوم لأن العرب ضربت من حولى الحصار ولم تدعنا نفلت منه.

ولمـدة أطول استمرت الحكومة فى وضع القضية على الرف حتى عبرت الملـك فكتوريا فى النهاية عن آرائها الخاصة وآراء البلاد بشكل واضح إلى وزارة الخارجية، فقد قالت للورد هارتنجتون: " إنك ملزم بإنقاذه! " وهنا اتخذ جلادسـتون الـذى ساءه أن يشهر جوردون بالحكومة بمثل هذه الطريقة خطوة، إذ عين اللورد وولسلى Wolseley بطل معركة التل الكبير لقيادة حملة من أجل إنقاذ الجنرال.

وبقـدر محتوم لا مفر منه بدأ الفصل الأخير من المأساة يرفع الستار عنه ببطىء. فمن فوق قصر الحكم فى الخرطوم راح جوردون يمسح الأفق دون توقـف من خلال منظاره المكبر بحثاً عن أول بادرة إنقاذ قادمة. وبطريقة ما جعـل الحياة اليومية تسير داخل المكان بالرغم من النقص الحاد فى التموين لدرجـة أنهـم اضطروا إلى أكل كل حيوان حى بما فى ذلك الحمير والقطط والكـلاب، والفئران، بل وحتى القرود. وعلى الجانب الآخر من النيل فى أم درمـان كان جيش المهدى ينتظر بتلهف شرس أن تستسلم المدينة الجائعة،

ولم يكن المهـــــــدى (لو صدقنا الأسرى الأوربيين) مستعجلاً متلهفاً لحدوث ذلك، إذ لم تكن حياته الخاصة تخضع لهذه القيود المزعجة فى مخالفة التعاليم الصـــارمة التى أصدرت باسم الإسلام، والتى طبقها بقسوة على أتباعه الذين كانوا عرضة للجلد حتى الموت بكرباج مصنوع من جلد وحيد القرن لمجرد ارتكابهم ذنب شرب الخمر أو التدخين أو التنابذ بالسباب، إذ كان يقضى أيامه مضــجعاً علـــى وسائد مطرزة بخيوط الذهب، ويقوم على خدمته ثلاثون فتاة فـــى مقتـــبل العمر، وهن يهززن المراوح المصنوعة من ريش النعام لتهويته مـــن الحر، ويقمن بتدليك أطرافه لإحداث نرفانا لذيذة، ولا تقطع ذلك إلا من حين لآخر عندما يخرج للصلاة أو لترأس مجلس الحرب.

وفى أثناء ذلك كانت قوة الإنقاذ تشق طريقها ببطىء، بل ببطىء ممل فى اتجـــاه أعـــالى النـــيل. فقد وصل اللورد وولسلى إلى القاهرة فى التاسع من سبتمبر، وبعد قضاء ثلاثة أسابيع فى فندق شبرد انطلـــــق تجاه وادى حلفا، بعـــد أن توقـــف لبعض الوقت فى أسوان لينقب عن الآثار، وعند نهاية شهر ديسمبر، وصلت الحملة إلى كورتى korti وعند مقترب منتصف يناير أصبح علـــى مشارف الخرطوم. وفى السابع عشر من يناير وقـــع أول اشتباك مع الســـودانيين، وضاعت منه أياماً غالية وهو يصلح المراكب والإشراف على حـــل المعضـــلات. ويقول اللورد وولسلى أنه كان يرى أن جوردون لا يزال خـــارج نطـــاق منظاره المقرب، وأن أياماً تزيد أو تنقص لن يتغير من الأمر شيئاً، وأن جوردون صمد فى الخرطوم عاماً كاملاً ومن ثم ففى استطاعته أن يصمد لوقت قليل آخر.

كـــان فـــى الإمكـــان أن يبقى المهدى يمارس النيرفانا، ويبقى جوردون محاصراً لو أن أنباء حملة الإنقاذ البريطانية لم تصل إلى السودانيين بتاتاً فى وقت كانت فيه مياه النيل فى أدنى مستوى لها حتى أن شواطئه الطينية جعلت عـــبوره سهلاً. وفى فجر ٢٦يناير ضرب المهدى ضربته فقد اجتاحت جموع الدراويـــش وهـــى تتصايح الاستحكامات لتدخل الخرطوم. وعندما سارعت بواخر حملة الإنقاذ أخيراً إلى جنوب النيل فى اليوم التالى كان كل ما وجدوه حطامـــاً يتصاعد منه الدخان، ولا يعرف أحد عما إذا كان الجنرال جوردون قـــد رصـــد قدومهـــم بمنظاره المقرب، لكن الشىء المؤكد أن الحملة عندما

وصلت إلى الخرطوم وجدت رأس جوردون لا تزال تقطر دماً موضوعه فوق حربه خارج خيمة المهدى. لقد وصل وولسلى ولكن بعد فوات الأوان.

وفي مواجهة العجز عن القيام بحملة لتطهير البلاد كلها، لم يكن أمامه شيء سوى أن يعود أدراجه ويسدل الستار عن السودان. ولذا تركت (بلاد السود) لمآربها لمدة خمس عشر سنة تلت والتى كما يستدل من الأنباء المتفرقة التى تسللت إلى العالم الخارجى، كانت بالكاد تحدث السرور للسودانيين.

غير أن المهدى لم يستمتع بانتصاراته لوقت طويل، فبعد مرور خمسة شهور من سقوط الخرطوم مات أما عن طريق وضع السم له من قبل حريمه أو كنتيجة للإغراق في ملذاته: وتولى من بعده قائد جيوشه «الخليفة»(*) الذى إلى جانب قيامه بدور المهدى، بدأ عهداً من الإرهاب على الفور أشد سوءاً مما شهدته الأيام السابقة وهذه (البربرية) انطلقت من عقالها بلا سيطرة عليها لتدخل القرن العشرين، لكن بالنسبة لحمى الاستعمار المستعيرة فى التسعينات من القرن العشرين فقد كانت القوى الأوروبية كل تمسك بعنف الأخرى فى صراع دولى للسيطرة على الأراضى. فقد بدأ الألمان يتحركون نحو شرق أفريقيا والإيطاليون نحو الحبشة، ولو لم يتخذ البريطانيون خطوة نحو السودان لربما كان الفرنسيون قد فعلوا ذلك[٢]. وفى عام ١٨٨٥ استبدلت حكومة حزب الأحرار برئاسة جلادستون بحكومة محافظة قوية كانت على استعداد للثأر لمقتل جوردون، كذلك أن فشل كل من هكس وولسلى، خاصة أنه قد أشيع أن لدى الخليفة خطط لغزو صعيد مصر.

لا يوجد شيء يصور التلاحم الإنجليزى المصرى الغريب أكثر من إعادة فتح السودان عام ١٨٩٨ تحت ادعاء أن الوقت قد حان لإبعاد الخطر عن حدود مصر الجنوبية. فقد تقدم الجنرال كتشنر، بصفته سيردار الجيش المصرى، وباسم سلطان تركيا، ولكن منفذاً للأوامر الصادرة إليه من لندن، وبتمويل من الخزانة المصرية تقدم جنوباً على رأس جيش أنجلو مصرى

(*) يقصد عبد الله التعايشى خليفة المهدى (المترجم).



إيرل كتشـــنر الخرطوم يرتدى الزى العسكرى كسردار الجيـــش المصرى فى الســـودان - وقد اشـــتهر عند الإنجليز بأنه بطل الخرطوم الذى سحق الثورة المهدية فى معركة أم درمان عام ١٨٩٨
(مجموعة مانسيل فى لندن)

ليتأكد أن السودان أصبح بريطانياً وليس فرنسياً. ولقد استغرقت حملة كتشنر مـا يقـرب مـن عامين لكى تصل إلى الخرطوم. وكان يقيم خط سكة حديد صـحراوى وهـو فـى توغله حتى وصل إلى بربرة Berber، وعلى مسافة مسـيرة خمس ساعات فقط ليسحق الخليفة فى السهل المقفر خارج أم درمان. لقد كانت معركة غير عادية وذلك لأن أربعة ألوية أنجلو مصرية تحت قيادة ضـباط أكفـاء تمكنت من سحق ٤٠,٠٠٠ درويش تماماً، مخلفة من ورائها عشـرة آلاف قتيل مقابل خسائر بلغت ١٧٥ بريطانى، ٢٧٣ مصرى ما بين قتـيل وجريح[٢٢]. كذلك قامت الكتيبة المعروفة باسم اللانسر Lancers والتى كان من بينها الملازم و.س تشرشل بهجوم مثيـر للعجب (ولكن ربما لم يكن ضـرورياً) مـن قـبل سلاح الفرسان. وفى النهاية سار كتشنر فوق صهوة جـواده المعد للقتال إلى الخرطوم، حيث آخذ تأره لمقتل سلفه بطريقة مروعة لافـتة للـنظر، إذ أمـر بنبش قبر المهدى، وبعد أن فصل رأسه ألقى به فى النيل، وأخذ رأسه لنفسه ليصنع منها محبرة، ولما علمت الملكة فيكتوريا بذلك التصـرف صـدمت بشدة، وعبرت عن ذلك بقولها: إن مثل هذا التصرف كـان مستسـاغاً بشدة فى العصور الوسطى فقط ولما أدرك كرومر بشاعة الفعـل الذى قام به كتشنر، دبر فى الوقت المناسب اخفاء الجمجمة بعيداً عنه ليأمر بدفنها بهدوء فى وادى حلفا.

ومـنذ تلـك اللحظـة رفـرف العلمان البريطانى والمصرى فوق الخرطوم، ولكـن كـان جلـياً مـنذ البداية أن إنجلترا كانت تنوى إطلاق يدها فى السودان تمامـاً مـثلما كانت الإدارة البريطانية تفعل فى مصر - متخفية بمهارة تحت اسم « السـيادة الثنائـية المالية » Financial Condominiun وبذلك أعلن ضم السودان إلـى حـوزة الإمـبراطورة البريطانية سياسياً فى شكل الحكم الثنائى. وفى ١٩ يـناير عـام ١٨٩٩ تم التوقيع فى القاهرة على واحدة من الألاعيب القانونية التى سـعت بلطـف إلـى إعطـاء الإيحـاء للاستجابة للمطالب التى أصبحت مطلباً شـرعياً لحكومـة جلالة ملكة بريطانيا بحق الفتح، وهذا فى الحقيقة وضع مصر وبريطانـيا فـى حالة صدام حول الحقوق الخاصة بكل منهما. إن حكم الخليفة لم يعيـث فـى البلاد كلها فساداً فحسب، بل أنه قضى على كل آثار الحكم المصرى القديـم. وبذلـك أسسـت إدارة بريطانـية خاصـة عرفت باسم « إدارة الخدمة

المدنـــية الســـودانية » Sudan Civil Service، وبذلـــك أصـــبحت الإدارة فى تزايد لتصـــبح أكـــثر « بريطانية » وأصبحت المساهمة المصرية فى النهاية ذات تأثير رمزى يماثل السيادة التركية على مصر ذاتها.

لـــم يكـــن هناك أدنى شك فى كفاءة الإدارة الجديدة، فمن أرض قفر كئيبة (بلـــغ دخلهـــا بالكـــاد عـــام ١٨٩٨ حوالى ٣٥،٠٠٠ جنيه إسترلينى مقابل ٢٣٥,٠٠٠ جنـــيه أنفـــق علـــيها) إلى سودان مزدهر قابل للنمو الاقتصادى مستقلاً تماماً عن مصر. لكن إحساسهم بأنهم قد أزيحو جانباً بعد أن ساهموا بأغلـــب الـــرجال والأموال لإعادة فتح السودان لكى تتمكن إنجلترا من إقامة اتصال آخر فى مسيرتها الاستعمارية من القاهرة حتى رأس الرجاء الصالح، كـــان أمـــراً يثير ضيق الصدر بشكل متزايد لدى الكبرياء الوطنى، حتى ولو من وجهة نظرى الخاصة رغم أن المصريين ربما يفضلون الابتعاد كلية عن السودان المتقد حرارة، إلا أنه لا يزال فى نظرهم هو تلك الأرض التى يتدفق مـــنها نهر النيل واهب الحياة لبلادهم. ومنذ اللحظة التى أطلق فيها مصطفى كـــامل صيحته: « وحدة وادى النيل » أصبحت المطالبة بالسيادة الكاملة على الســـودان جـــزءاً لا يتجزأ من الأمانى الوطنية تماماً مثل الجلاء عن مصر ذاتها.

ومـــن ثم، عندما شعر سعد زغلول بالإحباط من الطريقة التى خدعت بها مصـــر بإعلان عام ١٩٢٢، من الأمل المفعم بالثقة للحصول على الاستقلال إلـــى نـــوع من الاستقلال الناقص الزائف، فقد بدأ يضغط للحصول على ما اعترفـــت بـــه لندن وهى متمنعة « بالحقوق الطبيعية والتاريخية لمصر على نهـــر النيل ». بالرغم من أن سعد زغلول كان يقصد فعلاً السيادة الكاملةعلى الســـودان، وهـــنا تركـــز الصراع على رجل واحد بدرجة تثير الإرباك وهو السير لى ستاك Lee Stack بصفته " سيردار " على السودان وفى نفس الوقت القـــائد الأعلـــى للجـــيش المصرى. فقد كان يتمثل فى منصبه ليس أكثر من إيماءة ضعيفة تجاه حقوق مصر كما كانت ترغب فيها، بينما كان يميل بشكل رمـــزى واضح كل الوضوح لخضوع مصر للتاج البريطانى. وعندما اشتكى ســـعد زغلـــول أن قـــائداً أجنبـــياً أعلى لقوات الجيش المصرى: «فى وضع يـــتعارض مع كرامة مصر المستقلة » ردت وزارة الخارجية ببرود أن ذلك

قد وضع السردار « فى وضع صعب » ولكن لما حول سعد زغلول هجومه الدبلوماسى نحو السودان، وواجه الشخص التعس، أصبح موقف السير لى ستاك ليس صعباً فحسب، ولكن شديد الخطورة خاصة عندما ترامى إلى أسماع البرلمان بمجلسيه عبارة أن بريطانيا العظمى « ليس فى نيتها مغادرة السودان تحت أى ظروف كان »، فقد كان ذلك دعوة مفتوحة لوضع الأصبع على الزناد، ففى التاسع عشر من نوفمبر عام ١٩٢٤ بينما كان السير لى ستاك يقود سيارة من مكتبه فى وزارة الحربية عائداً إلى منزله فى أرض الجزيرة، تلقى وابلاً من الرصاص أطلقها سبعة من الرجال يرتدون زى الطلاب، وفى خلال ساعة من إطلاق الرصاص سارع سعد زغلول مذهولاً إلى دار المعتمد البريطانى ليعبر عن آسفة وفزعه غير أن ذلك لم يجدى شيئاً.

وهنا قام اللورد اللنبى الذى وصفه ويفل Wavell بأنه جنرال متفجر An Explosive General بالسير وهو فى زيه العسكرى الكامل إلى المجلس. وسلم إنذاراً كالرعد طالب فيه بتقديم اعتذار رسمى، وإجراء تحقيق شامل لحادثة الاغتيال، وحظر كل المظاهرات السياسية ودفع غرامة تعويض قدرها ٥٠٠,٠٠٠ جنيه إسترلينى والانسحاب الفورى لكافة القوات المصرية من السودان، وتحويل مياه النيل للقيام بمشروعات للرى فى السودان، وأحكام قبضة بريطانيا على وزرات العدل والمالية والداخلية. وعندما رفض المجلس الشروط الثلاثة الأخيرة « والتى كان لها علاقة ضئيلة على آية حال بالمأساة »، قامت القوات البريطانية باحتلال جمارك الإسكندرية وفرضت نفس التعليمات على السودان ذاته.

لقد كان الوضع خطيراً أن تفقد مصر استقلالها ومعها السودان، ولذا اتخذ سعد زغلول الخطوة الوحيدة التى كان يقدر عليها وهى تقديم استقالته. وقام الملك بحل البرلمان الذى كان يسيطر عليه الوفد، وتشكلت حكومة إمعة تحت رئيس وزراء من اختيار القصر وهو زيوار باشا، الذى كان بديناً للغاية.

ونفذ حكم الإعدام فى عدد من قيادات الوطنين وعندما عادت كل الأطراف المعنية لى ثوابها كان واضحاً أنها كانت سحابة صيف قد انقشعت،

وبذلك أسدل الستار عن الفترة الثورية التى بدأت عام ١٩١٩.

لقد حصلت مصر على صيغة رمزية للاستقلال بمعنى أن أحمد فؤاد كان مــن الناحــية الظاهرية ملكاً على مملكة مستقلة، وأصبح سعد زغلول ومن ورائــه كــل آمــال وتطلعات المصريين صعيداً تحت تهمة أنه المسئول عن الموجة الإرهابية عامة، إن لم يكن المسئول الفعلى عن اغتيال السردار. ومن ثم أصبحت بريطانيا ممثلة فى اللورد لويد Lloyd تمسك تماماً بزمام الأمور، وخــلال الســبع والعشرين سنة القادمة سيطر على المسرح السياسى صراع مثلث الأضلاع بين المعتمد البريطانى، والقصر، والوفد.

الفصل الرابع عشر

الصراع الثلاثى للقوة

تعـــنى كلمة (وفد) الممثلين المفوضين، وهو فى نشأته كحزب سياسى كان أمـــراً غريبا، غير متبلور على نحو نموذجي " كاليخني " الطبق الشعبى بدءاً مـــن الشربة الخضراء المعصجة المليئة بالتوابل صعبة الهضم والتى يضاف إليها كل شيء: تلال من الأرز، الدجاج، ولحم الضأن، والزبيب، والخل وكل مــا يجـــده الطباخ لديه(*). فقد كان الوفد خليطا من كل الجماعات السياسية، لســان حـــال الطـــبقات المختلفة لكل الشعب، فقد اشتمل على – حد كلمات لاكوتـــير Lacoutures – « كل من جاد بنفسه كالمثقفين، والمشوشين فكريا، والأنـــاس الطيبيـــن سليمى الطوية، والمتناقضات وحب المبالغة والإفراط فى التخيلات للملايين من مؤيديه».

لقـــد كان الوفد استكمالاً لمنهج سعد زغلول (الزغلولية Zaghloulis)، فقد كـــان ســـعد زغلـــول هـــو كاهنه الأكبر. كما أنه نبع من ينبوع الصراع مع المعـــتمد الـــبريطانى، ولـــم يكـــن لديـــه سياسة واضحة سوى التخلص من البريطانيين، كذلك لم يكن للوفد لون سياسى معين، فلم يكن من الأحرار ولا الاشـــتراكيين، ولا حـــتى أى مذهب يمكن تحديده، ولكنه لكل الناس كان كل شـــيء، إذ أن تعدديته الديموقراطية جذبت إليه الناس من سائر الطبقات: من أكـــبر مـــلاك الأراضى، وأفقر الفلاحين، وأشد الغوغاء ميلا للإثارة. وأكثر المثقفيـــن ميلا للتفكير الهادئ. كل طرف انجذب إليه مدفوعا باعتقاداته حول الشـــكل الـــذى يجب أن تكون عليه القضية الوطنية وما يمكن اصطياده من أسماك البركة.

وعلـــى مدى ثلاثين عاما كان يلعب دورصمام الأمان للكبت العاطفى، فقد

(*) الكلمـــة التى وردت فى النص هى الملوخية Molochia واعتقد أن ما يقصده المؤلف هو اليخنى لأن تفاصيل الوصف هى التى تنطبق على ما يقصده المؤلف.

كـــان مـــيدانا آمـــنا للصيد للبشوات، إذ لم يكن لديه جناح يسارى ينحاز إليه بعــض الأعضـــاء، بل ساحة للاحتجاج ذى الضجيج يستطيع من خلاله أدنى الفلاحين وضعا أن يجد فيه بعضا من أمانيه المشوشة، ونقمته وسخطه، حتى الشـــباب المـــيال إلى اليسار والمثقفين وجدوا أنفسهم يخطبون «ديما جوجية» ســـعد زغلـــول ومصـــطفى النحاس غير المعقدة، وكلاهما جاءا من خلفيات فلاحـــية، وبذلك كان فى استطاعتهم اللعب بأمزجة الجماهير على نحو بارع، ولكـــن بسبب عدم وجود نظرية أو برنامج محدد كان الوفد دائم الاندفاع، وله تأثـــير كبـــير وله نفوذ عندما يكون فى المعارضة. وفى كل مرة تجرى فيها انـــتخابات حرة يعود الوفد بأغلبية ساحقة، وراح يشق طريقه بصعوبة، ثم بدأ الجانـــب المظلـــم مـــنه فى الظهور، فقد كان قادته مهتمين بلا مواربة بجمع الـــثروات بشتى الطرق والوسائل الممكنة حتى أصبح فساد الوفد نكات تتردد فى قاعات الموسيقى. وتابع الناس فى المقاهى والبارات غرائب حرم النحاس باشـــا وأســـرتها خـــلال الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين بضحك كالـــبكاء، كما أن صورة الوفد لم تتحسن كثيرا بسبب النزاعات المستمرة بين قادتـــه، وبسبب الأحزاب التى انشقت عنه. كان الوفد ببساطة فى المعارضة ثلاثـــة أربـــاع الوقت، فمن ناحية غرر به القصر بدهاء ليبقى خارج الحكم، ومـــن ناحـــية أخرى فعل البريطانيون نفس الشىء وكلاهما لم يطق بقاءه فى الحكـــم إلا عند الضرورة كما حدث عام ١٩٣٦ من أجل التوقيع على معاهدة ١٩٣٦ بيـــن إنجلـــترا ومصر.، وكذلك فى أكثر الأوقات حرجا وخطورة فى الحـــرب العالمـــية الثانـــية وذلك للحصول على ثقل التأييد الجماهيرى خلف الحكومة.

إن مثل هذه المنـــاورة ضد حزب يمثل الأغلبية - إن كان ممكنا بالمرة - تفســـره حقـــيقة أن إعلان ١٩٢٢ الذى جعل من فؤاد ملكا على مصر، كان بمـــثابة عـــودة زمـــام السلطة إلى أسرة محمد على، فطبقا للدستور كان لدى الملـــك ســـلطة تعييـــن رئيس الوزراء وتعطيل البرلمان، ومثل أغلب الملوك الذيـــن يحكمون دون موافقة شعوبهم، كان ينظر إلى الوفد وجماهيريته بعين الشـــك لأنه كان يعلم أنه فى أعماقه جمهورى الهوى، وعاطفيا يقف فى وجه

المعارضـــة للقصر ولطبقة الباشوات المميزة الذين كانوا رجال الملك. وكان نفوذ القصر والباشوات يضمنه وجود الحاميات البريطانية، وأن يكون الجيش المصرى تحت قيادة كبار الضباط البريطانيين، وكان فى مصلحة القصر كلية أن يعقـــد اتفاقـــا صلبا وطويل المدى مع إنجلترا، وطوال فترة خلط الأوراق الـــذى لا طـــائل منها فى السياسة المصرية خلال العشرينات والثلاثينات من القـــرن العشـــرين، بل فى واقع الأمر حتى قيام ثورة ١٩٥٢ كانت السياسة تســـير على نفس الوتيرة: القصر يحاول الحكم بدون مساندة الجماهير، الوفد يـــريد التخلص من البريطانيين وفى نفس الوقت من طبقة الباشوات الرجعية المغلقـــة على نفسها، والبريطانيون (الذى ظلوا فى مصر لأسباب استعمارية واســـتراتيجية) القوة الحقيقية يقبعون فى الخلفية. لقد كان الوضع أشبه بمثلث سياســـى تمكـــن ضـــلعان فيه من وضع الضلع الثالث عند حده ففى كل مرة تجرى فيها انتخابات نزيهة كان الوفد يعود إلى الحكم بأغلبية ساحقة، وما أن يشـــرع فى إثارة مسألة إخراج الإنجليز وتصبح مثارا للقلق، حتى يقوم الملك فؤاد بحل البرلمان ويحكم بالقرار الملكى، ولم يكن فؤاد الذى تلقى تعليمه فى إيطاليا بعاشق للبريطانيين الذين كان مفوضوهم ميالين للضرب على الأصابع الملكـــية بـــألم، إلا أن الملـــك والباشوات على حد سواء كانوا فى حاجة إلى الوجود البريطانى كنوع من سياسة تأمين بقائهم الأبدى بالرغم من أنهم كانوا ينافقون الجماهير فى مطلبها بالجلاء.

هكذا كان الحال، ففى كل مرة كان فيها الوفد يصرخ محدثا ضوضاء لكى يخرج البريطانيون، كان يبعد عن الحكم عن طريق الوسائل الدستورية إذا ما تجـــاوز حـــدوده، بيـــنما كان رجال القصر يتظاهر بدعم الحركات المطالبة بـــالجلاء نفاقـــا، وفـــى الخفاء يؤكدون لدار المعتمد البريطانى أن ذلك مجرد استهلاك محلى وأنهم فى الحقيقة يؤيدون بقاء البريطانيين.

ومهمـــا مـــا قـــد يقوله ضلعا المثلث الآخران، ومهما ما قد يفعلانه، فإن البريطانييـــن كانوا هم القوة المهيمنة، وكانوا ينوون البقـــاء بـــقدر ما كان يناســـبهم، وقـــد أعلن المندوب السامى اللورد لويد - حاكم بومباى السابق - عـــن ذلـــك بوضـــوح، والذى كان الحل عنده لأى مشكلة هو إرسال بارجة

حربـــية، حـــتى ضاقت به الهوايتهول ذرعا، فاستبدلته بالسير بيرسى لورين Percy Lorraine الذى كان يميل نحو الأسلوب الدبلوماسى.

ولأنـــه كـــان يمتلك ملعبا لسباق الخيول، « وسنيور » بمعنى الكلمة، فقد كان السـير بيرســـى لوريـــن خبـــيرا فـــى تهدئة الأوضاع الثائرة، كما لعب أسلوبه المجـــامل وشـــعبيته الشخصـــية دوراً كبـــيرا فـــى تمهيد الأرضية لعقد معاهدة ١٩٣٦. كـــان الســـبب الرئيســـى لعقد هذه المعاهدة هو تدهور الموقف فى العالم إذ لـــم يكـــن مـــن المستطاع تجاهل الغزو الإيطالى لكل من طرابلس والحبشة، وصـــدور الـــتهديدات الداعـــية للحـــرب مـــن قصـــر بلانزو فينيسيا Palazzo Venezia فـــى رومـــا(*) ومـــن أجل اعتبارهم الدولى، لم يكن البريطانيون على اســـتعداد للســـماح تحـــت أى ظـــرف مـــن الظروف لحدوث تآكل فى وضعهم المهيمـــن علـــى الـــبحر المتوســـط، ومن ثم كان واضحا أنه لابد لهم من العثور علـــى حـــل للوضـــع فـــى مصـــر. ذلك الوضع الذى كان قابلا للانفجار فى أى لحظـــة. وعـــن طـــريق المـــناورات اللبقة أمكن التوصل إلى اتفاق بين أضلاع المثلـــث الـــثلاث. فقد أجريت فى عام ١٩٣٦ الانتخابات، وكما هو معتاد جاءت بـــالوفد إلـــى الســـلطة. وتوصـــل الـــنحاس باشـــا الذى كان على رأس وفد من الوفديـــن وبعـــض القـــيادات السياسية. والأحزاب الأخرى إلى اتفاق معقول مع لـــندن بعـــد لأى طويـــل. فلقـــد كانـــت معاهدة ١٩٣٦ وثيقة واقعية فى ضوء الظـــروف الـــتى كانت سائدة فى ذلك الوقت. إذ أعلنت انتهاء الاحتلال العسكرى الـــبريطانى لمصـــر، فـــى حيـــن أن بريطانيا احتفظت لنفسها بحق وضع قواتها علـــى طـــول قناة السويس ما دام التحالف قائما والذى كان ينتهى عام ١٩٥٦، ما لـــم تمـــد المعاهدة باتفاق الطرفين. كما ألغت نظام الامتيازات الأجنبية، ووافقت بريطانـــيا علـــى تبنى طلب مصر للحصول على عضوية مقعد فى عصبة الأمم كدولـــة مســـتقلة ذات سيادة، كما حرص الطرفان على تجنب طرح مسألة السيادة علـــى الســـودان، غـــير أن الحظر الذى كان قد فرض على المشاركة المصرية فى الحكم الثنائى عقب اغتيال السير لى ستاك قد رفع تماما.

(*) مقر الدوتشى موسولينى زعيم الفاشية الرسمى.

ولقد حمل هذا الاتفاق قائمة مثيرة من التوقيعات شملت تقريبا كل من كان له نفوذ فى ميدان السياسة المصرية فى ذلك الوقت. كما أنها أرضت تطلعات أحـــزاب الوســط والوطنيين على السواء، وحقق لمصر السيطرة التى تطلبها على القناة. لقد كان بالفعل خطوة حقيقية إلى الأمام بالنسبة لمصر أعطت كل الآمـــال بدعم علاقات الصداقة بين البلدين. غير أن هناك بعض العوامل التى خدعـــت عيون الناظرين فى الكرة البللورية لقراءة المستقبل، وهى أن سحب الحـــرب التى كانت قد بدأت تتجمع سوف تؤدى إلى تزايد التدخل البريطانى فـــى شـــئون مصـــر وليس الإقلال منه، فقد ظهر السير مايلز لامبسون Sir Miles Lampson الـــذى وقع المعاهدة نيابة عن بريطانيا فى هيئة رجل ذى كـــرش كبـــيرة كمـــا ظهر فى الكاريكاتير - كرمز للبيروقراطية البريطانية. ومـــات الملـــك فـــؤاد الداهية عشية توقيع المعاهدة وخلفه ابنه النحيل البنية، العارم الشعبية، والمسمى بفاروق.

وبصـــرف النظر عن الفوران الثورى لعام ١٩١٩ الذى جلب السياسة إلى الشوارع، فإن مثلث القوة فى العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين كان قد انحسر، وتحول إلى دوامات من خلف القصور الملكية ذات الوجهات على الطـــراز الإيطالى، وأبواب قصر الأميرة شويكار ذات الطابع البندقى الحديث المنتشـــر فى كل مكان (والذى أصبح فيما بعد مقر مجلس الوزراء)(*) وفى قاعـــات الاستقبال ذات الأعمدة فى مبنى دار المعتمد البريطانى. وإذا أسقطنا من حسابنا بعض المجموعات المعممة التى كانت تتقابل فى الأركان الجانبية به فى قهوة الفيشاوى فى خان الخليلي، وهتافات الشعارات التى كان يقوم بها الطلـــبة مـــن آن لآخر حيث يفرجون عن انفعالاتهم بإشعال النار فى ترام أو ترامين إلى أن تتولى الشرطة مطاردتهم، فإن الأجنبى العادى (وهو لا يدرى أن القـــوات البريطانية تحميه) ظل يمارس أعماله بعدم اكتراث وترفع خاصة

(*) أوصت الأميرة شويكار بأن يتحول قصرها بعد وفاتها إلى مقر لمجلس الوزراء. وقد توفيت عام ١٩٣٥ (المترجم).

إذا كـــان يعــيش في الإسكندرية التي تقابل فيها أحداث القاهرة بهز الكتفين، استهجانا، وبابتسامة الظرف الساخرة.

ولأن الإسكندرية - رغم أنها كانت المركز التجارى لمصر - كانت تعتبر نفسها مصرية بصعوبة. فموقعها الغريب الذى يشبه موقع جزيرة يكاد يفصل رأســها عــن البر الرئيسى بحيرات مريوط ذات الملوحة الفاترة، يجعل فى اســتطاعة الإســكندرية أن تمــد أذرعتها التجارية الطويلة إلى قلب الصعيد الأســمر اللـــون، بــل إلى أعمق من ذلك إلى قلب أفريقيا السوداء، غير أن محيطها وروحها كان أوربيا وليس مصريا تماما مثلما كان حالها عندما كانت عاصــمة للإســكندر الأكبر منذ ألفي عام مضت. وإذا كانت اليوم لم تعــــد تتــبــــاهى كمـــا كانـــت تفعل قديماً فى العصور الإغريقو - رومانية بأنها المديـــنة التى تجلس على عرش البحر المتوسط، إلا أنها من الناحية الحسابية كانـــت أكــبر ميــناء تقع عليه (ولا يسبقها فى ذلك غير مارسيليا)، كما أن رجـــال الأعمـــال فـــيها كانوا يمثلون دول العالم كله، وعلى اتصال بعواصم أوروبا[٢٣]، وليس عن طريق السيارة البنتلى Bentley التى تحمل رقم ٢(*)، بل عن طريق جوازات سفرهم أيضا، وحتى البطالمة المقدونيين كانوا نسيجا أوروبــيا، غـــير مرتبطيـــن سواء من خلال الثقافة أو الذوق العام أو طريقة المعيشـــة بباقى سكان الدلتا المتكدسين من خلفهم - حتى بعد تجديدات محمد علـــى فـــى القرن التاسع عشر التى أولاها للمدينة، إلا أن هذه التجديدات لم تغـــير ســـوى القليل فى شكل المدينة ذات المبانى من الرخام، والتى وصفها عمرو الفاتح العربى بأن تحوى ٤٠٠٠ قصر، ٤٠٠٠ حمام (٤٠٠مسرح{؟}) ١٢,٠٠٠ مـــتجر و ٤٠,٠٠٠ يهودى، أما المدينة الجديدة فقد نجحت بطريقة غريـــبة فـــى تحقيق الرخاء من جراء المضاربين فى بورصة القطن، وتجار البصـــل لكـــى تبعث من جديد فى نزعتها اليومية فى ثوب ذى مذاق ورونق سهل، مثل أناقتها الماكرة التى كانت عليها أيام العصر الهللينى.

وربمـــا كان قدر كبير من روحها المشرقة يعود ببساطة إلى مقاهيها ذات

(*) يقصد سيارة المعتمد البريطانى (المترجم).

طراز بلدان البحر المتوسط لأن ذلك لم يكن أكثر من مظهر تخيلى، إذ كانت الـتعاملات اليومية تتم فى مناخ خانق من المخادعات والمغالطات التى دائما تحلـق فوق حافة الممارسة الحادة، غير أن الحياة الاجتماعية كانت إلى مالا نهاية عالمية الطابع، ذات خليط مغر لحياة الدعة والوفرة التى تعكس صدى، بل تشبعها بالإشعاع الدولى القادم من روما وخاصة الارستقراطية القادمة من أثيـنا ولذة الحياة dulce vita مثل بالرمو أو الجزائر، فقد كان أمرا عاديا أن يخـرج المـرء ليتـناول عشاءه أربع أو خمس ليال أسبوعيا، وأقل ما يتوقع المرء على المائدة ستة عشر شخصاً حيث يتناولون أطباقاً فى غير موسمها، وكثيرا ما كانت تجلب من فرنسا أو إيطاليا. وغنى عن القول أنه لم توجد فى ذلـك المجـتمع سيدة لا يمر ببالها أن ترتدى نفس الثياب أو حتى نفس القبعة مرتين (كان هناك بعض الحوانيت المفيدة التـى تؤجرها لفترة المساء، أما فى المناسبات الكبرى فقد كان مـن المعتاد de riggeur أن تطلب الواحدة ملابسـها ومصـفف شـعرها ليصـل من باريس صباح يوم المناسبة، وكن يتعرضـن لخفقان القلب والقلق خوفا من ألا تصل فى الوقت المحدد بالرغم مـن أنهـا كانـت تصـل فى حينها) « فالمودة » كانت تعتبر إحدى وسائل الإمـتاع. فالمضيفة إذا كانت تود أن تصبح سيدة مجتمع فإنها تتصدر المائدة الـتى يقـدم عليها وجبة تتكون من اثنى عشر طبقا، بينما تضع أمامها طبق شـربة بـه ببساطة مجرد ماء ساخن، ومن آن لآخر يحضر السفرجى جهاز التلـيفون لـتقوم صـاحبة المأدبة بأجراء محادثة مفعمة بالحيوية مليئة بآخر الأخبار، أو تقوم المضيفة بالتفاوض على صفقة مهمة، أما الصفقات التجارية فقد انسابت بلا توقف خارج المكاتب لتعقد حول موائد الشاى، أو فى مقاصير خاصـة ملحقـة بدور السينما، حيث تعقد صفقات مثيرة للاهتمام مثل بعض الكماليات كشحنات ورق الحمام، أو علب البيرة. أما البرنامج اليومى للمثقفين مـن كـل الأعمار فقد كان مليئا بكل أنواع التسلية: تناول القهوة المثلجة فى مقهـى ونكـى Wenki صباحا، يتلوها تناول مشروب فاتح للشهية فى مقهى بودروت Baudrot، ثم تناول الغداء فى اليونيون بار Union Bar (الذى كان

فى أوج عصره ربما أحسن مطعم فـــى أفريقيا) ثم ممارسة لعبة الجولف أو الـــبولو بعد الظهر فى النادى الرياضــــى (اسبورتنج كلب) Sporting Club. ومـــن خلف النوافذ ذات الإطار النحاسى لنادى اليخت الملكى يتراءى طيف العجائـــز مـــن النساء بشعورهن المصبوغة باللون الأزرق، وبالألماس لكى يتباهيـــن بأنهـــن مـــن علـــية القوم (beau monde) وهن يحملقن من خلال نظارات الأوبرا المقربة ليشاهدن مجموعات الشباب وهم يتلقون المساعدة فى مراكـــب شـــراعية تـــنطلق بســـرعة للقـــيام بنزهة بحرية فى الميناء وقت العصارى، مزودين بجهاز الجرامافون وعلب الفطائر المغطاة بالكريمة. وفى داخـــل حجـــرات النادى لم يكن مسموحا بارتداء زى الإبحار، فقد حدث ذات مرة عام ١٩٤٢ أن طلب سكرتير النادى الإنجليزى من مجموعة تضم: ملك الـــيونان، ونيل كوارد Noel Coward ولورد كيس Lord kayesأن يغادروا المكان لأنهم كانوا يرتدون السراويل البيضاء القصيرة الخاصة بالبحرية.

وخـــلال فصل الشتاء كان تقام حفلات الرقص مرة أو مرتين فى الفنادق المخـــتلفة، أما كازينو سان ستيفانو فقد اشتهر بالديكورات ذات المغزى التى كـــان يـــنفذها بمهارة مهندس الديكور الروسى رانكوفيتش Rancovich فمثلا عـــندما أضـــرب عمال الفحم فى أوروبا، صمم قاعة الرقص فى هيئة منجم فحـــم. كانـــت حفـــلات الشـــاى الراقصة th dansants كثيرة ومتعددة، أما ســـهرات الشـــاى th prolonges فى البيوت الخاصة فقد كانت نادراً ما تبدأ قـــبل الســـابعة والنصـــف والـــتى كانت فى الحقيقة تشتمل على بوفيه عامر بالوجـــبات الســـريعة. هذا كله يعنى أن النساء المتتبعات لأحدث المودة كن يرتدين ثياب السهرة أغلب الأمسيات. أما الرجال فقد كانوا أقل اهتماما بزى الســـهرة، حـــتى أن رئيس الجالية اليونانية كان حظه سيئا عندما ظنه البعض جرســـونا! لقد كان جمال السكندريات وعلو ثقافتهن، ولطف الرجال يكاد أن يكـــون شيئاً أسطوريا، وبالفعل كان كل شيء يدور حول الجنس اللطيف مع شـــيء مـــن الغرابة أو النرجسية، والتى جنباً إلى جنب مع حب المال تمثلان الرغـــبة الوحـــيدة الحقيقية عند السكندريين، والتى كانت المحك ليس لدهائهم

الجـــاد الماكر فحسب، بل لصداقتهم الدافئة المفعمة بالنفاق. هكذا كانت الثقافة فـــى موطـــن افلوطين Plotnus وأنسطاسيوس تكاد تلمس سطح حياة الناس المكرسة لراحة البال والرفاهية. فكثير من الشخصيات المرفهة تنقلها سيارات الليموزيـــن إلى حفل موسيقى فى قاعة الهامبرا Alhampra أو إلى موعد فى الأتليـــيه L Atelier وكانـــت قادرة على التفاهم بست لغات، لكنها لم تكد تجيد واحدة منها. ولكن بالرغم من كل عيوبهم كان هناك سحر مقدر ومتألق لدور الإســكندرية فـــى الـــبحر المتوســط، والتى ماتت وخمدت الآن مثل المدينة الإغريقـــية للبطالمة التى ألهمت إ.م فورستر E.M Forster لكى يؤلف أحسن كتاب مرشد كتب حتى الآن عن أى مكان، ويرسم لورانس داريل Lawrence Durrellملامـــح تدهـــور جوانـــبها الـــتى كانت مشرقة والتى دفعت بكافافى Cavafy أن يصبح شاعر المدينة الأول. هل أدرك كفافى أن الإسكندرية التى يبغـــيها قد حكم عليها بالفناء؟ ربما أدرك ذلك لأنه عندما رجع بذاكرته الفى عـــام إلـــى الـــوراء، حيث كان انطونيوس يعانى سكرات الموت بدأ قصيدته بطـــريقة غريـــبة كمـــا لو كان يكتب تأبينا لمدينته الوهمية التى كان وقتذاك شديدة الازدهار، وواثقة من نفسها، لكنها فجأة تتحلل إلى مجرد ذكرى واهية تحمـــل عطر الياسمين، واليوم كل ما تبقى من المدينة التى أحبها حباً جماً هو مجـــرد الشـــوارع، والمبانى، والنسيم القادم من البحر كالبلسم، الشافى والتى كتب وداعا لها كما لو كان يتنبأ قال فيه:

إذا سمعت فجأة عند انتصاف الليل ترنيما

من منشدين عابرين يعزفون فى الدجى لحنا شجيا

فقم ولا تندب أفول نجمك الذى قد غاب

أو سعى عمرك الذى قد خاب

أو كل ما دبرته فبات وهما كالسراب

عليك أن تكون قد أخذت أهبتك

مثل الكماة درعا لشجاعتك

حتى تقول للحبيبة وداعا يا إسكندرية

وقبل كل شيء لا تخادع نفسك العصية

لا تقل كان مناما فصحوت

أو أن أذنى أخطأت أدرك صوت

حذار من تلك الأمانى الخاويات لا تذعن لهن

عليك أن تكون قد أخذت أهبتك

مثل الكماة من زمن

عليك أن تكون أهلاً للمدينة

فقم إلى الشباب فى سكينة

أنصت إلى الأنغام فى شجن

لكن بلا صلاة أو شكاة من جبن

هذا انفصام الزمن

أنصت إلى الألحان فى آلات سحر عبقرية

علوية الأوتار صوفية

هذا وداعى الآن يا إسكندرية

(قلها وزد)

تلك التى تضيع الآن من بين يديه(*)

(*) صاغها شعراً لى الزميل الأستاذ الدكتور محمد عنانى رئيس قسم اللغة الإنجليزية.

الفصل الخامس عشر

بذور الثورة

كتب مسئول بريطانى فى منتصف الثلاثينيات (من القرن العشرين) يقول: «أنه على الرغم من أن مصر يحكمها ملك، ويقدم له المشــورة برلمان، لكن هــذا الــنظام نظــام مزعج لدرجة تبنيه أسلوب حكم طلبة المدارس، وذوى القمصـــان الــزرقاء: لقــد كــان تلاميذ المدارس يفرضون رأيهم بالحجارة والــزجاجات المهشــمة، أمــا ذوى القمصـــان الزرق فبالخناجر والهروات المكســوة بـــالجلد »، ثم استطرد الكاتب موضحاً لصالح قراء مجلة: أضواء شــرقية Oriental Spotlight: « هــذان الحــزبان السياســيان طويلاً النظر والمــتعقلان قــد اندمجــا الآن فى جبهة واحدة، ويطلقان على نفسيهما اسم «الجــبهة المتحدة » أنها صيغة رخيصة لدرجـــة التواضـــع للحكومات، ولا تكلــف شــيئاً، فــلا رواتب ولا أجور تدفع لزعمائها، وكل ما يتوجب على الــبلاد فعلـــه هو تعويض شركات التزام عن العربات التى أحرقوها، وإعادة تركيـــب مصـــابيح الشـــوارع مرة كل أسبوع، وتعويض رجال البوليس عن جماجمهم المحطمة ».

وربمـــا أدرك قراء مجلة « الأورينتال سبوت لايت » ذلك التفسير. ولكن كمـــا حـــدث كان أكثر الشـــخصيات الذين أطلـــق عليهـــم الميجـــور: س. جارفـــيز C. S. Jarvis «حكومة التلاميذ» حماساً شاب طويل القامة، ذا بشرة داكـــنة بلون زيت الزيتون، يبلغ من العمر سبع عشرة عاماً، وخلال الأحدى عشرة عاماً من دراسته فى المدارس نجحت محاولاته فى اجتياز مرة واحدة فـــى المـــرحلة الـــثانوية، وثلاث مرات فى المرحلة الابتدائية. فخلال شهر رمضـــان عام ١٩٣٥م أصدرت الخارجية البريطانية ما يمكن أن نسميه الآن بالبيان الروتينى من أجل سكب الماء البارد على اقتراح مصر لتخليص البلاد من القوات البريطانية. ورد النحاس باشا – زعيم الوفد – بتوبيخ روتينى من جاردن سيتى. إذ صاح قالاً: « إن المصريين سيحاربون ويموتون طالما بقى جندى انجليزى واحد على التراب المصرى»: واستجابت له الجماهير – كما

كانــت تفعــل دائماً، فتدفقت مجموعات من المظاهرات غير المنظمة يقودها الطلاب عبر الشوارع. ووقعٍ صدام مع رِجال البوليس تلقى خلاله ذلك التلميذ ذى البشــرة الزيتــية جرحا أحدث فتحاً فى جبهته. وفى اليوم التالى وصفت الصحف هذا الصدام، وذكرت أن من بين المصابين وزير الحربية الذى تلقى كســراً فــى جمجمــته وطالب اسمه جمال عبد الناصر. وبعد انقضاء شهر وتحــت ضــغط موجات المظاهرات، وافقت بريطانيا على أجراء مفاوضات توجت بعقد معاهدة ١٩٣٦.

ولــد جمــال عبد الناصر فى ١٥ يناير عام ١٩١٨ فى حيٍ « باكوس » بالإســكندرية ذلــك الحى الملئ بالأسواق، فقد كان أبوه رئيساً لمكتب البريد، وعــندما نقــل أبوه فيما بعد إلى قرية الخطاطبة الصغيرة الواقعة على حدود صــحراء مصــر الغربيــة، انتقل هذا التلميذ إلى مدرسة فى القاهرة، وهناك عاش مع عمه فى شقة صغيرة آيلة للسقوط فى قلب حى الموسكى. كان عمه مــن الــثوار وكان قد خرج لتوه من السجن بعد قضاء عدة سنوات لتنظيمه مظاهرات ضد البريطانيين.

أما بالنسبة له فقد بدأ الشاب جمال ينمي عاطفة وميلا نحو العمل السرى، وتدبــير المؤامــرات، لقد كان ولداً صغيراً ولكنه عنيد، شديد الاعتماد على نفســه، قضــى أيامه فى الحوارى الضيقة المزدحمة بحى الأزهر. فهو مثل نموذجــى لابن الشارع الذى يتصف بالعداونية، لا يطيق أى سلطة بأى شكل من الأشكال.

لقــد كان فى التاسعة من عمره عندما رحلت أمه، ومنذ تلك اللحظة لم تعد لحــياة الأسرة أى معنى عنده، فقد اتجه أكثرٍ فأكثر إلى التوقوقع على نفسه، يضــفى علــى أكثر الأحداث ضوضاء ستاراً من السرية، تسعده المؤامرات والمؤامرات المضادة، وشيئاً فشيئاً بدأ بتلقى من عمه مذاق الأحلام الثورية.

وفــى أثــناء المــرحلة الــثانوية سرعان ما تورط فى مظاهرات غذتها الأحــزاب المعارضــة، فقــد انضم إلى حزب « مصر الفتاة ». وهو حزب

الشــباب المصــرى، ولــم يمض وقت طويل حتى راح يقضى أيامه متحدياً معلمــية، ومحدثاً لأعمال الشغب فى ساحة جامعة القاهرة، أو متلقياً أو منفذاً تعلــيمات الحــزب. كــان ذلك بالنسبة له أكثر إثارة من الجلوس فى الفصل حزيــناً، يسترجع ذكريات الأيام التى تدور بذاكرته أن أحد الكتب المقررة فى دروس الإنجلــيزية كــان كتاب البارونة أوركيزى Baroness Orczy المسمى Scarlet Pimpernel (كزبــرة الثعلــب القرمــزيه)(*) لقــد كان يستمتع بهذه الــرواية، وربمــا قال لنفسه: « هذا رجلٍ بدأ حياته كما لو كان بدون فائدة، ولكــن انتهى به المطاف أن يكون زعيماً ». ومن بين الأبطال الذين عرفهم أيام صباه «نيلسون»، وهكذا نسج التلميذ الثائر خيالاته الخاصة. فقد بدا لنفسه أنه بطل يبحث عن دور، وفيمــا بعــد بوقت طويل عاد إلى نفس الفكرة فى كتابه فلسفة الثورة(**).

وفــى أثناء ذلك، ومع وجود أثر للضربه على جبهته، أصبح له ملف لدى الشرطة، وقد حاول ناظر مدرسته الذى ضاق ذرعاً بذلك الصبى الذى يسبب المشــاكل، أن يــتخذ مــن ذلك حجة لفصله. وكان رد الفعل أن قدم التلاميذ الآخرون التماساً طالبن إعادته، وعندما رفض الناظر ذلك، أعلنوا الإضراب، وهــددوا بإشــعال النيران فى المدرسة، واضطر ناظر المدرسة إلى إحضار جمال فى عربته الخاصة إلى المدرسة. وكان ذلك انتصاراً شخصياً لناصر – الأول فى حياته.

وبعــد مضـــى بضعة شهور، وقعت مصر وبريطانيا عام ١٩٣٦ معاهدة تعــترف بالمســاواة عند التعامل بين البلدين، وتحدد وجود القوات البريطانية بمــنطقة قــناة السويس المحددة إلى أن تصبح مصر ذاتها قادرة على ضمان

(*) إحــدى النباتات ذات أزهار قرمزية أو أرجوانية تغلق على نفسها حين تسوء الأحوال الجوية (المترجم).

(**) جمال عبد الناصر: فلسفة الثورة، دار المعارف بمصر، سلسلة اخترنا لك ص ٢٦١، ٦٢ (شخصيات تبحث عن مؤلف)..... المترجم.

تأميــن الملاحــة عــبر ذلك الممر المائى. ولقد استقبل هذا الاتفاق بالترحاب كنصر كبير تحقق لمصر، غير أن العينين النافذتين للشاب جمال عبد الناصر لــم تكونـــا مقتنعتين. فالإنجليز لا يزالون فوق الأرض المصرية، وعلى أى حـــال انتهت أيام المظاهرات، وكان عليه الآن أن يفكر فى مستقبله، فقد تقدم للالـــتحاق بالكلـــية الحربية، ولما لم يكن لأسرته أى نفوذ، فقد رفض طلبه. فالتحق لفترة وجيز بكلية الحقوق جامعة القاهرة.

وكـــان ذلك يعنى أنه سوف يعيش لوقت يكاد أن يكون غير محدد فى بيت والـــدّه ولمـــا كـــان عل علاقة غير طيبة بوالده وزوجه والده، فقد سعى مرة أخـــرى للالـــتحاق بالجـــيش بالتجرأ على مقابلة سكرتير وزارة الحربية فى مكتـــبة. ولقـــد تأثـــر اللواء بروح المبادرة لديه، وبالحماس الذى عرض بها حالـــته، فســـجل اسمه للعرض على لجنة الاختيار، وحتى ذلك الوقت كانت رتـــب الجيش العليا وقفاً على أبناء الأثرياء، فلكى يصبح المرء ضابطاً كان علـــى المـــتقدم فـــى أغلـــب الحالات أن يقنع السلطات (بطريقة غير رسمية بالطبع) أن لدى اسرته دخلاً لا يقل عن ٢٠٠٠ جنيه استرلينى سنوياً ليضمن افتراضـــا أنـــه جـــزء من « المؤسسة »، ولكن بعد أن حصلت مصر على اســـتقلالها عـــام ١٩٣٦، فتحت الكلية الحربية أبوابها أمام أبناء جميع طبقات المجـــتمع، وكانـــت خطـــوة أساسية - كما ثبت فيما بعد - إذ أن قادة ثورة ١٩٥٢ كـــانوا تقريباً جميعاً أعضاء دفعة المرشحين الذين اختيروا أساساً بناءً علـــى هـــذه الشـــروط الجديدة، ورغم ذلك لم يقع الاختيار من بين المتقدمين ســـوى علـــى عشرة فى المائة، وكان من بينهم لدهشته الكبرى - جمال عبد الناصر، وبعد انقضاء ستة عشرة شهراً تخرج برتبة ملازم ثان.

« كـــان أول تعييـــن له فى أسيوط التى تبعد بضعة كيلو مترات من قرية بنى مر التى يكسوها التراب الداكن، حيث كان لأسرته جذور فيها، وهنا وجد الفـــتى جمـــال ذتـــه، فقد كان يمثل أول جيل ابتعد عن طبقة الفلاحين الذين يعملـــون فـــى حقـــول صـــعيد مصر. ولقد وجد كتيبته تعمل جنباً إلى جنب وبالتعاون مع الضباط الإنجليز هذا من الناحية الرسمية، لكن كان غير راض

عــن أسلوب التعالى التى تعاملوا بها مع الرتب المقابلة من المصريين، وذلك كـــان واضحاً للعيان. وكانت الدماء تغلى فى عروقه عندما يشيرون بسخرية إلـــى المصـــريين بألفـــاظ لا تلـــيق مـــثل Gyppies (المحتاليـــن) و Wogs (السفلة)(*)(**).

ومـــن هـــنا تربت لديه عقدت الكراهية للعنصر الأنجليزى Anglophobia وكذلـــك كراهيته لرجال السلطة، فقد أدهشه أن يرى الرتب العليا من الضباط المصـــريين، وهـــم يمـــثلون عـــاراً للزى العسكرى الذى يرتدونه، فقد كانوا كســـالى، فاســـدين، فقدوا لياقتهم بالترهل، وكان غالباً ما يتفق مع الإنجليزى الـــذى قال أن رتبهم الأعلى تحدد حسب وزن كل منهم. وبالإضافة إلى ذلك كـــان يـــتاجج غضـــباً مـــن الطريقة التى كانوا يتملقون بها البعثة العسكرية البريطانية، وكاد بغريزته أن يصبح ثائراً.

وقـــد شاركه فى مشاعره بعض رفاقه من الضباط. وكان أحدهم هو أنور الســـادات والآخر هو زكريا محي الدين. وعندما كانوا يجلسون أمام خيمتهم فـــى المســـاء كانوا لا يتوقفون عن مناقشة سخطهم، وكانوا يقولون لبعضهم الـــبعض أن «الـــبلاد فى حاله من الفوضى يديرها الأجانب من أجل مصلحة الأجانـــب وحدهم»، وهؤلاء لم يستغلوا المصريين فحسب، بل كانوا ينظرون إلـــيهم باحـــتقار أيضـــاً، بالـــرغم، أو ربمـــا بســـبب معاهدة ١٩٣٦ سيطر البريطانـــيون علـــى الـــبلاد، فقد وقعت مصر فى شباك الالتزامات السياسية والعسكرية التى كانت ضد مصالحها الحقيقية، والتى لم تستطيع الفكاك منها. وقـــد تســـاءل جمـــال عبد الناصر بأسلوب بليغ فى كتابه « فلسفة الثورة ». «مـــتى اكتشـــفت أن بـــذور الثورة قد غرست فى أعماق نفسى؟ لقد وجدت

(*) وذلـــك بفضل سياسة حزب الوفد الذى كان يتجه إلى زيادة نفوذه الشعبى فى صفوف الجيش (المترجم).

(**) أى الغجـــر أما الثانية فهى اختصار لمصطلح Wild Orient al Gentlemen. أى شخص مهذب شرى شرس.

بذورها فى أعماق نفوس الآخرين. بذور لم تنبت بعد بل أنها تطلعات مكبوته تركـت كتراث لنا من الجيل السابق »(*). وبأبسط وأوضح الأساليب كان قد أصـبح شـاباً غاضباً وساخطاً. وكان يشاركه فى ذلك الشعور فى فجر عام ١٩٣٩ كثير من المصريين.

وعـندما وضـعت الحـرب أوزارها، تفرقت وحدته، ووجد الملازم عبد الناصر نفسه، يعسكر فى حامية نائية ومعزولة فى أعماق السودان.

وكـان الضابط الوحيد الذ كان معه وبرتبة ملازم أيضًا عبد الحكيم عامر، وحـتى عـندما اكتسحت جيوش هتلر بلجيكا وهولندا وفرنسا، وقامت القوات الإيطالـية بغـزو مصر، وتقدمت فى طريقها حتى سيدى برانى، كان هذان المصـريان يتحدثان بلا توقف عن المستقبل. وكان كل واحد يسر إلى الآخر بابـتهاج: سـوف يخسر البريطانيون الحرب! وربما كان فى ذلك فرصة لنا للفكاك من النير البريطانى مرة واحدة وللأبد!

كـان موقف بريطانيا إزاء مصر خلال تلك الفترة فى غاية البساطة، فقد تعاطفـت إلى حد كبير مع تطلعات المصريين، فقد منحت فى معاهدة ١٩٣٦ الكثـير مـن التـنازلات بقـدر ما استطاعت للاستجابة لرغبات مصر فى الحصـول علـى حـق السيادة الكاملة، لكنها كانت ترى فى نفس الوقت أن المسـألة المصـرية يجب أن تعرض فى ضوء خلفية الأوضاع العالمية. فقد كانـت بريطانيا غارقة - إلى حد ما بمفردها - فى معركة الموت والحياة مع دكـتاتورية ألمانيا النازية، وإيطاليا الفاشية، ولم يكن الوقت مناسباً لبدء القلق حـول مشـاعر المصـريين. فلخيرها أو لشرها كانت مصر مسرحاً أساسياً للحرب، ويجب إلا تقع فى حوزة العدو.

ولـم يكن سراً أن كثيراً من المصريين كانوا متعاطفين مع دول المحور، فيبسـاطة كمـا يقول العرب: « عدد عدوى صديقى »، أو لأن النازيين بدوا

(*) فلسفة الثورة نفس الطبعة ص ١٧ (المترجم).

كمـــا لـــو كـــانوا سيكســـيون الحرب، بل أيضاً بسبب العقيدة الغريبة لنظرية الاشـــتراكية الوطنية التى وضعها الدكتور جيبلز Dr. Goebbels كانت بمثابة اللحـــم والشراب لأى واحد يتحمل وزر الصراع. لذلك فأن البطش العكسرى للحكم الشمولى سحر ألباب صغار الضباط مثل ناصر وزملائه والذين لم يدر يـــبالهم أنها سوف تشكل تهديداً لمصر، ومن ثم لأن البريطانيين كانوا يشكون فـــى ولاء الجـــيش المصرى، فقد اعتبروه مصدر إزعاج لابد من إبقائه على الحـــياد الـــتام، وهو تصرف كان له ما يبرره، فقد حاول القائد العام للقوات (المصـــرية) بعد طرده من الخدمة بناءً على طلب القيادة العامة البريطانية أن يلحق بالقوات الألمانية مستخدماً طائرة فاروق الخاصة(*).

وبكـــل تأكـــيد بـــدت الأمور حالكة فى الأيام المبكرة لعام١٩٤٢ بالنسبة للحلفـــاء، فخـــلال الشـــهور القليلة الماضية أغار العدو فى عدة طلعات على مديـــنة الإســـكندرية، وكان بلاد اليونان قد سقطت فى يديه، كما وقع انقلاب عســـكرى موالى لقوات المحور فى العراق، وكان الأمريكيون لا يزالون فى حالـــة مـــن الذهـــول من جراء ما حدث فى بيرل هاربور Pearl Harbour، وكانـــت قـــوات روميل Rommel تتقدم عبر ليبيا. ولقد فعلت حكومة حسين ســـرى باشا كل ما فى وسعها لتؤازر البريطانيين، غير أن النقص فى الغذاء والأسعار المنطلقة كالصاروخ كانت قد بدأت فى إحداث قلق خطير بين عامة المصـــريين الذيـــن شعروا أنه قد زج بهم فى حرب ليس لهم فيها مصلحة، ولـــيقفوا مـــع الجانـــب الخاطئ. وسار التلاميذ ف مواكب فى الشوارع وهم يهـــتفون و « نحن جنود روميل ». ولقد اراد القصر – الذى كان من الناحية التقلـــيدية مواليا لإيطاليا – أن يؤمن نفسه من انتصار دول المحور الذى بدأ علـــى وشك الحدوث، فقام بتعيين وزارة مقبولة لألمانيا وإيطاليا. ومن ناحية أخـــرى كـــان القلق يساور البريطانيين لدرجة اليأس لبقاء البلاد هادئة. وهو أمر لا يقدر على تحقيقه سوى النحاس وحده على رأس حكومة الوفد.

وفى مطلع عام ١٩٤٢ استقال سرى بعد أن أجبره البريطانيون على قطع

(*) وهو عزيز المصرى.

العلاقـــات مـــع حكومة فيشى Vichy(*)، وبدأ كما لو كان الملك فاروق يمهد الطـــريق لعلى ماهر باشا (الذى كانت اتجاهاته نحو المحور تثير القلق) لكى يعود إلى السلطة، ولقطع الطريق على ذلك قام السفير البريطانى السير مايلز لامبســـون Sir Miles Lampeon الـــذى أصبح فيما بعد اللورد كيللرن Lord Kellern) بزيارة القصر. وبدون أن يدور ويلف حول الموضوع، أخبر الملك أنــــه لا يوجــد سوى رجل واحد قادر على السيطرة على الوضع فى الداخل بطـــريقة ترضــــى الحكومة البريطانية فى وقت بدأ فيه الموقف الاستراتيجى أبعـــد بكثير من أن يكون مرضياً، وذلك الرجل هو النحاس باشا زعيم الوفد، ثـــم اســـتطرد لـــيقدم أنذاره: « ما لم أسمع حتى السادسة من صباح الغد أن الـــنحاس باشا كلف بتشكيل الوزارة فعلى جلالتكم تحمل عواقب ذلك ». وقد رفـــض فاروق، الأنذار. ولكن ما أن غادر السفير. حتى اتصل الملك تليفونياً بـــزعماء الأحـــزاب السياسية المختلفة للقائه من أجل تكوين حكومة ائتلافية برئاســـة الـــنحاس. وقـــد وافقوا جميعاً على ذلك فيما عدا النحاس نفسه الذى رفـــض أن يـــترأس حكومة ائتلاف، وأصر على تشكيل حكومة من اختياره الشخصـــــى أى أن تكـــون كلهـــا من الوفد، وما بين الطعم البريطانى القديم والسفارة، كان واضحاً أن صفقه ما قد عقدت.

وبعد التاسعة من مساء اليوم الرابع من فبراير بدقائق تحرك جنود المشاة البريطانـــيون نحـــو ميدان عابدين، ثم اتخذت وحدة دبابات ستيورات مارك Stuart Mark مواقعهـــا وصوبت مدافعها تجاه القصر. وأخيراً وصلت سيارة اللـــورد كيللرن الصفراء من طراز « فانتوم ٣ » Phantom III تتقدمها عربة مصفحة إلى القصر، لكن بواباته كانت مغلقة، عندئذ اندفعت العربة المصفحة بقـــوة وفتحـــتها، ثـــم قاموا بتجريد الحرس الملكى من سلاحه، واتخذ السفير طـــريقه إلى مكتب فاروق يصحبه الجنرال ستون Stone القائد العام للقوات، وثمانـــية ضباط شاهرين مسدساتهم. وهنا بحث الملك الذى كان يبلغ وقتذاك الثانـــية والعشرين من عمرة والذى كان يراقب ما يحدث من خلال النافذة، -

(*) حكومة فرنسا الموالية لألمانيا النازية (المترجم).

بحـــث عن مسدسه - وقد استشاط غضباً، غير أن ياوره نصحه بالعدول عن ذلك. لأن طلقة طائشة واحدة كافية لاسقاطه عن عرشه. ودلف اللورد كيللرن وجماعته إلى حجرة المكتب حيث كان فاروق جالساً إلى مكتبه. وقال السفير بطـــريقة فظـــة: «لقد جئت من أجل تلقى رد جلالتكم»! ورد فاروق مظهراً بقدر ما استطاع كل الوقار: « لقد سبق لنا وأن أصدرنا تعلمياتنا للنحاس باشا أن يشكل حكومة من اختياره».

وربما كان أكثر الحاضرين فى الحجرة شعوراً بالخجل هو الجنرال ستون نفسه، فحتى ثلاثة أسابيع فقط كان يشغل وظيفة المعاون الشخصى للملك، فقد أســـر لـــبعض أصـــدقائه فيما بعد قوله: « لقد كان شيئاً بغيضاً أن ألقاه مرة أخرى بإنذار مثل هذا » غير أن الغاية تبرر الوسيلة وقد رد حزب الوفد ذلك الجميل بإخلاص للسفير البريطانى، وطوال العامين التاليين أبقى النحاس باشا البلاد ثابته من وراء الحلفاء.

لكـــن بالنســـبة لغالبـــية المصـــريين كانت صدمة الرابع من فبراير أمراً مزعجاً، فعن طريق اليد العليا ذات البطش ترك كيللرن جرحاً لم يندمل أبداً، وأكـــثر مـــن ذلك، فبتحطيمه لمثلث السلطة الذى كان يسير مصر منذ وقت طويـــل، ساعد على سلب الثقة من القصر، وجعل من الملك عدواً، وفى نفس الوقـــت أظهـــر النحاس باشا كدمية يحركها البريطانيون، وكما وضح مكرم عبيد ذلك بقوله: « إهمال مصالح الأمة من أجل مصلحة البريطانيين» فالوفد الـــذى عرف منذ وقت طويل بأنه قائد الكفاح ضد البريطانيين لم يبرأ أبداً من وصـــمة العـــار بأنـــه جاء إلى الحكم على أسنة رماح البريطانيين. وقد كتب جمـــال عـــبد الناصـــر إلى صديق له خطاباً قال فيه: « أما القلوب فكلها نار وأســـى، والواقـــع أن هـــذه الحركة،... هذه الطعنة ردت الروح إلى بعض الأجســـاد، وعرفـــتهم أن هـــناك كرامة يجب أن يستعدوا للدفاع عنها »(*). وارتفعـــت الأصـــوات الغاضبة فى نادى الضباط صائحين « لقد بصقوا على

(*) فلسفة الثورة نفس الطبعة ص١٥ (المترجم).

رأس الدولـــة! وأن الملـــك لم يعد سوى صفر لا قيمة له، سجين قصره. لقد أهيـــن جيشـــه، وأهينت أمته كلها، ولم تعد مصر سوى بلد محتل، تخضعها ســرية دبابات واحدة »، وقام أحد أعضاء القيادة وهو البكباشى محمد نجيب بـــتقديم اســتقالته. وعرض ثلاثة من الملازمين » الشبان وهم: عبد اللطيف الـــبغدادى وصلاح سالم، وأنور السادات، أنفسهم ليكونوا فريقاً انتحارياً يقوم بأى عمل يكلفون به ضد البريطانيين.

غير أن جمال عبد الناصر بدأ فى ٤ فبراير عام ١٩٤٢ بالتخطيط للثورة بطريقة منهجية.

وســـقطت طبرق، ودخل الفيلق الأفريقى مصر Afrika Korps، ثم سقطت مرســـى مطـــروح. وأصـــبح روميل عند العلمين. ووصل رتل من الدبابات الألمانـــية إلـــى بـــرج العرب التى لا تبعد سوى أميال قليلة إلى الغرب من الأســـكندرية، كما صعد عمود من الدخان غطى سماء حى « جاردن سيتى » أظهـــر أن القـــيادة البريطانية العامة تحرق وثائقها السرية. وأجليب عائلات البريطانيين عن مصر. وفى الثالث من يوليو كلما وردت الأنباء ساعة بساعة وهـــى تحمل أنباء تجعل الموقف أكثر يأساً، أعلنت سكرتيرة قيادة القوات أنها سوف تتزوج فى الحال من ضابط مدفعية من روديسيا فى صباح ذلك اليوم. وأعـــد مديـــر شـــبرد أفضل ما عنده من الشمبانيا لحفل الغداء، وقال بطريقة ســـاخطة: « إنـــه مـــن الأفضـــل لنا أن نحتسيها الآن ونحن مازلنا على قيد الحياة»!.

وقـــال جـــنرال بريطانى وهو يشرب نخب العروسين بطريقة ميلودرامية: «أيها السيدات والسادة... إننا نشهد سقوط إمبراطورية!! »(٢٤).

وفـــى الخـــارج كانت الجماهير تجوب الشوارع وهى تهتف: «روميل... روميل »، وفى نادى السيارات الملكى والذى كان يترأسه الأمير عباس حليم، والـــذى كان جندياً فى سريه الرختهوفن Richthofen (الألمانية) أبان الحرب العالمـــية الأولى، تمت مناقشة خطط استقبال الألمان، كما أن بعض الضباط

مـن بيـنهم أنور السادات تهامسوا أن الوقت قد حان للقيام بانقلاب عسكرى لعـزل الـنحاس، وإعادة على ماهر، والقيام بغارات على القوات البريطانية، والانضـمام للمحور. وخطب المرشد الأعلى لمنظمة دينية متطرفة تدعى « الأخـوان المسـلمون» وهو الشيخ حسن البنا بنبرة صوفية عن مصر، وهى تحمـل السـلاح لـتحرر نفسها من قيودها. كل ذلك حتى الآن كان كلاماً لا فعلاً. فقد ظل النحاس باشا يقف من وراء الإنجليز دون أن يهتز، قابضا بشدة علـى الأمن، بل أنه أمر بإغلاق نادى السيارات، وألقى القبض على الطابور الخامس، مؤكداً الأمن والطمأنينة للمدنيين. ومرت لحظة القلق الحادة كحد « مـوس الحلاقة »، وأوقف تقدم روميل عند العلمين، وبعد ثلاث شهور أخرى تعقـبوه وهـو يتقهقر عبر ليبيا. وانحسرت الحرب عن مصر، وسرعان ما أزاح الحلفاء الألمان عن شمال أفريقيا كلها، وبدأ غزو إيطاليا، وفتحت جبهة ثانية فى نورماندى.

وفـى القاهـرة عين النقيب جمال عبد الناصر معلماً فى الكلية الحربية. وفـى نفـس الوقـت تقريبـاً إلتحق صديقة عبد الحكيم عامر بكلية أركان الحـرب. وكـان ذلـك فرصة مثالية للاتصال من أجل وضع البذور الأولى للـثورة، فقد تخرج على يديه مئات من الضباط الشباب، كان يتفحص بهدوء وبطـريقة منهجية كلا منهم على حدة وبدوره، منصتاً إلى ما قد يصدر عنهم من قول، وهو يقيس درجه النار التى تستعر فى صدورهم، لكنه قليلاً ما كان يتحدث عن نفسه، إذ أنه أغلب الوقت كان يشغل نفسه بقياس قدرات كل فرد من أفراد الثورة، التى كان قد بدأ بخطـط لها. وشيئاً فشيئاً تكونت « جمعية الضباط الأحرار السرية » دون أن يوضع شئ على الورق بتاتاً لأن فى ذلك خطـر كبير. فمن هم الضباط الأحرار؟ وما هى الأدوار الموكلة لكل منهم؟ هـذا أمـر لا يعرفه أحد سوى جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر. إذا لم يكن هناك ما يشبه قوائم العضوية. غير ان التنظيم أخذ فى الانتشار، وتكونت التخصصـات المخـتلفة فـيه: مثل شعبة التمويل، وشئون الأفراد، والأمن، والأعلام، والإرهابيين المدنيين. وكانت كل شعبة تشتمل على عشرين خلية، وكـل خلية تتكون ما بين خمسة إلى عشرة أعضاء. ولم يكن لدى أى ضابط

من الضباط الأحرار أى معرفة بالآخرين سوى أعضاء خليته. وأكثر الأشياء الـتى حرصـوا عليها تماماً هى « شخصية القائد ». التى تم إخفاؤها بنجاح، حتى أنه بالرغم من وجود بعض تحركات الضباط التى عرفت لدى السلطات فـى القاهـرة، لـم يكن فى مقدرة أحد خارج حلقة التآمر من تخمين مصدر الإلهـام أو معرفة حتى بعد أن قامت الثورة من هو القائد الحقيقى، حتى أن التشـكيل الأساسـى للضباط الأحرار بقى غامضاً حتى لزملائهم، كما أن عـادة ناصر فى لقاء كل واحد منهم على حدة فى كل مرة، وأن ينصت إليه أكـثر مما يتحدث إليه، كان يعطى الإيحاء «أنه وعبد الناصر» هما الزعماء. هكـذا صور خالد محيى الدين فيما بعد تكتيك الثورة فى مقال نشر فى إحدى الصحف. كما كتب بعد مرور عقد: « قرب نهاية عام ١٩٤٤ » كنت أتمشى فـى شارع رمسيس فى صحبة أحد أصدقائى. وكان كلانا أعضاء فى منظمة سـرية تأسسـت داخل الجيش عام ١٩٤٢، فجأة قال لى صديقى: « أسمع يا خـالد. عندى موعد مع ضابط آخر، إنه شاب طيب سوف يعجبك تعال معى وقابلـة ». ثم استدرنا إلى شارع الجلالى، وصعدنا إلى الطابق الثالث فى من مبـنى ضـخم بـه وحدات سكنية كثيرة. وفتح لنا الباب شاب طويل القامة، وعرفـنى صـديقى بـه قـائلاً: «النقيب جمال عبد الناصر. معلم فى الكلية الحربية ». وأخذنا جمال إلى حجرة الطعام، وجلسنا على الجانب المقابل من المـائدة التى كانت تغطيها الكتب. ثم ابتسم لنا وهو يقول أنه يستعد للتقدم إلى اختـبار بكلية أركان الحرب، ثم تطرق الحديث إلى التنظيم السياسى السرى الذى كنا جميعاً أعضاء فيه. وبدأ كما لو كان على معرفة به. وعندما هممت بالانصـراف قال لى: « أود أن أراك مرة أخرى فى القريب العاجل. فهناك أشياء كثيرة سوف نتحدث عنها».

كانت أساليب عبد الناصر على قدر كبير من الحذر حتى أن خالد لم يدرك أنه يتعامل مع زعيم الضباط الأحرار، أو أن ابن عمه زكريا محى الدين كان أحـد الأعضـاء المؤسسـين المسجلين فيه. لقد كان توخى الحذر هو الصفة المميـزة لكل أنشطة التنظيم السرى. ولقد كان هناك بعض الضباط المتلهفين للقيام بعمل فورى، فقد اقترح أنور السادات، الذى كان قد زجت به السلطات

البريطانية فى السجن بسبب تعاونه مع اثنين من الجواسيس الألمان الذين كانا يديـــران شـــبكتهما مـــن غواصة على النيل - اقترح أنه يقوم بنسف السفارة البريطانية إلا أن عبد الناصر اعترض بشدة على هذه الخطة، مذكراً إياه برد الفعـــل الذى جاء فى أعقاب اغتيال السير لى ستاك Lee Stack عام ١٩٢٤م، وبدلاً من ذلك بدأ أنور يخطط لعمليات اغتيال سياسية. فبعد محاولة فاشلة فى وضـــح الـــنهار للاعـــتداء على النحاس باشا زعيم الوفد، الذى أظهر نفسه كصـــديق شـــديد الإخـــلاص للبريطانييـــن، قامت جماعة السادات الإرهابية بالتركـــيز، علـــى السياســـــى التالى فى القائمـــة: أمين عثمان باشـــا وزير المالـــية فـــى حكومة الوفد إبان الحرب، والذى أهلته مجهوداته الراسخة فى تحســـين العلاقات الأنجلو مصرية للحصول على نوط الفرسان الإمبراطورى (KBE)(*) مـــن لندن. وقد لقى حتفه على أيدى الضباط الأحرار. فعندما كان يهـــم بدخـــول النادى الفكتورى العتيق وقت الغداء فى أحد الأيام أطلق عليه الـــنار مـــن مسافة قريبة. غير أنه ألقى القبض على القتلة. وصدر على أنور الســـادات الـــذى ورد اسمه فى اعترافاتهم حكماً لمدة طويلة فى السجن.وبعد هـــذه الحادثة، شدد ناصر بقوة لوقف مثل هذه التصرفات، لأنها كانت تعرض التنظـــيم الســـرى كله للخطر. وركز فقط على نسج خيوط الثورة بأحكام فى هـــدوء وفـــى أماكـــن نائية، وهو يتنقل من بيت زميل لآخر، دائم البحث فى عيون شباب الضباط عن بريق التطرف التى تنم عن مرشح جديد. وفى أثناء ذلـــك كان منكبا على تعليم نفسه أصول وفن الثورة، واضعاً الأسس للانقلاب الذى أخذ على نفسه بأنه سو يقوم به يوماً ما.

(*) هى اختصار Knightofthe Brtish Enpire

الفصل السادس عشر

أفول شمس العهد البائد

لـــم تكـــن كل الجماعات الثورية فى تلك الفترة تأخذ حذرها، فقد أصبحت جماعـــة « الأخوان المسلمون » فى ذلك الوقت، والتى يرجع تأسيسها أصلاً إلى عام ١٩٢٨ على يد الشيخ حسن البنا كحركة دينية لأحياء الإسلام، تعمل فـــى العلـــن كمنظمة متطرفة، تنشر نوعاً من التصوف العنيف، وأكثر صيغ الـــنظريات القرآنية تطرفاً، وكان المرشد العام يقطع البلاد وهو يتلفح بعباءته الحمـــراء التى تكاد تخفى أغلب أجزاء وجهة، وهو يلقى مواعظة ضد وجود الكفـــار والامتـــيازات الـــتى ينعمون بها، وعن فساد الأحزاب السياسة، وقد اعتـــبره بعـــض الناس أنه من أوليـــاء الله الصالحين، أما البعض الآخر فقد ظـــنوة غريب الأطوار Eccentric، غير أن سحر شخصية حسن البنا جعلت الآلاف مـــن الناس، وعلى رأسها العناصر اليائسة المتطرفة من حزب الوفد تتحدث بنفس النبرة التى كان الدراويش السودانيون يتحدثون بها عن المهدى.

وفى الأساس كانت رسالة الأخوان المسلمين رسالة انتقام وأمل: تميل نحو الهـــدوء فـــى العمـــل أكـــثر من كونها قوة ثورية. وكان الأخوان المسلمون واضـــحى المعنى بأنهم مستعدون للعب الكرة مع كل من القصر والبريطانيين بينما فى الظاهر يبدون وكأنهم يصبون اللعنات على كليهما.

ومـــنذ وقت مبكر حاول الضباط الأحرار، استطلاع إمكانية عقد اتفاق مع المرشـــد العـــام، لكن تبين لهم فى النهاية أنه رغم أن خطاب الدعوة ذا تأثير بلاغـــى جـــزل، موجـــه إلى الغلاة من الناس الذين أعمتهم الكراهية، إلا أن الأخـــوان المســـلمين فى الحقيقة ليسوا سوى صمام أمان نسبياً لنشر السخط الـــذى عـــاد يجـــتاح الأمة من جديد. ولهذا السبب ذاته لم تتخذ السلطات أى إجـــراء ضدهم إلى إن ثم اقتفاء أثر موجة من الاغتيالات نسبت إلى الأخوان المسلمين فى فترة ما بعد الحرب.

وفى نهاية الحرب العالمية الثانية وجدت مصر نفسها كدولة قابلة للانفجار

تماماً مثلما كانت بعد حرب ١٩١٤ - ١٩١٨. فالجيش البريطانى الذى كان يتوجب عليه أن يكون طبقا لبنود معاهدة ١٩٣٦ قد توارى عن الأنظار ليتركز فى منطقة القنال، أصبح أكثر ظهوراً من أى وقت مضى. ولم يجد بقاء القوات طبقاً للمادة السابعة من نفس المعاهدة لتأمين وسلامة مصر غير قليل من السلوى من جانب أولئك المصريين الذى شعروا - ولهم بعض المبررات فى ذلك - أن بريطانيا والحلفاء يخوضون الحرب من أجل بقاء أنفسهم وليس من أجل بقاء مصر.

فقد كان فرض البوليس الحربى البريطانى لقواعد القانون العسكرى ذات القبضة الصارمة أحياناً فى كل مكان أمر يثيرالسخط. وذلك لما يقرب من اربع سنوات كاملة بعد انتهاء الخطر الذى كان تمثلة دول المحور لمصر. كما كانت هناك أسباب أخرى تبعث على السخط فمكاسب الحرب العارمة الأغنياء جعلت مرة أخرى أكثر غنى، فى حين ضرب التضخم الجماهير بشدة، ومن ثم زادت الهوة بين الطبقات الاجتماعية، فظروف الحرب حتمت مركزية التحكم فى الاقتصاد، وكذلك أدى تركيز كل شئون الأعمال فى القاهرة وحدها قد إلى تضاعف عدد سكانها فى أقل من خمس سنوات، بينما أدى العودة إلى الاستيراد إلى إغلاق الكثير من المصانع المحلية الصغيرة، والتى كانت قد ازدهرت أيام الحرب مما زاد من تضخم أعداد العاطلين. غير إن أكبر مصدر للسخط ربما كان عجز الحكومة الكامل. فالقيادة السياسية كانت لا تزال فى أيدى القصر والباشوات وكانت تسير من سئ إلى أسوأ.

فخلال الحرب وبعدها، استمر كبار الأقطاعيين يديرون إقطاعياتهم على طريقة الاستعباد الأقطاعى (فى العصور الوسطى)، وهم يجنون الدخول العالية من ارض الدلتا الثرية التى كان فى مقدورها أن تدر ثلاث محاصيل فى السنة وكان إنتاج الفدان الواحد يعطى دخلاً لا يقل عن خمسين جنيهاً. وفى أغلب الأمور أنه إذا قدر لأغلبهم أن يقوموا بزيارة لضياعهم، فقد كانت هذه الزيارة الروتينية عادة لمقر الدايرة فى القاهرة لمدة نصف ساعة عادة من أجل تحصيل بعض الأموال النقدية، وأجراء بعض المكالمات التليفونية

مـــع أصـــدقائهم فى الوزارة أو الدخول فى المراهنات على سباق الخيل التى تجرى عصراً، أو التحدث عن خصائص طراز حديث لسيارة ما، أو الحديث عن رحلة مزمعة إلى أوروبا. بعدها يقود الواحد منهم سيارته إلى نادى محمد علـــى للدردشـــة لمدة ساعة حول أمور السياسة قبل تناول الغداء. أما الإدارة الفعلية لاقطاعياتهم فكانت تترك فى أيدى الناظر الذى كان يمارس الغش من كـــل جانـــب، غـــير أنهم كانوا يعتمدون عليه فى متابعة الناخبين فى القرى المجـــاورة والذين كان أغلبهم يعمل فى الضيعة لكى يضعوا علامة الموافقة أمام اسم الباشا وقت الانتخابات.

وباســـتثناء بعـــض الشخصيات البارزة مثل طلعت حرب باشا الذى أسس مجموعة شركات مصر، وأحمد عبود الذى جعلته مجموعة شركاته الصناعية واحداً من أغنى الرجال فى العالم، إلا أن قليلاً من النبلاء المصريين غامروا فـــى مشروعات تجارية. فقد كانوا راضيين بترك الأعمال التجارية فى أيدى الأجانـــب، وأن يشرفوا بحضورهم من أن لآخر (بدافع المظاهر) اجتماعات مجالس الإدارة دون أن يعتريهم الخجل بأنهم مجرد أسماء، وربما كان السبب فـــى ذلـــك أنهـــم كـــانوا يشعرون بعدم الجدوى فى الدخول فى منافسة مع عـــبقريات رجـــال الأعمال الأوربيين واليهود فى مشروعات تتسم بالخداع، وربمـــا أنهم أحسوا بعدم الفائدة فى إقامة مشروعات جديدة فى سوق تخضع للـــتحكم الصارم، أو لأنهم لم يكن يعنيهم أبداً أى اهتمام جدى بالمشروعات، علـــى نحو أو آخر. ما الأرض، وممارسة السياسة كانا كافيين الفترة إقامتهم الموسمية فى القاهرة، وقضاء الصيف الطويل فى أوروبا.

كـــان الأجانـــب الذيـــن يملكـــون المصانع، وكذلك الأسر اليهودية الثرية أصـــحاب مســـتودعات البضائع، والمستوردون من الشوام، وبالمثل الملحقين الدبلوماســـيين يـــتحركون بحرية فى دوائر المجتمع الراقى يمارسون لعبة « الـــبولو » و«الجولـــف» و« التـــنس » فـــى فترة ما بعد الظهيرة، يتلو ذلك الحفـــلات الفارهـــة. فمنذ وقت قريب استرجع مصرى من رجال العهد البائد الذكريات بلهجة يغلب عليها الحنين إلى الماضى فقال: « هل تتذكر الفترة من ١٩٤١ وحـــتى ١٩٥١؟ كم كانت رائعة. فى كل مساء ثلاث حفلات كوكتيل،

وتناول الغداء في الأوبرج، ولعب القمار في نادي السيارات إني أتذكر فاروق وهو يلعب الورق مع بطانته: محمد سلطان، باروك، النبيل إسماعيل، إميل عدس ومن على شاكلتهم، ففي كل دورة من دورات اللعب كان يلقى إلى المائدة ١٠٠,٠٠٠ جنيه إسترليني. وقد خسر توتو عدس في تلك الليلة ٣٠,٠٠٠ إسترليني. وهذا بالطبع لا يقارن كثيراً بما يحدث في نوادي القمار في مونت كارلو ولكنه كان يناسب القاهرة ».

ويكاد المرء يدهش مع وجود هذه المقامرات أن كان هناك عرف غير مكتوب يشترط على عضو النادي أن يثبت أنه مليونير، وأن يخاطب الأعضاء بعضهم البعض بلقب: صاحب السعادة!! كما كان عشاء ليلة رأس السنة من الشئون ذات الاعتبار، إذا كان يقدم في قائمة الطعام ثلاثين أو أربعين صنفاً. وكانت بارات الشمبانيا في كل حجرة، كما كان هناك بوفية دائم الخدمة على مدار الساعة لتقديم الوجبات لأي عضو لا يزال يشعر بوخزات الجوع، ولم يكن ذلك أمراً بعيداً عن المعتاد، فعندما تزوجت ابنة عبد الحميد الشواربي، اكتست أرضية الفيلا الشاسعة بالسجاد العجمي. وشمل البوفيه مائدة خاصة طولها ٢٠ متراً لتقديم الكافيار وحده الذي كان يقدم بوفرة كما لو كان عصيدة لآلاف الضيوف المميزين الذين رقصوا كل حسب اختياره على ثلاث فرق موسيقية. كانت معيشة الترف ذاتها Train de vie تمارس في منتجعات أوروبا كل موسم صيف، ولذا كانت شكوى اندريا بادروت Andrea Badrutt صاحب فندق البالاس أوتيل في سانت موريتز Palace Hotel, st Moritz بأن ثورة ١٩٥٢ قد دمرت تماماً مواسمه السياحية شكوى لها ما يبررها من أسباب.

ويجيء على رأس هذه الفئة المرفهة بل التي ينخر الفساد فيها شخصية الملك. فعندما جاء فاروق إلى العرش كان يحظى بشعبية عارمة تؤيده؛ فقد اتجهت قلوب الناس إلى ذلك الأمير الرشيق الأنيق الذي كان لا يزال في سن المراهقة، عندما استدعى للعودة من إنجلترا على إثر وفاة والده المفاجئة عام ١٩٣٦. وقد زاد من شعبيته زواجه من « فريدة » تلك الفتاة الجميلة التي كانت في مقتبل العمر. وتنعكس هذه الشعبية في ان آلاف الأطفال الذين

ولــدوا خــلال تلك الفترة تسموا باسمه، حتى ألد أعداء الحكم الملكى انجذبت قلوبهــم إليه خلال تلك الفترة، غير أن حصانة التعليم الذى تلقاه والذى توقف فجــأة وهو لا يزال فى سن السابعة عشرة لم يقدم له الحماية من الوقوع فى مســتنقع الفســاد الــذى كــان مبعثه تلك الطغمة المتشربة بالروح الإيطالية المــتواجدة بالقصر، كما أن الحرب تسببت فى حدوث انحسار «شيزوفرانى» تجــاه الولاء له. وربما كان فى استطاعته أن يتغلب على هذه المعضلة لو أن أكثر مستشاريه تعقلاً وهو حسنين باشا لم يلق حتفه فى حادث انزلاق شاحنة بريطانــية، أو ان اللورد كيللرن لم يواجهه فى يوم ٤ فبراير بطريقة جرحت كرامــته بوضعه أمام اختيار حاسم: إما التنازل عن العرش أو الانصياع التام لمطالــبه. فقد كان هناك أعضاء آخرون من الأسرة المالكة من أمثال الأمير محمد على، والأمير عبد المنعم بالذات على استعداد تام لأن يحلوا محله. كما كان الأمير عباس حلمى(*) يتفاخر وهو يكررعدة مرات وهو جالس أمام بار نــادى السيارات حكاية أنه قبل حدوث هذه المباغتة المفاجئة Coup de main انــتحى بــه اللــورد كــيللرن جانباً وقال له هذا السفير: « أن الصبى يسئ التصــرف. وإذا قررنا إحداث تغيير.. هل عندك استعداد لتولى العرش؟ »: وقــبل أن يجيــبه عــباس أشعل سيجاره « الباراتاجاس » وقال: « ولو أننى أيضــاً أسأت التصرف هل ستستبدلوننى بالأمير محمد على أو عبد المنعم ». عــندئذ رد كيللرن بصرامة: « أظن أننا سوف نفعل ذلك!» عندئذ نفث عباس دخان من سيجارة ورد قائلاً: « إن الأمر كما لو كان يبدو نكتة! » قالها بشئ مــن السخرية والاشمئزاز. غير أن السفير لم يكن فى مزاج يسمح له بتبادل الــنكات فــى مثل هذه الأيام، إذ وجد عباس حليم نفسه بعد بضعة أسابيع إنه رهن السجن لمدة عامين بناءً على أمر مباشر من كيللرن وذلك لأنه أقام حفل شــامبانيا فى نادى السيارات ليلة سقوط طبرق فى أيدى الألمان. والحق يقال أنــه لم يقيم هذا الحفل متعمداً فى تلك الليلة: لكنه كان حفلاً أقيم على شرف «بوبى الخياط» أحد أعيان الأقباط الذى تصادف عيد ميلاده فى ذلك التاريخ. وكــان الحفــل قــد أعــد له منذ وقت طويل قبل وصول الأنباء من طبرق.

(*) كان لقب عباس حليم النبيل وليس الأمير (المراجع).

ويروى عباس حليم أنه بعد أن أطلق سراحه أخيراً، أن أول شخص قابلة فى نـــادى الســـيارات هـــو كيللرن الذى ربت على ظهرة قائلاً بلطف: «يا فتاى العزيز: لقد مر دهر طويل منذ أن رأيتك آخر مرة.. أين على ظهر البسيطة. كنت؟».

وربمـــا لـــم يكـــن حال فاروق أفضل من حال ابن عمه لو لم يستسلم إلى الإنذار البريطانى فى مساء ذلك اليوم من شهر فبراير، إذ تحول هذا الحادث ليصـــبح نقطـــة تحـــول فى التاريخ المصرى، لأنها لم تكن فقط بداية العمل المعـــترف بـــه بالنسبة لحركة الضباط الأحرار، بل كانت أيضاً اللحظة التى تـــنازل فيها (الملك) عن شخصيته، فمنذ تلك اللحظة فصاعداً يتفق المراقبون على أنه توقف عن الاهتمام بشئون الدولة تماماً، واتجه مواسياً نفسه بالملذات الشخصـــية، ويمارس بسخرية لعبة الملوك، جاعلاً مآدب الولائم فى حالة من الاســـتعداد مـــن أجل أغراض ملذاته الخفية Boutades، لقد كان أمراً مسلياً بالطـــبع أن يقـــدر الواحـــد علـــى وصف كيف أن فاروق كان يقود عربته الستروين السوداء من طراز جانجستر Gangster وهو يدور عدة مرات حول مـــيدان الأوبرا وهو يسير فوق الرصيف، يستخدم بوقها المصمم بحيث يشبه صوت صراخ الكلب الذى دهسته سيارة. أو أن يصور ما حدث فى استراحة وادى الـــنطرون عندما وصل رهط ملكى فى منتصف الليل وهم يعيثون فى المكـــان فساداً. وكان من بين وسائل تسلياته عمل قوائم لكبار رجال الأعمال الذيـــن تواروا عن الأنظار لأن فاروق كان يسعى وراء زوجاتهم، وكان من بين الطرائف التى تناقلتها الألسن حكاية الملك عندما كان فى زيه المدنى وقد أطلـــق لحيـــته عـــندما تلقى صفعة على وجهة من أحدى السيدات التى ظنته ضـــابطاً بحـــرياً على أثر قيامه بقرص مؤخرتها. كل هذا ما كان ليحسن من صورة التاج.

ولقـــد تطـــور لديه مزاج ساخر Falstaffian ازداد مع ازدياد حجمه كان يهيـــئ له فرصة المزاح من آن لآخر على حساب البريطانيين، إذ حدث ذات مـــرة فى نادى صيد الطيور والأسماك الملكى Royal Shooting & Fishing Club، والـــذى ســـمح لرجال الخدمة العسكرية من جيوش الحلفاء بالعضوية

المؤقـــتة فيه، غير أن الشرطة العسكرية للحلفاء قررت ان يكون الدخول إليه وقفاً على الضباط وحدهم. وصل القائد العام البريطانى بصحبة عدد من كبار الضـــباط جميعهم متألقون بالشرائط الحمراء، وقبعاتهم ذات اللون الذى يجمع مـــا بين لون صفار البيض وبياضه، باستثناء واحد أقل منهم فى الرتبة وهو بدرجـــة مقـــدم. ومـــن على مائدته على الجانب الآخر من القاعة كان الملك فـــاروق ينظر إلى كبار الضباط بامتعاض، ثم فتح الباب فجأة ودلف جنديان نفـــر من نيوزيلاندا وساراً حتى جلساً على إحدى الطاولات، وطلباً أن يشربا البـــيرة. وكـــان مـــن الواضح أنهما غير مدركين لملامح الغضب التى كانت تـــرمقهم من طاولة القائد العام، وبعد برهة قصيرة، نهض المقدم بإيمائه من الجنرال، وسار إلى طاولة الجنديين وقال لهما وهو يدون أسماءهما وأرقامها: « أنه محظور عليكما الدخول إلى هنا. وعليكما مغادرة المكان فوراً! » وقبل أن ينهض الجنديان النيوزيلنديان أقبل كبير الأندال مهرولا وهو يحمل زجاجة شـــمبانيا كبـــيرة مـــن نـــــوع « الفيف كليكوت » الفاخر Veave Clicquot وبأنخنائه رسمية إلى الجنديين، وضح لهما وهو يملأ كأسيهما بالشمبانيا. «مع تحـــيات جلالة الملك »، « وفى مقابل نظرات الغضب من طاولة القائد العام قابلتها ابتسامه ملكية متكلفة.

وأحـــياناً كانـــت المضايقات تصل إلى حد العلن، فقد روى عن الملك أنه أبـــدى ملحوظة فى النادى السورى، بدون وجه حق – فى حق اللورد كيللرن عـــندما قـــال: « أنـــه من الأفضل للورد كيللرن ألا يجلس على مائدة القمار نهائـــياً مـــا لم يكن لديه النية لتسديد ديونه ». أو ما حدث فى أثناء حفل كان يقـــام فى إحدى شقق الزمالك عندما أمضى فاروق المساء وهو يلقى بقبعات الضباط البريطانيين من الشرفة مسدداً مسدسه نحوهم بينما انبطحوا أرضاً!.

لقـــد استمر الهزل الملكى الماجن فى جو البذخ لدرجة إخلاء الشوارع من حـــركة المرور لمدة ساعة أو أكثر قبل أن يندفع فاروق مسرعاً فى عربته « الرولز رويس » القرمزية اللون، وقد اعتاد أعضاء نادى السيارات أن يجدوا وهـــم يســـلمون قـــبعاتهم وطرابيشهم غير مكترثين لطاولة البواب وقد جلس علـــيها الملـــك وهو يلتهم طبقاً من القواقع، فأى شئ كان متوقعاً من فاروق.

ففـــى إحـــدى المناســـبات الرسمية فى منتصف الصيف، كان عدد من كبار رجـــالات الدولة يصطفون ليقدموا أنفسهم للملك وكان من بينهم زوجة طبيب مشهور، وكانت شابة جذابة، وعندما جاء دورها انحنت بشدة لتجد أن فاروق قـــد وضع يده على كتفها مانعًا إياها ومنعها من النهوض، ثم قال لها بطريقة ودية: « يا له من يوم حار، دعينى أقدم لك شيئاً مرطباً » ثم تناول قطعة من الثلج الموضوع على المائدة من خلفه وأسقطها بين ثديها.

ومـــن بين الطرائف التى كان مجتمع رجال الأعمال فى القاهرة يتندرون بهـــا ما حدث ذات مساء فى شرفة « الروف جاردن » فى فندق سميراميس، عـــندما تصـــادف وجود حفل أقيم بمناسبة زيارة رئيس شركة «الكوكاكولا»، فى نفس الوقت كان هناك حفل آخر يقام احتفاءً برئيس شركة «البيبسى كولا » وهـــو موقف مناسب رأى أن لا يفوته. فبعد لحظات جمع كل الحاضرين، وأمـــر بـــتقديم لرئيس شركة الكوكاكولا كأساً من البيبسى، بينما قدم للمسئول عـــن شـــركة البيبسى كولا كأساً من الكوكاكولا، ومع كل منها بطاقة تقول: «مع تحيات صاحب الجلالة». وكان يرفع كأسه ليشرب فى نخب كل منهما، واضطروا مجبرين على شرب كل منهما فى نخب منتجات الطرف الآخر.

كـــان لعـــب القمـــار من أهم نزوات الملك فاروق، فكثيراً ما قضى الليل بطوله على موائده، وهذا يعنى أن أحداً من المقامرين لا يستطيع الانصراف، وإذا تصـــادف وكانت « البرتيته » غير مكتملة، عندئذ كان يذهب بنفسه إلى بـــيوت الـــناس ويطلق نفير سيارته حتى ينتزعهم من أسرتهم. لقد كان يقامر بشـــئ مـــن التمـــيز، وكثيراً ما يلجأ إلى الغش رغم أنه كان فى الحقيقة هو الخاســـر. وبعـــد قيام الثورة عثر على مفكرة فى قصر عابدين سجل فيها انه فـــى سنة واحدة خسر ٨٥٠,٠٠٠ جنيه استرلينى. ولما كان يكره أن يخسر، يكـــن يتوانى عن التلاعب فى الورق لصالحه، حتى أن بعض رجال الأعمال الذيـــن كـــانوا يعتمدون على مكرماته كانوا يخفون أنفسهم تماماً عندما تصبح صحبته مكلفة لهذه الدرجة. ففى إحدى المناسبات الشهيرة فى نادى السيارات ســـحب ثلاثة « ملوك » من ملوك الكوتشينة، وراهن على عشرة آلاف جنيه

فــي هــذه الــدورة، وسرعان ما تصاعدت أرقام الرهان، ولما طلب منه ان يكشف عن ورقة، عندما كشف منافسه عن ثلاثة ملوك وعشرتين بينما كشف فاروق عن ثلاثة ملوك مخفياً فى اليد الأخرى بعض الأوراق الرابحة سحبها مــن المــائدة، عــندئذ احتج اللاعب الآخر، غير أن الملك رفض احتجاجه، وأصــر اللاعــب الآخــر علــى موقفه قائلاً: « يا صاحب الجلالة »: « أن أوراقــى تــتفوق علــى أوراقك فليس لديك سوى ثلاثة ملوك »! عندئذ رد فاروق بلهجة ملكية: « أنا الملك الرابع! » وعبأ جيوبه بمبلغ الرهان كله!!!.

كانــت النساء هن أكبر نزواته بلا شك، فمنذ يوم زفافه على فريدة الجميلة والــتى تحملــته طويــلاً، كان زواجه على حافة الهاوية. فقد توالت قائمة لا تنــتهى بمــن ارتــبط بهــن، ولم يمض وقت طويل حتى توقف التأييد للملك ليــتحول إلــى مجرد أضحوكة فجة. وقد ذكر أحد مؤرخى سيرته حديثاً أنه خــلال حــياته القصــيرة نسبياً (مات الملك فى سن الخامسة والأربعين) أقام اتصــالاً جنسياً مع ما يزيد عن خمسة آلاف امرأة!! ولم يعد سراً فى القاهرة أن شــطحاته فى هذا المجال كانت من باب التظاهر، فأقل ما قيل كما أدعى بعض الناس إلى أنه كان عاجزاً جنسياً برغم كل أفعاله: لكن ذلك لم يكن من بــاب الحقــيقة لأن المشكلة كانت أنه كان غير ناضج، وهذا بلا شك يحسب لصالح شذوذ سلوكه لدرجة كبيرة.

لقد كان فى كل نادى ليلى فى العاصمة، طاولة فى جانب خاص محجوزة علــى الدوام للملك، لكــى يتأتى لفاروق أن يشرفه بحضوره بين حين وآخر علــى حــد مــا كانت تشير إلى ذلك الصحف، وكان فى يصحبه اثنان من الياورات اللذان قد يكلفان بحمل رسالة ملكية إلى أى امرأة شابة تستولى على خــياله، وكثــيراً مــا كانت النتائج مربكة، ولكن الويل كل الويل لأى غريب يعترض على هذه الطريقة التى يتقدم بها.

ففــى إحدى المناسبات التقط مغنية كابارية، وخلال دقائق كان يسرع بها فــى عربته الكاديلاك ذات الغطاء القابل للطى فى الطريق المؤدى إلى مصر الجديــدة، حيــث انتحى بعربته جانباً فى مكان يناسبه ومشبوه غير مطروق،

وبــدأ يمـــارس معهـــا الجـــنس فى المقعد الأمامى للسيارة بطريقة روتينية وبتصــــرف لا يلـــيق إلا بطالـــب جامعى مراهق. وكما حدث، كانت شرطة الآداب تحرس المكان فى تلك الليلة، ولفت هذا المنظر غير المعتاد والمشبوه فجـــأة أضواء سيارة الشرطة، عندئذ سحب فاروق مسدسه من جرابه، وأطلق بجنون وابلاً من الرصاص تجاههم، في نفس الوقت كان يضغط على دواسة البنزيـــن لينطلق بسرعة جنونية مبتعداً بينما كانت سيارة الشرطة تقتفى أثره وتطـــارده، وعـــندما إجـــبر أخيراً علي أن ينعطف فى ركن ويتوقف، ونزل الضـــابط مـــن ســـيارة الشرطة متجهاً نحوه وهو مكفهر الوجه متأهبا لإلقاء القـــبض عليه، فوجئ أن شجاعته تخونه وهو يواجه جسد مليكه السمين الذى قام بصفعه على وجهه وجرده من مسدسه، ثم أطلق وابلاً من الرصاص نحو ســـيارة الشرطة مطلقاً قهقه مدوية، ثم عاد إلى عجلة القيادة وانطلق بسيارته بسرعة حتى اختفى فى دياجير الظلام.

وفـــى مناســـبة أخرى مشابهة، وقع هو ومن كانت معه فى كمين نصبته عصابة من قطاع الطرق فى أحد الطرق الفرعية المتجهة إلى الريف بالقرب مـــن حلـــوان، ولمـــا كانت العصابة تجهل هويته، فقد قامت بسلبهما من كل نفائســـهما. بل كانت العصابة على وشك من أن تقطع رأسه لولا أن زعيمها صـــاح بـــازدراء: « كفى دعوا ذلك الخنزير السمين فهو لا يساوى المجهود الـــذى يـــبذل فى قتله ». وفى صباح اليوم التالى، وضعت كافة قوات شرطة القاهـــرة فـــى حالـــة طـــوارئ. وفى الوقت المناسب ألقى القبض على أفراد العصـــابة. وتنفـــيذاً لتعليمات صادرة من فاروق نفذ فى أفراد العصابة حكم الإعـــدام فى نفس الموقع فيما عدا زعيمهم الذى صدر الأمر بجلده مائة جلدة لمجـــرد أنـــه أشار إلى مليكة بلفظ «الخنزير السمين» ومنحه ألف جنيه لأنه أبقى على حياته.

وأحـــياناً كـــان لطيشه جانب شرير، ففى إحدى المرات، وجد ضابط شاب برتـــبة نقيـــب، ومتزوج من فتاة جميلة نفسه منقولاً فجأة إلى السودان، وبعد مـــرور أربعـــة أســـابيع تمكن الضابط من الحصول على أجازة لبضعة أيام، وعـــندما فـــتح باب شقته علته الدهشة، إذ وجد قائد قوات حرس الملك، وهو

برتبة لواء سئ السمعة، يجلس فى حجرة المعيشة، وبعد أن تبادل معه لدقائق محادثة مهذبة، اتجه إلى حجرة النوم، عندئذ صاح رئيس الحرس بلهجة حادة « إيـــاك أن تدخـــل!» فـــأخذت الكبرياء الضابط الشاب، وكرر اللواء القول: «إنـــى أحـــذرك!»، وهو يسحب مسدسه: « إياك أن تفتح الباب! » وعندما وجد الشاب نفسه وقد جحظت عيناه يندفع إلى داخل حجرة نومه، رفع اللواء مسدســـة وأطلـــق رصاصة سقط بعدها الضابط قتيلاً فى مكانه، وقال الذين يتهامســـون الأســـرار « إنهـــا لجريمة وحشية »، ولكن المهم أن الذى كان يضاجع الزوجة فى الفراش هو الملك نفسه ».

كـــان الملـــك لا يزال يستند إلى ولاء الجيش (ومؤمنا نفسه بوجود القوات البريطانـــية المعســـكرة فـــى منطقة القناة) ومحاطاً ببطانة فى القصر يتزايد عددهـــا وهـــى ذات سمعة سيئة، وأخذ هذا الملك – ضخم الجثة – يزيد من مجونه على الملأ، دون اعتبار لما تبقى مـــــن كرامـــــة العرش. وكانت النتـــيجة أنه لم يعد لديه أى أوهام (بالبقاء على العرش) فيما يبدو، إذ سرعان مـــا أصـــبح مغـــرماً بتكرار مقولته: « لن يبقى من الملوك فى العالم سوى خمس: ملك إنجلترا «وملوك الكوتشينة الأربعة» وهم: ملك القلوب King of hearts، وملـــك البســـتونى King of Spades، وملـــك الديـــنارى King of Diamonds، وملـــك الأســـباتى (الوردة المثلثة) ». وكلما مر الزمن تضاءلت ســـلطة نفوذ وزرائه فى حين تزايدت أهمية مجلسه الخاص الذى كان يتكون من خادمه المعنى بملبسه (الشماشرجى)، وحلاقة، وسائقة الخصوصى، وقليل مـــن الآخرين، وكان هؤلاء يتلاعبون بالوزراء، ويمنحون الترقيات بطريقة فجـــة أثناء قيامه بالترتيب له لارتباطاته الشخصية، هؤلاء. هم رجال السلطة فى المراحل الأخير من حكم فاروق!!

وفـــى ربـــيع عام ١٩٤٩، بينما كانت القاهرة تغلى وتزبد بسبب الإحباط الذى سببته مهزلة حرب فلسطين، تمكن هؤلاء من إقناع الملك بان الوقت قد حـــان لكى يتزوج من امرأة ثانية. فقد أثار طلاقه – الذى تم وحرب فلسطين عـــام ١٩٤٨ فـــى ذروتها – الرأى العام، لكن كان ضرورياً لهيبته أن يكون لديه وريث ذكر يرث العرش من بعده، وقد هز فاروق كتفيه تعبيراً عن عدم

اكـــتراثه، إذ لم يكن يعنيه أن يتزوج بأى امرأة أخرى، غير أنه أخبرهم أنهم ما داموا مصرين على ذلك – فهم على دراية بذوقه وعليهم أن يبحثوا له عن زوجة مناسبة.

وبعـــد مـــرور بضـــعة أيـــام، دلـــف خطيبان فى مقتبل العمر إلى محل جواهـــرجى مفضل عند الملك ويقع محله فى شارع سليمان باشا لاختيار دبل خطوبـــتهما، وكـــان للفـــتاة وجـــه صغير ممتلئ الوجنات، ومفعمة بالحيوية والنشـــاط ولهـــا قوام ملتف Rounded وذات بشرة شركسية بيضاء كالقشدة. وبيـــنما كان يعرض عليهما صوانى « الخواتم » خطرت فجأة فكرة فى عقل الجواهـــرجى. ومن داخل مكتبة أدار قرص « التليفون » طالباً الرقم الخاص بـــالملك، وقـــال له: « يـــا صاحب الجلالة أظن أننى قد عثرت على ضالتك المنشـــودة الـــتى تريدها » ورد عليه الملك أنه سوف يحوم حول المكان فى الحـــال، وعلـــيه أن يطيل بقدر ما يستطيع بقاء الفتاة، خلال ذلك الوقت كان الخطيـــبان قد استقر رأيهما على الاختيار. وبأسلوبه الناعم أصر الجواهرجى أن يريهم كل ما عنده، وبعد مرور ما يقرب من نصف ساعة لمح الملك وهو يخـــتلس النظر من خلال فترينه العرض وهو يتفحص الفتاة مقيماً إياها، وبعد لحظـــة التقت عيناه بعينى الملك وأعطاه إشارة الموافقة بضم أطراف أصبعة الســـبابة إلـــى إبهامة فى شكل دائرة، عندئذ شرع الجواهرجى بالقيام بالدور الموكل به. ومن داخل خزانه أخرج خاتما ثميناً من الألماس النادر، واستبدله بالخاتم المتواضع الذى كانت الفتاة قد وضعته فى إصبعها، بينما علت الدهشة الشاب، ثم همس (الجواهرجى) قائلاً: « هذا أمر صاحب الجلالة!! ».

هكـــذا كانـــت الظروف التى أصبحت فيها ناريمان – فتاة مصر الجديدة– آخر ملكة على مصر.

ومـــنذ ثلاثـــة سنوات سبقت، أقنعت سلسلة من أعمال الشغب البشعة ضد الـــتواجد المستمر للجيش البريطانى فى القاهرة القيادة العامة – ضد رغبتها الشـــديدة – أن الوقـــت قـــد حان لأن يقولوا وداعاً إلي حياة الدعة فى شبرد ونـــادى الجزيرة الرياضى. وفى الرابع من شهر يوليو (وهو يوم مشهود كما

يعرفه الأمريكيون) وبعد عشرة سنوات كاملة متأخرة عن التاريخ الذى حددته معــاهدة ١٩٣٦، قام القائد العام للقوات البريطانية بتسليم مفتاح القلعة الفضى إلــى رئــيس الأركــان المصرى، ثم غادر بعد تناول الغداء إلى مقر قيادته الجديد فى صحراء «فايد» الجرداء فى منطقة القناة.

ولقــد أزاح رحيل وجادلهم القوات البريطانية، وما تلاه من عقد مفاوضات أعطت خلالها حكومة المستر أتلى Atlee الانطباع باحتمال الجلاء أيضاً عن مــنطقة القــناة الكثير من الســخط الكامن فى نفوس الضباط الأحرار[٢٥] إذ شــعر بعضهم أنه فى قدرتهم الاسترخاء، إلا أن جمال عبد الناصر اعترض بشــدة على مثل ذلك القول، وجادلهم بأن أهدافهم لن تتحقق حتى يغادر آخر جــندى بــريطانى أرض مصر، أما فى الحقيقة فقد كانت أهدافه تمتد وقتذاك إلــى مــا هو أبعد بكثير من ذلك، فقد كانت فكرة الثورة جزءاً لا يتجزأ من وجدانــه، وظل يخطط بقدر كبير من الصبر والحيطة، مستطلعاً بسرية كاملة كــل الاتصالات الممكنة، وكما يتذكر ثروت عكاشة: «لقد كان حقاً دينامو.. دائــم العمــل والقراءة والنقاش» مستبقاً اللحظة التى يقوم فيها بانقلابه اليائس ضد شئ بدا لناظرية أنه يخنق روح البلاد.

غــير أن جماعــة الضــباط الأحرار وجدت نفسها فجأة ى عام ١٩٤٨. تتورط فى مغامرة من نوع مختلف. فقد صوتت الأمم المتحدة بالموافقة على تقســيم فلسطين. وكانت بريطانيا قد أنهت انتدابها فى الخامس عشر من شهر مايو، وأعلن اليهود قيام دولة إسرائيل المستقلة، واصدر العرب أوامرهم إلى قواتهــم للسير إلى فلسطين. لقد كانت حرب فلسطين بالنسبة لأغلب الضباط الأحرار تجربة ملتهبة، فقد لقى خلالها الكثير منهم مصرعه أو تلقى جروحاً، وكــان الــبعض منهم قد ذهب إلى جبهة القتال يملؤه الحماس الوطنى، ولكن عــندما عــاد كان قد تجرد من الوهم وأصبح أكثر نضجاً، أما البعض الآخر مــثل اللــواء محمد نجيب الذى تلقى جرحاً للمرة الثالثة، والصاغ جمال عبد الناصــر الــذى تلقى جرحاً هو الآخر قد حققاً شهرة لنفسيهما غير أن الحملة كانــت إخفاقا يدعو للسخرية، فالبرغم من شتى أنواع التحريض والإثارة التى

أذاعهـا راديـو القاهرة فى شكل تقارير تتحدث كيف أن القوات المصرية قد قامت بتدمير كيبوتزات العدو: « وهى تهتف عاش الملك فاروق القائد الأعلى المظفـر للجـيش! ». أما الحقيقة فإن أغلب القوات ولت هاربة لأنها لم تكن مسـلحة تسـليحاً مناسباً، وذلك لأن قيادتها العليا كانت خالية تماماً من الفكر العسكرى، وقلما غادرت القاهرة، كما أن أسلوب نقل الجنود وإعاشتهم كانت فـى حالـة من الفوضى التى لا أمل يرجى من ورائها. فقد لقى المصريون هزيمة على يد جيش صغير من الإسرائيليين رغم تفوقهم عليه بنسبة خمسين إلى واحد، ولم يصمد سوى جيب صغير بالقرب من غزة، وبذلك أنقذ الجيش المصـرى بأكمله من إهانة الهزيمة، ولد وجد فى عملية الصمود فى الفالوجا كثـير مـن الضـباط الأحرار أنفسهم محاصرين من بينهم: ناصر، وعامر، وزكـريا محيى الدين، وصلاح سالم، وعكاشة، وجدوا الفرصة التى حقق من خلالهـا الصـاغ جمال عبد الناصر شهرته العسكرية من خلال هجوم مضاد مـندفع منع الإسرائيليين من اجتياح المواقع المصرية. فلقد أصبحت الفالوجا بالنسـبة له رمـزاً، فقد كتب فيما بعد فى « فلسفة الثورة » يقول: « هذا هو وطنـنا هناك... إنه « فالوجة » أخرى على نطاق كبير... وطننا هو الآخر حاصـرته المشاكل والأعداء وغرر به، ودفع إلى معركة لم يعد لها، ولعبت بـأقداره مطـامع ومؤامرات وشهوات»(*). كما كانت كلمات صديقـه أحمد عبد العزيز أحد الضباط الأحرار الذى لقى مصرعه فى الجبهة ترن فى أذنه وهو يحتضر قائلاً: «إن ميدان الجهاد الأكبر هو فى مصر(**)».

عـاد جمـال عبد الناصر من الجبهة وهو يحمل نفوراً وكراهية للحرب، مقسـماً أنـه لـو كان الأمر بيده « لفكر ألف مرة قبل أن يقحم مواطنيه فى الحـرب إلا إذا لـم يكن هناك من خيار عندما يكون شرف الأمة وسلامتها معرضـين للخطر، ولا يوجد شئ آخر على إنقاذها سوى المعركة ». عندئذ وفى هذه الحالة يقرر العودة لحمل السلاح. لقد عاد هو ورفاقه وهم يتحرقون

(*) فلسفة الثورة - نفس الطبعة السابقة ص ١٤.

(**) فلسفة الثورة نفس الطبعة ص ١٣.

غضباً من « مؤسسة » الفساد الشامل فى القاهرة التى ورطت مصر فى هذا الموقف الشائن، بل كانت تتكسب علانية الأموال من ورائه، ولم يعد سراً أن القصـــر الملكـــى نفسه كان مشوش الذهن فى صفقات سلاح مشبوهة قدمت خلالهـــا معـــدات فاسدة لتزود بها القوات المسلحة، وشعر الجيش أن قادته قد غـــرروا بـــه عن طريق خيانته وفى جو الهزيمة الحزين الذى لا يقدر على التغطية عليه أى قدر من الدعاية واستعراضات النصر، تلاشت آخر شذرات الثقة فى العهد البائد.

مـــنذ وقـــت طويل كان الأخوان المسلمون يجنون ثمرات هذا القلق العام، وربمـــا كان فى استطاعتهم تدبير انقلاب ما لم يأمر رئيس الوزراء بقمعهم، وبعد مرور شهر اغتيل النقراشى باشا فى مبنى وزارة الداخلية رغم أنه كان محاطاً بضباط الحراسة، وقام خليفته عبد الهادى باشا باتخاذ خطوات صارمة ضـــد المتطرفين، فقد زج فى السجن بكل قيادات الشيوعيين، أما الآلاف من جموع أعضاء الأخوان المسلمين فقد وضعهم فى معسكرات الاعتقال. وكان اغتـــيال حسن البنا جزءاً من خطة التطهير، حتى تنظيم الضباط الأحرار كان علـــى وشك من أن يكشف أمره، بل قام رئيس الوزراء باستجواب جمال عبد الناصـــر نفســـه لاشـــتباهه فـــى وجود مؤامرة يدبرها الجيش بالاشتراك مع الأخـــوان المســـلمين، غير أنه بطريقة ما اثبت براءته من هنا الاتهام مذكراً مســـتجوبيه فى عاصفة من الغضب الدال على استقامته بأنه قد عاد لتوه من جبهة القتال من أجل بلده، ورغم أنه سمح له بمغادرة المكان حراً طليقاً، لكنه ظـــل لوقـــت طويل والعيون مركزة عليه، ولم يحول دون الكشف عن ثوار الجيش سوى الحرص الشديد بالإضافة إلى قدر كبير من حسن الحظ.

ومـــا أن قـــام إبراهـــيم عـــبد الهادى ورجال البوليس السرى بمحاصرة العناصـــر الإرهابية، حتى حاول القصر أن يمتص غضب الرأى العام وذلك بإعادة الوفد إلى السلطة. وعلى الفور سنّ النحاس باشا عدداً من الإصلاحات الاجتماعـــية الـــتى شـــملت توزيـــع أراضـــى الحكومة والأراضى الملكية وتخصيص ميزانية للمحتاجين، غير أنه سرعان ما تبين أن الوفد قد عاد إلى ألاعيبه القديمة، ذلك لأن معظم المنتفعين كانوا من أقارب حرم النحاس باشا

وأقارب بعض الوزراء، وزاد على ذلك فضيحة لم يكن من الممكن إخفاؤها، وهـــى التلاعــب بســوق القطن فى الإسكندرية فى أعقاب الحرب الكورية، ولأبعــاد انتــباه الــناس عن فساد الوفديين كان لابد من إطلاق سحابة دخان لإخفائهــا. وبما أن للنحاس باع طويل وقديم فقد كان يجيد اللعبة ويعرف ما يجــب عملـــه بالضبط. فدق الطبول ضد الوجود البريطانى كان على الدوام الطريقة المؤكدة لتحويل انتباه الرأى العام عن المشاكل الداخلية القائمة. وففى الثامـــن من أكتوبر عام ١٩٥١ ألغى النحاس معاهدة ١٩٣٦ من جانب واحد، تلـــك المعاهدة التى كان قد وقعها بنفسه، معلنا أن فاروق ملكاً على السودان كما هو ملك على مصر.

كانـــت تلـــك الخطوة غاية في الخطورة لأنها كانت تناسب هدف الحكومة كصـــمام أمان تنفث من خلاله العواطف المشبوبة. ولم يكن لدى النحاس نية لإعـــلان الحرب على إنجلترا والتى كانت تعتبر حماقة منه إذا ما وضع في الاعتـــبار قـــوة القـــاعدة المتواجدة فى منطقة القناة، غير أنها أعطت مجالاً لاســـتخدام ســـخط الغـــلاة فى القيام بعمليات فدائية ضد البريطانيين ولوضع بعـــض المـــزايا السياسية لصالحه عند بدء المفاوضات، وكما هو متوقع فقد تحولـــت الجماهـــير مـــن الهتاف ضد جرائم الوفد لتندفع إلى الشوارع وهى تهتف: « يسقط البريطانيون ويحيا الوفد ».

وما أطلقت عليه صحف القاهرة بصيغة المبالغة: « معركة القناة » لم يكن يـــزيد عن سلسلة من « تكتيك اضرب واجرى » قامت به العناصر الفدائية، فقـــد كان من وجهة نظر النحاس أنه من الأفضل استخدام الأخوان المسلمين والشـــيوعيين، وذوى القمصان الخضر التابعين لأحمد حسين فى إلقاء القنابل الـــيدوية على قوافل الحراسة البريطانية، أو القيام بخطف اللوريات العسكرية مـــن وإثارة القلاقل فى العاصمة، غير ان الجيش المصرى لم يشارك فى هذا العمـــل بالرغم من أن الضباط الأحرار كانوا يقومون سراً بتقديم ما يقدرون عليه لمساعدة هذه الجماعات السياسية.

وبـــناء على إصرار السفارة البريطانية قامت قوات الحامية فى أول الأمر

بالرد المضاد على هذه الأنشطة (والتى لم يزد عن أكثر من أحداث مضايقات أقـرب إلى التهديد) بما لا يجاوز الدفاع التقليدى عن النفس، فقد كان واضحاً للسـفير أنـه لا يمكن تحقيق أى مكسب إذا ما فقد الإنسان أعصابه، ولسحق هـذه الجماعـات السياسية كان الأمر يتطلب التحرك خارج منطقة المعاهدة والـتى يمكـن حلهـا بالدبلوماسـية حلاً وسطاً. وأنه بمجرد البدء فى حملة عسـكرية، قد تتصاعد إلى الاحتلال العسكرى الكامل للبلاد. والذى لا يناسب مـن الناحـية العملـية فى الظروف القائمة (وهى حقيقة واضحة أغفلت عام ١٩٥٦).

كـان لصـبر الجنرال « إرسكين Erskin » القائد العام للقوات البريطانية حدود، فقد كان رجلاً عسكرياً وليس سياسيًا، وعندما تبين له على إثر هجوم علـى نقطة تموين فى التل الكبير - أن قوات البوليس الاحتياطية (بولوكات الـنظام) كانـت تعمل فى الخفاء جنبًا إلى جانب مع الفدائيين، قرر أن يلقنهم درسـاً لا ينسـوه. ففى الساعة السابعة من صباح أحد الأيام ضرب الحصار بالدبابات حول قيادة البوليس فى الإسماعيلية ووجه إنذاراً إلى قوات بولوكات النظام بتسليم أسلحتهم والاستسلام.

وقـد وصلت أنباء هذه التطورات إلى سراج الدين وزير الداخلية وهو فى الحمـام، وبكبرياء يتجاهل حقائق الموقف أصدر أوامره على الفور بالقتال « لآخر رجل ولآخر رصاصة ».

وفـى الخـامس والعشـرين مـن يـناير قاومت بلوكات النظام بشجاعة وبسـلاحهم غـير المتكافـئ لدرجة تثير الشفقة حتى نفذت ذخيرتها. وما أن قدمـت الساعة الحادية عشرة حتى كانت مقر قيادة بلوكات النظام كومة من الحطام. فقد لقى أربع وستون جندياً من قوات البوليس مصرعهم بينما جرح مائة آخرون.

وقـد حـذر الأصدقاء المصريون أن الموقف جد خطير بالنسبة للأجانب، وما ان أقبل فجر اليوم حتى ساد إحساس ثقيل بالغثيان وبالقدر المشئوم، وبدأ

بضعة آلاف من المتظاهرين الغاضبين - إلا أنهم كانوا منظمين - يتجمعون بالقرب من الجامعة بينما تم نقل طابور من سيارات الرولز رويس التى تبرق فى شمسٍ الشتاء المشرقة من صالات العرض فى وسط المدينة إلى موقع أقل تعرضـــاً للخطر. وعلى وجوه رجال الشرطة فى بزاتهم السوداء علت نظرة تشـــف عن تهكم وهى التى كانت عادة تعلوها الابتسامة. وفى الدواوين التى كانـــت عـــادة تعـــج بالصخب كان هناك وجوم حذر. ومع اقتراب الثالثة بعد الظهـــر كانت هناك سحابة كبيرة ذات لون رمادى تميل إلى السواد تتصاعد فـــوق المديـــنة وتـــتجه تدريجياً جنوباً الأهرامات. وجاء صوت متشنج على الهـــاتف يصرخ: « كل شئ يحترق.. أنهم يحرقون كل شئ... القاهرة كلها مشتعلة... كل شئ قد تحطم! » وســـرت شائعات غاضبة عن حدوث مذبحة للأجانب. وفى وسط هذه الصدمة وهذه الكارثة الغامضة جاء صوت النحاس يعلـــن الأحكام العرفية. وبعد الكارثة قام بجولة وهو غائب الذهن فى شوارع المديـــنة التى أضحت أطلالاً يتصاعد منها الدخان، وشوارعها مليئة بالحطام المبعـــثر، لا شـــئ فـــيها سوى قطع الدبش وحطام الأشياء التى التوت بفعل النـــيران حيث كانت معالم المدينة الشهيرة قائمة. كانت الجماهير صامته وقد علتها الكآبة وفى عيونها بريق شرير ينم عن الثأر. أنه يوم السبت الأسود فى السادس والعشرين من يناير عام ١٩٥٢، فى ذلك اليوم انفجر بركان الغضب الـــذى كان محتزناً منذ عقود فى شكل محرقة للانتقام. اشتغل فيه إطار العهد البائد بأكمله وغطته سحب الدخان.

الفصل السابع عشر

حركة الضباط الأحرار

قد لا يمكن أبداً معرفة العقل المخطط لحريق القاهرة تماماً مثل استعراض كـــل الحقـــائق حول حادثة اغتيال الرئيس كنيدى التى لم يصل فيها أحد إلى تفســـير واضـــح حتى الآن فبعض الناس يعتقدون أنه من تدبير الملك لتشويه ســـمعة الوفـــد ، بيـــنما البعض الآخر يعتقد أنه من تدبير الوفد لتشويه سمعة الملـــك . أو مـــن عمل الشيوعيين على أمل الاستيلاء على الحكم من خلال أحداث الفوضى ، بل اقترح بعضهم الذين تتحكم فيهم غريزتهم اللاإرادية بأن أيـــدى البريطانييـــن الـــتى تمتد إلى كل مكان ، بأن وراء ذلك كانت السفارة البريطانـــية . وأكثر الأجابات احتمالاً أنها نتاج حريق ذاتى من تدبير مؤامرة صـــامتة وغـــير مسئولة دبرتها السلطات والمتطرفون من كل صنف واتجاه للقـــيام بمظاهـــرة شيطانية فقدوا السيطرة عليها تماماً بطريقة سارت بها نحو الكارثـــة ، وكمـــا يتضح من الموقف أنه كان فى الإمكان تجنب ذلك كله كما حـــدث فـــى موقف مواز بالإسكندرية حيث حالت الإجراءات الصارمة التى اتخذها محافظها مرتضى المراغى من وقوع أى عمل فوضوى .

فطـــوال اللـــيل أدت أنـــباء مذبحـــة بلوكات النظام إلى غليان الدماء فى العـــروق. فمـــنذ الصباح الباكر بدأت الجماهير تتجمع فى الميدان الكبير أمام الجـــامع الأزهر . حشود هائلة تمثل كل عناصر السخط : الإخوان المسلمون والشيوعيون ، والاشتراكيون من ذوى القمصان الخضر ، والعامة من الناس مـــن لابسى الجلابية ، جميعهم يزأرون طلباً للثأر . ولم يكن فى مقدورهم أن يعلمـــوا أن مجلس الوزراء قد اتخذ قراراً فى جلسة عقدت عند منتصف الليل بقطـــع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا العظمى ، والقبض على ثمانين من الإنجليز المقيمين كرهائن وسرعان ما تبين لهم أن رجال البوليس بدلاً من أن يـــنهالوا على رءوسهم بالهراوات كما اعتادوا قد انضموا إليهم فى المظاهرة بالفعل . ومن ثم لم يكن أمامهم عائق خاصة بعدما خطب فيهم وزير الشئون الاجتماعية من شرفته قائلاً : "أنه يومكم سنثأر لكم ! » .

ولمعظـــم ســـاعات الصباح لم تقم الجماهير بفعل شئ خطير غير الهتاف بالشعارات . لكن قبل الظهيرة وقع حادث هو الذى أشعل فتيل الحريق . ففى شـــرفه كاباريه بديعة فى ميدان الأوبرا ، جلس أحد الضباط يحتسى الويسكى فـــى صحبة إحدى مضيفات الكاباريه . عندئذ وجه إليه أحدهم اللوم لأنه يمتع نفسه بهذه الطريقة المبتذلة بينما رفاقه يذبحون فى الإسماعيلية ، ووقع بينهما شـــجار ، فاندفعت الغوغاء إلى داخل الكاباريه ، وصبوا البرافين على الأثاث الموجـــود فـــيه، وفى لحظات كانت النار تتأجج فى المكان . وفى نفس ذلك الوقـــت تمامـــاً كانت سيارات الجيب المعبأة بالرجال والبرافين تجوب أنحاء العاصـــمة المختلفة ، وبدأت المشاعل تؤجج النيران بطريقة منظمة من مكان إلى آخر . وكان تركيزهم بوجه خاص على الشركات والمؤسسات المعروفة بأنهـــا إمـــا بريطانية أو يهودية ، ولم يعرف أحد هوية هؤلاء بالرغم من أن شخصيةٍ رجل شرير محترف إشعال حرائق – قيل أنه من السفارة البولندية- كان دائماً متواجدا فى قلب أى مظاهرة .

وفـــى نـــادى "التـــيرف » Turf Club الـــبريطانى حيـــث اعتاد عدد من المترددـيـــن علـــى تناول مشروباتهم المعتادة قبل تناول الغداء كان من بينهم القـــائم بالأعمال الكندى والمستشرق الشهير جيمس كريج James Craig . إذ لـــم يكـــن أحد ياخذ أعمال الشغب مأخذ الجد ، فقد شاهدوا من قبل مثل هذه الأشياء.

ويسترجع "دينيس بيـــرش Dennis Birch » وكيل شـــركة فورد ذكرياته: "فجـــأة ظهـــر ســـائقي فيٍ البار ، وأصر على مغادرتى المكان فوراً بل أنه جذبـــنى مـــن ذراعى تقريباً لإخراجى إلى سيارتى ، ولو كنت بقيت دقيقتين لكـــان حـــدث ما حدث » . إذ اندفعت الجماهير إلى مبنى النادى ، وبللت كل شـــئ فـــيه بالبترول ، ثم أشعلت عود ثقاب ، وقد حاول سبعة من الأعضاء الهـــروب بينما كانت النيران تمسك بثيابهم ، ولكنهم اجبروا على العودة إلى داخل المبنى مرة أخرى. وهلكوا وسط النيران.

فـــى ذلك الوقت كانت المبانى فى كافة أنحاء وسط المدينة مشتعلة ، وكان

الأوربـــيون يهربون بطـــرق تشيب لها الولدان . فمثلا مدير شركة جيه أرثر رانـــك J. Arthar Rank التى كانت تمتلك دار سينما ريفولى تعرض للمطاردة عـــبر الدهاليز من جانب عصابة من الرجال المسلحين بالسكاكين ولم يسعفه بالهـــرب ســـوى القفـــز من نافذة فى الطابق الثانى . أما فى صالات عرض شـــركة القاهرة للسيارات فقد ثقب مضرمو النيران السواتر الحديدية الثقيلة ، وأحرقوا السيارات فى الشوارع قبل أن يضرموا النيران فى المكاتب . وذكر أحـــد الحراس أنه : "عندما وصلت عربات الأطفاء ، قاموا باستخدامها لفتح البـــترول على المبانى وفى ثوان قليلة كان كل شئ تشتعل فيه النيران » لقد كانـــت الوســـائل التى اتبعوها تتسم بالعنف حتى أن اثنين من مثيرى الشغب حاصـــرتهم النـــيران بالداخل وحرقوا حتى الموت . وكذلك انتشرت مناظر مشابهة فى كل أنحاء المدينة .

وربما أكثر ما حدث من إثارة ذلك الذى حدث فى فندق شبرد ، الذى كان لوقـــت طويـــل قـــبلة المسافرين . فخلال ساعات الصباح اقبل لورى محمل بالرجال قدموا أنفسهم إلى الإدارة على أنهم فرقة من البلدية جاءوا لرش الـــ د. د. ت. ، ثـــم قاموا برش مسحوق فى معظم الحجرات ، لكنهم فى الحقيقة كانوا يستخدمون مادة سريعة الاشتعال ، وعندما وصل مضرمو النيران قرب الســـاعة الثالـــثة من بعد الظهر ، لم يستغرق منهم سوى دقائق حتى تشتغل النـــيران فى كافة جوانب البناء الكبير الممتد . كم من الزوار حوصروا وسط النيران فى حجراتهم لا أحد يدرى؟، فقد دمرت السجلات مع تدمير الفندق.

ولمعظم ساعات النهار استعر الجحيم بلا سيطرة على الإطلاق . وفى قمة أحـــداث الشـــغب كان رئيس الوزراء النحاس باشا يتلقى العناية بأظافره من متخصص بيدكير "Pedicure » . وكان الإجراء الوحيد الذى صدر منه خلال هـــذه الساعات هو أنه أرسل عربة مصفحة لإحضار حرمه من عند مصفف الشـــعر الخاص بها فى قصر النيل ، أما فؤاد سراج الدين وزير الداخلية فقد كـــان مختلـــياً فـــى مكتـــبه الخـــاص يتفاوض على شراء ضيعة بالفرنكات السويســـرية . وعـــندما وصلته الأنباء قام على الفور بالاتصال هاتفياً بالقائد العام للقوات المسلحة فى قصر عابدين، غير أنه لم يستطع الوصول إليه لأن

الملك كان يقيم حفل غداء لأربعمائه من كبار ضباط الجيش احتفاء بمولد ابنه الأمير أحمد فؤاد ، ولا يريد إزعاج أحد من الحاضرين فى الحفل. ولم يكن قـبل الغسق عندما قامت أولى فصائل الجنود بمحاولة جاءت متأخرة لإعادة النظام. وخلال ذلك الوقت كانت رعاع القاهرة تفتش حولها فى الحطام باحثة عـن أى شـئ يمكن التقاطه ، واستمرت أعمال السلب والنهب طوال الليل . وعـندما حل الإرهاق الكامل بمثيرى الشغب لدرجة التوقف ، كان تقريباً كل بـار ، أو دار سـينما أو كاباريه فى المدينة قد دمر تماماً . وانهار أو اتلف بفعـل الحريق ما يقرب من أربعمائة بناية . وبدا وسط المدينة كما لو كان قد تعـرض لقصف جوى . وحقيقة الأمر أن ما حدث كان مقدمة لثورة لم تسفك فيها دماء .

وكبطيخة كبيرة انشطرت مصر إلى شطرين ، لأن كل واحد كان يرى أن الثورة ترشح من كل بذرة . ولقد نجح الملك فى تشويه سمعة الوفد مرة أخر، عـندما اعتـبر النحاس مسئولاً عن أحداث يوم السبت الأسود لكنه فى نفس الوقـت كـان قـد أشعل فتيل قنبلة موقوته أسفل كرسى العرش ذاته فلم تعد رعاية الله تحيطه بسياج .

فـى الأصـل وضـع الضـباط الأحرار تاريخ التحرك نحو هدفهم للقيام بـأنقلابهم تاريخـاً مـتأخراً من عام ١٩٥٢ . فجمال عبد الناصر لم يخطط لضربته ما لم يكن متأكداً تماماً من نجاحه نجاحاً كاملاً . فقد وضح للآخرين قـائلاً : «مـن ناحية المبدأ أنا لا أقوم بفعل ، إنما أنا أقوم بالرد على الفعل فقـط» . كانت الظروف فى صالحهم فى تلك اللحظة ، غير أنه تبين لهم أنه حـتى ولو قدر لهم النجاح في الاستيلاء على الحكم ، فأن مجموعة الضباط غـير المعروفة قد تفشل تماماً فى كسب الرأى العام ، وكذلك القبول العام بها سـواء داخل مصر أو خارجها . وقبل كل شئ فأن الجيش البريطانى يعسكر علـى مقربة من العاصمة . ومن المعروف أن الوحدات البريطانية كانت قد وضـعت فى حالة تأهب للتحرك نحو القاهرة عند أول أمر يصدر إليها إذا ما تصـاعدت أعمـال الشـغب . فقد كان الجيش البريطانى هو الخندق الأخير لتأمين سياسة القصر . وفى لحظة اليأس فأن الملك قد يدعوهم للتدخل إذا ما

وجد عرشه فى خطر . أما على الجانب الآخر فأن المتآمرين كانوا يراهنون علـــى أن البريطانييـــن أنفسهم قد ضاقوا ذرعاً بالملك فاروق وبطانته لدرجة المــوت ، وأنهم سوف يرحبون بقيام "دكتاتورية العسكر » بشرط أن تحظى بالاحــترام (هذا الافتراض كان حقيقيا تماماً : فقيادة القوات البريطانية كانت دائمـــاً تعتــبر الجيش أهم الركائز فى البلاد التى يمكن الاعتماد عليها ، ربما لأنهم شعروا أنه قد تلقى تدريبه إلى حد كبير على الأسلوب البريطانى ، وما كان الضباط الأحرار فى حاجة ماسة إليه هو العثور على شخصية ذات هيبة ووقـــار لتكون الواجهة – رجل من الجيش قادر على كسب احترام على نحو واسع.

وأول اسم رشح لهذا الدور راعيهم القديم – ذلك الثعلب العجوز . «عزيز المصـــرى» الذى كان قد حاول مساعدة روميل فى الحرب لكنهم أدركوا أن العمـــر قد تقدم به ، ومضى على تقاعده زمن طويل ، أما الشخص الثانى فى القائمة فقد كان اللواء فؤاد صادق الذى أثبت جدارته فى حرب فلسطين : وما كـــادوا يقـــررون الاتصال به حتى فاجأتهم الأنباء بأن الملك فاروق قد عينه رئيســـاً للأركان. وبناء على اقتراح من عبد الحكيم عامر فقد طرح اسم قائده المباشر اللواء محمد نجيب ، ووافق ناصر على الفور بأن ذلك اختيار ممتاز ، فقد كان قائد سلاح الحدود ذو القلب الطيب والذى كان يدخن الغليون يمثل رمـــز البطل فى الجيش ، فلقد جرح ثلاث مرات بدرجة خطيرة فى فلسطين حـــتى أنهم فى إحدى المرات تركوه بعد أن ظنوا أنه قد لقى مصرعه . كما كان الرجل الوحيد الذى يحمل فى صدره آثار ثلاثة جروح غائرة ، كما كان على اتصال بحركة الضباط الأحرار عن طريق مساعده عبد الحكيم عامر ، وكانـــت بـــادرة الشك من جانب ناصر هل هذا اللواء ذو الرتبة العالية سوف يقبل أن يكون مجرد واجهة ؟ ، إلا أن عبد الحكيم عامر أعاد التأكيد له على هذه النقطة .

كـــان الضـــباط الأحرار آخذين فى الظهور شيئاً فشيئاً ، فمنذ عام ١٩٥١ أصـــبحت الحركة غير شرعية لمجرد أن قادتها كانوا غير معروفين ، وكان بعـــض المشـــاركين ذوى عقلية تنظيمية قد تتفوق على عقلية ناصر يريدون

تأســيس أنفســهم فـــى هيئة رسمية لها مجالس وخطط وبرامج ، وقد رفض ناصـــر ذلــك بشكل مطلق ، وكتقدير له وافقوا أن يصبح على رأس مجلس تنفيذى ، والذى بالرغم من تغير أعضائه من آن لآخر كان عادة يعرف باسم «مجلــس التســعة»، وعلى أى حال لم يكن هناك أى شئ رسمى بخصوص ذلــك . كــان العضوان الوحيدان فى هذا المجلس اللذان يعرفان أسماء جميع الضـــباط الأحـــرار هما ناصر وعامر . كانت المسالك إليه موصدة بطريقة ســرية حتى لا بوليس الملك السرى ولا وزارة الداخلية كان لدى أيهما أدنى شك فى أن لناصر يد فى الحركة حتى مجئ يوم الثورة .

ولمــا كــان من المحال عقد اجتماعات جماهيرية أو العمل فى العلن، فقد بــدأوا يوزعــون منشــورات تهــاجم تبذير الملك وإسراف الحكومة . وهذه المنشــورات كانــت تكتــب بمشــقة على الآلة الكاتبة المحمولة عن طريق أصــبعين، والــتى كانــت تخص زكريا محيى الدين ، ثم تنسخ . وتنقل إلى ثكنات الجنود ، وتحت مقاعد سيارات الضباط . وبعد برهة تجرأوا واصبحوا يوزعونهــا عن طريق البريد العلنى بالرغم أنهم كانوا بجرأة يرسلونها دائماً مــن صناديق بريد متباعدة لدرجة أن نسخاً منها أرسلت إلى القصر ووزارة الداخلية التى كانت مهمتها الأولى قمع المؤامرات.

إن مثل هذه النشاطات كلها كانت معروفة ، غير أن ناصر كان يعرف أن هناك شيئاً جوهرياً ضرورياً كشرط لاختبار القدرة الحقيقية للضباط الأحرار، ربما كان عددهم الشامل ما يقرب من ألف ، لكن كان يتوجب استطلاع رأى الجيش كله لقياس مدى تأييده الكامل فى حالة حدوث حركة التمرد . ومن ثم اختــير نجيب كمرشح لمنصب حساس من الناحية السياسية وهو رئيس نادى الضباط فى الزمالك . وانتشر الترويج بوجوب أعطاء الأصوات للرجل الذى يحمل ثلاثة جروح فى صدره . أما مرشح الملك فقد كان اللواء حسين سرى عامــر والــذى كــان مكــروها بشدة بسبب دوره فى بعض صفقات السلاح المشــبوهة . ولقــد بدات الإجراءات على غير توقع ، وذلك بالوقوف ثلاث دقــائق فى صمت فى ذكرى أحد الضباط الذى لقى مصرعه على يد البوليس

السرى ، ثم بدأ الأعضاء يعطون أصواتهم ، وفاز نجيب إذ حصل على أكثر من ثمانين فى المائة من مجموع الأصوات .

كـــان ذلـــك بمثابة صفعة مريرة تلقاها الملك الذى ألغى على الفور نتيجة الانـــتخابات الـــتى أظهرت إلى أى اتجاه تهب الريح ، فلم يعد فاروق يعتمد علـــى ولاء الجـــيش . ولقد أكد ذلك بشدة محاولة اغتيال اللواء حسين سرى عامـــر وظهور خنجر مثبت به مذكرة على مكتبه فى قصر عابدين وكانت المذكرة تقول : «قريباً جداً ستكون أنت الهدف ذاته ، وليس فى ظهرك فقط» وبالمثل كان من المحال بالنسبة لناصر أن يؤجل التصرف لأبعد من ذلك إذا ما أراد أن يهرب من المصيدة التى كانت يعدها بوليس القصر السرى . ولقد كان مرتضى المراغى الذى أصبح أقوى رجل فى وزارة الداخلية على وشك مـــن أن يضـــع يداه على صلب حركة الضباط الأحرار . وكان الملك يناور ليعيـــن صهره إسماعيل شيرين وزيرا للحرب. كل بات ينذر بحدوث كارثة ، فقد حدث أن نقل عدد من الخلايا الداخلية للضباط الأحرار إلى وحدات بعيداً عـــن القاهـــرة ، والحصار المحكم كان يضيق عليهم ، وأصبح الأمر مجرد أيام. وأن الضربة سوف تنزل بهم فى أى لحظة .

فـــى مطلع شهر يوليو غادر الملك وبطانته القاهرة لقضاء أجازة الصيف للاستمتاع بنسيم الإسكندرية المنعش ، وتبعه الوزراء والهيئات الدبلوماسية ، وطـــبقاً للتقالـــيد المتبعة منذ زمن طويل ، فقد كانت فترة خمول واستجمام ، حيـــث يكـــاد أن يصل خلالها نشاط الحكومة إلى أدنى درجة. ولكن فى ذلك العـــام جعل التغيير الوزارى المستمر كل شئ عند حافة الهاوية. وفى القاهرة بدأ مناخ الصيف الخانق معبأ بالتهديد .

ويـــروى ثـــروت عكاشة – أحد أعضاء الخلية الداخلية للضباط الأحرار: «وفـــى العاشـــر مـــن شهر يوليو جاء إلى منزلى كل من جمال وخالد(محيى الديـــن) وطلـــبا مـــنى ، كمـــا كانا يفعلان فى أغلب الأحيان – أن أدير لهم إســـطوانه رمســـكى كورساكوف Rimsky - Korsakov "شهر زاد » ، وكان جمـــال ينصت كما لو كان يحلم ، وعندما توقفت الأسطوانة نهض ورفع أبرة

التشـــغيل عـــن الأسطوانة . ثم قال فجأة : «سوف نضرب ضربتنا فى مطلع الشهر القادم» .

فلقـــد كـــان الخـــامس من أغسطس هو التاريخ الذى اختاره وذلك بسبب رئيســـى وهـــو إتاحة الفرصة لهم لقبض مرتباتهم فى نهاية شهر يوليو . وما كـــاد القرار أن يتخذ حتى اعترى ناصر الشك . فقد كان يقلقه أن عدداً كبيراً من رجاله الأساسيين قد تفرقوا ، أو متواجدين فى أماكن بعيدة . فبعد أسبوع ذكـــر أمـــام المجلس أنه يخشى أن يفشل الانقلاب وأنه من الأفضل أن تكون هناك موجة من الاغتيالات .

وبيـــنما كـــانوا فى حالة من الحيرة ، دق جرس التليفون فى العشرين من يولـــيو فـــى مكالمـــة بعـــيدة من الإسكندرية ، ويستطرد ثروت عكاشة فى مذكـــراته: «لقـــد كـــان المتحدث هو صهرى أحمد أبو الفتح (محرر جريدة المصـــرى) الـــذى نقل إلى أن حسين سرى على وشك من تقديم استقالته من رئاســـة الوزارة ، وأن الملك يعمل على فرض تعيين اللواء سرى عامر على الـــوزارة كوزير للحربية . وأن أربعة عشر فردا من رجالنا مطلوب القبض عليهم».

هكذا لم يكن هناك من خيار ، وكان عليهم أن يتصرفوا فى الحال . ومما يدعو للدهشة أن الحكومة لم تكن على دراية بما يحدث حتى فى هذه المرحلة المـــتأخرة. ففـــى العشرين من يوليو أدلى حسين سرى بملاحظة إلى مساعدة العســـكرى فى لهجة يغلب عليها المزاح : "لقد نما إلى علمى أن هناك بعض القلاقل فى الجيش فهل هذا صحيح ؟ » ولقد علت الدهشة وجه مساعده بحق إزاء هـــذه المعلومـــة وأجاب قائلاً : "يا صاحب الفخامة : أننى لم ألاحظ أى شـــئ بنفسى». ومنذ تلك اللحظة لم يتوقف عن التفكير كيف كان مخطئاً إلى هذا الحد .

كـــان مخططاً للثورة أن تتم على مرحلتين : المرحلة الأول وهى السيطرة علـــى الجـــيش ذاته عن طريق قيام الفرقة الثالثة عشر مشاة باحتلال القيادة

العامـــة، بيـــنما تقـــوم وحدات الدبابات والمدرعات بالسيطرة على المراكز الحـــيوية مثل المطار، ومحطة الإذاعة ، وهيئة التليفونات ، وبعض المناطق الحيوية الأخرى . وما أن يتم ذلك حتى يبدأ التعامل مع الملك وحددت ساعة الصـــفر عـــند الساعة الواحدة من صباح يوم ٢٣ يوليو حيث تكون شوارع العاصمة خالية ، ويكون كبار ضباط الجيش فى أسرتهم نائمين فى أمان .

وكمـــا يحدث فى كثير من الأحيان لأدق الخطط حيطة وحذراً ، وقع عدد مـــن المواقف غير المتوقعة فى اللحظات الأخيرة . أن أحداث ٢٢ يوليو عام ١٩٥٢ مرت كما لو كانت سيناريو لفيلم إثارة .

كانـــت الحرارة في ظهر ذلك اليوم كالجحيم إذا ارتفعت درجتها إلى ١١٧ْ درجـــة فهرانيتـــيه(*). وتحولت القاهرة كلها كما لو كانت حماماً تركيا، ولأن محمـــد نجيب كان موضوعاً تحت المراقبة الدقيقة من قبل البوليس السرى ، فلـــم يكن متوقعاً له أن يلعب أى دور فى الانقلاب الفعلى . فقد أمضى عصر ذلـــك الـــيوم فى نادى التجديف الواقع على النيل . وما أن مالت الشمس نحو المغيـــب خلـــف الأهرامات ، وهب نسيم منعش قادم عبر النهر ، حتى جاءه أحد الصحفيين بأنباء مزعجة . فقد سمع لتوه من الإسكندرية أن الهلالى باشا ســـوف يشكل الحكومة وأنه انتوى إلقاء القبض على مجموعة من المتآمرين على رأسهم محمد نجيب .

وفـــى مكـــان آخـــر مـــن المدينة ، كان ضابط شاب يقرع باب شقة عبد الناصـــر– فـــى اللحظة التى انسحب فيها جمال ليرتدى بزته العسكرية . لقد كـــان النقيـــب ســـعد توفيق أحد الضباط الأحرار ، غير أنه لم يكن من بين الســـبعين ضـــابطاً المـــنوط بهم القيام بالانقلاب . وفقد شرح أنه كان مكلفاً بالخدمـــة فـــى وزارة الداخلية ، وأنه ظن أنه من الأفضل أن ينسل ليحذره . فلقد جاءت الأنباء من الإسكندرية أنه نما إلى علم الملك أن انقلاباً يخطط له، وأنـــه تحـــدث علـــى الهـــاتف لرئيس الأركان . وأن أمراً صدر لجميع قادة

(*) أى ما يعادل ٤٢ درجة مؤية .

الوحـــدات بالتواجد فى مقر القيادة بالقبة . ولقد اعترف ناصر أن "تلك كانت لحظـــة كريهة . وأن الخطوة الوحيدة التى يجب اتخاذها هى التصرف فوراً ، وبضـــربة حـــظ يمكـــن محاصرة القيادة العليا داخل مقرها » . ثم اصطحب النقيـــب توفـــيق معه ، وقفز إلى سيارته الأوستن السوداء الصغيرة ، واتجها إلى بيت عبد الحكيم عامر ليخبره بأن ساعة الصفر يجب أن تقدم من الواحدة بعد منتصف الليل إلى منتصف الليل إن أمكن . لكنٍ كيف يوصل هذا القرار إلـــى الآخريـــن ؟ وفى صحبة عامر وتوفيق اندفعا مرة أخرى إلى الأوستن بحثاً عن أنور السادات غير أن الثورى أنور السادات ، ذلك الرجل الذى كان يتنفـــث الثورة منذ سنوات، كان قد اتخذ الحيطة بأن اصطحب زوجته وابنته إلـــى دار الســـينما(*) لكـــن لم يكن فى مقدرتهم غير ترك مذكرة بأن يتصل بعامر فى الحال.

كانـــت محطـــته الثالـــثة هى بيت أحد الضباط الأحرار الذى كان يختزن أســـلحتهم ، لكـــنه كان أيضاً خارج الدار ، واسترسل ناصر فى السباب وهو يهمـــس فى نفسه . هل كل مخططاته التى استغرقت عشر سنين من الإعداد الدقيق سوف تذهب سدى فى اللحظات الأخيرة ؟ . «وأمام ثكنات قصر النيل شاهد رجال البوليس فى زيهم الأبيض هم يصطفون . ولم يكن ذلك جزءاً من التخطيط ، وهرولت السيارة السوداء الصغيرة متجهة إلى المحطة التالية .

وفجـــأة ظهـــر اثـــنان من راكبى "الموتوسيكلات » من رجال البوليس ، وأمـــروهم بالتوقف إلى جانب الطريق ، ثم طلب أحدهما بوجه عابس أوراق مـــن بداخـــل السيارة ، ثم سأل ناصر عن السبب ورد رجل البوليس ببرود : أنـــك تقـــــــود السيارة والأضواء مطفأة - هل تدرى أن ذلك ممنوع ؟ "ولم يجب ناصر ببنت شفة ، فلقد نسى فعلاً أن يضيء الأنوار الرئيسية لسيارته . أمـــا رجل البوليس الآخر فقد تجول ببصره فى شك فى السيارة وتساءل عن ســـبب قـــيادتهما السيارة والأضواء مطفأة . هل فى نيتهما القيام بشئ خارج

(*) وهى سينما الروضة التى كانت قائمة فى شارع المنيل (المترجم) .

القـــانون أم أنهمـــا هاربـــان من شئ؟ وبعد لحظات مجنونة كاد فيها مصير الـــثورة أن يحسم . فقد كان من قمة الغرابة فى هذه اللحظة الحرجة أن يقاد الزعـــيمان إلـــى مركـــز البوليس بسبب مخالفة مرور تافهة . واستمر رجلا الشـــرطة يتفحصـــان أوراقهما . وأخيراً بعد توجيه اللوم الشديد لهما ، ركب رجلا الشرطة الموتوسيكلات ، وتبادل الثائران ابتسامة عصبية. ثم اندفعا إلى هليوبوليس ليلتقيا بشركائهما فى المؤامرة .

وبعـــد دقـــائق ، شاهدا طابورا من الأضواء الأمامية قادماً وهو يهبط من الشـــارع الرئيســـى مـــن ناحية الثكنات الذى كان به ثلاث حارات للمرور ، وعلـــى جانبيه الأشجار. لقد كان من الصعب تبين من مسافة بعيدة من هم ؟ هـــل هـــم قواتهـــم؟ أم وحدات عبأها الملك فجأة ؟ وركن ناصر سيارته إلى جانـــب الطـــريق ليـــتأكد مـــن ذلك . ومرت أولى العربات المحملة بلابسى الكـــاكى، ثـــم توقفت عربة قيادة فجأة ، وأحاطت وحدة من حاملى الرشاشات بالسيارة الأوستن ، وصوب ضابط شاب مسدسه نحو البكباشى ناصر ، بينما قـــال للنقيب عامر والملازم : توفيق "فى استطاعتكما الذهاب أما أنت فبرتبة بكباشـــى وجميع الرتب العليا سوف يلقى القبض عليها الليلة . أننى أسف لكن يجب أن تعتبر نفسك مقبوضا عليك عسكرياً !! » .

وقد حاولوا المجادلة لكن لم يكن من ورائها فائدة . تلك هى عقوبة الزعيم الـــذى يخفـــى شخصيته فى سرية تامة ! وصاح الضابط الشاب وهو يضغط علـــى أســـنانه لأحـــد الجنود : "خذه وضعه تحت الحراسة !! » . وفى هذه اللحظـــة توقفـــت عـــربة جيـــب ونزل منها قائد وحدة الرشاشات . لقد كان البكباشـــى يوسف صديق أحد أقرب الأصدقاء إلي عبد الناصر . ثم صاح : «مـــاذا يحـــدث بحق» فأجاب عبد الناصر متجهما : «لقد القى رجالك القبض علـــى ! » . وبسرعة لخص له الموقف حول الاجتماع الذى كان منعقداً فى مقر القيادة العامة وهنا صاح قائلاً : «هيا بنا لنمسك بهذه المجموعة كلها».

تحـــرك الطـــابور نحو مركز القيادة فى القبة ، وخارج مركز القيادة تولى عـــبد الحكيم مهمة تأمين العملية ، وسرعان ما حوصر ذلك البناء الجاثم فى

صمت ، ولبضع دقائق أبدى الحراس مقاومة شكلية ثم توقف إطلاق النيران. وهـــرول عامر وصديق وناصر صاعدين درجات السلم وقد أمسك كل منهم بمسدســـه، واندفعوا إلى مكتب القائد العام ، ولم يبد المقاومة فى الداخل سوى لـــواء واحـــد أطلق ثلاث طلقات من وراء ساتر فى أحد أركان الحجرة ، أما الباقون فقد رفعوا أيديهم مستسلمين دون أن ينطقوا بكلمة واحدة .

وخــــلال ذلك الوقت كانت دبابات حسين الشافعى تحتل محطة الإذاعة(*) والمطـــار ، بيـــنما استـــولت ســـرية الفرسان التابعة لخالد محيى الدين على القشـــلاق الكبـــير فـــى العباسية . وبذلك أصبح فى إمكانهم توجيه ضربتهم، وبصـــرف الـــنظر عن المناوشة التى وقعت فى مقر القيادة العامة والتى لقى فـــيها جنديان مصرعهما. وهما الإصابتان الوحيدتان فى الانقلاب - سقطت القاهـــرة ومراكز أعصاب الجيش كلها فى أيدى الضباط الأحرار دون إطلاق طلقـــة واحدة وبالرغم من العثرات التى ظهرت فى اللحظات الأخيرة ، نفذت الخطة تماماً مثل عقارب الساعة . وعند الساعة الواحدة والنصف من صباح ٢٣ يولـــيو جلس ناصر - ذو الأربعة والثلاثين ربيعاً - والذى خطط للثورة لأكـــثر من عشر سنوات والتى لم يستغرق تنفيذها بالكاد ساعة - على مكتب رئيس الأركان ومعه حفنه من رفاقه ، وهم يواجهون مشكلة جسيمة لم يسبق لهـــم خوضها وهى إدارة شئون الأمة . ومن خارج النافذة كان هناك شخص يطأطـــئ رأسه ليتفادى طلقات الرصاص أكان ذلك انقلابا مضاداً؟ لا لم يكن ذلـــك ســـوى أنور السادات الذى كان قد عاد لتوه من السينما ، والذى أوقفه الحرس بدوره .

إن هذا النجاح الذى تحقق بسهولة فى لحظة حرجة لا يمكن تصديقها كان يتطلـــب تعزيزه . فأرسل ضابطان فى عربة مدرعة لإحضار محمد نجيب . وفـــى الســـاعة الثالثة كان اللواء يهرول وهو يصعد السلم وقد ارتسمت على وجهـــة ابتســـامة عريضة وهو يكرر كلمة : «مبروك ... مبروك » مصافحاً

(*) فى شارع الشريفين بقصر النيل .

كــل مــن يقابلــه . إلى أن قام أحدهم بتقديم سماعه التليفون إليه . لقد كان الهلالــى باشــا رئــيس الوزراء يتحدث من الإسكندرية . وعلى مدى نصف ســاعة راح يحــاور نجيب عارضاً كل الإغراءات لكى يلغى الانقلاب ، فقد كــان الهلالــى يظــن أنــه يــتعامل مع حركة تمرد صغيرة قام بها الجنود الســاخطون والتى يمكن حل أسباب السخط بمنحهم بعض الحقوق . وعندما وضع سماعه التليفون كان قد أدرك أن الأمر أكبر مما كان يتصور .

كمــا جــاءت مكالمات هاتفية أخرى أيضاً ومعها أخبار النجاح من خارج العاصــمة ، غــير أن ناصر كان يعلم جيداً أن المخاطر لا تزال هائلة . فقد كــان يحدث عدد من الأشياء كانت قادرة على إصابة الانقلاب باخفاق تام . فقد كانت القوات البريطانية فى منطقة القنال تمثل الخطر الأكبر ، ومن أجل هــذا السبب أرسل على صبرى إلى السفارة الأمريكية حتى قبل ساعة الصفر ليطمئــن الســفير ويحظــى بتأييده ، إذ لم يكن من المحتمل أن يكون حدوث الانقــلاب قــد جــاء مفاجئاً للأمريكيين . فقد كان مساعده جيفرسون كافرى Jefferson Caffery علــى اتصــال ســرى بالضباط الأحرار منذ وقت ليس بالقصــير ، بالإضــافة إلــى ذلــك مررت إشارة مقنعة إلى الملحق البحرى الأمــريكى أثناء حفل كوكتيل كان قد أقيم قبل أسبوعين ، غير أنه من المؤكد أن تأثير «كافرى» فعل الكثير لتهدئه مخاوف السفارة البريطانية والتى كانت قد وضعت قواتها فى فايد فى حالة طوارئ . وأخيراً قبلوا أنه شأن داخلى لا يبرر التدخل .

ظــل الطــابق العلوى فى مبنى قيادة الجيش يتلألأ بالأضواء طوال الليل. ووســط مناخ من الإثارة والانفعال والتهانى ، اتخذت أولى القرارات . فقد تم الاتفاق على أن يلقب محمد نجيب بلقب : "القائد العام لقوات مصر المسلحة» وأن الــثورة يجــب أن تعلــن باســمه . وخط عامر نص البيان على بعض صــفحات كراســة مدرسية مهلهلة . وعلى عجل أرسل إلى الصحف . وفى الســاعة السادســة صــباحاً أذاعــه أنــور السادات على الهواء مباشرة من اســتديوهات إذاعة الحكومة المصرية والتى كان قد تم الاستيلاء عليها . هذا

بالنســبة للجانــب الأول. ثــم تلا ذلك مسألة الحكومة المدنية ، ولقد بدا على ماهــر الذى كثيراً ما تولى المنصب فى أوقات الطوارئ بأنه الرجل المناسب لــتولى تصــريف الأمور فى هدوء ، ويستطيع التعامل مع الملك . بالإضافة إلـــى ذلـــك فقــد كـــان معروفاً أنه معاد للإنجليز . وللمرة الثانية ذهب أنور الســادات بصـــحبة كمال الدين حسين حيث وجدا رئيس الوزراء السابق فى الحمـــام . ولقــد كان الأمر شائكاً إلا أنه أمكن التوصل إلى اتفاق جعل نجيب يعلـــن فـــى أول مؤتمـــر صـــحفى يعقده أن على ماهر سوف يرأس مجلس الوزراء.

فى غداة اليوم التالى جاءت الأنباء من الإسكندرية بأن فاروق يخطط للقيام بـــانقلاب مضـــاد ، وقــد تــم اعــتراض رسالة لاسلكية موجهة إلى القيادة البريطانـــية العامـــة فـــى فـــايد يرجو فيها التدخل لحمايته . ومن هنا أصبح التخلص من فاروق ضرورة ملحة . وكان ناصر مصراً على ذلك بشدة . فقد اخـــبر نجيـــب أن على فاروق مغادرة البلاد خلال ثمان وأربعين ساعة على الأكـــثر. غـــير أن بعـــض الضباط لم يكونوا مقتنعين بذلك بتاتاً . فقد كانوا يســـعون وراء رأس فـــاروق ففى خلال ساعات قليلة من الليل دارت مناقشة مثـــيرة . كانـــت فى الواقع محاكمة لفاروق. وردد جمال سالم كلمات عزيز المصـــرى(*) الذى كان قد طلب منه المشورة حول أفضل الطرق للتعامل مع

(*) اسمه الحقيقى عبد العزيز زكى . ولد فى القاهرة لأبوين شركسين عام ١٨٧٩ وكفلته أخـــته وهو فى الخامسة عشرة من عمره بعد وفاة والديه . حصل على البكالوريا من مدرســـة التوفيقـــية عـــام ١٨٩٦ ، التحق بمدرسة الحقوق على غير إرادته ورغبته ونزعـــته العسكرية . سافر إلى الاستانة حيث التحق بالمدرسة العسكرية وهناك اشتهر باســـم عزيز المصرى . وذاع صيته كمحارب وعسكرى أثناء الحروب العثمانية فى الـــبلقان عـــام ١٩٠٤ حيـــث ابـــتكر هناك حرب العصابات ، كون مع مجموعة من الساخطين على السلطان عبد الحميد جمعية الوطن عام ١٩٠٦ التى أسفرت عن عزل السلطان ونفيه إلى خارج البلاد وتعيين السلطان محمد الخامس بدلاً منه . بدأ دعوته إلـــى الوحـــدة العربية والقومية العربية . اشترك فى الحرب التركية الإيطالية وتطوع

الملك. فقد قال آكل النار العجوز بازدراء: «إن رأس فاروق هى التى تهمنى بـــالذات بعد أن تسقط... إذا أردتم تطهير البلاد فعليكم بالقتل والاستمرار فى القـــتل » . غـــير أن ناصر نفسه حبذ فكرة النفى لأن الدماء ما أن تبدأ تسيل فلن يكون هناك من يقدر على وقفها . وأن الاعتدال سوف يحسن من صورة الـــثورة . "أن منظر الملك السمين فى نوادى أوروبا الليلية على الأقل سوف يـــبررها » . وفـــى الـــنهاية تم التصويت ، فقد صوت ستة من مجلس قيادة الثورة بأن فاروق يجب أن يشنق ، بينما صوت سبعة بأنه يجب أن ينفى .

لمحاربـــة الإيطاليـــن فى ليبيا حيث درب قوات المقاومة الليبية بزعامة عمر المختار على أسلوب حرب العصابات . أقلقت ميوله العربية الدولة العثانية فاعتقل وحكم عليه بالإعدام لكن أفرج عنه تحت غضب العرب العارم واعتراضات بريطانيا . انضم بعد ذلك إلى الشريف حسين بعد قيام الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦ . لكنه اختلف مع الشـــريف حســـين فعزله عن القيادة فعاد إلى القاهرة عام ١٩١٧ . اختاره الملك فؤاد ضـــمن بعـــثه الإشـــراف على فاروق أثناء تعليمة فى إنجلترا . قضى معظم سنوات الحـــرب العالمية الأولى وما بعدها فى عدد من الدول الأوربية ثم عاد إلى مصر فى بدايـــة الثلاثينيات من القرن المنصرم وتولى عدداً من المناصب وحصل خلالها على الباشـــوية ورتبة فريق ، وعين عام ١٩٣٩ رئيساً للأركان وبعدها أحيل إلى التقاعد . وفـــى عام ١٩٤١ حاول مع اثنين من أصدقائه الهروب على طائرة من مطار ألماظة الحـــربى إلـــى خطوط القوات الألمانية بالصحراء الغربية إلا أن المحاولة فشلت وتم اعتقاله . وفى عام ١٩٤٨ استعاد نشاطه الوطنى حيث قام بدور هام فى تنظيم كتائب المتطوعيـــن فـــى حرب فلسطين . وفى عام ١٩٥١ شارك كتائب التحرير الفدائية فى منطقة القناة . وعرف عنه أنه الأب الروحى لثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ . فقد تعرف علـــى أنـــور السادات ثم جمال عبد الناصر الذى رأى فيه شبابه الثائر ، فعينه سفيراً لمصـــر فـــى موســـكو عام ١٩٥٣ حيث شارك فى تسليح الجيش المصرى . وآخر مســـاهماته الفعالة هى وضع خطة لانسحاب الجيش المصرى من سيناء أثناء العدوان الـــثلاثى عـــام ١٩٥٦ فـــأنقذ بذلـــك جزءاً كبيراً من الجيش المصرى . توفى عزيز المصـــرى فى ١٥ يونيو عام ١٩٦٥ وتم تشييع جثمانه فى جنازة عسكرية (المترجم عن غادة المصرى – من أوراق القرن العشرين) الأهرام ١٩٩٩ .

وطار محمد نجيب وأنور السادات إلى الإسكندرية ، حيث سلما على ماهر إنـــذار الجيش النهائى ، ولم يكن هناك أدنى خوف من إعلانه : كانت مقدمة نـــص الإنـــذار كمـــا يلـــى : "نظراً لفوضى حكمك وتعديك على الدستور، واحـــتقارك لرغبة الأمة فأن الجيش الذى يمثل قوة الشعب قد أمر أن يتنازل جلالـــتكم عن العرش لصالح ولى عهدكم . صاحب السمو الأمير أحمد فؤاد فـــى هذا اليوم ٢٦ يوليو وأن عليكم مغادرة البلاد فى نفس اليوم قبل الساعة السادسة » . ويتذكر أنور السادات : "إن رئيس الوزراء عندما قرأه ، اعتلاه شـــحوب الموت . وهمس بصوت خفيض: "أن فاروق لم يستمع أبداً لما قلته له . إنه ينال فقط ما يستحقه » .

لم يفصح على ماهر أبداً عما دار خلال مقابلته التى طالت مع فاروق فى ذلـــك الصـــباح . غير أن منظر الدبابات التى كانت تحاصر القصر وصوت إطـــلاق الـــنار أقنعته أن لا أمل فى المقاومة . ويذكر سليمان حافظ القانونى الـــذى أعد القرار الفعلى للتنازل عن العرش أن فاروق فعل كل ما فى وسعه لكـــى يـــبدو هادئاً بالرغم من سعاله العصبى وارتباكه اللذين كشفا عن الفزع الـــذى اعتراه . ففى المرة الأولى عند توقيعه على الوثيقة ارتعشت يده بشدة لدرجة أن توقيعه لم يكن ليقرأ ، فاعتذر وأعاد التوقيع مرة أخرى .

وقـــبل حلـــول الساعة السادسة بدقائق هبط فاروق من سلالم قصر رأس التيـــن وهـــو يمشى الهوينا مرتدياً الزى الكامل للقائد العام للأسطول ، تتبعه الملكـــة ناريمان تحمل الملك الطفل بين ذراعيها . وكان الملك قد قضى فترة مـــا بعـــد الظهـــر فى تعبئة كل ما استطاعت يداه أن تطوله . فقد حمل على اليخـــت الملكـــى ٢٠٤ حقيـــبة وصندوق . وبناء على طلبه اصطحبه السفير الأمـــريكى آمـــنا إلـــى السفينة . ثم قام أربعة من الضباط باصطحاب الملك السابق وهو يعبر الجسر وهم : محمد نجيب وجمال سالم ، وحسين الشافعى، وأحمـــد شـــوقى . ومهمـــا أخفى فاروق من انفعاله خلف العدسات السوداء لـــنظارته ، إلا أن صوته كان أجش ، عندما قال لنجيب وهو يصافحه : «ما فعلتموه بى ، كنت على وشك أن أفعله بكم... إنكم سوف تكتشفون فى الوقت المناسب أن حكم مصر ليس بالأمر السهل » .

وبعــد دقــائق تهــادت "المحروســة » بهيئتها الملكية للخروج من حدود الميــناء، ثم توارت ببطىء إلى الأفق الصحو مع مغيب شمس الصيف تحت زئير الواحد والعشرين طلقة للمدفعية .

لــم يكن ذلك مجرد نهاية لحكم الأسرة التى أسسها محمد على فحسب، بل كان بمثابة إسدال الستار على حقبة كاملة من تاريخ مصر.

الفصل الثامن عشر

من البكباشية إلى رئاسة الجمهورية

كان أول إعلان سمع به كل مصرى عن أن ثورة قامت باسمهم جاء من صوت أنور السادات من الراديو فى الصباح الباكر ليوم الأربعاء الموافق ٢٣ يوليو، فقد استمعوا إلى صوت الإرهابى القديم وهو يعلن: «اجتازت مصر فترة عصيبة من تاريخها الأخير من الرشوة، والفساد، وعدم استقرار الحكم. وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش.. وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا... ولابد أن مصر كلها ستتلقى هذا الخبر بالابتهاج»(*).

وسرعان ما تحولت الدهشة إلى حماس جياش عندما شوهد منظر محمد نجيب ذلك الرجل الطيب الذى يدخن الغليون يحيط به كوكبه غير معروفة

(*) ما ذكره المؤلف هو مقتطفات من البيان الأول للثورة، أما نص البيان فهو كالتالى:
«اجتازت مصر فترة عصيبة فى تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم، وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش، وتسبب المرتشون والمغرضون فى هزيمتنا فى حرب فلسطين، وأما فترة ما بعد الحرب فقد تضافرت فيها عوامل الفساد، وتآمر الخونة على الجيش، وتولى أمره إما جاهل أو فاسد حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها، وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا، وتولى أمرنا فى داخل الجيش رجال نثق فى قدرتهم وفى خلقهم وفى وطنيتهم، ولا بد أن مصر كلها ستتلقى هذا الخبر بالابتهاج».
«أما من رأينا اعتقالهم من رجال الجيش السابقين فهؤلاء لن ينالهم ضرر، وسيطلق سراحهم فى الوقت مناسب، وإنى أؤكد للشعب المصرى أن الجيش اليوم كله أصبح يعمل لصالح الوطن فى ظل الدستور مجرداً من أية غاية ، وانتهز هذه الفرصة فأطلب من الشعب إلا يسمح لأحد من الخونة بأن يلجأ لأعمال التخريب أو العنف، لأن هذا ليس فى صالح مصر، وأن أى عمل من هذا القبيل سيقابل بشدة لم يسبق لها مثيل، وسيلقى فاعله جزاء الخائن فى الحال، وسيقوم الجيش بواجبه هذا متعاوناً مع البوليس، وإنى اطمئن إخواننا الأجانب على مصالحهم وأرواحهم وأموالهم، ويعتبر الجيش مسئولاً عنهم. والله ولى التوفيق» نقلاً عن عبد الرحمن الرافعى (المترجم).

مــن شــباب الضــباط يقمصــانهم قصيرة الأكمام : وهو يشق طريقه عبر الشوارع فى سيارة مكشوفة ، متوقفاً بين الحين والآخر لأداء موجة حارة من المصافحة وتقبيل الأطفال . فقد بدا كل ذلك تواضعاً يدعو للبهجة ، بعيداً عن الرسميــات ، إذا ما قورنت بســلوك الملك المتغطرس الذى يدعو للسخط . ولم يكن هناك إحساس بعدم الأمان والتفهم إلا بين بعض الجاليات الأجنبية . إذ بــدا لهم ذلك العالم الفــاسد الذى كانوا يعرفونه يتفســخ ويتشــقق ، بينما راح ســكرتيرو الســفارات الأجنبية القلقين يحكون رءوسهم وهــم فى حيرة مــن أمرهم ماذا يردون على البرقيات التى كانت تنهــال عليهم من الخارج، وكــان المتخصصــون فــى الشئون العربية ، والبعثــة العسكرية البريطانية بــالذات هــم أكثر الناس انزعاجاً ، إذ أنهم لم يعرفوا هوية الانقلاب. هل هو ببســاطة شــأن داخـــلى خاص بالجيش ، أم شــئ يتعلق بانتخابات نادى الضــباط ؟ فقــد كان اللواء نجيب قد وقع فى خلاف مع الملك . وكان على اتصــال بــالإخوان المسلمين ، الذين كانوا يرددون منذ سنوات أن دكتاتورية عســكرية عادلــة هــى ما تحتاجه البلاد ، غير أن نجيب لم يكن واحداً من الضــباط الذين كانت البعثة العسكرية تخطب ودهم للقيام بهذه المهمة ، فقــد كــان معــروفاً عــنه بأنه يميل إلى معارضة الإنجليز فى آرائه . والآخرون «فتــيان» نجيــب Naguib boys : أنــور السادات كان قد وضع فى غياهب الســجن خلال الحرب لنشاطاته النازية ، وكذلك لدوره فى اغتيال السير أمين عثمان ، أما خالــد محيى الدين فكان يفترض أنه كان شيوعياً ، أما شوقى ، ويوســف صــديــق ، فقد كانا معروفين بأنهما متهوران . كل شئ بدأ ينذر بســوء الطــالع خاصــــة فــى قلب موسم صيف شديد الحرارة ، غير أن الأمريكييــن كانوا فى اطمئنان مؤكد . فقد بدوا وكأنهم يعرفون أكثر من أى أحد آخر عن الموضوع كله .

طار النحاس وفؤاد سراج الدين عائدين من أجازتهما الصيفية السنوية فى أكســى – لــى – بــأن Aix - Les - Bains ، ليعلــنا تضامنهما مع الثوار ، ويتنبأون بعودة الوفد للسلطة . وكانت هناك تقارير كل صباح أن « عصبة » الانقــلاب العســكرى كانت فى اجتمــاع دائم طوال الليــل . وفى منتجع

«كابـــرى» شجب فاروق استيلاء «الشيوعيين» على الحكم فى البلاد ، بينما امتدح راديو بوخارست حركة الشعب التى إنزلت ضربة بالإقطاع المصرى. وصـــدر قرار بإلغـــاء ألقاب «باشا» و « وبك »، وفى نفس الوقت تم القبض علـــى اثنـــيـــن مـــن قيـــادات العمل عندما ثارا فى مصنع للغزل فى « كفر الدوار » ، ثم نفذ فيهما حكم الإعدام(*).

ربمـــا كـــان الـــنظام «ســـلطويا»، لكنه لم يكن أبدأ شيوعياً ، هكذا ردت التقارير من السفارة البريطـــانية على استفسارات لنـــدن ، ولكن بماذا يمكن أن توصف هذه العصبة، لم يكن ذلك فى مقدور أحد أن يخمن بالضبط. على أى حال أضافت البرقيات آملة أن الضباط سوف يضعون حداً لمهزلة السيادة المصـــرية على السودان ، وأنهم سوف يكونون أكثر واقعية فى مسألة قاعدة منطقة قناة السويس.

حقـــا ، لم يكن هناك فى هذه المرحلة أى لون سياسى يغلب على الثورة إذ كانـــت مجرد ثورة «لابسى الكاكى»، فسرعان ما بدأ ظهور الزى العسكرى فـــى كـــل مكان : فى الشوارع ، فى المقاهى ، وفى النوادى . كما قام محمد نجيـــب بجولة ناجحة فى المديريات حيث كان يقابل فى كل مكان يتوقف فيه بعاصـــفة من التصفيق وهتافات « يعيش نجيب » ، بينما افترضت الصحافة ملمحـــة بأنـــه هـــو العقـــل المدبر للثورة كلها . ثم بدأت تركز على الملامح المألوفـــة المتواضـــعة لذلـــك اللواء ، ولم تعر سوى قليل من الانتباه لشباب الضـــباط الذيـــن كانوا يحيطون به ، فقد وضعهم «سيفتون دلمـــر» Sefton Delmer مراسل صحيفة : « لندن ديلى أكسبريس London Daily Express» بـــأنهم مجـــرد مجموعة تابعـــة له من « البكباسية » غير الأكفاء، ولم يدر بـــبال أحد أن هنا الجنرال كان مقيد السلطة تماماً مثل «دوج البندقية» قديماً(**)

(*) وهما خميس البقرى (المترجم) .

(**) لقـــب منصـــب حـــاكم جمهورية البندقية فى العصور الوسطى (القرن الثالث عشر) واسمه انريكو واندولو Enerico Dandolo (المترجم) .

إذ كـــان علـــيه أن يقدم تقريراً كل صباح للحشد المجتمع فى حجرة بالطابق العلـــوى فى مبنى القيادة العامة ، ومن هنـــاك يتلقـــــى تعليماته من الصبية «The Boys» الذيـــن لـــم تتوقف مناقشاتهم طوال الليل . وقليل من النـــاس كـــانوا علـــى علم أن فلسفة الحكم بأكملها كانت تتشكل بكل اجتهاد من البداية خـــلال جلســـات هذا الماراثون الليلى، والذى سوف يأتى بكل تأكيد بتغييرات جذريـــة لكافـــة طـــبقات الناس فىالمجتمع والتىسوف يكون لها تأثير واسع الانتشار عبر أفريقيا والشرق الأوسط.

لقـــد قضى عبد الناصر وصحبه عقداً بأكمله وهم يخططون لهذا الانقلاب واضعين فى حسابهم أى أحداث غير متوقعة . وكانوا يعرفون جيداً ماذا كان يتوجـــب علـــيهم القضـــاء علـــيه : النظام الملكى الفاسد ، ونفوذ كبار رجال الإقطـــاع ، ومراكـــز النفوذ التى يمتلكها الأجانب فى كل مكان ، والاحتلال الـــبريطانى لقناة السويس . غير انه لم يكن لديهم أى فكرة دقيقة عن أى بديل لـــتلك المؤسســـات ضـــاربة الجذور منذ زمن طويل ، فقد كان لديهم صورة مشوشـــة عن نوع المجتمع الذى كانوا يودون أن يكون البديل ، لكن لم يكن لديهم أى معرفة بوسائل الحكم المطلوب لتنفيذ . فاغلبهم لم يكن قد قرأ الكثير أبعد من الملخصات العسكرية . وقصص المغامرات ، والدعاية الوطنية التى كانـــت تروج لهـــا الصحافة اليوميـــة، لكن الوطنية المصرية منـــذ جذورها الأولـــى كـــان دائماً تضع كل شئ فى منظور إما أبيض أو اسود، عسكر أو حرامية ، وكان تركز اهتمـــامها على التخلص من الأشياء أكثر من اهتمامها بإعادة بنائها .

والـــيوم أصـــبح المصريون من أبناء طين الدلتا لأول مرة منذ عهد فراعنتهم يديـــرون دفة بلادهم . وكان من الضرورى وضع أساس فلسفة سياسية تنبع من واقـــع جـــذور الـــتربة . ولهذا توافد سيل من الزوار على الحجرة العليا التى تقع أعلـــى مبـــنى القـــيادة العامـــة للقوات المسلحة : أساتذة جامعات ، مهندسون ، محـــامون ، صحفيون ، مهندسون زراعيون ، مثقفون، وماركسيون ، والذين من خـــلال المحـــاورات معهـــم التى لم تكد تنتهى حتى بدأت تتضح ملامح الإجابات على التساؤلات حول المشاكل والقضايا التى كانت تواجه القيادة العسكرية .

وهكــذا انقضــت الأســابيع السبعة من الصيف الحار الذى عطل النشاط الذهـــنى ، وبــدا رجــل الشارع ينصرف عن الانقلاب كتمرد للجيش ضد فــاروق ، بيــنما راح الباشــوات السابقون فى نادى محمد علي يتأملون فى أفضل الطرق لإغراء الضباط للعودة إلى ثكناتهم وليضعوا ملكاً جديداً (ربما الأمــير عــبد المنعم) على العرش . وفجأة مع نسمات شهر سبتمبر الأولى ضــرب ناصر ضربته . فقد ألقى القبض على ما يقرب من أربعين شخصية سياسية من العهد البائد . وأقيل على ماهر ، وحل محله محمد نجيب . وتمت مصادرة كل الممتلكات الملكية ، وصدر قانون يمنع أى شخص من أن يمتلك أكــثر مــن مائتى فدان من الأرض الزراعية ، وبدأت الدولة تتخذ إجراءات تكــاد تصل فى الحقيقة إلى درجة المصادرة. وتلا ذلك تخفيض عام فى قيمة الإيجــارات ، ووضعت لوائح جديدة للعمال جعلت من الصعب (أو على أقل تقديــر جعلــت من الأمور المكلفة) طرد العمال أو الموظفين من وظائفهم . وبدهشـــة مماثلة للمصريين الذين تربوا منـــذ وقت طويل على « وحدة وادى النــيل » كــان الإعلان عن سياسة تضع أمام السودانيين مبدأ حرية الاختيار بين الاستقلال التام أو الاتحاد مع مصر .

وفى مطلع عام ١٩٥٣ أظهر النظام إحدى استعراضات عضـــلات القوة، فقــد جمــد الأحــزاب السياسية ، وأعلن : « أن قائد الثورة وأعضاء مجلس قــيادتها » ســوف يسيرون شئون البلاد لمدة ثلاث سنوات قادمة . وتكررت الصــورة : بــان العصـــبة هى المسئولة وليس مجرد اللواء ، كل هذا وعبد الناصر قابع فى الظل كشخصية مجهولة فعلاً حتى جاء عصر ١٨ يونيو عام ١٩٥٣ بعــد عــام تقريباً من حدوث الانقلاب ، عندما وقف لأول مرة أمام جمهــور صـــاخب خارج قصر عابدين ليعلن على العالم إلغاء الملكية، وأن مصـــر مـــنذ هـــذه اللحظـــة جمهورية رئيسها محمد نجيب ، وبأنه نائب له. وأخــيراً أمــيط القناع عن السر ، أما المراقبون الذى يشكون فى وجود قوة كــبرى فـــى الظل Eminence grise تقف من وراء اللواء مدخن الغليون ، لم يعودوا يدسون بأنوفهم لشم موقع القوة الفعلى ، والتساؤل عن المخطط الفعلى لكل مراحل الثورة .

غير أن الجمهور لم يشعر بالارتياح لذلك البكباشى فارع القامة الذى يميل إلـــى الحــــزن ، بعكـــس ما كان يشعر به نحو ذلك الرجل الطيب « صاحب الغلـــيون » فلقـــد قـــام نجيب بمجهود كبير فى العلاقات العامة ، وإذا كانت الــثورة قد قبلت على نطاق واسع ، ليس فى مصر فحسب ، بل فى كل مكان تلقـــى فـــيه الاهـــتمام فإن مرجع ذلك قبل كل شئ إلى شعبيتـــه الشخصية ، وجاذبـــيـــة سلوكه ، الـــذى يدعو إلى الطمأنينـــة . فقد يشيح « سلوين لويد Selwyn Lloyd » بأنفـــه فى كبرياء وأَنَفَه عن هذا النظام « الذى لم يسبق له مثـــيل » ، لكـــن لم يكد يمر شهر بعد حدوث الانقلاب حتى اقترحت صحيفة لندنـــيـــة أنـــه يتعيـــن اختـــيار نجيب قائـــداً أعلى لقوات الحلفاء فى الشرق الأوســـط ، كمـــا كان كافرى السفير الأمريكـــى بالقـــاهرة لا يقل فى تفاؤله الحـــالم . فقـــــد أعلن « أن أولادى my boys » (كما كان يفضل أن يطلق علـــى نجيب وعصبته) : « قادرون على إنقاذ مصر من المـــد الأحمـــر ، الـــذى لـــم تكن مفاسد فاروق وباشواته قادرين على وضع حد لانتشاره عبر الـــبلاد . أنهـــم ســـوف يقومون بعدد من الإصلاحات ويرفعون من مستوى معيشـــة الـــناس... أننا سوف نشجعهم » . وهذا ما فعله الأمريكيون بالفعل . فقـــد دعمـــت واشـــنطون كلماته بتقديم المساعدة الاقتصادية تحت بند النقطة الـــرابعة Point IV وكذلك عن طريق الاتفاقيات الثقافية التى كانت جزءاً من «بـــرنامج فولبرايـــت Fulbright Programme» كمـــا وصفه « جون فوستر دالاس John Foster Dulles » عقـــب زيارة له قام بها إلى القـــاهرة فى ربيع عـــام ١٩٥٣ : « بأنـــه واحـــد من أبرز زعماء العالم الحر فى فترة ما بعد الحـــرب » ، وأضـــاف فـــى مؤتمر صحفى : « إن مصر الآن على أعتاب مستقبل عظيم » .

وعلـــى مســـتوى أقـــل ارتـــياحًا كانت هناك حقيقة ، وهى الترقب الدائم لمواجهـــة أي تحركات من جانب الثورة المضادة ، فقد كان عبد الناصر منذ الـــبداية منكباً على بناء وتدعيم جهاز القوة من وراء الكواليس ، متحملاً نفس المشـــقة الـــتى تحملهـــا وهو يخطط للانقلاب الثورى ذاته ، فلم تمض وقت طويل حتى كانت شرطته السرية تتسلل إلى كل ركن ، كما كانت نفسها تحت

رقابـــة شرطة سرية أخرى . فقد طبق « التكتيك » الشمولى دون حدوث أى أخطـــاء ظاهرة ، فقد كان فى مقدور أكثر الزوار تردداً على وزارة الداخلية أن يلاحـــظ بـــنوداً مـــثل « مخبرون كاذبون ». كما كان فرض الرقابة على الصحف ، بل حتى على البريد الشخصى تكاد أن تكون شاملة . وكان هذا لا يقل تشاؤما لدى هؤلاء الذين اعترضوا على تلك «السلطوية المتنامية» وعلى الوجـــــود المؤكـــــد لكـــبار قـــــادة النازيين الذين هربـــوا من محاكمات «نورمبرج Noremberg»(*) ولكن على الجانب الآخر كان هناك على الدوام الهيئة المعتدلة لنجيب التى رفضت إشاعة أى إحساس بالقلق بدرجة خطيرة ، إذ لـــم يكـــن مـــن غير المقبول أن يحاول تحويل نفسه إلى نسخة أخرى من «هتلر» فمن الواضح أنه كان شخصاً شديد الطيبة والصراحة لكى يكون على هذا النهج.

غـــير أن تلـــك كانـــت إحدى المشاكل ، وربما كان الصدام بين الجنرال الطيـــب « وأولاده » الثوريين واقعًا لا مفر منه منذ البداية ، إذ أن ناصر لم يرد له أن يكون أكثر من رئيس صورى ، لكن بمرور الزمن ، زادت أهمية نجيـــب حتى تجاوزت الحد أن يكون مجرد رمز ، ففى وجدان الناس أصبح هـــو الأب الحقـــيقى للـــثورة ، فمنذ أن استدعوه بمكالمة تليفونية فى اللحظة الأخـــيرة أصـــبح الآن يسرق هدير الهتاف ، وكان هذا أمراً سيئاً ، ولا يزال يـــتوقع مـــنه الأسوأ تلك كانت وجهة نظر ناصر إذ أن التأثير الذى كان على ســـجيته لذلـــك الجنرال ذى العقيلة المعتدلة بدأ يصل إلى الحد الفاصل للتقدم الـــثورى . ولم يخف نجيب نفوره ممن عدد من الأمور التى كانت تتم باسمه وأحـــياناً بدون علمه ، وفى النهاية أوضح بشكل صريح أن لم يعد يتحمل أن يكون مجرد إبهاماً للبصم ، وبدأ يصر بصفته رئيساً للجمهورية على وجوب ســـماع رأيـــه ، والحقيقة أن نجيب فى أعماق نفسه كان لا يزال يحس بأنـــه واحـــد مـــن رجـــال النظام القديم ، فقد شعر أنه ذهب أكثر ممـــا ينبغى لكى

(*) محاكمـــات أقامها الحلفاء بعد هزيمة ألمانيا النازية لأعضاء المؤسسة النازية المسئولة عن الحرب واضطهاد اليهود .

يقـــدر على ابتلاع نوعية التغيير التى تتطلبها ثورة ناصر ، وبالتالى فقد كان يمـــثل وهو لا يدرى أفضل الآمال التى كان يتمنـــاها كل هؤلاء الذين يمثلون الجـــناح اليميـــنى والجـــناح اليسارى على السواء ، والذين كانوا يسعون إلى الفكاك من النظـــام الاوتوقراطى الذى كان ناصر يقيمه .

وعـــندما جاءت فى النهاية لحظة اختبار القوة بين الرجلين ، لم يكن نجيب نـــداً للبكباشى الماكر . إذ أدت تزايد شعبيته العارمة إلى صـــدور الأمر من عـــبـــد الناصـــر بأن يوضع رهن الاعتقال ، وأجبر أن يظهر إلى جواره ، بينمـــا كان الرئيـــس يخـــبر جمهـــوراً يهتف لـــه بجنون بـــأن خلافاتهمـــا «مـــرت كســـحابة صـــيف » غير أن ناصر استمر يستخدم تكتيكاته بمهارة كأســـتاذ فى لعب الشطرنج (فكثير ما كان يصور ربما كرمز لذلك أمام لوحة الشـــطرنج) ، فقد تظاهر بقبول سياسة نجيب بأنه يتوجب على عصبة الثوار أن تحل نفسها وتعود إلى ثكناتها استعداداً للعودة للحياة الديموقراطية الطبيعية ذات الطـــــابع القديـــم . فقد رفعت الرقابة على الصحف ، وصدرت الوعود بالحـــرية الســـياسية . وطوال ثلاثة أيـــام محمومة بدا الثوار كمـــا لو كانوا قـــد انـــتحروا علـــى طـــريقة الهارى كارى Hari Kari(*) وأن عالم ناصر الدكـــتاتورى قد أنهار ، لكنه قام باتخاذ بعض الخطوات التى تتسم بالحرص الشديد من وراء الكواليس . فقد قام بتطهير المنافسين ، وتحذير الأصدقاء .

وجـــد نجيب نفسه فجأة وقد وقع فى مصيدة . فقد جئ به إلى السلطة عن طـــريـــق ثـــورة جيـــش فى مواجهة نظـــام سياسى ســـيئ الســـمعة . وهو الآن مـــتورط بشـــكل واضح فى إعادة الانقلاب إلى الوراء لصالح زعامات قـــيادية منتخـــبة أو كـــبار ملاك الأراضى ، أو أن يكون البديل هم الإخوان المسلمون أو حتى الشيوعيون . فقـــد نظمت نقابات العمـــال إضراباً لم يكن فـــى الحقيقة سوى تجميل للواجهة السياسية أخرجت الجماهير عن بكرة أبيها

(*) طريقة يابانية للانتحار بطعن الواحد لبطنه بالسيف ، وكان يقدم بها القادة المهزومون فى الحرب خاصة بعد الحرب العالمية الثانية (المترجم) .



جمال عبد الناصر أصغر رئيس وزراء
فى تاريخ مصر (١٩٥٤-١٩٥٦)
ورئيساً لأول جمهورية

إلـــى الشوارع . وقام الجيش يقـــوده الضباط الأحـــرار بالانـــدفاع للوقوف إلى جانب ناصر . لقد كانت جزءاً من لعبة شيطانية ذات وجهين تقـــوم على تكتـــيك خطـــوة إلى الخلف وخطوتين إلى الأمام (والذى استعير بلا شك من لينيـــن) . وخلال هـــذه الســـاعات المســـعورة، بدا مستقبل البـــلاد كما لو كان يطهى فى قدر كبير يغلى ، وأخيراً استسلم نجيب، فلقد بلغ السيل الزبى. فلن تكون هناك حرية بكل مخاوفها الديموقراطية ، بل حكومة سلطوية تمسك الهـــراوة يقودهـــا مجلس قيادة الثورة، ونظام حكم الدولة البوليسية . لقد فاز ناصـــر وأصبح الآن على عتبة طريق كفاح مترنح كسيد على مصر ، مقيماً نظام حكم درامى كما لو كان قائمًا على طول تاريخه الطويل.

الفصل التاسع عشر

الحياد الإيجابى

فـــى أى اتجاه سياسى واقتصادى يا ترى سوف يوجه هذا الدكتاتور البالغ مـــن العمر السادسة والثلاثين ربيعاً (وهو أول مصرى حقيقى يحكم مصر مـــنذ ألفيـــن وخمسمائة سنة) دفة بلاده التى تعرضت لسوء الأدارة من قبل القـــوى الأجنبـــية لفترة طويلة ، واستغلتها أوروبا النشطة المتقدمة صناعياً؟ فمـــن ناحـــية العقيدة : مصر دولة إسلامية تتصل بالإسلام فى آسيا ، والهند، وأفريقـــيا ، بل وحتى فى الصين ، وما دام الإسلام انبثق من جزيرة العرب، فقـــد كـــان مـــن الطبيعى أن يكون قدر مصر بصفتها أكبر وأقوى دولة فى الشـــرق الأوسط أن تعى أنها زعيمة العرب، خاصة أن الجامع الأزهر جعل مـــن مصـــر مركـــز القوة الحيوية فى العالم الإسلامى . غير أن نظرة على الخـــريطة تبين أن مصر من ناحية الحقيقة تقع فى أفريقيا ، وتعتمد فى بقائها ذاتـــه على مياه النيل الذى تنبع من أعماق الجنوب من تلك القارة الغامضة ، كمـــا أن ملامح وجه الفلاح بالإضافة إلى شخصيته السلبية ، وحنقه المكبوت بـــدت كصفات أفريقية أكثر منها « بحر متوسطيه » . وفى نفس الوقت فأن مصر إحدى أمم البحر المتوسط ترتبط مع بلدانه منذ زمن بعيد بتقاليد تجارية قديمـــة قـــدم الزمان ، ولأكثر من قرن كان اقتصادها مرتبطاً بالنظم الغربية الـــتى تقـــوم علـــى حرية المشروعات التجارية ، ويجب أن نقر ونعترف أن بلدانا قليلة لها مثل تلك الشخصية المحيرة والمقسمة . ولقد أفصح جمال عبد الناصـــر عـــن هذه المعضلة ، وكذلك عن تطلعاته أو على أقل تقدير أفكاره الـــتى عـــبر عنها لمحمد حسنين هيكل والذى صاغها بدوره فى كتيب صغير اسمه « فلسفة الثورة ».

«وأنـــا أجلـــس أحـــياناً فى غرفة مكتبى وأسرح بخواطرى فى نفس هذا الموضوع ، اسأل نفسى.

– مـــا هـــو دورنا الإيجابى فى هذا العالم المضطرب ؟ وأين هذا المكان

الذى نقوم فيه بهذا الدور » ويقول : « واستعرض ظروفنا وأخرج بمجموعة من الدوائر لا مفر منها من أن يدور عليها نشاطنا . وأن نحاول الحركة فيها بكل طاقتنا ولن تستطيع أن ننظر إلى العالم نظرة بلهاء لأننا ندرك مكاننا على هذه الخريطة ودورنا بحكم هذا المكان أيمكن أن نتجاهل إن هناك دائرة عريقة تحيط بنا ، وأن هذه الدائرة منا ونحن منها امتزج تاريخها بتاريخنا وارتبطت مصالحنا بمصالحها ؟ أيمكن أن نتجاهل أن هناك قارة إفريقية شاء لنا القدر أن نكون فيها ، وشاء أيضاً أن يكون فيها اليوم صراع يدور حول مستقبلها ، وهو صراع سوف تكون إثارة علينا سواء أردنا أم لم نرد ؟ أيمكن أن نتجاهل أن هناك عالماً إسلامياً تجمعنا وإياه روابط لا تقر بها العقيدة الدينية فحسب ، وإنما تشهدها حقائق التاريخ... كل هذه حقائق أصيلة ذات جذور عميقة فى حياتنا . « إن ظروف التاريخ مليئة بالأبطال الذين صنعوا لأنفسهم أدوار بطولة مجيدة قاموا بها فى ظروف حاسمة على مسرحه .. ولست أدرى لماذا يخيل إلىّ دائماً أن فى هذه المنطقة إلى نعيش فيها دوراً هائماً على وجهة يبحث عن البطل الذى يقوم به ، ثم لست أدرى لماذا يخيل إلى أن هذا الدور الذى أرهقة التجوال فى المنطقة الواسعة الممتدة فى كل مكان حولنا قد استقر به المطاف متعباً منهوك القوى على حدود بلادنا يشير إلينا أن نتحرك وأن ننهض بالدور وترتدى ملابسه لأن أحداً غيرنا لا يستطيع القيام به» .

«وأبادر فأقول أن الدور ليس دور زعامة . أنما هو دور تفاعل وتجاوب مع كل هذه العوامل ويكون من شأنه تفجير الطاقة الهائلة الكامنة فى كل اتجاه من الاتجاهات المحيطة بها ، ويكون من شأنه تجربة لخلق قوة كبيرة فى هذه المنطقة ترفع من شأنها وتقوم بدور إيجابى فى مستقبل البشر»(*).

هذه الأفكار الحالمة التى كانت حقاً البذور الأولى لكل طموحاته التى عبر عنها بصراحة وصدق ، رسمت الطريقة التى كان بها عقل ذلك الزعيم

(*) فلسفة الثورة - طبعة دار المعارف ص ٦٠ - ٦١ (المترجم) .

الثورى يعمل ، واستقبلها المحللون السياسيون فى الغرب بقدر كبير من سوء التفسير حيث لم تكن ذكرى كتاب « هتلر » : « كفاحى Mein Kampf » قد محيت من الأذهان بعد . إذا بدت لهم مثل هذه الطموحات على الأقل غير مريحة ، والذى لا شك فيه أن مأساة الموقف تكمن فى أن ناصر كان على قدر قليل من الإدراك بذلك ، ولم يكن لديه أدنى تقدير لمصالح الغرب فى الوقت الذى كان فيه المفكرون السياسيون فى كل من « الهوابتهول » أو قصر « الإيليزيه » (ليسوا على استعداد أن يضعوا أنفسهم فى أحذية غير الأوروبين من الذين كانوا قد ذاقوا مهانة الذل حتى الثمالة على يد الاستعمار الغربى . وفى الخمسينات من القرن العشرين كانت رياح التغيير لا تزال تهب بلطف ، غير أن هؤلاء السياسيين لم يكونوا قادرين أو ينوون إدراك أنه بعد قرون من تتابع الخضوع للقوى الأجنبية واحدة بعد أخرى ، فإن الرغبة الأساسية التى يتحرق لها كل مصرى هى أن يدير شئونه بالطريقة التى يرغبها دون تدخل خارجى . وأن يكون سيد قدره لا أكثر ولا أقل.

وينهى ناصر كتيبه الصغير بقوله : « وحين أحاول أن أحلل عناصر قوتنا لأ أجد مفراً أن أضع ثلاثة مصادر بارزة من مصادرها ، يجب أن تكون لها أول ما يدخل في الحساب.

أول هذه المصادر أننا مجموعة من الشعوب المتجاورة ، المترابطة بكل رباط مادى ومعنوى يمكن أن يربط مجموعة من الشعوب .

أما المصدر الثانى فهو أرضنا نفسها ، ومكانها على خريطة العالم ، ذلك الموقع الاستراتيجى الهام الذى يعتبر بحق ملتقى طرق العالم ، ومعبر تجارته ، وممر جيوشه .

يبقى المصدر الثالث وهو البترول... النموذج الهام لمصادر القوة فى بلادنا»(*).

(*) المصدر السابق ص٧٥ .

ومهمـــا يبدو ذلك الكتيب الصغير فى نظر الآخرين ، فإنه يكشف عن أن ناصـــر كان مفكراً وطنياً ، تحركة رغبة جامحة أن يرفع من مستوى رفاهية ومكانة مصر ، وكذلك القضية العربية . ويتجاهل بشكل يكاد أن يكون ساذجاً المصـــالح الدولية القائمة ، وكان مصيره - كما أصبح واضحاً فيما بعد - أن يلهب بالسوط رياح التغيير حتى حولها إلى قوة الإعصار ، وأن يصبح عاملاً أساســياً فـــى الحـــرب الباردة . وقليل من المصريين فى هذه المرحلة كانوا يشـــعرون بأنهم متورطون شخصياً فى الصراع الكبير بين الشرق والغرب ، وأغلـــبهم كـــان لديه اقتناع قليل للإحساس بأن النظام الرأسمالى يتفوق على النظام الشيوعى ، أو بمعنى أوضح أن الشيوعية أفضل من الرأسمالية ، غير أن المصـــريين كـــانوا علـــى استعداد للقتال ولكن لو كان هناك تناول هادئ ومستفهم للأمور ، ولم يكن من المحال أن تظل مصر فى المعسكر الغربى . ولكـــن كمـــا حدث فإن السياسات الحمقاء وغير المعقولة التى اتبعتها كل من لـــندن وبـــاريس ، وواشنطون ، على السواء هى التى عجلت بظهور الاتحاد الســـوفيتى فـــوق الأرض المصرية ، كما أن مجرد العداء المقنع من جانب الغـــرب كان بديلاً ضعيفاً فى نفوس العرب عن الدفئ المتوهج الذى بدأ يشع من ناحية الشمال الشرقى .

أمـــا على الجبهة الداخلية ، فقد كانت أهداف ناصر واضحة بشكل كبير، فقـــد دمـــرت الملكية المتفسخة ، والغيث الأحزاب السياسية العتيقة الفاسدة ، وبـــدأ الشروع فى الإصلاحات الاجتماعية والزراعية ، وأصبح ما يريده عبد الناصـــر الآن أكثر من أى شئ آخر هو استئصال آخر معاقل الاحتلال الذى أبقـــى مصر تحت وصياية إنجلترا الصارمة والمتمثل فى وجود ما يقرب من ٧٠,٠٠٠ جـــندى بـــريطانى فى منطقة القنال . هذا ما أطلقت عليه الصحافة «المشكلة الوطنية».

لقـــد كأنـــه قاعدة القنال فى تنامى مضطرد مثل توبسى Topsy أثناء وبعد الحـــرب ، حـــتى أصـــبحت أكبر قاعدة عسكرية لبريطانيا فى أى مكان من العـــالم، كمـــا أن قادة القاعدة الجوية اعترفوا بصراحة بأن معداتها أصبحت عتـــيقة تمامـــاً حتى أن لا أحد يدرى على وجه التأكيد كم من المخزونات قد

تــرك مدفونـــاً فيِ الصحراء (التقدير التقريب فى وقت وجود قاعدة السويس وضـــع لهـــا ثمـــناً تقديرياً يبلغ ٢٥٠ مليون إسترلينى لما فى المخازن هناك) وإلـــى حــد مـــا كانت قاعدة منطقة القناة قد حلت محل جيشِ الهند القديم فى نطـــاق الاســتراتيجية الإمبراطورية ، وشكلت حصنا أساسياً للحرب الباردة. وبـــناءً علـــيه فأن البريطانيين أساسًا لم يتوقعوا أو كان فى نيتهم مغادرتها – خاصـــة بسبب الأهمية التى تقدمها لمناطق البترول فى الشرق الأوسط . لقد كانـــت معاهدة ١٩٣٦ هى التى بها اكتسبت القاعدة وجودها الشرعى الذى لم يســتمر أكـــثر من عام ١٩٥٦ ، بشكل واضح كان هناك نيه واضحة لفترة امـــتداد . ولـــم يخـــف الجنرال إرسكين Erskine القائد العام سراً حول هذا الموضــــوع . فقد أسر لمن يثق فيهم عام ١٩٥٢ بقوله : « نستطيع أن تنقلها عـــنى أننا لن نترك القناة » وإذا كان قرار الجلاء قد صدر بعد عامين فقط مـــن ذلك التاريخ فأن سبب ذلك هو التجربة التى ظهرت خلال أعمال الشغب عام ١٩٥١ بأن القاعدة لا يمكن أن تبقى فى وجود عمق معاد . وفى السابق كـــان هـــناك عنصر فى اللعبة يدور حول مفاوضات الجلاء . والبريطانيين يـــريدون الاحـــتفاظ بالقـــناة ، وفاروق كان من حاجة إلى الوجود البريطانى كسياســـة لتاميـــن بقائه على العرش فى مواجهة شعبة . ولهذا بقيت القاعدة بالرغم من الانفجارات المتكررة التى كان يقوم بها الوفد من آن لآخر، لأنها كانـــت علـــى الأقـــل فى صالح ضلعين من أضلاع المثلث القديم للسلطة فى مصر اللذين حتماً بقاءها .

ولكن مجرد ان جلس الضباط الأحرار إلى مائدة المفاوضات ، حتى تغير الموقف من جذورة ، لقد كان ناصر فى حاجة ماسه لذهاب البريطانيين حتى أنـــه كـــان علـــى اســتعداد لقـــبول صفقه أدنى مما كانت تنادى به صيحات الوطنييـــن وهو: « الجلاء غير المشروط » . وأن يتفاوض على اتفاق جديد بواقعية المحترف . وعلى الجانب الآخر فأن الحكومة البريطانية كانت تدرك أن ناصـــر جـــاد فيما يطلب، وفى أى الحالات فان التركيز يمثل هذا الحجم (علـــى القناة) لم يعد يتماشى ومتطلبات الاستراتيجية النووية . ولا يتعارض إلا قلـــيلاً مع التصور الذى أطلق عليه تشرسل Churchill : « هذه القاعدة »

المكلفــة «This Costly Base» ، ومــن ثــم، تــم التوصل إلى اتفاق وسط غريــب، بمقتضـــاه تــم جــلاء الجــيش تاركاً قاعدة رمزية يديرها مدنيون بريطانيون متعاقدون.

ولقد تم توقيع معاهدة الجلاء فى ٢٧ يوليو عام ١٩٥٤ ، وأصبحت سارية المفعول منذ ١٩ أكتوبر عام ١٩٥٤ ، رغم أنها أفصحت قليلاً بشكل ما عن: «الدفاع المشترك » وبذلك خيبت آمال الرأى العام عند غلاة الوطنيين لدرجة أن الأخــوان المسلمين حاولوا اغتيال عبد ناصر ، غير أن ذلك حقق له هيبة عالــية ومفاجــئة فـــى الشرق لأوسط كرجل قادر على انتزاع التنازلات من المســتعمرين . ومــنذ هذه اللحظة فصاعداً أصبح فى عيون أغلب القوميين العــرب بطلاً . حيث بدأت صورة تطل من واجهات الحوانيث والمقاهى من عــدن حــتى حلب كما أنه كان لهذه الاتفاقية أربع نتائج أخرى حاسمة وربما متوقعة.

فلقــد أدى فــراغ القــوة « الذى تولد عن ذلك فى نظام دفاع الغرب فى الشــرق الأوسط إلى استبداله بحلف بغداد الذى أوحى به الأمريكيون : «ذلك الحاجــز الشــمالى Northern tier » الذى بدأ فى عيون جون فوستر دالاس John Foster Dulles (والــذى لم يكن مجرد شاهد فى إجلاء البريطانيين من أجــل أسبقية السيطرة العسكرية فى مناطق النفط) فكرة رائعة ، غير أنها لم تكــن أكــثر مــن فكرة بغيضة عند ناصر ، وبالمثل عند القوميين التقدميين الآخريــن فى الشرق الأوسط والذين كانوا يعارضون فكرة نورى السعيد فى نقــل مركز القوة إلى بغداد ، أو بالفعل ضد أى تحالف بين العرب والغرب، والســبب نفســه . لأخلاء الطريق لروسيا التى أقيم حلف بغداد أساساً ضدها لكى تقفز فوق هذا الحاجز ، وتبدأ فى مغازله مصر من أجل مصلحتها . كما أن إســرائيل فسرت عملية الجلاء على حد وصف رئيس وزرائها بأنه بمثابة «هجــر إســرائيل لقدرها » . وأخيراً كشفت الرصاصات الثمان التى أطلقها إرهــابى مــن الأخــوان المسلمين على ناصر فى أثناء شرحه لاتفاق الجلاء لحشــد جماهــيرى تجمــع فـــى الإسكندرية عن وجود مؤامرة مثيرة دبرها الأخــوان المسلمون ومعهم ١١٦ من الضباط الأحرار لاغتيال ناصر وإعادة

نجيــب إلـــى السلطة . وهذا أعطاه العذر للتطهير الدموى للإخوان المسلمين بشكل شامل صدم الرأى العام، غير أنه أكمل قبضة انقلاب عام ١٩٥٢ وذلك عن طريق إخلاء أى عثرة تقف أمام سلطة عبد الناصر : وكان الشعار الذى علــق فـــى لافتات فى كل شوارع القاهرة احتفالاً باتفاق الجلاء هو : « ارفع رأســك يا أخى فقد مضى عهد الاستبداد » لكن الحال أصبح كما كان فى أيام مصــر القديمة ، هناك رجل واحد تحنى له الرءوس ، وبذلك لم يعد البكباشى رئيساً فقط ، بل فرعونا أيضاً.

بعــد ذلــك بدأ سيل يدعو للإعجاب من كبار الشخصيات الهامة (VIP) يتدفق على القاهرة تعبيراً عن احترامهم لفرعون مصر الجديد . فقد جاء تيتو رئــيس يوغوســلافيا . وقــدم بعضاً من النصائح الهامة حول مزايا النظام المركــزى وشــرور الأعمال الحرة Private Enterise ، وبعدها بعشرة أيام وصــل نهرو من الهند وقدم بعض الأفكار المفيدة حول «ملاعبة الشرق ضد الغــرب»، وتبعه سوكارنو رئيس إندونيسيا الذى أحرج مضيفه عندما أحضر علــى مــائدة العشــاء الرســمية اثنيــن من مضيفات خطوط طيران « بأن أمــريكان» الــتقطهما مــن بهــو الفندق ، لكنه بعث السرور فى نفسه بابدأ ملاحظــته بأن : « أمم أفريقيا وأسيا لم تعد أدوات ودمى للعب بها من جانب لا يســتطيعون أن يؤثــروا فيها » وزائر آخر جاء لفترة قصيرة هو انتونى أيــدن Anthony Eden الذى كانت وجهة نظره نحو الرئيس (على حد كلمات ناصــر نفســه) «أنه كما لو كان يتكلم إلى مسئول أدنى منه درجة والذى لا يتوقع منه أن يفهم فىالسياسية الدولية».

وبعــد أيــام تلــت ، فـــى أبريل عام ١٩٥٥ قفز عبد الناصر إلى إحدى طائــرات خطوط طيران الهند Air India فى مطار القاهرة الدولى وأقلع فى أول رحلة له خارج العالم العربى . كانت هناك تسع وعشرون أمة ممثلة فى مؤتمــر بــاندونج Bandung : ملكــيات ، دول إقطاعــية ، جمهوريــات ، شــيوعيون ومعــادون للشيوعية . من كل الاتجاهات السياسية ، لكن يجمعها هــدف واحــد مشترك ، أنها جميعاً لم تكن من ذوات البشرة البيضاء ، وأن أغلــبها كانت واقعة تحت السيطرة والاحتلال ، أنها كانت تشتغل حماساً بعد

أن أســكرتها خمرة القومية ، كما أن أغلبها كان ينتمى إلى دول الحياد (وهو تعبــير كــان يفسر فى ذلك لوقت على أنه عداء للغرب) . وبالنسبة لناصر الــذى كان أصغر الوفود سناً ، والوحيد الذى ظهر فى زيه العسكرى ، كانت باندونج تجربة ذات أهمية كبرى ، فقد رحبت به الأمم بشدة حيث لفت أنظار كثــير مــن الوفــود خاصة شواين لاى Chou En Lai الذى خرج عن خطة ليكسب صداقة مصر . كل ذلك أعطاه الإيحاء أن مصر قوة فى الشرق الثائر – الكــتلة الثالثة – التى هى لا شيوعية ولا رأسمالية والتى كانت تمثل خمسة وثمانيــن فــى المائة من سكان العالم . وعاد إلى القاهرة . وهو يحمل تفكيراً عالمياً بعد أن حقق لنفسه مكانة كواحد من الأربعة الكبار فى العالم الأفرو – آسيوى. وهى حقيقة لم تمر دون ملاحظة لا فى بكين ولا فى موسكو .

وفــى نفــس الوقت حدث فى الاتجاه المعاكس تيار متتابع من سوء الفهم وفقــدان الــثقة ، وتطورات الخلافات التى سرعان ما حولت الشرق الأوسط إلى جحيم تصاعد لهيبه حتى أدى إلى حدوث كارثة ذات حجم تاريخى .

فقد سبق فى عام ١٩٥٣ أن حاول جون فوستر دالاس – دون إحراز أى نجاح – فى أن يغرى مصر للانضمام إلى تحالف شرق أوسطى تحت رعاية الولايــات المتحدة بهدف تقييد نفوذ روسيا حتى لا تتوسع فى نشر الشيوعية فى المنطقة ، ولكى يحرس مصالح البترول الأمريكية ، وتلى ذلك قيام حلف بغداد الذى كان أساسًا عبارة عن زواج بين المصالح التجارية الغربية وطبقة الباشــوات العتيقة من السياسيين الذين كانوا يرون إبقاء الحال كما هو عليه . لكــن ذلك كان لا يجد تجاوباً مع الشعب من جيل ناصر ولا إغراء من جانب الذيــن يعملــون من أجل القومية العربية. ومنذ اللحظة التى قام فيها الحلف أصــبح من المحتم أن يؤدى ذلك إلى صدام الغرب مع قوى القومية العربية والــتى كــان مــن الممكن بشئ من المعالجة الهادئة أن تصل إلى اتفاق مع الولايات المتحدة التى كانوا يكنون لها الإعجاب بل وحتى مع سادتهم القدامى البريطانييــن والفرنسيين . وكانت وجهة النظر العربية أن الدفاع عن المنطقة يجب أن يأتى من الداخل من خلال الإصلاحات الاجتماعية والتقدمية ، ومن خــلال قوميــتهم الخاصــة وذلك من خلال قيام حلف وحدوى عربى مستقل

وغــير منحاز ، وليس من خلال تحالف غير مقبول شعبياً يفرض عليهم من الخــارج. وكــان ناصر نفسه واضحاً كل الوضوح بخصوص ذلك .فقد كان يقــول فــى العلن وفى السر أن مصر لن توقع على أى تحالفات دفاعية تأتى من الخارج .

وبالــرغم من أن ناصر لم يكن مستعداً لتحالفات الحرب الباردة مع الغرب إلا أن مصــر كانت لا تزال تميل إلى الغرب بمعنى أنها كانت غير شيوعية ومدركة لأخطار الشيوعية ، فحتى عام ١٩٥٤ كان نظام الحكم يتمتع حقاً بما اســماه ديــن اتشيسون (Dean Asheson) « الصداقة النشطة مع الولايات المــتحدة » . فقــد مــنح قــرض تبلغ قيمته أربعون مليون دولار من أجل الــتطوير، كمــا أن الخبراء الأمريكيين من كل تخصص كانوا يشاهدون فى القاهــرة . وكانــت السياسة الأمريكية تقوم أساساً على دمج مصر فى حلف دفاعى شرقى أوسطى مقابل بيع السلاح للجيش المصرى ، وأن تسيطر على الاقتصــاد المصرى عن طريق تقديم قرض لتمويل مشروع السد العالى فى أســوان . ولكــن الإعــلان عــن قــيام حلف بغداد بالرغم من المعارضة المصريةوتجديد النشاط المفاجئ لإسرائيل وضع نهاية لشهر العسل.

وفــى ٢٨ فــبراير عام ١٩٥٥ أيقظت مكالمة تليفونية فى منتصف الليل ناصــر لتحمل إليه نبأ هاماً وهو أن القوات الإسرائيلية قد إجتاحت عبر خط الهدنــة عــند غــزة فــى غــارة خطط لها بمهارة حيث استولت على نقطة المفروض أنها كانت محصنة ، وأوقعت بالمصريين خسائر بلغت ٦٩ جندياً. وفــى الــيوم التالى صرح رئيس وزراء إسرائيل أنه إذا أصرت مصر على إبقــاء حالــة الحرب الفعلية مع إسرائيل فعليها أن تتحمل العواقب . غير أن ذلــك كــان بالنســبة لعبد الناصر لحظة صدق . فقد اعترف فيما بعد « بأن كارثة غزة كانت بمثابة جرس الأنذار . فقد بدأنا على الفور فى فحص أهمية الســلام وقوى التوازن فى المنطقة » والتى كانت تعنى أنه ضاعف بحثه عن الأسلحة الحديثة .

وبخــلاف الموقف الإسرائيلى كان ناصر يعتمد على الجيش لفرض نفوذه

الشخصـــى أكـــثر مـــن أى شئ آخر . فمنذ انقلابه الثورى ، فعل كل ما فى وســعه لإبقاء الضباط فى القوات المسلحة على ولائهم له . فقد عين الكثيرين منهم ممن يحملون رتبة نقيب وصاغ ، وكذلك قادة الألوية فى مواقع حكومية علــيا لضمان تأييدهم ، كما أنه قدم لهيئة الضباط العديد من الامتيازات التى جعلــت مــنها طبقة جديدة مميزة . ولقد كانت القوات المسلحة التى استولى عليها فى عام ١٩٥٢، فقيرة التسليح ، وتعاني من الإحساس بالإهانة التى لا تتناســب مــع ماضــيها التلــيد . وكان أمراً بالنسبة للجيل الجديد من شباب الضباط أن تبقى القوات المسلحة إلى الأبد فى موقف الضعف . وكان كل ما يـــريدونه فـــى عام ١٩٥٥ هو الدبابات والطائرات النفاثة التى كانت وقتذاك أحدث ما يمكن الحصول عليه من سلاح .

أخذت بعثات عبد الناصر العسكرية تبحث بنشاط عن مصادر التسليح من الغـــرب ، غـــير أن بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة كانت تحاول الحفاظ علـــى السلام فى الشرق الأوسط عن طريق تقييد بيع المعدات الحربية . كما أن الكونجـــرس الأمريكى أجاز قراراً بحظر شحن السلاح الأمريكى إلى أى بلـــد لا يوافـــق على السيطرة الأمريكية عند استخدامها . كل هذا كان يعنى الإحباط التام لبعثات المصرية لشراء السلاح .

جـــاء أول تلمـــيح كمصـــدر بديل لتموين السلاح فى « باندونج » عندما عـــرض شواين لأى على ناصر السلاح ، ثم بعد ذلك انتحى السفير الروسى فى حفل استقبال دبلوماسى أقيم فى عام ١٩٥٥ به جانبا وسأله بصراحة عما إذا كانـــت حكومته تبدى اهتماماً بشراء السلاح من الاتحاد السوفيتى . وبعد مرور شهرين وصل المستر شبيلوف Shepilov إلى القاهرة كمبعوث خاص مـــن جـــريدة البرافدا تحت غطاء « مهمة صحفية » ، ولكنه كان فى الواقع يضع الأساس لعقد صفقة .

وبالـــرغم مـــن ذلـــك كان ناصر متردداً حول اتخاذ قرار قد يدفعه تجاه اليســـار ، ولكـــن فـــى شهر سبتمبر عندما غزت القوات الإسرائيلية واحتلت «العوجـــة» وهـــى منطقة منزوعة السلاح بمقتضى هدنة ١٩٤٩ ، اكتشفت

المخابـــرات المصـــرية أن فرنســـا تزود سراً إسرائيل بالسلاح ، عندئذ قطع ناصر تردده ، وتم توقيع العقد بين مصر وروسيا فى ٢٤ سبتمبر .

ولمـــا كـــان يتوقع اندلاع موجة من الغضب الذى يسببه الإعلان عن هذه الأنـــباء ، فقـــد خطط لجعل هذه الصفقة سراً لأطول وقت بقدر ما يستطيع . غـــير أن الســـير همفرى تريفليان Sir Humphrey Trevelyan سفير بريطانيا الـــذى كـــان قد عين حديثاً فى منصبه ، اشتم الخبر ، فطلب مقابلة عاجلة . ويـــروى « مايلـــز كوبرلاند» Miles Coperland » أحد قاطنى حى ماديسون أفيـــنو Madison Avenue الـــثرى الذى أبقاه ناصر كمستشار له فى العلاقات العامة فى كتابه لعبة الأمم « Game of Nation» ، كيف تصادف وجوده هو و« كرميـــت روزفلت Kermit Roossevelt » من وكالة المخابرات الأمريكية (C. I. A) فـــى المكتـــب عـــندما أعلن عن وصول السفير، عندئذ سأل عبد الناصـــر وهو يحرك عينية الشبيهتين بعينى الثعبان ما لو كان صبياً وقع فى حـــيرة ، مـــاذا تظـــن ما يجب عليّ إخباره ؟ فأجاب روزفلت بومضة إلهام مفاجئ « حسناً سيدى الرئيس لماذا لا تهون من الأمر قليلاً بأن تسميها صفقة سلاح تشيكية بدلاً من روسية ؟ فكما تعرف فإن ذلك قد يبدو أفضل!.

وهكـــذا ولدت أسطورة « السلاح التشيكى » التى ابتكرت من تحت ثياب أمـــريكى ، غير أنها كانت تناسب الحسابات الروسية أيضاً . وفى مساء اليوم الـــتالى عندما كان ناصر يفتتح معرضاً للسلاح فى الجزيرة أعلن الخبر. فقد أخبر الجمهور المبتهج : « أن الغرب قد رفض أن يعطينا وسائل الدفاع عن أنفســـنا . ولقد تلقينا عرضاً من تشيكوسلوفاكيا لمدنا بالأسلحة التى نحتاجها، علـــى أســـاس تجارى خالص مقابل السداد بالقطن ولقد تم توقيع الاتفاق منذ لحظات».

وبعـــد ذلـــك ، خرجت عناوين الصحف الرئيسية حول العالم تحمل النبأ : «الشـــيوعيون يسلحون مصر » وأصبح عبد الناصر بذلك أكثر من أى وقت مضى قرة عين مصر ، بل أكثر منها « قرة عين » العالم العربى ، فقد لمس ذلك وتراً حساساً بالنسبة لجماهير الشرق الأوسط : وهو عطشهم لما يسمونه

«الكــرامة» والتى لا تعدو أن تكون حرية اتخاذ قرارهم بأنفسهم بدلاً من أن يكونـــوا رهـــن إشـــارة الغرب . ولكن هذا التصرف المنفرد قد اخل بميزان القـــوى فـــى الشرق الأوسط تماماً ، والذى كان أمراً عزيزاً لدى الهوا بتهول والبنـــتاجون Pentagon . وفتحت الأبواب على مصراعيها للتسلل الروسى ، وبدأ العد التنازلى للطريق إلى السويس وما ترتب على ذلك.

الفصل العشرون

صفعة مقابل صفعة

كـــان جمـــال عبد الناصر لا يزال بعيدًا عن تحقيـــق دورة « كالبعبــــع» الكبير للغرب . ففى الأسابيع التى تلت ضجة الأسلحة التشيكية لم يخطر ببال لـــندن ولا واشنطون حقيقة أن مصر تتجه نحو الحرب ، ففى محاولة لإفساد الانتصار الدبلوماسى الروســـى ، سعت قوى الغرب إلى استعادة مكانتها عن طـــريق تحرك درامي مماثل لتقديم عرض تمويل الســـد العالى فى أسوان ، فقد كان على رأس المشاكل الملحة التى واجهتها حكومة الثورة هو فقر الفلاح المدقـــع ومســـتوى المعيشـــة المـــتدنى لما يزيد عن خمسة وعشرين مليون مصـــرى(*) محشورين فى وادى النيل الضيق . ولم تكن الست ملايين فدان المزروعة والمحشورة بين الصحراء الشاسعة غير الممطـــرة – والتى تمثل مجـــرد اثنـــان فى المـــائـــة من مســـاحة البـــلاد ، تكاد تكفـــى لإعالـــة السكان الذين كان عددهم يتزايد بنسبة نصف مليون كل عام. فإحصائيًا وبيئيًا كانـــت الـــتوقعات مروعة . وكان البريطانيون قد أقاموا سدًا فى أسوان عند نهاية القرن (التاسع عشر) غير أن مزاياه كانت قد تضاءلت منذ زمن طويل. وكانـــت فكرة بناء سد آخر أكبر حجماً بكثير قد درست منذ عقود . وفى عام ١٩٤٧م لاحـــظ عالم الهيدرولوجيا أدريان دانينوس Adrian Daninos أن مياه النـــيل تتدفق جنوب أسوان عبر حوض طبيعي شاسع المساحة مما قد يشكل مشـــروعًا لسد يبلغ حجمه عشرين مرة تقريبًا من حجم السد القائم . لقد كانت مشـــكلة مصر دائمًا هى حجز وتخزين مياه النهر التى هى شريان الحياة بدلاً مـــن تـــركها تتدفق بلا فائدة نحو البحر المتوسط عندما يفيض النيل فى شهر ســـبتمبر من كل عام . ولقد جادل الخبراء أنه من الممكن تخزين كمية هائلة مـــن المـــياه الـــتى يمكـــن استخدامها فى زراعة ما لا يقل عن مليونى فدان

(*) هـــو تعـــداد الشـــعب المصـــرى مما ذلك الوقت وحتى نهاية القرن بلغ تعداد الشعب المصرى ٦٢ مليون نسمة (المترجم)

بالإضـــافة إلى توليد طاقة كهربائية هائلة من أجل إعطاء دفعة جديدة للتوسع الصناعي.

لقـــد كـــان من الواضح أن بناء هذا الخزان الضخم بمثابة مسألة حياة أو مـــوت بالنسبة لمصر ، وأن الإجراء الواقعي الوحيد لمواجهة مشكلة الانفجار الســـكاني هـــو إضـــافة مســـاحات جديدة من الصحراء إلى المساحة القابلة للـــزراعة، وإعطـــاء دفعـــة جديدة للصناعة . وكان أول الإنجازات للمجلس الـــثوري هـــو تشكيل مجموعة لدراسة المشروع . وبعد عامين أعلن ناصر رســـميًا قـــرارة بإنجـــاز مشـــروع السد العالي كواحد من أكثر المشروعات الهندسية طموحًا وجرأة التي لم يسبق لأحد التفكير في تنفيذه من قبل ، والذي وصفه بأنه « يفوق حجم الهرم الأكبر بنحو سبع وعشرين مرة » وهو شعار مـــلأ نفـــوس المصـــريين بالكـــبرياء ، في حين سخر أعداؤه منه بأنه هرم ديماجوجي a demagogic pyramid .

وبـــلا شك ، كانت تكاليف مثل ذلك المشروع العملاق تفوق قدرات مصر المالـــية ، ولـــم يكـــن هـــناك في الواقع سوى بلدان اثنان في العالم يمتلكان المصـــادر الكافـــية لبنائه : وهما الولايات المتحدة وروسيا . وقد حذر بعض مستشـــاري ناصر أن قبول الأسلحة الروسية سيثير غضب قوى الغرب مما يعرض طلب المعونة منهم للخطر ، غير أن تقديره للموقف (الذي كان يقوم علـــى أساليب تيتو ونهرو) كان مختلفا ، ولما كان في أعماق نفسه مقامرًا ، فقد شرع في ملاعبة الشرق ضد الغرب في كل ما كان يراه يستحق ، وكانت الصـــيغة بسيطة لدرجة الإغراء . وفي تنفيذه ذلك بمهارة لم يضع في حسابه بباله أنه قد يفشل .

فخـــلال شـــتاء عام ١٩٥٥ والأيام المبكرة لعام ١٩٥٦ بدت الأمور تسير كالســـحر ، فبعد أن أمن صفقته مع روسيا ، عاد يغازل الغرب مرة أخرى ، وفـــي ذلـــك الوقـــت كان البريطانيون يجلون عن منطقة القنال طبقًا لمعاهدة ١٩٥٤ ، وللحصـــول علـــى أي فـــائدة سياســـية من هذا الانسحاب كان من الواضـــح أن هـــناك رغبة في التقارب من القاهرة . ففي الخطبة التي ألقاها

الســير أنــتونى أيدن Anthony Eden فى الجيلدهول Guildhall أشارت إلى الأمــل فــى قيام ما أطلق عليه « غرسه محمومة للعلاقة الأنجلو - مصرية The Febrile plant of Anglo-Egyptian Friendship كانت تنمو أقوى فأقوى، كما المح إلى إمكانية العثور على حل للمسألة العربية الإسرائيلية ، بالرغم من أن ذلك كان بمثابة ديناميت سياسى لأى قائد عربى يفكر فى مصالحة قد تقابل إســرائيل عــند منتصف الطريق بالنسبة لادعاءاتها فى الأرض : فقد صرح ناصــر « بــأن مقترحات أيدن أرضية جيدة للتفاوض » . وفى نفس الوقت أكدت الحكومة البريطانية فى هدوء أن حلف بغداد الذى كان ناصر يظن أنه موجه ضد مصر قد لا يتوسع .

وفى هذا المناخ المفعم بالأمل . صدر تأكيد فى مطلع عام ١٩٥٦ أن البنك الدولى سوف يقدم ٢٠٠ مليون دولار . تدفع منها الولايات المتحدة ٥٥ مليون دولار وبريطانــيا ١٥ ملــيون دولار لــتمويل المرحلة الأولى من بناء السد العــالى، غــير أن رجــال المال لم يقبلوا المخاطرة : وكانت شــروطهم أن ميزانية مصر يجب أن توضع تحت إدارة البنك الدولى ، وأن حساباتها كلهــا توضــع تحت الفحص و أن لا يكون لمصر الحق فى استدانة أى قروض من جهــات أخــرى - وهذا معناه العودة إلى فرض السيطرة عليها من الخارج (وبالتالى السيطرة السياسية) وهو بالتحديد الأمر الذى كان على الثورة (وفى ذاكرتها ديون القرن التاسع عشر) أن ترفضه ، ومن ثم كما حدث بينما كانت المفاوضات مستمرة فى نيويورك ، كان المبعوث الروسى يجرى محادثات مع ناصــر فى القاهرة ، وبالمثل أعلن أن حكومته على استعداد لتقديم المساعدة الفنية والاقتصادية لمصر من أجل بناء السد العالى . وبالرغم من أن الشروط الروســية كانت غامضة ألا أن القوتين الكبيرتين كانتا على استعداد للمزايدة عليها. ومن ثم لم يكد يمر أسبوعان حتى اختلطت الأمور كلها بطريقة هزلية.

وصــل الجــنرال تمــبلر Templar القائد العام - دون توقع - إلى عمان لمناقشــة إمكانــية ضم الأردن والفيلق العربى الذى كان لا يزال تحت قيادة جلوب باشا Glubb Pasha إلى حلف بغداد ، واشتعل ناصر غضبًا لما اعتبره نكث صارخ للوعد ، فقد شرع فى شن حملة إعلامية قاسية من راديو القاهرة

ضد كل من بريطانيا والأردن . وبعد ذلك بوقت قليل مرّ المستر سلوين لويد Selwyn Lloyd بالقاهــرة . وفي نفــس اللحظـــة التي كان فيهــا متواجــدًا في مكتـــب الرئيـــس المصري (وفي ضوء كل التقـــارير التي تضع الأسس حول وجهة نظر القـــاهرة نحو الأردن) وصلت رسالة تقول أن الملك حسين قد قام بطرد جلوب باشا وأمهله ســاعتين فقــط لكي يغـــادر البلاد . ومما لا شك فيه أن ناصر لا بد وأن يكون قد أيتســـم وهو يطلع على الأنبـــاء ، غير أن وزير الخارجية البريطانية فجأة سارع إلى تكوين استنتاج أن هذا الحادث خطـــط له ليتماشى بهـــدف التعبير عن توجيه الإهانة له : (وقد ثبت فيما بعد أنه لم يكن لناصر أي علاقة بموضوع الطرد والذي ربما كان نتيجة لاستياء الملك حسين منذ وقت طويل من وضع الجنرال المميز خاصة عندما قرأ في جـــريدة الأوبزيرفـــر The Observer أن جلوب باشا هو «ملك الأردن غير المتوج»).

وفـــي اليوم التالي قوبل سلوين لويد في البحرين التي كان من المفروض أنها محميـــة بريطانية بفظاظة من قبل جمهور معاد ، ومرة أخرى عزا ذلك لـــتحريض راديـــو القاهـــرة :وبطريقة أو بأخرى بدأ سلوين لويد أقل الناس غرورًا بأي حال من الأحوال كما لو كان قد قدر له أن يقع تحت تأثير شيطان مـــريد في كل ما يتعلق بمصر ، واستحوذت عليه فكرة مفادها أن كل مشاكل بريطانـــيا في الشرق الأوسط سببها نشاطات بكباشي متعصب بدا قادرًا على إثارة الاضطرابات من بعد في أي مكان يحلو له .

وفـــي ربيع عام ١٩٥٦ بدأت فكرة موازية عن ناصر تتولد في هذه المرة في فرنسا حيث كان فقدان الهند الصينية لا يزال ماثلاً في الأذهان وكان على فرنســـا أن تبتلع خسارة انفصال كلاً من تونس ومراكش وذلك باستقلالهما ، وكانـــت مصرة على ألا تسير الجزائر في طريق مشابه . وفي مارس ذهب المسيو بينو Pinaud إلى القاهرة لإقناع الرئيس ناصر بالتوقف عن تأييد ودعم الوطنيين الجزائريين . غير أن ناصر لفت نظرة أن الجزائريين : « أخوتنا... ولا نستطيع أن ننكر عروبتنا » ومقابل ذلك طلب أنه يتوجب على فرنسا أن تـــتوقف عن تسليح إسرائيل وكان ذلك مثلاً آخر على كيفية عدم القدرة على

إقامـــة الصداقة والتأثير على الناس . وعاد المسيو بينو إلى فرنسا وهو غير مرتاح بالمرة .

وأخـــيرًا تشـــابكت خطوط العداء فى واشنطون حيث كان اللوبى اليهودى يعمل بجد . إذ أندلع القتال مرة أخرى على الحدود المصرية – الإسرائيلية . وفـــى نفـــس الوقت وافق الفرنسيون والكنديون (وذلك بتدبير من البنتاجون) على بيع طائرات نفاثة لإسرائيل ، إلا أنه كنتيجة لمجهودات المستر همرشولد Hammarskjold المتواصـــلة مـــن أجل إيجاد حل لمشكلة فلسطين ، فقد كان هـــناك تلمـــيحات أن الاتحاد السوفيتى قد تزعم مبدأ فرض الخطر من جانب القـــوى الكبـــرى علـــى شـــحن السلاح إلى الشـــرق الأوســـط فى الوقـــت الـــذى كانـــت فيـــه أصوات الصقور الداعية للحرب فى إسرائيل تؤيد القيام بحـــرب مانعـــة Preventive War ضد العرب ، جعل مصر تدرك أنها إن لم تكـــن علـــى قدر من الحـــــذر ، فإنها قد تجد نفسها متورطة فى حرب مما يجعـــل إمدادهـــا بالسلاح فى خطـــــر . وفى هذه اللحظة تذكر عبد الناصر محادثاته مع شواين لاى Chou En - lai . وبدأت صحف القاهرة تعرض رأيًا للـــنقاش وهـــو أن : « روســـيا ليست المصدر البديل الأوحد للحصول على الســـلاح بـــدلاً مـــن الغرب » . وسافرت بعثه عسكرية إلى بكين(*) (وكان واضـــحًا أنها لا تلتزم بقرار الحظر الصادر من الأمم المتحدة). وفجأة أعلنت مصر اعترافها بالصين الحمراء فى شهر مايو . وقد تزامن ذلك مع انضمام ناصـــر إلـــى أحـــد لقاءات رؤساء الدول الذى عقد فى القاهرة وضم كلاً من البانديت نهرو ، والرئيس سوكارنو مؤكدين تمسكهم المشترك بسياسة الحياد ، ولـــم تكن أى من هذه التطورات تروق لواشنطون ، حيث علق جون فوستر دالاس بـــازدراء قـــائلاً: «أن مـــبدأ الحياد الإيجابى . ليس سوى فكرة غير أخلاقية قصيرة النظر»، كذلك بدأ الكونجرس يبدى مظاهر نفاذ الصبر، حيث راح المـــتحدثون الصهاينة يضغطون بسرور فى الداخل على أن أى مساعدة

(*) لم تكن الصين الحالية حتى هذه اللحظة عضواً فى الأمم المتجدة انما كان يشغل مكانها الصين الوطنية (تايوان) .

مالية تقدم لمصر – خاصة فيما يتعلق بمشروع سد أسوان – لن تؤدى سوى إلى تدعيم مركز الدكتاتور الشيوعى والمصاب بجنون العظمة .

ولما أدرك أحمد حسين – سفير مصر فى واشنطون – أن الرأى العام بدأ يعـــارض تقديـــم القـــرض طار عائدًا إلى القاهرة محذرًا ناصر أن عليه أن يتصرف بسرعة إذا ما أراد إكمال الاتفاق مع البنك الدولى ، وبالرغم من أنه كـــان رافضًا أن يضع رأسه فى هذا الشرك الاقتصادى ؛ إلا أن ناصر وافق أخيرًا . فقد كان السد أمرًا حيويًا للغاية بالنسبة لمصر قبل أى شئ آخر ، فقد اعتبر أن نفوذه وهيبته – خاصة فى تلك اللحظة التى كان فيها آخر جندى فى القـــوات البريطانية يغادر القناة – كافيًا فى التغلب على آخر معارضة عدائية فى وطنه . وفى ٩ يوليو أكد المستر يوجين بلال Eugene Black رئيس البنك الدولـــى فـــى رسالة إلى وزير المالية المصرى موافقته على تقديم العرض . وفى ١٧ يوليو عاد أحمد حسين إلى نيويورك وصرح عند وصوله أن مصر قد قبلت شروط القرض .

لقـــد كانت تلك لحظة غير عادية بالنسبة للعالم كله ، فبصرف النظر عن النظرية الأيديولوجية البحتة القائلة بأن رأس المال المستنير يجب أن يستخدم لـــرفع مســـتوى المعيشة فى البلدان النامية وتلك التى ضربها الفقر فى قارتى أفريقيا وأسيا ، إلا أن هذا المشروع الذى يحبس الأنفاث – بكل دلائله المالية ســـوف يـــؤدى بكل وضوح إلى ربط مصر بأكثر من شعورها بالجميل نحو الدول المانحة . لقد كان ذلك ذروة صفقه كبرى من الدبلوماسية الصبورة التى قامـــت بهـــا الســـفارتان الأمريكية والبريطانية فى القاهرة ، وتمثل حقًا نقطة تاريخية اعيدت فيها مصر الثورة أخيرًا إلى أحضان الغرب .

لقد كان رد الفعل المتوقع فى واشنطون هو إبداء الفرحة إزاء هذا النجاح الدبلوماسى الشاق ، ولكن بدلاً من ذلك فعل المستر جون فوستر دلاس عكس مـــا كان متوقعًا ، وقد كان شخصًا لا يمكن التنبأ بما يفعل بالرغم من أنه كان قـــد تلقى تعليمه كرجل قانون ودبلوماسى فى نفس الوقت ، وربما كان تفسير ذلك أنه كان يستمع كثيرًا إلى اللوبى اليهودى أو إلى قلق أصدقائه فى عالم

الـــنفط . ومهما كان الدافع الذى يحركه ، فقد رأى وزير الخارجية الأمريكى أن الوقـــت قد حان بعد أن قدمت الحكومة المصرية نفسها أخيرًا وهى تتوسل لطلـــب المساعدة – للحط من منزلة عبد الناصر بتوجيه صفعة له ذات أبعاد دولـــية ، فمن جانب واحد ، دون أن يستشير حلفاءه ، أو حتى تقديم المشورة للحكومـــة المصـــرية ، سحب فجأة عرض الولايات المتحدة بتصريح قاسى وصـــارم للصـــحافة ، والذى كان فى أساسه انتقاد عنيف للاقتصاد المصرى وحكومـــته . وبـــدون شك فقد اعتقد أن مثل هذا الرفض الدبلوماسى الذى لم يسبق له مثيل سوف يكون كافيًا لإسقاط نظام الحكم فى القاهرة ، وأن يوضح للعـــالم بأسرة وللدول النامية بالذات أنها لا تدفع من أجل ملاعبة موسكو ضد واشنطون .

لقـــد كـــان مـــتوقعًا أن هـــذا التصـــرف الأمريكى لم يكن مفاجئا سواء لكريسستيان بينو الذى كان قد أعلن منذ بضعة أيام سبقت على الملأ أنه كان قد قدم صورة واضحة لمستر دالاس عن ناصر ، أو لإنطونى إيدن الذى كان قـــد شـــعر بوخـــزة مـــن الألم من انتقادات المقالات الافتتاحية فى الصحف للتصرفات العدوانية التى وردت من قاعدة منطقة قناة السويس ، وكان أشد ما أحـــزنه هو فرحة المصريين العارمة عند إنزال العلم البريطانى عندما أبحر أخـــر الجنود البريطانيين من بور سعيد بعد سبعين عامًا من الاحتلال ، لكن التوقيـــت لم يكن متوقعًا . فقبل يوم واحد (١٨ يوليو) كان السير توبى لوى Sir Toby Lowe مـــن وزارة الخارجية قد أعاد توكيد – خلال حفل استقبال أقـــيم علـــى شـــرف وزيـــر الـــتجارة المصرى ترحيب الحكومة البريطانية واســـتعدادها لتنفـــيذ القـــروض . وبعـــد ثمان وأربعين ساعة تبعت الحكومة البريطانـــية مسلك الحكومة الأمريكية عندما أصدرت تصريحًا للصحافة بأنها قـــد ســـحبت هـــى الأخرى عرضها لتقديم القرض، وبالتالى لم تخطر سوى السفير المصرى لدى بلاط سانت جيمس St. James .

وفـــى يوم ٢٠ يوليو الحرج غادر جمال عبد الناصر بلجراد حيث كان هو ونهرو يعقدان ثلاث اجتماعات كبرى أطلق عليها قمة المحايدين Neutralists، ولقـــد أثـــار بيانهم الختامى الكثير من الجدل حول اختيار كلماته، والذى أكد

تمســـكهم بسياسة الحياد الإيجابى Positive Co-existence . وكان لناصر كل العذر أن يشعر بالرضا عندما أقلعت طائرته إلى القاهرة وعلى متنها نهرو . فقــد كان الزعيم الهندى هو ضيف الشرف فى احتفالات الذكرى الرابعة لقيام ثــورة ٢٣ يولــيو . وهذا فى حد ذاته أكد تزايد وضع مصر فى العالم غير المتورط . ففى ٢٣ يوليو كان سيقام استعراض كبير لأسلحة مصر الحديثة . وفـــى قمة خطبته كان ناصر سيعلن عن بناء السد العالى فى أسوان .. وفى الســـاعة الثالثة صباحًا حطت طائرته حيث كان فى استقباله أعضاء حكومته وقــد بدت على وجوههم الكآبة وهم يطلعون جمال على أنباء سحب التمويل الأمريكى ، وبعد أن أنزل نهرو وفى قصر القبة ، شرع ناصر على الفور فى عقــد اجــتماع مغلــق مع مستشاريه حيث كانت درجة الحرارة قد بلغت فى القاهــرة ١١٧ درجـــة فهرانتــية فـــى الظل ، مما جعلها تغلى فى حمام من الإشـــاعات ، فقـــد راهن الناس علنا عمن يخلف عبد الناصر، أما فى عيون كثـــير مـــن العـــرب فإن ما حدث لم يكن سوى تكرار لإنذار اللورد كيللرن القاســـى لفاروق عام ١٩٤٢ ، حتى فى هذه المرحلة من تطور الأحداث فى الشـــرق الأوسط ، فقد بدأ من غير المتصور أن يفلت أى نظام حكم من هذه الضربة المحسوبة من جانب القوى الكبرى .

لقـــد كـــان رجال السياسة المصريون والغربيون يقللون من شخصية ورد الفعل الذى يكاد أن يكون متوقعًا لرجل أعلن فى أكثر من مرة : « لو أن أحدًا بصق فى وجهى ، سوف أرد بالبصق عليه عشرة مرات » . فبالنسبة لرجل مـــثل ناصـــر تجـــرى فى عروقه دماء الرجل « الصعيدى » كانت كراهية العـــبودية للغـــرب جـــزءًا لايـــتجزأ من شخصيته ، منذ أن كان تلميذًا مثيرًا للشـــعب. وأكـــثر مـــن ذلـــك لم يكن مشروع سد أسوان العالى مجرد لعبة دبلوماســـية بـــل كان أمرًا حيويًا تمامًا بالنسبة لرخاء البلاد . وخلف الأبواب المغلقـــة، ظـــل رجـــال النظام على مدار الساعة يعملون وقد تصاعدت منهم أعمدة التدخين من أجل التخطيط للانتقام . وصدر تصريح بأن الرئيس سوف يلقى خطبة هامة فى الإسكندرية فى ٢٦ يوليو .

وفـــى الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم ، وبالتمام فى نفس الساعة التى

أقلعَ فيها فاروق من الميناء إلى منفاه ، تدفقت جموع غفيرة إلى ميدان محمد علـــى . ومن شرفة مبنى البورصة ، نفس الشرفة التى كادت رصاصات أحد القـــتلة أن تصـــيبه فـــى عام ١٩٥٤ ، ظهر عبد الناصر أمام مجموعة من الميكرفونات لقد بدأ فى حالة استرخاء تام ، وبدأ يتحدث بطريقة باللهجه غير الرســمية أو بالطـــريقة العامية (أو بالبلدى التى تعنى حرفيًا لهجة البلدة أى القـــرية وهى طريقة المصرى عندما يصف طريقة حياته المميزة النابعة من تـــرابه). فالأول مرة سمعت الجماهير رئيسها - المعروف حتى تلك اللحظة بالصـــرامة - وهـــو يـــتحدث إلـــيها كما يتحدثون لبعضهم البعض ، فقد بدأ بالســـخرية مـــن الدبلوماســـيين الأمريكيين ومشاكلهم فى التعامل مع المستر دالاسٍ ، ثم تحول فجأة إلى الحديث عن مستر بلاك Black مدير البنك الدولى قـــائلاً : عـــندما جـــاء إلى مكتبى ذكرنى « بفرديناند دى ليبس » قالها وهوٍ يضـــغط فى نطقه على الاسم بنبرة مميزة : « ذلك الفرنسى الذى كان مكلفًا ببناء قناة السويس من أجل الخديوى » ثم أضاف : « نعم مستر دي لسيبس » ثـــم راح يشـــن هجومًا لاذعًا من ما أسماه . « احتلال الرهن » mortgage colonialism وحـــتى تلك اللحظة كانت لهجته خليطًا من النيرات ، ولكن فجأة تغـــيرت نـــبرته وسرت الكهرباء فى عروق الجمهور الكبير كما لو كانوا قد تعرضوا لصدمة كهربائية.

وفـــى صـــوت عمـــيق غاضـــب أجش شق نسيم المساء صاح : « أيها المصـــريون لزمـــن طويل كانت تلك الشركة الاستعمارية تسرقنا ، لقد كانت دولة داخل الدولة تلك الشركة العالمية لقناة السويس Companie Universelle du Canl Maritime de Suez لكنـــنا لـــن نسمح بأن ننهب مرة أخرى ، لأننى أســـتطيع أن أقـــول لكـــم أنـــه منذ تلك اللحظة أصبحت الشركة مؤممة وتم الاستيلاء على منشآتها ، فمنذ الليلة أصبحت قناة السويس لنا هل تسمعوننى؟

وانفجـــرت الســـاحة بأكملها فى انفعال مجنونٍ وتعانق الغرباء من الناس، وربت كل منهم على ظهر الآخر ، وفى الحال أطلق ناصر نوبة من الضحك (ربما فقط فى هذه اللحظة كان قد أدرك مدى الوتر العاطفى الذى لمسه) ، ثم اســـتطرد يقـــول : « ستتفق القنال على السد . لقد بنى المصريون القناة ، لقد

بنيت على جماجم أبنـــاء وطننا . لقد قضى ١٢٠,٠٠٠ مصرى نحبهم وهم يقومون بحفرها . لقد كانت الولايات المتحدة وبريطانيا على وشك أن يقدموا لنا ٧٠ مليون دولار لبناء السد ، لكن دخل القناة مائة مليون دولار فى العام ، وخــلال خمس سنوات فإن ذلك يعنى نصف بليون دولار ، فلندع الأمريكيين يموتــون بغيظهم . فلسنا فى حاجه إليهم... إننا سوف نعتمد على قوتنا . إن قناتــنا ســوف يديــرها المصريون وسوف يبنى المصريون السد .. ولتذهب أمريكا إلى الجحيم هل تسمعوننى ؟

وعــند الغسق الأحمر كانت الإسكندرية عن بكرة أبيها ترقص فرحًا ، لقد جلبــت الشــجاعة المطلقة لما فعله ناصر الدموع فى العيون ، فغريزيا بدت الجماهــير كمــا لو كانت تدرك أن هذه اللحظة هى واحدة من أشد اللحظات انفعالاً على طول تاريخهم الطويل . لقد تحدوا أكبر قوة على ظهر الأرض ، وتــم خــداع الأجانــب الممقوتين . وأخيرًا أصبح فى استطاعتهم أن يرفعوا رءوســهم . فأخــيرًا أصبحوا يقفون على أقدامهم ، ومهما تكون النتيجة فقد كانــت تلك اللحظة لحظة انفجار خالصة . وبالنسبة لأى شخص كان متواجدًا فى الإسكندرية ذلك المساء ، كانت تلك تجربة مثيرة غير عادية من الانفعال.

حقًا ما أن همس ناصر بكلمة دى ليبس فى الميكرفونات حتى قام الجيش- الــذى تصرف بناء على كلمة السر المسبقة بالاستيلاء على مقار إدارة شركة قناة السويس ، وكذلك على النقاط الاستراتيجية من بورسعيد حتى السويس . وفــى لــندن تلقى السير انطونى أيدن الذى كان مضيفًا لحفل عشاء أقيم على شــرف فيصــل ملك العراق رسالة . غادر على أثرها المائدة مكفهرًا . وفى الــيوم الــتالى أدان ناصر فى البرلمان وأصفا إياه بأنه « هتلر جديد » وفى الجمعية الوطنية الفرنسية حذر المسيو موليه Mollet ذلك «اللص الوقح الذى ســوف يجــبر علــى التراجع عما فعل». وتقدمت هاتان الحكومتان رسميًا بشكوى شديدة اللهجة . ومن جانبه أطلق دالاس على التاميم « ضربة مؤلمة للــثقة الدولية » ، غير أن الاتحاد السوفيتى أيد ناصر. وتدفقت على القاهرة برقيات التهنئة من كافة أنحاء العالم الأفرو أسيوى .

ومهمـــا كان الجدل حول شرعية الاستيلاء على شركة القناة إلا أن لا أحد يشــك أنهــا فى الأساس شركة مصرية ، وبالتالى بالمفهوم الشرعى الواضح كــان مــن الممكن للحكومة المصرية تأميمها مقابل دفع تعويضات كما حدث للكثــير مــن الشركات فى إنجلترا وجهات أخرى ، غير أن خطة ناصر وما شملته من تكرار عبارات ديما جوجية حولت المصريين لأن يكونوا فى طليعة الصراع ضد الاستعمار الغربى مما قضى على المزاعم الدبلوماسية ، وكشف عن الكراهية المتبادلة وفقدان الثقة بين كلا الطرفين .

إن الابتهاج العفوى الذى صدر من جانب المصريين ، والذى تردد صداه فــى أنحــاء الشــرق الأوسط ، جعل من ناصر فى يوم وليلة بطلاً ذا حجم أسطورى .

وبــنفس القــدر كان هناك غضب شيطانى فى الغرب ، إذ لم يعد كل من أيدن ، ولويد ، وموليه ، وبينو يهمتون بالجانب الشرعى للموضوع ، إنما كان يسعون لسفك دماء ناصر . وكما لاحظ لاكوتير Lacoutures : « ربما ليست الشــريعة الإســلامية وحدها هى التى تقطع يد السارق ، كما أعلن ايدن من خــلال الإذاعــة أن الصــراع ضــد عبد الناصر وليس موجهًا ضد الشعب المصــرى ، أما لويد فقد تحدث فى خطاب إلى اجتماع حزب المحافظين عن «إســقاط عــبد الناصــر من كرسيه». وفى ٣١ يوليو أعلن رئيس الوزراء البريطانى عن إجراءات وقائية ، شملت إرسال قوات إلى قبرص ، كما سمح لفرنسا بوضع قوات لها فى الجزيرة أيضًا . لقد كانت وجهة نظر الهوايتهول كما لخصها أحد المسئولين فى وزارة الخزانة إلى زملائه خلال حفل غداء . إذ قــال وهو « يرتشف مشروب الجين الوردى اللون » Pink Gin « إن ما نريده الآن هو حرب صغيرة لطيفة سريعة ومنظمة » وفى الحقيقة أن القرار حــول هذا الموضوع كان قد اتخذ سرًا من قبل إيدن وموليه ، والذى لا شك فيه فإن تصرفات الفرنسيين والبريطانيين منذ نهاية شهر يوليو فصاعدًا كانت موجهــة نحــو هدف واحد لا غيره ، وهو إهانة وإسقاط الزعيم المصرى إذ كتــب « توم ليتيل » Tom Little : « لقد كان يكمن فى كل كلمة أو تصرف إنــذار نهــائى من الحكومتين البريطانية والفرنسية تمثل فى حشد القوات فى

مـــنطقة الـــبحر المتوسط وكذلك فى رسالة « بعثه منزيس Menzies » التى تحمل الرسالة:خذها أو أتركها»، وكذلك تكرار القول كما هو فى حالة جمعية المنتفعين بقناة السويس Suez Canal User s Association أن على مصر أن تقبل أو تتحمل النتائج .

وفي ظل الظروف القائمة أصبح دالاس . الذى أشعل فتيل الأزمة كلها قلقًا خشية أن تتطور مسألة السويس إلى حرب تستعر فيها النيران ، ويتورط فيها الشـــرق الأوسط كله معرضًا للخطر من بين ما يتعرض للخسائر - مصالح الولايـــات المتحدة النفطية ، فقد كانت خطته لتأسيس « جمعية المنتفعين بقناة الســـويس Sues Canal User s Association (SCUA) » بالرغم من أنه كان مقدرًا لها الفشل تتطور بهدف أساسى وهو إعطاء فرصة للأعصاب الملتهبة لكـــى تهدأ . فقد عقدت الأمم المنتفعة مؤتمرًا فى لندن لم يثمر عن نتائج ليس لأن الوفـــود دعيت فى الحقيقة للموافقة على المقترحات البريطانية والفرنسية أكـــثر ممـــا دعيت لمناقشتها ، ولكن لأن عبد الناصر رفض أساسًا الحضور على أساس أن جدول الأعمال فى حد ذاته يطالب مصر بوجوب التخلى عن حقوقهـــا فـــى إدارة القنال . وفى الخاتمة صدر قرار بإرسال وفد إلى القاهرة لكـــى يعرض على ناصر المطالبة بفرض سلطة دولية . وكان اختيار المستر مـــنزيس الإســـترالى لرئاســـة البعثة فى حد ذاته أمر له مغزى . إذ لم يوجد نمـــوذج أوضح للاستعمار من الطراز القديم من : « بوب الفولاذى الشره » Pig-iron Bob . أو أى شـــخص آخـــر أقل احتمالاً فى الحصول على نتائج إيجابية مع قائد ثورى حساس . فقد ألقى المستر منزيس محاضرة على إسماع عـــبد الناصـــر كمـــا لو كان تلميذًا مشاغبًا ، ولما بلغ صبرة مداه أنهى عبد الناصر الاجتماع وبلهجة حادة علق راديو القاهرة على ذلك : « فإن منزيس لـــم يـــتحدث كرئيس وزراء إسترالى بل كبغل استرالى .. لقد داس على كل المـــبادئ التى يعيش عليها القرن العشرين . وبعد مضى سنوات أخبر رئيس وفد صناعى مصرى أحد الذين كانوا قد شاركوا فى الحملة قديمًا وهو « بللى روتـــس » Belly Rootes خـــلال حفـــل غـــداء فـــى « ديفونشير هاوس » Devorshire House : « لو أنك - لورد روتس - ترأست الوفد لما كان هناك

داع أبدًا لحرب السويس. لقد كان المعنى واضحًا .

والحقـيقة أنه منذ اللحظة التى أعلن فيها تأميم قناة السويس ، تراجع عبد الناصر ليصبح معقولاً ، فقد كان مستعدًا للوصول إلى حل وسط حول مسألة القـناة ، بالـرغم أنـه لـم يكن مستعدًا للتخلى عن حقوق السيادة المصرية الأساسـية على الممر المائى ، فبعد كل شئ كان من الكثير أن يتوقع أنه فى هـذا اليوم وفى ذلك العصر أن مصر المستقلة تخضع لشروط فرضت عليها عندما كانت مستعمرة فى الإمبراطورية العثمانية . فقد كان فى استطاعته أن يرى كيف أن أزمة السويس قد هزت الغرب حتى الأعماق ، وكان راغبًا أن يقـدم تنازلات كثيرة وكبيرة لإقناع القوى بأن مصالحهم الحيوية فى القناة لن تـتأثر ماديًـا . لكـن برغم الضوضاء العدوانية التى كانت تحدث فى لندن وباريس إلا أنه (كما أخبر ديزموند ستيورأت Desmond Steuart فى مقابلة) لم يتوقع أن يقوم البريطانيون والفرنسيون بعمل عسكرى . فقد ذكر بأمتعاض لستيوارت: « لقد أثبت أيدن أننى مخطىء لقد أعددت تقييمًا للموقف من وجهة نظـره... وقد ناقشت معه أنه من وجهة نظرهم أنهم سوف يفقدون الكثير .. الكثير جدًا[٢٦].

هكذا أعد المسرح لطوفان السويس ، فعلى جانب وقف جمال عبد الناصر الـبالغ من العمر ٣٨ عامًا ، رئيس الجمهورية وقائد نظام الحكم الثورى فى مصـر – تؤيده جماهير مواطنيه ، ويكاد أن نقول أيضا الرأى العام بكل ثقله فـى الشـرق الأوسط ومن خلفه أفريقيا وأسيا وروسيا ؛ على الجانب الآخر السـير أنطونـى أيـدن رئيس وزراء إنجلترا ، والمستر سلوين لويد وزير خارجيـتها، والمسـيو جـى موليه رئيس وزراء فرنسا والمسيو بينو وزير خارجيـته ، كذلـك البطش المسلح لهذين البلدين إلى جانب المستر ديفيد بن جوريـون David Ben Gurion رئـيس وزراء إسـرائيل وقـوات إسرائيل المسـلحة، وفـى الخلفية حق النقض (الفيتو) المضمون من جانب الرئيس إيـزنهاور Eisenhower الذى كان فى ذلك الوقت غارقا فى انتخابات الرئاسة للولايات المتحدة .

كان دوايت إيزنهاور Dwight Eisenhower ينتمى إلى مدرسة للفكر تقول أن مـــا لا يمكـــن تسجيله على أحد جوانب صفحة كاملة من الورق من حجم الفولســكاب لا يســتحق النظر فيه . ففى مكان ما فى وزارة الخارجية كانت هـــناك مذكـــرة عرضـــت عليه فى سبتمبر عام ١٩٥٦م ، وكانت تتكون من ثـــلاث فقـــرات . وبكل الاعتبـــارات بعد أن قرأ رئيس الولايات المتحدة هذه الوثيقة الحادة ، أمسك بقلمه الحبر وخط كلمة واحدة على الهامش الأيسر لا : « لقد كانت تتضمن الاقتراح الأنجلو فرنسى بغزو مصر » .

ومنذ تلك اللحظة تبلورت جفوة غريبة فى العلاقات الأنجلو أمريكية . إذ لم يكـــن بينهما سوى تبادل دبلوماسى ضعيف أو معدوم فوق الصعيد الروتينى . وكانـــت وزارة الخارجـــية علـــى دراية بالرغم من أنها لم تحاط علمًا – بما يحـــدث لكنها كانت تراقب نشاطات حلفائها البريطانيين بشك تكاد أن تخفيه بمشـــقة ، فقد كان أنطونى أيدن يلعب بأوراقه وقد ضمها إلى صدرة ، وذلك لأن المظهر الغريب لمسألة السويس أنه بينما كل شئ قد وضع على مستوى الأزمـــة ، وبيـــنما كانـــت الأفواج العسكرية البريطانية علنًا فى طريقها إلى قـــبرص والأســـطول الفرنسى على أهبة الاستعداد ، وهيئة الأركان الفرنسية كانـــت فى لندن . إلا أن كل ذلك اعتبر مجرد مناورات دبلوماسية لجزء من سياســـة القوى الكبرى . وبالرغم من كل الدعاية التى أعطيت لإبحار القوات وللاستعدادات العسكرية ، إلا أن لا أحد كان يعتقد أن هذه التصرفات لم تكن أكـــثر من مجرد إدارة للمسرح . ففى إنجلترا بأكملها لم يكن هناك سوى ست شخصـــيات علـــى علـــم بأن قرار الحرب قد أتخذ فعلاً هذه الأحوال الغريبة للأحداث أكدتها حكاية اجتماع الحكومة عندما تجرأ انطونى ناتنج Anthony Nutting وزيـــر الدولة فى وزارة الخارجية أن يثير بعض الاعتراضات على هـــذه السياسة التى توضع خطوطها . وقد صرف « أيدن » احتجاجه بحركة تعـــبر عن نفاذ صبره ، ثم قاطعة قائلاً : « إنه لمن الواضح أنك لم تخدم أبدًا فـــى حكومة حرب» ، عندئذ رد الوزير مندهشًا : « منذ متى يا سيادة رئيس الوزراء – ونحن فى حالة حرب ؟».

وفـــى نهايـــة شهر سبتمبر ثم التوصل فى الأمم المتحدة إلى حل جيد يقوم

علـــى ســـت نقـــاط لإدارة القناة . أما مصر فقد أدهشت معظم الناس عندما أظهـــرت مقدرتهـــا فـــى اســـتمرار مرور السفن عبر الممر المائى حتى أن مجموعة المرشدين الجدد كانت قد وصلت إلى المستوى الطبيعى .

وبالإضـــافة إلـــى ذلـــك . كانـــت أمريكا مـــعترضة على الاســـتعراض الأنجلو – فرنسي للقوه ، كما أن المنتفعين بالقناة أصبحوا يميلون أكثر فأكثر نحو عقد اتفاقات حول تعريفه المرور مع الإدارة المصرية الناجحة ، وبالتالى كانـــت كـــل الأدلة تؤيد الافتراض القائل أن أزمة الصيف حول قناة السويس كانت تقرب من نهايتها .

وبالرغم من أن الفكرة السائدة فى عالمنا الشمولى المعاصر هو التقليل مِن دور الفـــرد فى التاريخ على أساس أن رجل الساعة ، يتصرف ببساطة طبقًا لاتجاهـــات وضغوط الساعة فإنه شخصيًا مجهول الهوية وأنه لا حيلة له، إلا أنه فى حالة السويس فأنه لا يمكن إسقاط دور الشخصيات ، وتحزبات الرموز الأساسية من حسابنا . ما دامت القرارات وبالتالى المسئولية تقع على عاتقهم وحدهم .

ففى ١٥ أكتوبر لامست عجلات طائرة أرض مطار يقع فى جنوب فرنسا، حيـــث عقد لقاء سرى ، وفى اليوم التالى من عقد هذا اللقاء غير القانونى مع ديفـــيد بـــن جوريون David Ben Gurion أصبح قرار غزو مصر مؤكدًا بعد اجـــتماع خـــاص عقد بين أيدن وموليه . كانت الخطة الفرنسية وضعت على أساس القيام بهجوم مباشر على بور سعيد والإسكندرية فى وقت واحد ، غير أنهـــا اســـتبعدت لصالح خطة أخرى تقوم على عملية إنزال مشترك فى بور ســـعيد ، ثم تزحف القوات نحو الإسماعيلية والسويس مع الوضع فى الأذهان أن العمـــل الـــذى يقومون به بدون استشارة البرلمان أو الجمعية الوطنية أو حلفائهمـــا أو حتى الولايات المتحدة كان هذان الرجلان يزجان حكوميتهما فى مغامـــرة مـــن الصعب أن تكتب لهما فيها فرصة النجاح، حتى ولو قدر لهما احـــتلال منطقة القنال فإن الاحتفاظ بها سوف يكون من الصعب فى مواجهة عمـــــق داخلـــى معاد ، وحتى لو قدر لهما إسقاط عبد الناصر (وهو أمر

بعـــيد الاحـــتمال) فلن تقدر أى شخصية أخرى ذات ميول غربية أن تشكل الحكومة . والعنصران الوحيدان اللذين فى إمكانها الاستفادة من هذه الظروف هـــم بقايـــا الأخوان المسلمين والشيوعيين ، وفى كل الاحتمالات - كما كان يخشى دالاس فإن مصر وسائر العالم العربى سوف تهب فى نوبة من العنف ضد أى شئ يمت بصلة لبريطانيا وفرنسا والغرب بأكمله .

تلـــك هى المقامرة التى أقدما عليها. أما الأجيال القادمة فى المستقبل فإن أبسط حكمها على ذلك سيكون أن رجلاً إنجليزيا معتل الصحة ومصاب بداء العصاب استدرجه رجل فرنسى ماكر، بل ورجل يهودى أكثر مكرًا ليسير فى طريق الضلال.

الفصل الواحد والعشرون

رد الفعل الثلاثى

فـــى يـــوم الاثنين الموافق التـــاسع والعشرين من أكتوبر أصطحب جمال عـــبد الناصـــر أسرته فى نزهة إلى الريف ، فلقد كانت المناسبة هو الاحتفال بالعيد الخامس لميلاد ابنه عبد الحميد ، فبعد الضغوط التى تعرض لها خلال الأســـابيع القلـــية الماضية ، شعر أنه من حقه إن يقضى بضع ساعات قليلة بعـــيداً عـــن العمـــل ، فاليوم السابق كان يوماً حافلاً بالبرقيات العاجلة : ففى المجـــر اقتحم الروس بودابست ، وفى دمشق كانت هناك أعمال شغب ، وفى القـــدس تعرضـــت القنصـــلية الفرنسية لهجوم من قبل الجمهور الأردنى(*) الغاضب احتجاجاً على ما يحدث فى الجزائر . إما إسرائيل فقد أعلنت التعبئة العامـــة بســـبب أحداث الأردن . جميعها أنباء أزمات لكنها كما ظن ليس لها تأثير مباشر على مصر . وتحت الأشجار الكثيفة فى القناطر الخيرية تناولت الأسرة غداءها مثلما تفعل أى أسرة مصرية عادية (بالرغم من أنه لم يسمح بالطـــبع للناس الآخرين بالاقتراب من القناطر فى ذلك اليوم) ، وفى المساء عـــادت إلـــى البيت لحفل عيد الميلاد ، وبينما كان ناصر يداعب أبناءه وهو جالس على الأرض ، إذ بسكرتيره يدخل عليه مهرولاً يحمل رسالة : لقد بدا الجـــيش الإسرائيلى الهجوم » عندئذ اندفع إلى مكتبه فى الناحية الأخرى من البيـــت ، واســـتدعى عـــبد الحكيم عامر الذى أكد له أن الألوية الإسرائيلية اخترقـــت الأراضى المصرية متجهة نحو خليج العقبة ، وأن بعض الطوابير المسلحة الأخرى تتقدم فى سيناء ، كما أن هناك تقاريرًا عن إبرار جوى عند ممـــر متلاً . واعتراف المشير عامر بأنـــه وأخذ على غرة لأنـــه كان يتوقع أن يكـــون الهجـــوم علـــى الأردن . وانكب ناصر على الخريطة يدرسها ثم أعطـــى أوامـــره بأن يكون هناك صمود عند أبو عجيلة . وفى عصر اليوم الـــتالى تسلم من سفيره فى لندن رسالة مشفرة سرية للغاية ، لكنها لم تفصح

(*) يقصد الفلسطينى ، فقد كانت الصفقة الغربية وعاصمتها القدس تحت الحكم الأردنى (المترجم).

إلا عن موضوعات قليلة يصعب فهمها حتى أنه أمر أن يعاد إرسالها بالشفرة مرة أخرى . فقد أفاد السفير أن موليه وبينو قد وصلا هذا الصباح إلى لندن، وأنه والسفير الإسرائيلي قد تسلما إنذاراً أنه يتوجب على الأطراف المتحاربة أن تصـــدر أمـــراً فورياً بوقف إطلاق النار ، وأن ينسحب كل طرف عشرة أمـــيال عـــن القناة ، وذلك خلال اثنا عشرة ساعة ، وفى حاله عدم تنفيذ ذلك فـــإن القوات البريطانية والفرنسية : « سوف تتدخل مهما تطلب ذلك من قوة ضـــرورية لتأمين الإذعان » وأنهما أيضاً سوف يتحركان نحو قناة السويس لضـــمان حـــرية المرور عبر القناة . لم يكد عبد الناصر يصدق عيناه : لقد تعرضـــت مصر للغزو ، كما طلب أن تسحب قواتها من سيناء ، ومن القنال من الأرض المصرية أنه لأمر يستعصى على الفهم .

وفـــى لـــندن أيضاً - بدأ هذا الإنذار كما لو كان لغزاً حتى أن كثيراً من الـــناس ظـــنوا أنهم استمعوا خطئاً إلى الأنباء . ففى شارع الصحافة (فليت ســـتريت Fleet Street) شـــهق ستيفن باربر Stephen Barber مساعد رئيس تحريـــر صحيفة نيوز كرونكل News Chronicle وواحد من أذكى العقليـــات فـــى شـــئون الشـــرق الأوسط وهو يعيد صياغة « المانشيت » الرئيسى فى الصفحة الأولى . إذ كتب بإيجاز : « إيدن فقد عقله .. إنه متصلب .. يحملق كالمجنون .. أننا على وشك من إحداث أكبر فوضى فى التاريخ ! » .

أمـــا الحكومـــة الإســـرائيلية الـــتى لم تكن قواتها قد اقتربت بعد من قناة الســـويس ، فقـــد أعلنت على الفور قبولها الإنذار . أما عبد الناصر وهو فى قمـــة الغضـــب - فقـــد استدعى سفيرى بريطانيا وفرنسا وأخبرهما : « إن إنذاركـــم مرفوض على الإطلاق. إن مصر ستدافع عن كرامتها » . لقد كان الإنـــذار صـــدمة مـــروعة ولكنه كما اعترف فيما بعد - لم يخطر بباله أن البريطانييـــن والفرنسيين سوف يهاجمون مصر إلى أن بدأت القنابل تتســـاقط بـــالفعل ، فلقد كان متأكداً أن ما يحدث ليس إلا فصلاً من عملية خداع ، فقد كـــان يعلم أنه باستثناء وجود قوات للمظلات فى ممر متلا : فليس هناك أثر للإسرائيليين على بعد ٢٠٠ كيلو متر من القناة .

انتهـــت مهلة الإنذار فى فجر يوم ٣١ أكتوبر ولم يحدث شـــئ ، لكن فى

السابعة والنصف من مساء ذلك اليوم ، بدأ تساقط القنابل ، وعندها فقط أدرك ناصــر أن بريطانيا وفرنسا تنويان فعلاً الحرب ، وعندها فقط أرسل أوامره للجـيش بالانسحاب من سيناء ، وأن يتركز فى جبهة واحدة بين الإسماعيلية وبلبـيس ، وبالــرغم مــن التحام مؤخرتها فى اشتباك شرس ، قامت القوات المصــرية بالانســحاب بقــدر مــا استطاعت ، غير أنه تم اللحاق بكثيرين وضــرب حولهــم الحصــار ، واســتمروا فــى المعركة حتى اجبروا على الاستســلام ، لكن لم يكن هناك انسحاب فوضوى تجاه الدلتا ، ولم يكن هناك ملامح عامة لهزيمة منكرة كما ادعت أجهزة الدعاية الإسرائيلية كذلك لم يكن هــناك أى هــزيمة للإســرائيليين كمــا كان يصيح راديو القاهرة . لقد كان الأجراء الوحيد الذى كان فى مقدور ناصر أن يتخذه عندما تبين له أن الغزو الأنجلو الفرنسى لمنطقة القنال أصبح مؤكداً – هو أنه بدأ فى تركيز قواته فى قلــب مصــر . بالإضافة إلى ذلك بدأت الموجة الأولى من طائرات القوات الجويــة الملكــية Royal Air foce وقاذفات القنابل الفرنسية فى الهجوم عند ســاعة الصــفر ، ودمــرت الطائــرات المصرية وهي رابضة فى ممرات المطــارات فــى ألماظة وهليوبوليس اللذين يبعدان ميلاً أقل أو أكثر من بيث ناصــر الخــاص . وعندما جاءت الأنباء بأن غالبية القوات الجوية قد أبيدت عند بداية الهجوم ، اتخذ عبد الناصر قراراً صارماً فى مواجهة طلبات سلاح القــوات الجوية الغاضب ، إذ أمر بجمع ما تبقى من الطائرات القابلة للخدمة لكى تطير إلى أماكن آمنة فى صعيد مصر ، إذ لم يكن فى مقدوره الاستغناء عــنها مــن أجــل الاشــتباك فــى سيناء مع النفاثات الأقوى : من فرنسية وإســرائيلية ، خاصة إذا ما تعرضت لخطر الهجوم من جانب سلاح الطيران الملكــى أثــناء توجههم إلى هناك ، فلقد كان فى حاجة ماسة إليها فى اللحظة الهامة وهى عندما يبدأ القتال الفعلى فوق الدلتا ذاتها .

ومــنذ الـبداية أخذ على عاتقة مسئولية القيادة الشخصية للقوات المسلحة، وبالمــثل كــل الخطط الاستراتيجية والأعلام والدبلوماسية ، وكلما استمرت غــارات الســلاح الجوى الملكى ، والتى كانت بكل تأكيد من أغرب عمليات القصــف ، حــتى أن البريجادير فرجيسون Brigadier Fergusson الذى كان

مسئولاً عن « حرب الحلفاء النفسية ضد مصر » كان يذيع مقدماً ما هى المناطق التى سوف تتعرض للقصف محذراً الناس أن تبتعد عن هذه الأماكن. أما عبد الناصر فقد شن هجوماً من صنعه . ولكونه مقامراً على الدوام فقد راهن بأكبر قدر على مستقبله السياسى فى هذه اللحظة حتى أن أصدقاءه كانوا على استعداد لاستخراج حبات الكستناء (أبو فروة) من النار من أجله . فقد قامر على إحراز نصر دبلوماسى لكى يغطى على الهزيمة العسكرية المحتملة . فقد كان يعلم أن العالم الأفرو - أسيوى بأكمله وكثير من بلدان الغرب قد روعها حدوث العدوان على مصر ، بل كان يعلم أنه داخل إنجلترا ذاتها انقسم الرأى العام بشدة حول هذا التصرف ، كما كان يعلم أن فى مقدرته الاعتماد على تأييد حتى هذه اللحظة - على كل من روسيا والولايات المتحدة . ولهذا كانت تجرى من مكتبة مكالمات تليفونية لمسافات بعيدة طوال ساعات الليل والنهار لمحادثة سفرائه وكذلك رؤساء الدول حول العالم يطلب النجدة.

وهناك شئ آخر كان على دراية به لم يفهمه كل من « أيدن » ومولية وكذلك موظفو الخارجية البريطانية وموظفو كواى دورساى Quai d Orsay (مبنى وزارة الخارجية الفرنسية) ، بالرغم من أن سفارتيهما فى القاهرة ركزتا عليه مراراً وتكراراً ، والذى مفاده أنه فى حالة أزمة وطنية مثل هذه ، عندما يتعرض تراب مصر للتهديد من قبل بريطانيا وفرنسا وخاصة العدو الأكبر إسرائيل ، فأن الأناس العاديين فى مصر بالرغم من الارتباك والخوف - الذى هم فيه سوف يقفون من خلفه وفى اللحظة التى كانت فيها طائرات سلاح الجو الملكى تسقط ملايين المنشورات فوق القاهرة. تحرض الشعب على أن يهب فى ثورة ضد « الطاغية ناصر » ، كان هو بنفسه يتجه إلى الأزهر لأداء صلاة الجمعة ، ويتحدث إلى الجماهير وهو جالس القرفصاء فوق الحصر مخاطبة إياهم : « يا أخواتى ! » وأخبرهم بان كل واحد منهم جندى فى جيش التحرير قائلاً : « سوف نخوض معركة مريرة » . وفى مناسبة أخرى وفى كلمات تختلف عن كلمات قائد آخر قال : «سنحارب من قرية إلى قرية ، ومن بيت إلى بيت ، ولن نستسلم أبداً» لقد

أثـــار ثائــرة الجماهير بكل ما تحمله الكلمة من معنى ، فعندما غادر المسجد وصـــل إلـــى ســـيارته بشق لأنفس ، ولم يكن هناك شك فى ذلك ، فقد وقف الـــناس إلى جانبه بقوة بما فى ذلك أولئك الذين عبروا من قبل عن كراهيتهم لسياساته .

لقـــد كان هناك شعور خرافى يظهر من خلال المرايا لذلك الأسبوع الأول مـــن شهر نوفمبر ، ربما أشد وطأة فى إنجلترا منه فى مصر ، فلا أحد ممن كـــان فى لندن فى ذلك الوقت سوف تغيب عن ذاكرته تلك الهستيريا الغريبة الـــتى حلت بكل واحد تقريباً ، فقد انقسمت البلاد إلى جبهتين واضحتين حول هـــذه القضية ، فالصقور – كما يمكن أن نسميهم الآن – غمرتهم الفرحة بأن أجراء قوياً قد اتخذ أخيراً ، فقد كانوا يراقبون برعب متزايد بريطانيا العظمى المنتصـــرة عام ١٩٤٥ ، وهى تتخلى عن مكانتها الاستعمارية ، وتتحول إلى إنجلـــترا الصغرى ، تعيسة الحظ خلال الخمسينيات وهى تقع تحت رحمة أى أمـــة أو مستعمرة صغيرة ، فإخفاقها التام فى الميدان والانسحاب من قاعدتها الكـــبرى فى منطقة القنـــال كان كافيا بتصعيد هذا الإحســـاس بالإحباط الذى كـــانوا قد شعروا به بعد فقـــدانهم الهند. أما الآن فقد جاء الوقت المناسب – كمـــا كانوا يعتقدون – لكى يتوقف هذا التفسخ ، وأن تستعيد بريطانيا (حامية الحـــرية) زعامتها . أما الحمائم ، على الجانب الآخر – فقد اعتراهم الفزع مـــن عودة دبلوماسية البوارج «Gun Boat diplomacy» التى تعود بهم إلى أيـــام الملكـــة فكتوريا ، إذ أنهم لم يستسيغوا الفكرة القائلة بأن تشن بريطانيا (حامـــية القانون والنظام) عدوانا وحشياً مكشوفاً ضد أمة صغـــيرة من أجل خـــلاف يتوجب أن تعالجه الأمم المتحدة ، ومن ثم فأنها تقامر بإشعال النيران فى الشرق الأوسط كله ، مما قد يؤدى إلى اندلاع حرب نووية . وبالرغم من أن جمـــيع المحافظيـــن كـــانوا صقوراً ، بينما حزب العمال والأحرار كانوا حمـــائم، إلا أن هـــــذا الانقســــــام لم يكن حاسماً بأى حال من الأحوال بين الأحـــزاب . إذ أن بعض المحافظين الصـــارمين كانوا معادين للحرب حتى الـــثمالة ، فـــى حيـــن أن بعض اتحادات العمال ممن يضعون فوق رءوسهم قلنســـوات مـــن القمـــاش ، كـــانوا يصفقون لها. وفى الحانات ، وفى قاعات

الكلــيات الجامعــية ، وفـــى حجــرات التدخين فى النوادى على طول البلاد وعرضـــها جــرت مناقشـــات عاطفـــية . ومـــرة واحدة نسى الناس البرود الإنجليزى التقليدى فالأسر كانت تضرب على موائد الطعام ، والناس تتشاجر فـــى الطـــرقات بـــل أن الأنباء تناقلت (ربما بدون دقة) أن اسقفين فى حرم المجمـــع المقـــدس تبادلا اللكمات ، حتى أن الحكومة ذاتها كانت منشقة على نفســـها . فقـــد قدم انطونى ناتنج استقالته من الحكومة ومعه العديد من كبار مســـاعدى أيدن . وبـــدت « أم البرلمانات » فى مظهر شجار غير برلمانى أدان فـــيه أعضـــاؤه أيدن بعبارات قاسية تكاد تقارب فى بعض النواحى تلك التى وصفه بها راديو القاهرة .

بعـــد الهجـــوم الأولـــى ، واستئناف السلاح الطيران الملكى إلقاء قنابله ، حدثت فجوة غريبة استمرت أربعة أيام ، صدرت خلالها بلاغات رسمية من كـــل من قبرص ولندن تضع جدولاً زمنياً للزحف والتقدم البطئ لحملة هجوم تقلع تجاه الشرق من مالطة ، لكن كان من الصعب أن يفهم إن كان ذلك يعنى الإعداد لغزو أم لا .

وفى أثناء ذلك استهلك الوقت بينما كانت المعركة الدبلوماسية لتأييد العالم تـــتزايد فـــى تحركها نحو صالح مصر . ففى الثانى من نوفمبر صدر قرار أمـــريكى فـــى الجمعية العامة للأمم المتحدة يطالب إسرائيل بالانسحاب إلى وراء خط الهدنة ، ويطالب الأعضاء الآخرين بعدم وضع « مواد عكسرية » فـــى المنطقة ، وصوتت كل من بريطانيا وفرنسا ضد ذلك القرار ، لكن بعد مناقشـــات استمرت تسع ساعات، مرر القرار بأغلبية ٦٤ صوتاً ضد خمسة أصـــوات ، ولـــم يؤيـــد الموقـــف الأنجلو فرنسى سوى استراليا ونيوزيلندا (وبالطـــبع إســـرائيل) ، غير أنه فى عتبة الإنزال الفعلى على أرض مصر بعـــث روبـــرت منزيس ببرقية عاجلة إلى أيدن تحمل ما قل ودل من كانبرا يقول فيها : « لا تفعلها Don t do it».

كان هجوم الطلعات الأولية المحمولة جواً من جانب بريطانيا وفرنسا على بورســـعيد والتى بدأت أخبراً فى ٥ نوفمبر بمثابة تحدياً للأمم المتحدة وللرأى

العـــام العالمى . ولقد واجهت قوات المظلات مقاومة خفيفة لكن بتصميم على الصـــمود ، وفـــى مـــا بعـــد الظهر أحاطوا بالمدينة ، وألمح القائد العسكرى المصرى فى المنطقة عن رغبته فى مناقشة شروط الاستسلام .

وخـــلال ســـاعة قاطع السير أنطونى أيدن مناقشة ذات ضجيج فى مجلس العمـــوم لـــيقرأ نـــص برقـــية وصلت على التو من مركز قيادة العمليات فى قـــبرص هذا نصها : « إن القائد العسكرى فى بور سعيد يناقش الآن شروط الاستســـلام . لقد أمرنا بوقف إطلاق النار » . وفى الحال ساد الإحساس بأن ناصر قد استسلم وكان رد الفعل عاصفة من التصفيق وهم وقوف لأيدن .

وفى نفس اللحظة كان ناصر قد وضع سماعة التليفون بعد أن أصدر أمرًا مقتضـــباً باستمرار إطلاق النار ولو اقتضى الأمر أن تتحول بور سعيد كلها إلـــى خرائب ، أما مكالمته الثانية فقد كانت إلى « بولجانين Bulganin » فى موســـكو، والذى كان رد فعله إرسال مذكرات إلى بريطانيا وفرنسا وإسرائيل يعلـــن فـــيها أن روسيا مستعدة لاستخدام القوة : « لسحق المعتدين واستعادة السلام » .

وعـــند الغسق استؤنف القتال . وفى صباح اليوم التالى فى الساعة الرابعة والأربعيـــن دقـــيقة رست القوة الرئيسية الإنجليزية الفرنسية فى بور سعيد . ومـــع قدوم العصر كانت المدينة بكاملها قد وقعت فى أيديهم ، وكانت عربة الـــبريجادير م. أ. هــــ. بتلر Brigadier M. A. H. Butler تتجه نحو الممر الضيق الواقع بين القناة وبحيرة التمساح فى اتجاه الإسماعيلية والسويس .

وفـــى أثـــناء ذلك ، لم يعد السير أنطونى أيدن ذلك الشخص الذى توردت وجنـــتاه خجلاً من الانتصار ، والذى كان يلوح ببرقية وقف إطلاق النار فى مجلـــس العمـــوم مســـاءً اليوم الذى سبق – لم يعد مجبراً للخضوع لمثل هذا الضـــغط الدبلوماسى ، حتى أنه ظن أنه قد بلغ أقصى قامته . فبصرف النظر عن الإدانة للعدوان على مستوى العالم ، فإن المذكرة اشتملت تلميحاً عريضاً بـــأن : « ما لم توقف بريطانيا وفرنسا عدوانهما فى الحال فإن لندن وباريس

قـد تتعرضـان للقصـف مما قد يفجر أول حرب عالمية نووية » إن تلميح الكرمليـن بالصـواريخ كـان من المحتمل أن يكون أمراً مشكوكاً فيه ، لكن تناقص الاحتياطى الاسترلينى الذى بدأ فى الخامس من أكتوبر ، ووصل إلى أقصـاه فـى الخـامس من نوفمبر بدرجة تثير القلق (حتى أن مائة مليون إسترلينى كانت مطلوبة لعملية الإنقاذ فى اليوم الواحد فقط) حتى أن الخزانة أخطـرت أنـه إن لم يصل الدعم الفورى بما يقرب من ألف مليون إسترلينى مـن الولايـات المـتحدة فـأن الإسترلينى مضطر لخفض قيمته خلال أربع وعشرين ساعة .

كتـب جـيمس رستون James Reston فى مجلة النيويورك تايمز New York Times يـوم ٣١ أكتوبر يقول : « عندما سمع أيزنهاور لأول مرة عن الإنـذار ، سـرت قعقعـة فى البيت الأبيض – بلغة الثكنات – لم نسمع عن مثيلتها منذ أيام الجنرال « جرانت General Grant »(*). وفى عصر السادس من نوفمبر تحدث ابزنهاور إلى إيدن تليفونياً دون أن يتصنع فى كلماته ، إذا أبلغه بلهجة رقيب حازم: « إن لم يأمر إيدن بوقف إطلاق النار عند منتصف اللـيل فإنـه سـوف يدمر الجنية الإسترلينى » عند هذه النقطة انهار رئيس الوزراء المرهق تماماً .

ولقد رحبت القيادة العسكرية فى قبرص – وهى لا تصدق – بقرار وقف إطـلاق الـنار وبدرجة لا تقل عند البريجادير بتلر وهو يسارع متجهاً نحو الإسـماعيلية ، فـى بادى الأمر تجاهل الإشارة ولم يصدقها إلا عندما سلمه عـامل اللاسـلكى الخاص بدبابته الأمر المباشر : « من رئيس الوزراء إلى الـبريجادير بتلر. عليك بالتوقف على الفور » عندئذ أوقف التقدم أخيراً دون أن يخفى مظاهر خيبة الأمل . وعندما عاد إلى قبرص أخبر رجال الصحافة: « لـم يكـن فى مقدورى إلا أن أشعر بالإحباط أكثر من أى فرد آخر بوقف الـنار عـند منتصف الليل . لأنى أعرف أنه فى استطاعتنا أن نستولى على

(*) أحد زعماء حرب الاستقلال الأمريكية .

الإسـماعيلية فى زمن أقصاه وقت الظهيرة . ولا يمكن لأى دراسة أكاديمية أن تخفـى حقيقة أن العملية كلها كانت عملية إخفاق بشع . وأن ناصر بالرغم من أنه لم ينتصر فى أى معركة لكنه كسب الحرب . وكما توقع ستيفن باربر Stephen Barber كانـت أكـبر حالـة من الفوضى ، وحالة نادرة فى تاريخ الاسـتعمار الـبريطانى ، فخلال أسبوع واحد من التصرف الجنونى الذى لا مثـيل له ، جلبـت إنجلترا على نفسها اللوم تقريباً من جانب كل أمة من أمم العـالم ، وفقدت بذلك إلى الأبد وضعها المتميز فى العالم العربى، وأكثر من هذا وذاك فأن تكتيك العملية كلها تم بطريقة سيئة .

لقـد أصبح الآن مقبولاً على المستوى العام ، حتى فى أوساط «الصقور» أن التدخل العسكرى كان خطئاً رهيباً ، بالإضافة إلى ذلك أنه قد تم التخطيط لـه بحرص بالتناسق مع ثلاثة أمم معتدية هى : إسرائيل وفرنسا وبريطانيا . وإذا ما أغفلنا مثل هذا التعاون فأنه يصبح عندئذ أمرًا ساذجاً لا يغتفر بالرغم مـن الإنكار المشبوب بالعواطف ، ولكن غير مقنع فى ذلك الوقت من جانب كـل واحـد تقريـباً فى الهوايتهول بما فى ذلك رئيس الورزاء نفسه . كانت المشكلة هو تفسير السبب الذى خرجت فيه هذه العملية بالذات عن مسارها ، ولشـرح الإنذار السخيف الذى وجه إلى مصر ، والذى لم يكن له أى علاقة بـأى شـكل مـن الأشكال بالموقف فى ذلك الوقت الذى صدر فيه ، وكذلك المضـايقات الـتى سـببتها للقـيادة العسكرية فى قبرص التى وجدت نفسها ببسـاطة وقـد وقعت فى ورطة أثناء اللحظات الحاسمة بين صدور الإنذار والإنـزال الفعلـى فى بور سعيد ، كما أنه ليس من السهل أيضاً تفهم الحكمة من وراء الهجوم أساساً عشية الانتخابات الأمريكية بالذات .

وعـندما يماط اللثام عن وثائق حملة السويس(*) فى الوقت المناسب ، فقد يصبح فى الإمكان العثور على حقيقة ما حدث فعلاً ففى غياب ذلك فأن أكثر

(*) نشر أغلبها الأستاذ محمد حسنين هيكل فى كتابه : « ملفات السويس – حرب الثلاثين عامًا ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهر ١٩٨٦ (المترجم) .

التفســيرات الممكــنة بأنه لسبب ما انطلقت العملية كلها لعدة أيام سابقة عن الجــدول الزمنى الذى كان معدًا لها . وهذا قد يعطى معنى لأشياء غير ذات معنى .

إن أكثر الاحتمالات أن الخطة التى كانت قد رسمت من قبل ، وعلى وجه الــتجديد يــوم ١٦ أكتوبر هى أن يقوم الإسرائيليون بهجوم مفاجئ فى سيناء خلال الأسبوع الأول من شهر نوفمبر يقصد أن تتقدم قواتهم حتى تصبح بعد ثلاثــة أيــام علـــى مقــربة من القنال ، وفى الخامس من نوفمبر عشية يوم الانتخابات الأمريكية (عندما يكون ايزنهاور مجرداً من السلطة مؤقتاً) تصدر الحكومــتان البريطانــية والفرنسية وهما ترفعان أيديهما فى رعب خوفاً من حــدوث تهديــد للملاحــة فى القناة إنذارهما المشترك ، وهما يعلمان مقدماً بالنتائج . وفى الوقت الذى يكون فيه الأمريكيون أمام صناديق الاقتراع ، يبدأ ضــرب مصــر بالقــنابل ، وخلال أربع وعشرين ساعة تكون حملة الغزو البرمائــية فى طريقها قبل أن تتمكن واشنطون أو الأمم المتحدة من اتخاذ أى خطوة . عندئذ يكون قد تم احتلال منطقة القنال ، وربما تكون قوة ضاربة قد وصلت إلى مقربة من القاهرة لتضع نهاية لناصر .

ولكــن يــبدو من المحتمل أن إسرائيل ، وقد فقدت الثقة فى حلفائها ، أو كانــت تشعر بالخوف أن ايزنهاور قد يقوم بطريقة ما بإقناع بريطانيا وفرنسا فــى اللحظة الأخيرة بالعدول عن خطتهما ، انتهزت مزية الانتفاضة المفاجئة فى المجر . فمن وجه نظرها ان تلك ستاراً من الدخان هيئه لها الحظ السعيد لتشــرع فــى القتال بمفردها . ومن المحتمل جداً أن الفرنسيين كانوا قد تلقوا مــنها إخطــاراً مقدماً ، ولم يعترضوا على هذا التغيير فى الخطة ، غير أن أيــدن كــاد أن يكــون قد أخذ على غرة بكل تأكيد . فقد كان رجلاً مريضاً تســاوره الظنون. كما أن شركاءه فى المؤامرة فى باريس وتل أبيب لم يكن لديهم النية أن يسمحوا له بفرصة اختيار اللحظة الأخيرة . ولما ووجه بالأمر الواقــع Fait Accompli : اعترى الذعر أيدن فأنهار . لقد صدر الإنذار بدون أى تغيــير ممــا جعلــه فى ظل الظروف المتغيرة وثيقة غير مسئولة بدرجة كبــيرة ، ومــن بــدأت العملية وهو يتأرجح بين القبول والرفض ، غير أن

تغيير التواريخ فأجأ المخططون وقلب حساباتهم رأساً على عقب . فمنذ التحرك البطئ بطئ الفيلة للقوات العسكرية وهى تقترب من قبرص حيث بدأ أسبوع كامل من المعاناة بسبب التأخير قبل أن يبدأوا فى الرسو فى ذلك الوقت ، كانت وجهة النظر العالمية قد أكدت إنهائها بعد ست وثلاثين ساعة فيما بعد .

وبقدر ما كان يهم بريطانيا ، أصبحت السويس أشبه بهيكل عظمى موضوع فى دولاب ، فهو ما زال موضوعًا يستبعد بهزة كتفين استهجاناً ، أو على أقل تقدير يقلل من شأنه . فبعد ثلاث سنوات من الحدث أجريت الانتخابات العامة كسب فيها المحافظون دونما أن يشيروا ولو بالكاد إلى هزيمة السويس ، والتى كانت واحدة من أقل الحدود الفاصلة فى تاريخ بريطانيا الاستعمارى استساغه ، أن الشعور بالنشاط لم يبدأ فى الزوال إلا حديثاً فقد ظهر جيل جديد من الإنجليز أقل اهتماماً أو وربما كان معترضاً أساساً) بأهمية عام ١٩٥٦ ، فقد أدركوا ، وقبلوا واستنكروا وجهات النظر الأساسية ، ورؤى الرجال الذين كانوا مسؤلين عن مثل ذلك الفصل المدمر بل الأجرامى : فقد صدر المانشيت « الرئيسى فى إحدى كبريات الصحف فى ذلك الوقت يقول «رجال مجرمون ! » . على أى حال كان العالم بقدر من الغفران قد اجتاز بعض الجوانب منذ محاكمات «نورمبرج»، فقد اختفى السير أنطونى أيدن فى بطريقة متحضرة إلى عالم النسيان فى مجلس اللوردات ، وربما كان جمال عبد الناصر من بين كل الناس الذى أغلق ملف حادثة السويس بكل كرامة عندما قال : « سوف نغفر ولكن لن ننسى » .

وباعتراف الجميع كان ثمن ذلك العفو غالياً ، ففى الخامس من نوفمبر قطع ناصر علاقاته الدبلوماسية مع بريطانيا وفرنسا ، وأمر بمصادرة كل الممتلكات البريطانية والفرنسية ، وما أن توقف غزو السويس ، وزال الخطر حتى بدأ يوجه غضبه ضد أقرب الضحايا وأكثرهم ملاءمة اليهود الذين لا حول لهم ولا قوة ، والمقيمين فى مصر من البريطانيين والفرنسيين . ومنذ وقت طويل كان قد أمر بالقبض الجماعى ، والاعتقال أو الطرد لعدد كبير من الخمسين ألف يهودى فى البلاد وقام بترحيلهم وأغلبهم عاش كل

حـــياته فـــى مصـــر ولا يعرف وطنًا غيره ، ولم يسمح لهم إلا بأخذ خمسة جنـــيهات إسترلينية وحقيبة واحدة بها المتعلقات الشخصية الخاصة بكل واحد مـــنهم . ونفس المصير كان ينتظر حملة جوازات السفر البريطانية والفرنسية بما فى ذلك عدد كبير من المالطيين والقبارصة . وقوبل الجمهور البريطانى بمـــنظر غـــير معـــتاد لمئات اللاجئين الأنجلو ساكسونين عند ميناء دوفر Dover ومطـــار هيـــثرو Heathrow (وإلى أن خففت اللوائح كانوا يجبرون علـــى دفع الجمارك عند الخروج على القليل من المتاع الذى استطاعوا حمله معهم !) .

كـــان الطـــرق علـــى الباب يحدث دائماً عند منتصف الليل ، وفى حالات كثـــيرة كـــان يطلـــب من المرحلين التوقيع على إعلان رسمى باللغة العربية يؤكـــدون فـــيه أنهـــم يغادرون البلاد من تلقاء أنفسهم متخلين عن مطالبتهم بممـــتلكاتهم . وكـــان ذلـــك يعـــرف « بالتمصـــير Egyptianization » ، إذ وضـــع ناصـــر بنفســـه حصـــرًا لقوائم المؤسسات التجارية والممتلكات التى يتوجب الاستيلاء عليها . فقد قال لوزير ماليته : « إن أمامنا فرصة أرسلتها الســـماء لـــنا لكى نطهر البلاد من النفوذ الأجنبى.. تأكد من أنك تقوم بعملك علـــى الوجه الأكمل » . وخلال أيام معدودات نزعت ممتلكات بريطانية تقدر بمائة مليون إسترلينى ، وكانت تشمل مستشفيات ومدارس ، بل وحتى شركة شل ذات الاعتبار فى مصر ، ومعها ما يتبعها حقول النفط الأنجلو مصرية ، كمـــا مـــنع ذوى المهن من البريطانيين والفرنسيين من ممارسة مهنهم ، كما حظـــر علـــى الشـــركات البريطانـــية والفرنسيين رفع القضايا أمام المحاكم المصـــرية ، حـــتى أفلام السينما والكتب والبريطانية والفرنسية حظر دخولها الـــبلاد . كما صدرت التعليمات إلى وزارة التربية والتعليم بقطع كل علاقاتها الثقافـــية مـــع إنجلـــترا وفرنسا ، كما أعيد كتابة المقررات المدرسية بحيث يســـتبعد منها بقدر الإمكان أى إشارة إلى البلدين اللذين فرضا سيادتهما على مصـــر لما يقرب من قرن ونصف قرن . لقد كان من بين الأسباب التى برر بهـــا إيدن تدخله فى السويس هو حماية الممتلكات البريطانية . فقلما صدرت مـــثل هـــذه التصـــريحات الطائشة فى مجلس العموم البريطانية ، أما الأسهم

البريطانـــية فى مصر والتى لم تكن فى خطر قبل الغزو فقد صورت بأكملها كنتـيجة له . وبصــرف الــنظر عن هذا الثمن من البؤس الإنسانى (والذى عــوض أخيراً كنتيجة للاحتجاج العنيف من جانب الجمهور عن طريق لجنة ظلت تتجادل حول نواحى قانونية فرعية مع بعض المطالبين لمدة أثنى عشرة عامــاً من حدوث الواقعة) . لقد كانت قائمة الحسابات التى كان يتوجب على دافــع الضــرائب أن يسددها مربكة : ١٠٠ مليون إسترلينى تكاليف العملية بالإضــافة إلــى ٢٥٠ ملــيون إسترلينى ثمن المخازن والمعدات التى كانت موجــودة فى قاعدة منطقة القناة والتى استسلمت فى هدوء إلى مصر (والتى كانــت ستســتولى عليها بأى حال من الأحوال) كشئ مقابل شئ Quid pro Quo نظــير الخسائر التى أحدثها عند ضرب بور سعيد بالقنابل . وفى واقع الأمــر لــم يكن الخراب الذى حل ببور سعيد كبيراً ، فلقد أسر مسئول قيادى مصــرى بعــد ذلك بعدة سنوات قائلاً : « فى الحقيقة ساعدنا ذلك كثيراً فى الــتخلص مــن المناطق العشوائية القذرة والتى كانت ستستغرق منا سنوات لإزالــتها » والذى لا شك فيه أن مصر رغم أنها خسرت الكثير فى المعارك العســكرية التى وقعت إلا أنها كسبت الحرب . فمن باب السخرية أنها رفعت بشدة ذلك الرجل عينه التى كانت تبغى تحطيمه . إن مكانة ناصر التى كانت حــتى ذلــك الوقت لا تزال غير مؤكدة بالرغم نجاحاته السابقة أصبحت الآن مدعمــة بشكل عارم فى مصر وعبر الشرق الأوسط . والأكثر من ذلك كما قــال : « صلاح الدين آخر الزمان » نفسه وهو يسترجع بفكرة بلا شك إلى أيــام الســيادة الأوروبــية مــنذ حملة نابليون : « لقد أصبح فى أمكاننا بعد الســويس أن نؤمــم كل الأسهم الأجنبية فى بلادنا ، وبذلك استعادت السويس ثروات الشعب المصرى المنهوبة».

الفصل الثانى والعشرون

قيام الجمهورية العربية المتحدة

بعـــد أن أكتســـح عن طريق موجة عبادة الفرد عبر الشرق الأوسط ، بدأ ناصـــر علـــى الفـــور فـــى تحويل نجاحه فى انتزاع السيطرة على القناة من الأجانـــب إلى رأس مال أملاً أن يصبح فرعوننا ليس على مصر فحسب ، بل علـــى كـــل العالم العربى - وهى أولى دوائر النفوذ التى كان قد حلم بها فى «فلســـفة الثورة» إذ بدأ يسرع الخطى فى مناوراته الدولية ، وتأييد الحركات الراديكالـــية التقدمـــية مـــن مـــراكش إلى بغداد ، فبالنسبة له فقد كان جوهر الصـــراع يتمـــثل فى استئصال بقايا الاحتلال والتى كانت تعنى بكل نواياها وأغراضها النفوذ الغربى والتورط معه فى أى شكل أو صيغة .

ولكن النجاح الحقيقى هو أن « الناصرية » بدأت تتكون فى أعقاب معركة السويس مسببه رد فعلى عصبى لدى هؤلاء الذين كانوا يفضلون بقاء الوضع علـــى ما عليه Status quo على أحداث التغيير الجذرى الذى روج له راديو القاهـــرة بصـــوت مرتفع . أن سعى عبد الناصر لقيادة العرب أدى إلى زيادة العـــداء مـــع الحكومـــات العربـــية الأخرى ، والتى كان أغلبها لا يزاولون محافظيـــن - وكذلك من جانب واشنطون التى بدأت تندم لو أنها لم تعارض عملية السويس بشكل حاسم .

ففـــى مطلـــع عام ١٩٥٧ أقامت الولايات المتحدة ما كان يعرف «بنظرية ايـــزنهاور» Eisenhower Doctrine ، هـــذه الـــنظرية كانـــت تدعو إلى أن الشـــيوعية الدولـــية تمثل خطرًا على الشرق الأدنى ، وكانت تعد بأنها سوف تقـــدم كل مساعدة مالية لأى حكومة تتصدى لها . وفى نفس الوقت انضمت الولايـــات المـــتحدة إلـــى جبهة الحصار الاقتصادى على مصر والذى كانت بريطانـــيا وفرنســـا قد فرضته بعد السويس فقد أراد دلاس الذى اشعل الفتيل الأول لأزمـــة الســـويس أن يضيق الخناق على ناصر أول الأمر ، وبعد أن يلحق به الأذى يصبح فى مقدرته (أى دالاس) أن يبنى جبهة مؤيدة للغرب

ومعادية للشيوعية ومعادية لناصر فى الشرق الأوسط، لكن رد الفعل لذلك أن تحول ناصر إلى قرة عين الكرملين أكثر من أى وقت مضى .

لقــد كانــت هناك تيارات متعارضة فى السياسة العربية فى تلك الفترة ، وكذلــك تغــيرات كثــيرة ، وتحول فى اتجاهات الرياح . ولكن يمكن تحديد جوهــره الصــراع . فمــن ناحية الأيديولوجية : كان الصراع بين القوميين العــرب والمحافظيــن (الرجعيين) ، ومن الناحية الفعلية كان الصراع بين روسيا والولايات المتحدة . وكان النفط هو جائزة السباق .

كانــت كــل من لبنان ، والعراق ، والأردن ، والسعودية العربية قد قبلت نظرية «إيزنهاور» ، أما سوريا التى كانت ذات اتجاه وحدوى عربى ومحايد مــثل مصر فقد عارضته ، وبدلاً من ذلك بسبب خوفها من أن تصبح ضحية لأى انقــلاب سواء من جانب اليسار أو اليمين (كان التأثير الشيوعى والنفوذ الســوفيتى قوييــن ، حيــث تــم اكتشاف انقلاب عسكرى عراقى) فقد أقدم السوريون على خطوة جريئة حتى ولو كانت يائسة ، فقد طلبوا من ناصر أن يقيم اتحادًا فوريًا وشاملاً بين سوريا ومصر .

وبالرغم من أن عبد الناصر قد أدرك خطورة مثل هذا الزواج ، لكن كان من الصعب عليه أن يقاوم إغراء فرحته بأن تمتد حدوده شرقًا حتى العراق وقــد تكــون فرصة لا تتكرر ، ومن ثم ففي الساعة الخامسة بعد ظهر اليوم الأول مــن فبراير عام ١٩٥٨ وقف جمال عبد الناصر ، وشكرى القوتلى ، جنــبًا إلى جنب فى شرفة قصر عابدين فى القاهرة وأعلنا أن مصر وسوريا منذ تلك اللحظة سوف يكونان « دولة واحدة ، وجيش واحد ، وحزب واحد» هــذه الظاهــرة الغريــبة هــى التى عرفت بالجمهورية العربية المتحدة التى خرجت إلى الوجود .

وفــى مطلع عام ١٩٥٩ كان قد تم التوصل إلى اتفاق مالى ليحل العلاقات بيــن لندن والقاهرة بما يرضى المقيمين السابقين من الإنجليز و الذين طردوا مــنذ أحــداث السويس أن يعودوا إلى بيوتهم ، غير أنهم فوجئوا من الناحية

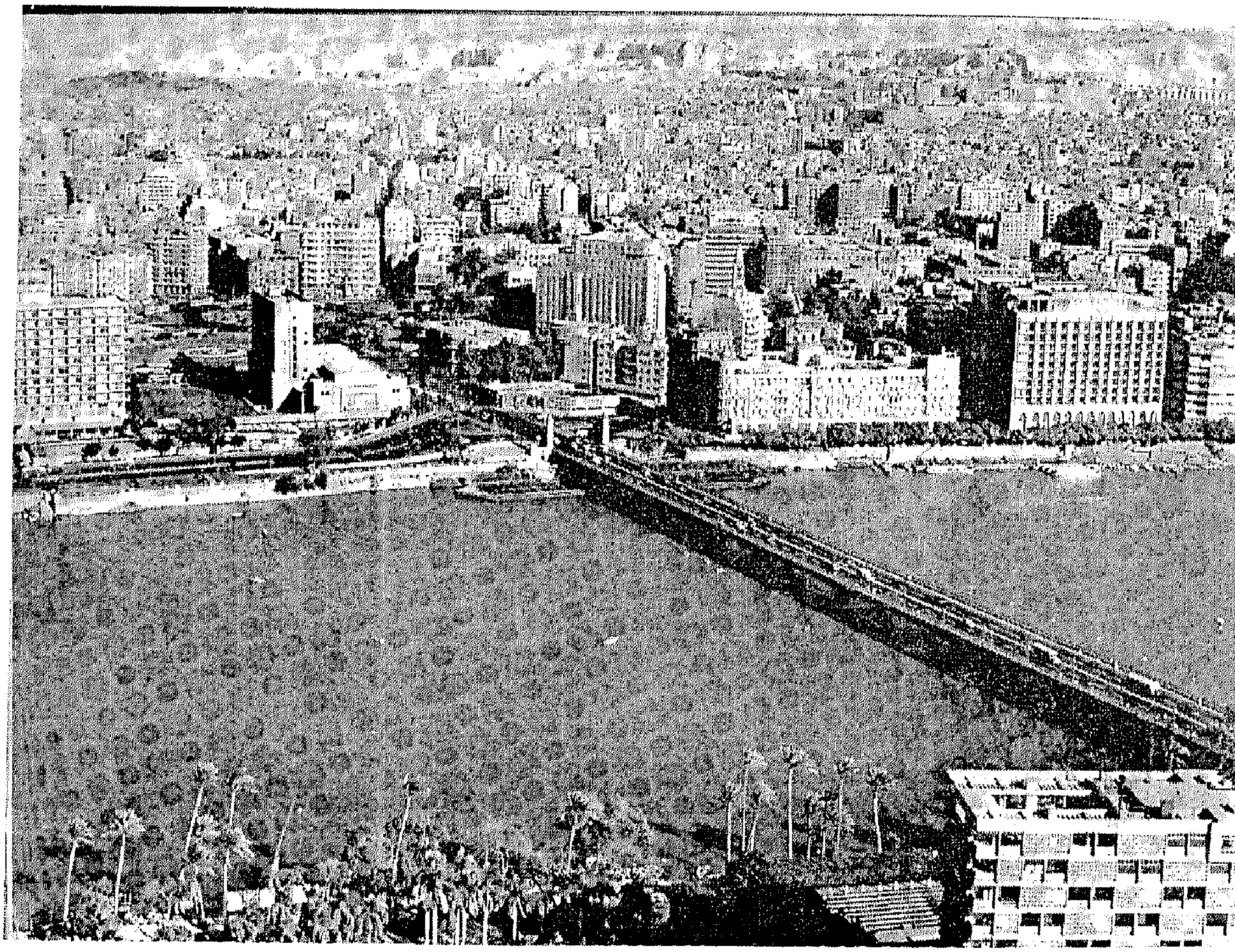
الرسـمية أنهـم لـن يعودوا إلى مصر أبدأ لأن « مصر» لم تعد قائمة، لقد أصبحت الأقليم « الجنوبى للجمهورية العربية المتحدة».

لقـد كان هذا الاسم - غير البراق إلى حدمًا - رمزًا للتغيرات التى حدثت خـلال غياب استمر تسع وعشرون عامًا . حتى ولو بدت فى الظاهر أشياء مرضـية بـنفس القدر ، فبالرغم من أن كل شئ كان قد تغير تماماً ، إلا أن دفـئ الاسـتقبال المصرى القديم ظل كما هو ، فكثير من الإنجليز الذين قد يعـانقون بعضهم بعضًا ببرود خلال حفلات الاستقبال ، غلبهم رقة الترحيب بعودتهم ، فمعارفهم السطحيون كانوا يعانقونهم فى الشوارع ، وخدم النوادى كـانوا يصـافحونهم ، وكان الدوبى Dhobis (*) والفراشين وسائقى التاكسى وكل صغار الناس الذين عرفوهم كانوا مسرورين من تلقاء أنفسهم أن يروهم مـرة أخـرى ، فسحر الحياة الشرقية البسيطة لم يتغير : فضوضاء المقاهى علـى رصـيف الشـوارع ، وبائعو الليمون فى الطرقات ، ومحلات الفول والطعمـية ، ومحـترفو لعـبة التـنس وهـم يقـرعون الكرة فى النادى ، والمشـروبات الكثيرة الباردة فى دور السينما الصيفية ، والحوانيت الصغيرة التى تنتج يدويًا الأحذية الرائعة المصنوعة من الجلد ، وكذلك القمصان - كل هـذه الأشياء وما على شاكلتها ظلت على حالها دون تغيير ، غير أن المناخ العام أصبح يختلف تمامًا ، فلم يكن هو التأثير المرئى الجديد للقاهرة الذى قد تغـير بكل المعانى على مدى الأفق والتى انعكست صورتها على صفحة مياه النـيل ، ولا برج التلفزيون الجديد(**) الذى ارتفع مثل الصاروخ فى أرض الجزيرة هى التى أكدت رغبة مصر المتناسقة لأن تقفز إلى الإمام إلى عصر جديد ، بل كان ذلك دليلاً على أن هذه القفزة قد حدثت فعلاً .

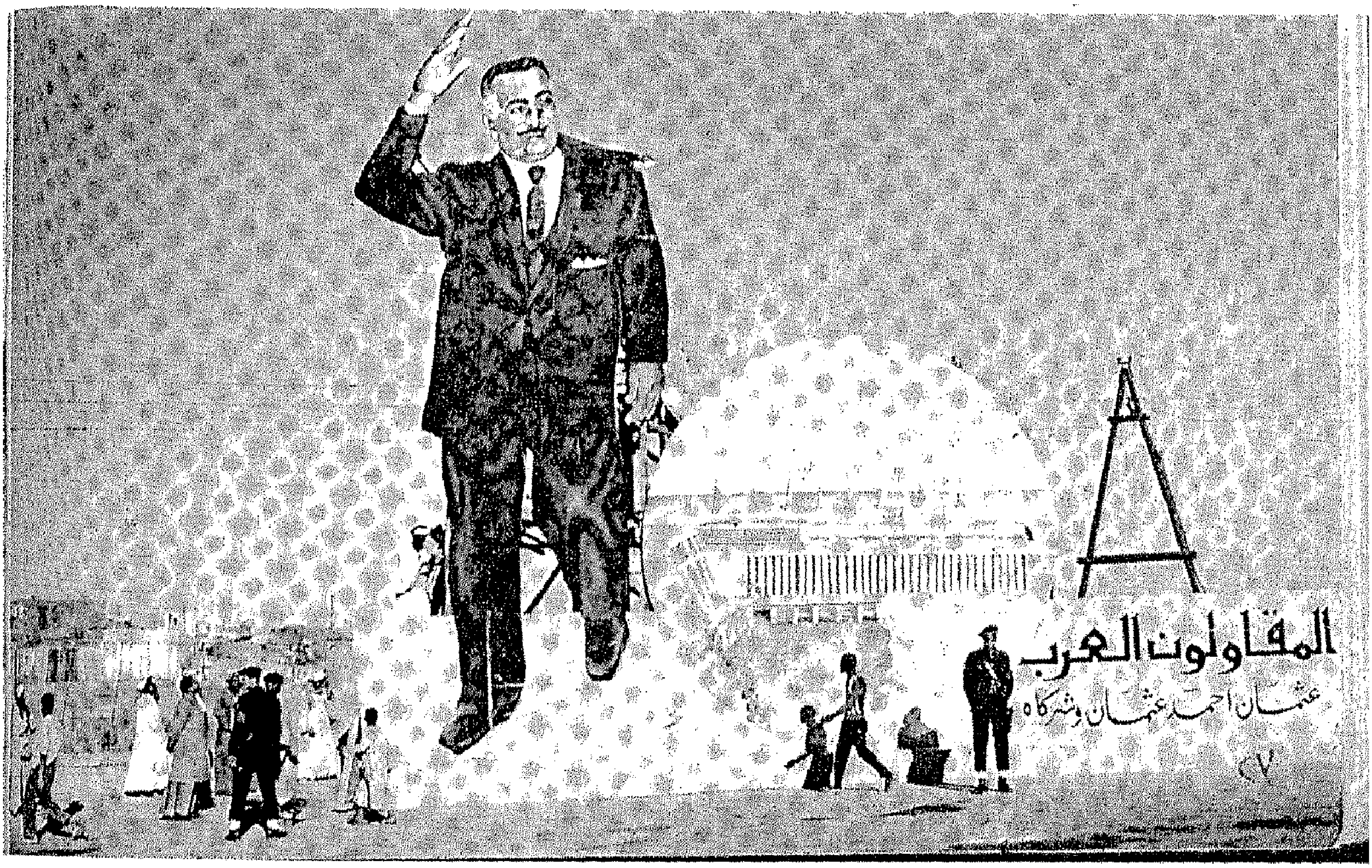
لـم تعد القاهرة الأوروبية تلك القرية المتأنقة المميزة التى تقف أنيقة على مسـافة ليسـت ببعيدة من العاصمة الكبرى التى تموج بالبشر ، فقد أصبحت

(*) هكذا كتبها ولست أدرى ماذا يقصد بالدوبى !

(**) برج الجزيرة لم يكن مخصصاً للتلفزيون (المراجع).



بدأ تحديث مصـــر فى عهد جمال عبد الناصر. والصورة
تظهـــر العمائر الحديثة على شـــاطئ النيل ومن الخلف
يظهر تل المقطم وقلعة محمد على.



ناصر هبة السماء للعالم: هكذا رفع عثمان أحمد عثمان هذا الشعار ولاءً وتحية للرئيس. وهذا يبين وجه النفاق ـ فقد ألف عثمان أحمد عثمان كتاباً بعد وفاة ناصر هاجمه فيه بشدة ويقول عليه الكثير من الأقاويل التى لم تثبت حتى الآن صحتها.

الآن مــن ذكريات الماضى تتمسك بأهدابه من خلال مبانيها المعتادة، لقد حل محــل المنشــئات الأرستقراطية الضخمة ذات الأتساع الرحب ، والتى أقامها ثلاثة أجيال: رجال الإدارة البريطانيون ، رجال البنوك الفرنسيون ، والتجار الإيطالــيون – حــل محلها الطابع الوطنى الذى زحف عليها من قلب المدينة العتــيقة ذات طــراز العصور الوسطى ، بكل ضوضائها وترابها والازدحام الصــاخب فــيها ، ونفــس الشئ حدث فى الإسكندرية ، حيث اختفت البشرة والمظهر الأوروبى إلى الأبد ، فقد تولى المصريون أمورهم هكذا كان الأمر ببساطة.

فمــنذ الســويس ، شــرع المصريون ينتقلون باطراد إلى البيوت الخاصة والشــقق التى صودرت من البريطانيين والفرنسيين واليهود ، وقاموا بسرعة بشــراء ممــتلكات الأجانــب الآخرين الذين شاهدوا الشعارات المكتوبة على الحوائط ، وغادروا البلاد برغبتهم . وكثير من السكان الجدد كانوا من شباب الضــباط الذيــن أصبحوا الآن طبقة « مميزة » جديدة ، ولكى يضمن ناصر ولاء الجــيش له ، فقد أوكل إليهم الإشراف على البنوك ، وشركات التأمين ، والشــركات الــتى مصــرت ، وأغلب هؤلاء الضباط أصبحوا رجال أعمال وغــرقوا فــى ثراء مفاجئ . وأصبحوا يمارسون نفس نمط الحياة تماماً مثل الأوروبيين الذين حلوا محلهم .

لقــد غيرت حرب السويس اتجاه التطور فى مصر تغييرًا جذريًا ولكن من أجلها ظل التأثير الأوروبى قائمًا فى مسلك الطبقة العسكرية المصرية ، فكما حــدث دمــرت القــنابل بور سعيد ، وأحدثت إحساسًا قويًا بالظلم ، محطمة الارتــباط التقلــيدى مــع الماضى ، وخالقه إحساسًا جديدًا بالوعى الوطنى . فعامة الناس بدأت تحس بالارتباط بالوطن لأول مرة ، وكانوا مصممين أكثر مــن أى وقــت مضى أن الأرض ومصادر الدخل فى البلاد يجب أن تكون للمصريين وحدهم .

ولقــد جــاءت المقاطعــة التى فرضتها كل من بريطانيا وفرنسا وبالتالى الولايــات على مصر بعد حرب السويس بهدف تفسخ الاقتصاد المصرى بعد

حرب السويس بنتائج عكسية منشطة ، فعندما دخلت مصر في الستينيات كان هـناك شـك في تحقيق العظمة للبلاد ، وفي انطلاقة الآمال على أي حال . فبصـرف الـنظر عن محاولة إخضاع ناصر ليجثو على ركبتيه ، فإن هذه الوسـائل الغربية أعطت دفعة قوية نحو توجيه البلاد نحو التصنيع وتحريرها مـن الـروابط المالية الأجنبية . ففي مواجهة الحصار الاقتصادي من جانب الشـركاء التجاريين التقليديين ، اتجهت الجمهورية العربية المتحدة إلى ألمانيا الغربـية وإلى الكتلة الشرقية لكي تبيع إنتاجها من القطن ولكي تساعدها في وضع برنامج متعجل من أجل خلق صناعات جديدة .

فبيـنما قطعـت الـروابط الـتجارية التقليدية أوصالها ، وبالرغم من أن الجمهورية العربية المتحدة اتبعت المنهج الشمولي إلا أنها ظلت بعيدة من أن تصبح دولة اشتراكية . ففي عام ١٩٥٩ ساهم القطاع الخاص بنحو ثمانية في المائـة مـن الـناتج القومي ، كما أن الدولة أعطت توجيهاتها لتشجيع رجال الأعمـال نحـو المجـال الصناعي ، كما أن فكرة تحويل نشاطهم العام نحو الصـناعة بـدا جذابًـا لكثير من التجار الذين كانوا قد عانوا من القيود التي فرضـت علـى الاستيراد ، وكانوا لا يزالون يتذكرون الأيام الخوالي عندما كـانوا يجـنون الأرباح الكبيرة من مصانعهم المحلية خلال الحرب العالمية ١٩٣٩ - ١٩٤٥ ، وبيـنما كـان العقد السابق يتسم بالجري وراء الحصول علـى الامتـيازات والوكالات التجارية ، أصبح الاندفاع الآن نحو الحصول على تراخيص الصناعة. فكل واحد يتصور نفسه أنه رجل أعمال أصبح الآن منكـبًا على دراسة مشروع أو أكثر ليضع أي شئ بدءًا من معجون الأسنان إلـى الجـرارات الزراعـية ، فقد كان هناك مناخ من التنافس المحموم على الـريادة مـن جانـب الشركات الخاصة في المشروعات الجديدة التي فتحت أبوابهـا حديـثًا للدخول في الخطة الخمسية ، فقد وضعت السلطة الحكومية تخطيطها الأساسي في خدمة هذه الثورة الصناعية .

والذي لا شك فيه فإن بعض هذه المشروعات كان جادًا ، غير أن بعضها كـان أشـبه بالكتابة بالدخان ، إذ أنها فشلت لأنها لم تأخذ في حسابها الغياب شـبه الكـامل للعقلية التجارية القادرة على التعامل مع تعقيدات المشروعات



كان من أهم أعمال جمال عبدالناصر التعليمية جعل التعليم العالى بالمجان وارسال البعثات إلى أوروبا وأخيراً تطوير جامعة الأزهر لتدرس العلوم والطب والهندسة إلى جانب العلوم الشرعية والفقهية والصورة تبين طالباً يستذكر دروسة فى صحن الجامع أو جامع الأزهر

الحديثة ، ودفع المشروعات الطموحة قدمًا إلى الأمام على مدى وقت قصير، فــبعض العقليات الماهرة من رجال الأعمال كانت تمارس عملها من القاهرة أو الإســكندرية، لكن اغلب هؤلاء كانوا من اليونانيين أو الأرمن أو اليهود ، وبالرغم من أنهم كانوا يحملون جوازات سفر مصرية ، فإن ذلك كان بغرض الاســتفادة مــن التسهيلات الممنوحة وليس لخدمة الهدف الأصلى ، فمعظم هــؤلاء الناس شاهدوا ما كان يكتب على الجدران عام ١٩٥٢ . وقرب نهاية الخمســينات غادروا البلاد فى هدوء ليحققوا ثروات جديدة لأنفسهم فى جنيف ومــيلانو وسان باولو . أما المصريون الذين قفزوا لكى يحلو محلهم فلم يكن لديهــم لا المعرفة ولا الميل . وحتى على أعلى مستويات الحكومة كان هناك صــعوبة لدرجــة مدهشة للتمييز بين ما هو محتمل وقابل للتطبيق ، وما هو مجرد وهمْ وخداع للنفس .

وهــناك مــثال نموذجــى لهذا المناخ فى تلك الفترة المتهورة وهو مصنع ســيارات رمسيس ، فقد كانت الجرارات والسيارات تجمع منذ بضع سنوات ســابقة مــن أجــزاء مفككة (C. K. D.) . غير أن الفضل يرجع فى اتخاذ الخطــوة الأولــى إلــى مشــروع بريطانى من أجل التصنيع الفعلى لسيارة مصــرية، وكانت تلك الخطوة تعود إلى مرحلة ما قبل السويس ، فقد ظهرت ســيارة الســباق من طراز فينكس ٢ أس . آر ٦ (Phoemix 2 SR. 6) فى ســباق « لــو مــان آند رايمز Le Man & Rheims » عام ١٩٥٦م ، وعهد مشــروع تطوير السيارة فينكس (التى سميت على اسم الطائر الخرافى الذى ينفــث الــنار فــى الأساطير المصرية القديمة) إلى شركة معروفة جدًا من شــركات المدلانــد Midland وهــى شــركة «مــيدوز أوف فولفر هامبتون Meadows of Wolverhampton الــتى أنتجت مجموعة من النماذج المصغرة من السيارات التى يمكن إنتاجها فى أى مكان فى العالم . وبعد توقيع الاتفاق المــالى بين بريطانيا ومصر ، أرسل نموذجان من هذه السيارة الصغيرة إلى المكــان الأصــلى الــذى استلهمت منه فكرتها . وبعد ساعات من وصولهما شــرعت مجموعــة من رجال الأعمال المصريين فى التفاوض حول خطوط إنــتاجها ، وكســبوا إلى جانبهم مساندة عبد الحكيم عامر القائد العام للقوات

المســلحة للجمهورية العربية المتحدة الذى وعدهم أن يتحدث إلى ناصر حول هــذه الفكــرة . وفـــى عصـــر اليوم التالى تلقوا دعوة لعرض السيارة على الرئيس.

وبعــد أن قــاموا على عجل بنزع لوحات الأسماء الإنجليزية . قادوا هذه الــنماذج الأولية لتلك السيارة إلى بيت ناصر الخاص فى منشية البكرى حيث وجــدوه يمارس لعبة التنس مع عامره وبوجوه جادة تمامًا قالوا له أنهم كانوا يعكفــون لعــده سنوات لإنتاج سيارة مصرية لكل الشعب ، وأنهم لو حصلوا علـــى تأييد الحكومة فأن فى إمكانهم إقامة مصنع للإنتاجها خلال ثلاثة شهور فى التاريخ الذى يناسب الاحتفال بيوم الثورة فى ٢٣ يوليو .

وبـــنفس الملامـــح الجــادة الصـــريحة ، قضى ناصر ساعة وهو يجرب السيارات ويتفحصها من كل زواية ، وفى إحدى مراحل الفحص دخل بجسمه تحـــتها ، ثم أخرج رأسه فى وضع الرئيس ليبدى ملاحظة وقد ارتسمت على وجهـــه ابتســـامة عريضـــة قائلاً : « هل تعرفون أننى كنت ذات مرة معلما للهندســـة فى الكلية الحربية؟ » وأخيرًا بعد أن ربت بلطف على جسم السيارة الصـــغيرة الذى كان من تصميم ميشيلوتى Michelotti من مادة الفيبرجلاس Fibrglass أعطـــى موافقـــته علـــى المشروع بشرط إجراء بعض التغييرات المحـــددة ، ثـــم ألتفـــت إلى حكيم عامر قائلاً : « قل لعزيز صدقى (وزير الصـــناعة) أن يدفـــع هـــذا المشروع قدمًا إلى الأمام . وتأكد من أنه يعطيه الأولويـــة فى اهتماماته » .ثم أضاف بلهجة ذات مغزى : « لقد حصلنا على كثير من الوعود . وكانت النتائج قليلة من جانب القطاع العام .. فدعونا نرى ماذا يقدر القطاع الخاص على فعله » .

وبعـــد أن صـــافح المتبنيـــن للمشروع قبل أن يستدير عائداً أضاف وقد ارتســـمت على وجهة معالم غمزة عين : « إن ذلك سوف يكون أول صفقة تعقدها مع بريطانيا منذ الاتفاق .. دعونا نرى ماذا سنحصل عليه من التعاون مع الإنجليز ».

وعـــندما عـــاد الشركاء مبتهجين إلى مكاتبهم ، كان فى انتظارهم رسالة

عاجلـــة تقـــول : « أن الرئـــيس يقترح أن اسم رمسيس سوف يكون مناسبًا للسيارة » .

وســـرعان مـــا أزيحـــت الإجراءات البيروقراطية جانبًا ، وثم شحن قطع التجميع لخمس وعشرين سيارة من إنجلترا على وجه السرعة ، ووصلت إلى الإســـكندرية بعـــد أن اســـتغرقت أسبوعًا تقريبًا ، وجمعت السيارات وطليت بـــالألوان الـــتى تلفـــت النظر (واحدة منها حملت الألوان الأحمر والأبيض والأســـود لون علم الجمهورية العربية المتحدة) ، ثم عرضت على الجمهور فـــى مـــيدان الـــتحرير بالقاهرة أثناء الاحتفالات ليوم ٢٣ يوليو ، واستقبلتها الصحافة والتليفزيون كرمز للتقدم الصناعى فى الجمهورية العربية المتحدة : « ورفع شعار يقول : سيارة الشعب العربى صنعتها الأيدى العربية من أجل الشـــعب العربى ! » . وفى إحدى أفلام الكرتون التى لقيت إقبالاً كبيرًا ظهر رجـــال السياســـة الغربيون وقد أصابهم الإحباط وقد جلسوا فوق الجمال وهم يـــرمقون سيارة رمسيس وبداخلها ناصر وكتب تحتها تعليق يقول : « كانوا يظنون أننا لا نملك غير الإبل بينما نحن نصنع سيارتنا بأيدينا » .

وعلـــى طـــول الطـــريق الصـــحرواى ، وعلى مسافة ليست ببعيدة عن الأهـــرامات، حددت مائة فدان من أجل مصنع رمسيس ، وسرعان ما برزت مـــبان ضـــخمة للمصانع من وسط الرمال فى المنطقة التى بنى فيها فراعنة الأســـرة الخامســـة مقابرهم منذ خمسة آلاف عام مضت ، كما منحت سيارة رمســـيس حق الاحتكار بالنسبة للسيارات الصغيرة وهذا كان يعنى أن يحظر استيراد سيارات منافسة صغيرة أو تصنع داخل الجمهورية العربية المتحدة .

وســـافر وفـــد من القاهرة إلى إنجلترا للتعاقد عى أجزاء أول عشرة آلاف ســـيارة، وللتفاوض على ضمانات الشروط المالية ، وقد قوبل الوفد بترحاب مهذب، لكنهم سرعان ما تبين لهم أن الحكومة البريطانية ليست متحمسة على الإطـــلاق لفكـــرة قيام أى تعاون يشجع على ازدهار الصناعة فى الجمهورية العربـــية المـــتحدة مـــا دامـــت القاهرة تتباطئ فى رد الممتلكات البريطانية المصـــادرة ، وتـــرك القـــائم بالأعمال البريطانى كولن كرو Colin Crowe

وبطانـــته وقد حفيت أقدامهم فى مكاتب الوزارات دون جدوى . ولقد مورس الضـــغط على المصنعين التعساء فى الميدلاند بشدة والذين كان من الطبيعي أن يسرهم ضمان هذه الصفقة الهامة ، كما وضح رئيس غرفة التجارة بلطف بأنـــه لـــن يصل إلى المصنع القريب من الأهرامات أى قطع تجميع من أجل ســيارة كــل العرب حيث أن ٩٩% منها يصنع فى إنجلترا ، ومن ثم سافر الوفــد مخيــب الآمـــال على طائرة أقلعت بعد ظهر ذلك اليوم من لندن إلى شـــتوتجارت Stuttgart حيـــث استقبلوا بتعاطف شديد من الألمان ، ولم تمر أســـابيع قلـــيلة حـــتى كانت أول شحنة من المكونات لجزء كبير معدل « من ســيارة الشــعب العــربى » قــد خرجت من مصانع.N.S.U فى نيكارسولم Neckarsulm قاصـــدة القاهرة. ولمدة اثنا عشرة عامًا أو أكثر استمر الالتزام بإرســـال قطـــع المكونات بنفس الطريقة إلى المصنع القريب من الأهرامات والـــذى كـــان قد شمله التأميم . وكان هذا المصنع يقوم بتصنيع قطع الأثاث خـــلال فـــترات الـــنقص الشديد فى العملة الصعبة من أن لآخر والتى كانت تتسبب فى وقف إمداد قطع المكونات لعربات رمسيس والتى أصبح أكثر من خمسها يصنع فعلاً فى الجمهورية العربية المتحدة .

إن قضـــية السيارة رمسيس تصور التشكك فى وجهة نظر كل من الشرق والغـــرب ، بينما تؤكد استمرار العداء الذى أفسد العلاقة بين لندن والقاهرة ، وكمـــا حدث فقد فاز الألمان الغربيون بأغلب هذه الجائزة وبالذات إلى جانب الكثـــير من المشروعات الصناعية فى الجمهورية العربية المتحدة ، وقد شمل ذلـــك فـــيما بعـــد إنتاج بعض المواد العسكرية بل وحتى المحاولات الأولى لصناعة الصواريخ .

لقـــد كانـــت مزايا التعاون الصناعى مع الجمهورية العربية المتحدة تلقى الاهـــتمام المركـــز . وكـــان الخط الذى اتبع هو تكرار لما ورد فى فكر عبد الناصـــر حول « دوائر النفوذ » كما عبر عنها وزير الصناعة بصراحة ذات مرة بقوله : « إننا من الناحية الاستراتيجية فى موقع غاية فى الأهمية .. إننا مـــن ناحية الإمكانيات قادة العالم العربى ، وبالمثل نحن البوابة إلى أفريقيا ، إنـــنا فـــى حاجة إلى مساعدتكم لاستمرار عملية التصنيع وفى المقابل سوف

تكون نقطة الانطلاق لكم لكى تصلوا إلى الأسواق الحيوية فى الشرق الأوسط وأفريقيا . أن لدينا أقوى محطة إذاعة فى العالم ، إذ تذيع بثمان وسبعين لغة سوف نجندها لكى تشجع إنتاجنا المشترك . إن لدينا أيضًا اتفاقات سياسية وتبادلية مع عدد من البلدان التى لا تستطيعون التعامل معها بسبب النقص فى عملاتهم الصعبة وسياساتهم الاستيرادية ، ولكن عن طريق تصنيع منتجاتكم فى مصانع الجمهورية العربية المتحدة ، مستخدمين الأيدى العاملة الرخيصة التى لدينا ، فسيكون من الممكن اختراق هذه الأسواق » .

لقد كانت الصناعة الألمانية الغربية سريعة لتفهم قوة هذه الحجة ، وفيما بعد أصبح هذا المبدأ عندما طبق بدلاً من ذلك فى مجال التسلل السياسى ، واحدًا من أكبر الأسباب الرئيسية للتورط الروسى فى الجمهورية العربية المتحدة .

غير أنه حتى أيام غروب عام ١٩٦٠ ، كانت الجمهورية العربية المتحدة لا تزال متوجهة نحو الغرب ، بصرف النظر عن المعدات العسكرية الروسية ، والوعد الخاص بالسد العالى ، لم يكن هناك سوى مكتبات روسية قليلة ، ودارًا واحدة للعرض تعرض أفلامًا روسية ، وكانت المساهمات الروسية فى مجالات الأحداث الرياضية هى المظهر الوحيد الملموس للتسلل الروسى ، ولو أن الجمهورية العربية المتحدة كانت تتجه شرقًا ، إلا أن ذلك كان محاولة للتغيير . فمن الناحية الجغرافية وطبقًا لمجالها المحايد ، كانت لا تزال يسار الوسط ، ففى مطلع الستينات كان من بين الزوار الجدد الذين ظهروا فى القاهرة ، أغلبية كبيرة من الألمان .

فى اليوم الأخير من شهر سبتمبر هام ١٩٦١ أقام أحد أفراد أسرة البدراوى عاشور حفل استقبال بمناسبة زواج ابنته . وكانت أسرة البدراوى– تمامًا مثل الضباط الأحرار أنفسهم – تنبع من أصول فلاحية ، غير أن الحفل كان مثالاً للانغماس فى الإسراف والتبذير بما يناسب الأعيان الإقطاعيين فى المنصورة ، فقد غطى ملعب التنس فى فيلا الباشا السابق فى حى الدقى بالموائد من أجل إقامة بوفيه كبير . كانت أكوام عالية من صناديق زجاجات

الشمبانيا الفرنسية على أحد جوانبه . بالرغم من أن المظهر العام كان أقل صخبًا من المناسبات المشابهة فى الماضى . وقرب نهاية المساء شوهد بعض الضيوف المرحين وهم يرتدون ثياب العشاء الرسمية ، ومن بين حين وآخر كانوا يتقارعون الكؤس ولكن ليس فى نخب العروس . وقد تظاهر آل البداروى أنهم لا يلاحظون ذلك ، بالبرغم من المحتمل أنهم مدركين صالح فى نخب من يتقارعون الكؤوس . فمنذ يومين ، قامت مجموعة من شباب الضباط السوريين فى دمشق بانقلاب ، وأعلنت سوريا انسحابها من الجمهورية العربية المتحدة ، فقد ثبت للسوريين أن « الناصرية» عسيرة الهضم بالنسبة لهم ، وأنهم كرهوا أن يعاملوا كشركاء صغار فى الوحدة ، كما أنهم عافوا نظام الحزب الواحد الذى فرض عليهم ، والأهم من ذلك أن المسئولين المصريين الذين كانوا باضطراد يتولون المناصب فى بلدهم بدوا فى نظرهم متعجرفين ومتغطرسين ومعطلين .

ومنذ البداية تدهورت الوحدة بطريقة سيئة ، فقد أعترض الجيش السورى على بقائه تحت القيادة المصرية ، أما المستخدمين المدنيين فقد ساءهم أن يروا أغلب السلطة التنفيذية والتشريعية وهى تتحول نحو القاهرة ، كما أن التجّار السوريين من رجال الأعمال لم يرتاحوا للتحكمات التى فرضت عليهم، صحيح أن جماهير الشعب كانت تبجل ناصر ، غير أن الطبقة الوسطى كانت قد ضاقت ذرعًا من الوحدة مع مصر .

كان رد الفعلى الغريزى أن يرسل ناصر بقواته ، بل أنه أعلن فعلاً حالة الطوارئ فى سلاح المظلات ، غير أنه أعاد التفكير عندما تبين له أن ذلك لن يؤدى إلا لحرب أهلية ، فتخلى عن الفكرة ، وربما هو أيضًا كان غير مرتاح للموضوع كله. فقد أعلن للمصريين من خلال خطبة أذيعت بالتلفزيون: « طوال ثلاث سنوات ونصف السنة لم يكن أمامنا شئ سوى المشاكل فى سوريا .. تقريبًا ثلاثة أرباع وقتى قضيته فى محاولة حل المشاكل السورية » . غير أنه لم يخفى حقيقة أنها كانت ضربة مؤلمة . فأعداؤه فى العالم العربى لم يخفوا سرورهم ، وفى مصر أيضًا شعر عدد كبير من الناس بالفرحة أيضًا ، وتمنوا أن يؤدى ذلك إلى سقوطه .

ولمـــا ناقش بعد ذلك بوقت طويل تلك النكسة مع تيتو ، ألقى ناصر (الذى كـــان فى ذلك الوقت يطور الشعور برسالته العقائدية) اللوم على نفسه ، لأنه قلـــل مـــن شأن العناصر الرجعية فى سوريا ، وعبر عن شكواه بأن الطبقات الثرية تقف دائمًا ضده ، وشرح ذلك بقوله : « لقد ارتكبنا غلطة كبرى . فلم نكـــن مســـتعدين أبدًا للتصالح مع الاستعمار .. بينما تصالحنا مع الرجعية . والآن فـــى ســـوريا انضمت الرأسمالية والإقطاع إلى قوى الاستعمار للقضاء على مكاسب الجماهير وضرب الثورة الاشتراكية .

ويقـــال أن تيـــتو قدم له بعض النصائح الواقعية! فى يوغوسلافيا لا يوجد هـــناك مثل هذه المشاكل لذات السبب نفسه ، لأنه لم يعد هناك أناس أغنياء ، وليس هناك شئ مثل الرأسمالية والإقطاع . والحل سهل : أوقف الأغنياء من أن يكونوا أغنياء، استئصال البرجوازية ! .

كانـــت هـــذه بالضبط الخطوط التى كان ناصر يفكر فى إتباعها ، فقد كان يتشكك فى أنه أن لم يقضى عليهم على الفور فإن هناك خطر أن تتبع الطبقة الوســـطى مـــن المصـــريين نفـــس خطوات السوريين . ويدبرون ثورة من صـــنعهم، ولذا أمر على الفور باقتلاع جذور شأفتهم قبل أن يتوفر لهم الوقت للتصرف .

ففى نوفمبر ١٩٦١ وضعت ١٢٠٠ أسرة من أغنى الأسر تحت الحراسة، وهـــذا يعـــنى أن ممتلكاتهم قد صودرت منهم وكذلك مصالحهم . وفى نفس الوقـــت أممـــت كل البنوك وشركات التأمين ومؤسسات التصدير ، إلى جانب بضـــع مـــئات مـــن الشركات الصناعية التجارية . هذه المصادرة الصارمة لمصـــادر الثورة الكبرى كان تعنى أن الحكومة انتزعت بين عشية وضحاها مـــا يقـــرب مـــن ثمانيـــن فـــى المائة من المصانع والشركات التجارية أو مصرتها كما أطلق ناصر عليها .

وبعـــد ذلك بقليل ، انتزعت ملكيات الأراضى الزراعية المملوكة للأجانب والـــتى كانت تربو مساحتها على ١٥٠,٠٠٠ فدان ، كذلك صودرت الأسهم المملوكـــة لليونانيين – الجالية الأجنبية الوحيدة التى لم يلمسها أى إجراء من

قبل – والتى كانت تقدر بمبلغ ١٢٠ مليون جنيه . وقد وصف ناصر تأميمات عام ١٩٦١ بأنها: « أكبر انتصار للدفع الثورى فى المجال الاقتصادى » فقد تغـــير اقتصاد البلاد تغيرًا جوهريًا بدرجة تفوق أى وقت آخر منذ أيام محمد علـــى . لقــد ضـــربت الاشتراكية مصر بهدف الانتقام . وأصبحت على حد تعبير عالم الاقتصاد تشارلز عيسوى : دولة شمولية اشتراكية .

الفصل الثالث والعشرون

ما يسترو العالم العربى

مـــنذ الأيـــام المبكرة لتولية السلطة ، عرف دائماً بأنه « الريس » وأحياناً عرف بأعجاب أقل درجة باسم جيمى Jimmy ، أما عند الجميع فى مصر فقد كـــان يشـــار إلـــيه بضمير الغائب هو. لقد أصبح فجأة أكثر الناس كراهية ، أكثرهم أعجاباً وأكثرهم مصدراً للخوف ى الشرق الأوسط . لقد جلس وحيداً وبعيداً فى مكتبه بقبلته ذات الطابقين والتى بناها فى منشية البكرى من ثكنات العباسية وضاحية مصر الجديدة . ولم يكن أحد فى البلاد يجرؤ أن يخمن أين سيضـــرف ضـــربته التالية فيداه كانتا ممسكتان بزمام الحكومة وبدت نظرته الشبيهة بنظرة الأفعى تلم بكل شئ يحدث بالتفصيل بأنفه الأمور.

فلو أن شخصاً سحب ميلافاً يزيد على ألفا جنيه من البنك ، كان على علم به، ولو أن أحداً تقدم بطلب للحصول على تأشيرة خروج لمغادرة البلاد كان علـــيه أن يحصل على موافقته أولاً . ولو منح إذن بالتصدير كان على جمال عبد الناصر أن ينظر فيه أولاً ، فهو الذى يقرر كل الترقيات والتعينات. وكل وحـــده الـــذى يعـــرف التشعب لأجهزة المخابرات السرية الثلاث المنمفصلة والتى نتعامل مع التحسس والتجسس المضاد داخل البلاد وخارجها ولدى كل شعبة تعليمات بمراقبة الشعب الأخرى .

وعلى طول خمسة آلاف سنة عرفت أرض مصر القديمة حكاماً مستبدين مـــن كل نوع ، غير ان أسلوب « الريس » كان يختلف عن كل منم سبقوه ، ففى حياته الخاصة كان صارماً مستبداً أسته باستبداد كرمويل Cromwell(*)، إذ عاش حياته بلا مظاهر فى بيته المنعزل الذى لا يزيد فى مظهره عن بيت أى مهنى ناجح فى أوروبا أو أمريكا . لم تخط قدمان حظوة نحو أماكن اللهو البراقة فى القاهرة ، بل أن ظهر حياة الليل فى القاهرة لدرجة أن « راقصات

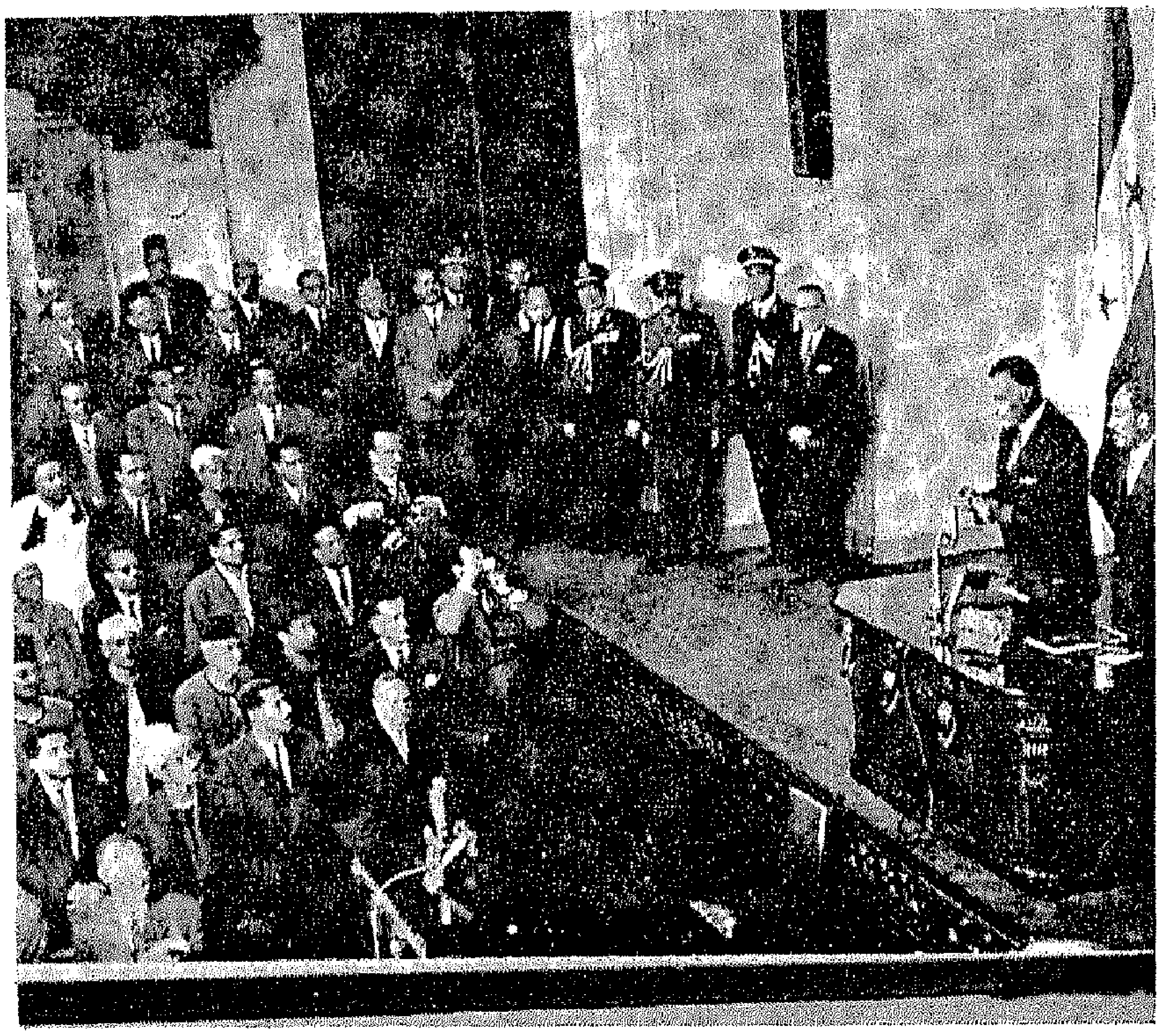
(*) دكتاتور إنجليزى .



ـمـاء عــدم الانحيــاز البارزين في العالم خلال
ـمسينيات والستينيات من القرن العشرين نهرو،
نكاروما، عبد الناصر، وتيتو



الرئيس عبد الناصر يرحب بخرو شيف (رئيس وزراء
الاتحاد الســوفيتى) فى القاهرة عام ١٩٦٤ وفى هذا
اللقاء أنعم رئيس الوزراء السوفيتى بأرفع وسام وهو
بطل الاتحاد السوفيتى



الرئيـس ناصر ونائبه المنتظر أنور الســادات يؤديان
القسم الدستورى أمام مجلس الأمة (الشعب) فى القاهرة
عام ١٩٦٩

البطـــن » كان عليهن أن يغطين أنفسهن حتى سرة البدن . ولكن بالرغم من أنه كان يصد على الظهور فى مظهر الرجل المحمل بالهوم ، ورجل الأسرة الطيـــب إلا أنـــه لم يكن بأى حال من الأحوال غير مهتم بزخارف السلطة ، فموكلبه السريع فى شوارع القاهرة الذى يتكون من الكاديلاك السوداء الكبيرة يحـــيط بهـــا مـــن الجانبيين رتل من راكبى الموتوسيكلات ويتبعها دستة من سيارات الشيفورليه السوداء ذات الصالون ، أو اسطول من طائرات الأليوش ذات اللـــون الفضـــى عـــندما كان يسافر إلى الخارج ، كانت ذات تأثير كبير للرهـــبة والأعجـــاب فـــى زمـــن الطائرات النفاثة الفارهة تماماً مثل موكب العـــربات المزينة عند أى فرعون ولم يكن أبداً مستعداً لأن يضع رباط العنق الأبـــيض أو الـــزى الخاص بحفلات العشاء عين أن حفلات العشاء التى كان يقـــيمها فـــى قصـــر القبة كانت لا تقل بذخاً إسرافاً عن أيام فاروق ، إذ كان الطهاة هم نفس الطهاة والخدم هم نفس الخدم .

أمـــا الروتيـــن الـــيومى فى حايته فقلما كان يتغير ، فهو عادة يستيقظ فى الساعة السابعة صباحاً ، ثم يقرأ صحف القاهرة الرئيسية وهو بتناول إفطاره ليطمئـــن على أن محررى الصحف يلتزمون بالتعليمات التى صدرت إليهم ، وقـــرب الســـاعة التاسعة بتجول عبر القاعة إلى مكتبه حيث يقضى الصباح توقـــع علـــى « الدوسيهات » ويقرأ تقارير وزرائه وسفرائه ويصدر الأوامر ولـــم يعقد أبداً أى اجتماع ى فترة الصباح ، وإذ حدث وتحدث إلى وزير فأن ذلك يكون دائماص عبر الهاتف .

وبعـــد تـــناول الغداء كان عادة يتناول مع أسرته كان يغفو غفوة القيلولة ، مـــن حين لآخر كان يمارس التنس مع عبد الحكيم عامر وزكريا محى الدين فـــى ملعـــبه الخاص بحديقته . وفى الساعة الخامس بعد الظهر بمبدأ نشاطه الـــيومى الحقـــيقى حيـــث يعقد سلسلة من المؤاتمرات والاجتماعات ونتسمر المقابلات إلى وقت متأخر من الليل .

فى القاهرة - خاصة فى فصل الصيف - يحبذ رجال الأعمال والمهنيون العمـــل فى المساء عندما تنقضى حرارة النهار . وقد اتبع ناصر هذه العادة ،

مكلما تأخر الوقت كلما شعر بالاسترخاء . فبعض من اجتماعاته الأكثر أهمية كانـــت تتعقد بعد منتصف الليل . وحول هذا الوقت كان تناول عشاءه : جبن أبـــيض عالى الملوحة وطماطم والبصل ومعها كوب من عصير البرتقال تقدم إلـــيه على صنية فى مكتبه . وعندما فى النهاية يذهب إلىس ريرة كان بتأبط عدد من المحلات ليقرأها لمدة ساعتين .

كانـــت المجلات هى هوايته المفضلة ، وكثير ما كانيمضى سالماً يتفحص خلالهـــا مجـــلات : التايم Time ولايف Life ، Erves نيوزويك Newsweek ولكـــبريس L Express إلى جانب مطبوعات عربية كثيرة بالإضافة إل ذلك معـــزماً بمشـــادة أفلام السينما ، وكان لديه فى منزله مجرد خاصة بها جهاز عـــرض ، كـــان اختيارة عادة أفلام الغرب الأمريكى والعرض الموسيقية ، وأحـــياناً كـــان يركب فلمين أو ثلاثة أفلام بطولها كاملاً واحد بعد الآخر من الأفـــلام الـــتى لـــم تعرض بعد ، وم أفلامه المفضلة فيلم « لورانس العرب Lawrence of Arabia » . وعـــندما علم أن رقابته منعته لأسباب سياسية ، أم بإلغـــاء هذا الطر واعطى تعليماته بأن يعرض فى جميع دور السينما بالبلاد وقال أنه دعاية جيدة للعرب .

وفـــى كـــل مدينة أو قرية ، وفى كل نافذة عرض فى الحوانيت وفى كل مكتـــب حكـــوى ، علقت صور كبيرة له تحمل ابتسامة عريضة كابتسامة من يـــنظف أسنانه بفرشاة ، غير انه نفسه كان نادر الظهورين الجمهور إلا لأداء الصـــلاة فى المسجد فى صباح أيام الجمع، وعند عقد الاجتماعات فى الاتحاد القومـــى لقـــد كـــان شخصـــاً مـــن الصـــعب الوصـــول إليه حتى لوزرائه وللدبلوماســـيين الأجانـــب ، وفى مقابلات كان يعطى الأولوية لممثلى الدول الصـــغرى المحـــايدة مفضلاً إياهم على ممثلى القوى الأوربية الذين كان يجد لذة فى إبقائهم فى حجرة الانتصار، وبالرغم من ذلك فقد كان هناك سيل دائم مـــن الـــزوار جاءوا من كل أنحاء العالم إلى بيته فى منشية البكرى ، حيث يســـيرون بين صفين من الأصمعى الكبيرة للأزهار عند المدخل – وكان من الضـــرورى أن تلتقط لهم صور وهم يصافحون ناصر أمام المدفأة الرخامية السوداء أمام لوج أسبانية غير لافتية للنظر تمثل طفلين من أطفال الفلاحين .

وعلى خلاف البروتوكول المعقد عند طلب المقابلة . فقد كان اللقاء الفعلى مع نصار يميل إلى أن تكون على سجيته ففى أحيان كثيرة خاصة فى شهور الصيف فأنه يأتي يتهاوى عبر الردهة وقد وضع فى قدمية خفين ، وقد ارتدى قميصاً مفتوحاً حول الرقبة فوق « البنطلون » بالرغم أنه اثناء كثير من المناسبات الرسمية كان يرتدى بدلة مناسبة مثل رجال الأعمال مفصلة عليه بدقة ، غير أنها لم تكن أنيقة ، ورباط عنق مقلم وقد يصحب زوارة إلى بهو الاستقبال الذى كان بأثاثه المقلد لطراز لويس السادس عشر ويرياته البللورية تبدو كصورة طبق الأصل لأى أثاث بيت مصرى فى اى ضاحية من ضواحى . وما أن يسار إلى الزوار بالجلوس حتى تقدم لهم فنجان صغير من لبن التركى المحوج « قهوة مزبوطة » .

وعادة كان الحديث يسترسل بسهولة ، فمنذ الأيام الماجنته لتظيم الضباط الأحرار كانت لديه الموهبة أن يجعل زائريه يشعرون أنه لا توجد بينه وبينهم حواجز وأن اللقاء كان « بينهم وبين ناصر » وكان يعرض وجهة نظره بصراحة وغاية فى المهارة حتى فى أكثر قرارته ذات الاحتمالين كان تبدو فى غاية العقلانية . كان يتحدث الانجليزية بطلاقة حتى ان كثير من الدبلوماسيين الأجانب ورجال الصحافة الذى كانوا يكرهون سياسته كانوا يعترفون رغم ذلك بعد مقابلته أنه قد أنحازوا إلى جانبه متأثرين بالأخلاص الواضح لناصر نفسه .

من قدراً كبيراً من الكاريزما Charisma وسحره على الجماهير كان بسبب هذا التعامل : « رجل لرجل » والتى ظهرت بدرجة مؤثرة فى التليفزيون ، حتى أن الناس الذين كرهوا كانوا - بعد شاهدته فى التلفزيون يهزون رءوسهم ، ويتمتون رغما عن أنفسهم قائلين : « إنه رجل طيب » .

والذى لا شك فيه أن كثيراً من الانجازات مت تحت إشرافه ففى خلال الستينات كان المدارس تفتح بمستوى مذهل : مدرسة كل يوم ، كما تحسنت الخدمات الطبية ، فقد ميزانية وزارة الصحة عام ١٩٦٢ أربع مرات من الميزانية التى كانت مخصصة بلغت لها عام ١٩٥٢، كما صدرت مياه

الشـــرب النظيفة إلى كل قرب فى الدلتا ومصر العليا ، وحتى الأمراض التى كانت تحدث فى شكل وباء ثم القضاء عليها تقريباً كما حدث تقدم فى محاربة البلهارســيا والملاريــا ، أمــا المسألة الصعبة الخاصة بالسيطرة على نسبة الموالــيد ، التى كانت سأله حيوية فى بلد كان السكان يتزايدون بنسبة نصف ملــيون نســمة كــل عام ، فقد ثم التعامل معها بجدية ، كما تحسن مستوى المعيشــة للعــامل فى المشروعات الصناعية وكذلك ظروف العمل، وأقيمت كمــثل مــن المــبانى للشقق الشعبية لأسكان قاطنى الأكواخ العشوائية ، كما تحســن نظــام النقل البرى ، ودخلت الكهرباء أماكن على نطاق أوسع ، كما عومــل وضــع المــرأة بشئ من التحررية فى بناء المجتمع حتى أن امرأة أصبحت وزيرة للشئون الاجتماعية .

إن أى شخص يعود إلى القاهرة بعد غياب سنوات قليلة سوف يعترف بكل أمانــة بــأن ثمة تغييرات كبرى قد حدثت . ولكن الأكثر أهمية من الملامح الســطحية والمرئــية لظاهرة للتحرر الاجتماعى – الطرابيش لم تعد توضع علــى الرأس (لأنها اعتبرت رمزاً للسيطرة التركية البالية) ، وحل القميص والبــنطلون محل الجلابية ، وغصت الشوارع والوانيت بفتيات يرتدين أزياء ذات أسلوب أوروبى ملئ بالحيويـــــة ، كل ذلك كان يغطى إحساساً سائداً وملموســاص للكرامة التى أعيدت إلى الناس . فقد أصبحوا بعد زمن طويل قادريــن أن يــرفعوا رءوسهم غالية والتى كانت تبدو لأى متعاطف نتحرك بطــريقة غريبة ، والتى كان يطلق عليها امصريون اسم الكرامة... وبالرغم مــن التشــوش مــن جانب السلطة ، فإن النظام قد نجح فى دمج المصريين رجالاً ونساءً فى مجتمع واحد ، جعلهم فخورين أن يكونوا مصريون .

وعلى الجانب الآخر ، كان هنا اجانب الأسوأ للحركة الثورية فقد أصبحت نسبة كبيرة من السكان غير منتجة ، تجلس فى الدواوين والمكاتب الحكومية، ولمــا كان جهاز البوليس السرى (المباحث) مليئاً بالفاسدين ومعتاد البلطجة الذيــن كانوا يلقون بثقلهم بطريقة لا تجلب السرور كما زيادة زيادة المركزية لــم يدى إلا لظهور البيروقراطية بدرجة تفوق الماضى . والوزراء لم يكونوا أكــثر مــن إيهام للبصم على القرارات الرئاسية ، وكان الفساد منتشراً مثلما

كـــان أيـــام فـــاروق . والمثل على ذلك مديرية التحرير الواقعة بين القاهرة والإســـكندرية والـــتى أصبحت فضيحة مكشوفة ، وكان إنتاجها إذا ما قورن بالاتـــياج العـــادى ، فإنه كان يكلف ضعف قيمة تكاليف الإنتاج فى الأرض العادية . ونفس التكاليف كانت تطبق على الحديد والصلب فى الصنع الضخم التى اقيم فى حلوان .

كانـــت حـــركة التصـــنيع تكاد بالكاد تحدث فى مشاكل البلاد الاقتصادية الهائلة . فقد كانت مصانع الحكومية غير فعالة حتى فى وجود الأيدى العاملة الرخيصـــة نسبياً ، ونتيجة لذلك فإن الديون التى جلبت لتمويل تطويرها كانت بوضوح ستتحول إلى رهن خطير للمستقبل .

ومـــنذ عـــام ١٩٥٦ كـــان عـــبد الناصر يسعى لأقامة سلطة على أساس دســـتورى ، وتكون حزب واحد وهو الاتحاد القومى ليحل محل كل لأحزاب الســـايية السابقة ، واختبر المرشحون بحرص ، وقليل منهمكانوا مستعدين أن يخرجوا عن خط الرئيس ، الذى وصف بتنفسه ذات مرة الاتحاد القومى بأنه : « مجـــرد واجهـــة تنظيمية amene organizational Facode لا تتأثر بقوى الجماهير ولابمطالبها الحقيقية » . وخلال فترة الوحدة مع سوريا إمتد الاتحاد القومـــى إلـــى إقلـــيمى الجمهوريـــة العربـــية المتحدة ، غير ان التغييرات والتنقـــيحات المستمرة جعلت هذا التنظيم فى النهاية معقداً حتى أصبح بافعل يهـــدم نفســـه بنفســـه : عندئذ شعرنا مر كأن هناك حاجة لا عادة إجياء هذا التنظـــيم وأن يعطـــى قـــدأ من المبادر للجماهير والتى كانت تتسم من فجر التاريخ باللامبالاة السياسية ، تاركة للحكومة كل شئ ، وفى نفس الوقت كان يـــريد ن يضـــمن للـــثورة مستقبلها ضد أعدائها الذين كانوا يتربصون بها ، وينتظرون سراً فرصة لضربها .

فـــبعد سنة شهور من الانفصال المهين لسوريا ، قدم المثياق القومى الذى كتـــب معظمه بنفسه ، وكان يمثل محاولة من جانب مهندس والمنفذ الرئيسى للـــثورة لتقنيـــن نظـــرياته السياسية ، وابتكار النظام الذى يحمى به نفسه من المنشقين والذى به يعطى الجماهير فرصة للالتحام بالحكومة تلك الوثيق التى

كانــت تــتألف من ٣٠,٠٠٠ كلمة كشفت أيضاً أن رئيس الجمهورية العربية المتحدة كان لا يزال يغذى بعض الأحقاد العتيقة .

فمثلاً ركز الميثاق القومى طويلاً على الطريقة التى سلبت بها انجلترا كلا مــن الهــند ومصر من شرائهما لتطور صناعتها فى لانكشير Lancashire، وأعلــن أن البلاد ذات الماضى الاستعمارى يجب أن « تجبر لتقدم إلى الأمم الــتى تطمــح جزءاً من ثرائها القومى الذى امتصوه عندم كانت ثروتها نهبا للناهبيــن » وأضــاف أن الديموقراطــية السياســية يجــب إلا تنفصل عن الديموقراطــية الاجتماعــية «وأنهــا لا تستطيع البقاء تحت سيطرة أى فئة : فالديموقراطية تعن سيطرة وسيادة الشعب كل الشعب » ، ومن ثم فأن الاتحاد القومــى يجــب أن يتحول إلى الاتحاد الاشتراكى العربى لكى يصبح السلطة الــتى تمثل الشعب والحارسة على حقوقه ومن ثم فإن الفلاحين والعمال يجب أن يكون لهم نصف المقاعد فيه « لأنهم يمثلون غالبية الشعب » .

وهناك فصل هام عالج حق النقد الذى وصف بأنه : « ضمان للحرية» ثم تــبع ذلــك عبارة تحمل معنيين : « لضمان الحاسم لحرية الصحافة يقبع فى انهــا تــؤول إلى الشعب » ، وفى عبارة حول حتمية النظام الاشتراكى ذكر الميثاق أن يوم العمل قد خفــــــض إلى سبع ساعات ، وأن العامل له الحق فى الاشتراك فى الإدارة والإرباح . وأن كل مواطن له حق التعليم والرعاية الصــحية ، والحصــول علــى عمــل يناسب قدراته ، على معاش مضمون بالإضافة إلى ذلك يجب اعتبار النساء على قدم المساواة مع الرجال «وعليهم العمل جنباً إلى جن لإنتاج المزيد من الطعام.

لقــد أعلن ناصر إلى جمهور المستمعين وهو يقوم الميثاق قائلاً : «بالطبع الــرزق علــى الله . نحن نعرف ذلك والرسل محمد قال أن علينا أن نتوكل علــى الله ، لكنه لم يخبر إتباعه أن يعتمدوا على الله ولا يفعلوا شيئاً » « إن الميــثاق القومى » و« الاتحاد الاشتراكى العربى » ومجلس الأمة كانت تمثل فــى الحقــيقة محاولــة جادة قام بها ناصر لينشر سلطته من أعلى القمة إلى أســفلها ومــن عينها إلى يسارها ، بالرغم كان من اصع أن نرى كيف تقدم

على النجاح فى دولة شمولية ، فكان كل الحديث عن حرية الصحافة لا يمكن إلا لصــحفى طائش ومتهور أن يحاول تويه أى نقد حقيقى لسياسة الحكومة ، حــتى أقــرب زمــلاء ناصر مثل زكريا محى الدين يجدون أنفسهم فى طى النســيان لــو أنهم اقترحوا سياسات تخالف سياسة « الريس ك فقد أعلن في خطــبة تالــية : « إننا نسمح بحدوث أى انشقاق يقوم بيننا – فلو أن شخصاً انشــق فعلى الاتحاد الاشتراكى أن يفصح عن ذلك ويبحث مسألة طرده » أن عملــيات التطهــير منم آن لآخر لم تشجع على أخذ المبادرة أو حرية الفكره وبسواء أدرك ذلك أم لم يدرك فإن طراز ايديولوجيه ناصر بتأييد مع صراحة الشك » .

وفــى الحقــيقة بدأ جمال عبد الناصر وهو يجلس خلف مكتبة من خشب المــاهو جــانى ذى السبعة أقدام فى بيته بمنشية البكرى وإلى جواره عشرة خطــوط تليفونــية ساخنة فى انشغال متزايد طوال ساعات الليل والنهار فى مواجهــة كــل الشئون فى الداخل والخارج . فمن ناحية كان عليه أن يعالج المشــاكل الاجتماعــية والاقتصادية الطارئة فى مصر ذاتها وفى نفس الوقت كان يسحق أى مظاهر المعارضة داخل البلاد من ناحية ، ومن ناحية أخرى كــان عليه أن حيط محاولات إعدائه على مستوى العالم ، ويفرض سيطرته علــى العــالم العربى بأكمله . ولكى يحقق طموحاته . كان عملأوة مشغولين فــى إثــارة المتاعــب فى كل مكان يقدرون عليه . وعلى الخصوص كانت عــيونه مركزة على نظم الحكم المحافظة والتى كانت بطبيعتها تقف فى وجه أى شــئ ينادى به ، مثل الانفعاليون السوريون الرجعيون كما سماهم راديو القاهــرة ، ومــثل الملــك فيصــل ملك العربية السعودية والملك حسين ملك الأردن، وكــان أكثر هؤلاء الحكام رجعية الأمام أحمد حاكم اليمن ، وبالطبع كانت هناك إسرائيل بالرغم من أن الدولة الصهيونية كان أقل فى الأولوية فى أفكاره كما كان يفترض فى هذه المرحلة.

ففــى العــراق حــدث أن أطاح انقلاب موال لناصر الأسرة المالكة وأتت بــاللواء قاســم إلى الحكم ، وفى لبنان قامت مجموعة ثورة بدفع البلاد تقريباً إلى المعسكر المصرى ، غير أن هذه المحاولة وبدت فى مهدها بفعل الرئيس

ايــزنهادر الــذى قــام بأرســال قوات المارينز Marines إلى لبنان والأردن لضـــمان سلامة هويتهم . ومنذ تلك اللحظة واجهت حملة ناصر لتوحيد العالم العــربى تحــت زعامته عدداً مذهلاً من النجاح والفشل . فقد تحول قاسم إلى مــنافس مريــر وقــف فى وجه تصاعد نفوذ القاهرة حتى أطيح به بدوره ، وتولـــى طرف آخر موال لحزب عبد الناصر تحت زعامة العقيد الركن عبد الســلام عارف . ولما أصبحت سوريا فى مصيدة بين حومتين مناضلين من القومين العرب فى كل من بغداد والقاهرة ، حدث فيها انقلاب مضاب ، غير أن حزب البعث فى هذه المرة استولى على السلطة .

وقــد اعتبرت كل من سوريا والعراق والجمهورية العربية المتحدة أنفسها دولاً تقدمــية لكرس نفسها « للوحدة والحرية والاشتراكية . وفى هذه اللحظة أصــبح فـــى الأمكان أن تتكون دولة ثلاثية تحت قيادة ناصر . وفى الحقيقة أعلن عن هذا الاتحاد الفدرالى فى ١٧ إبريل عام ١٩٦٣ ، وكلن كل ذلك هو ما حدث ولم يكن البعثين السوريين على استعداد لإعطاء ناصر الزعامة التى يســعى لهـــا ، إذ لـــم تمر ثلاثة شهور حتى إنهارت العلاقات بين الشركاء المتطلعيـــن إلـــى المســـتقبل لدرجـــة أعلن فيها ناصر غاضباً أن الجمهورية العربـــية المتحدة ليست على استعداد للدخول فى وحدة مع « حكومة سجون فاشية نازية » هكذا كان حال الوحدة العربية .

وبعد عام لاحق ، قام عبد الناصر بمحاولة أخيرة لجمع شمل القادة العرب عـــندما اعلنـــت إسرائيل عام ١٩٦٤ نيتها فى تحويل نهر الأردن من بحيرة طـــرية إلـــى صحراء النقب ، فقد استخدم ذلك كذريعة (فأى شئ له علاقة بإسرائيل كان يمثل قنبلة سياسية ولا أحد يجرؤ على رفض الحضور) ليدعو إلـــى عقـــد قمة عربية فى القاهرة ، وبالرغم من أن تم خلاله إصلاح بعض الحسور .

إذا اتفقـــت الجمهوريـــة العربية المتحدة وتصالحت تقريباً مع جميع الأطراف فـــيما عدا السوريين فقد أظهر المؤتمر قدراً كبيراً بين الاتحاد بقدر ما كان يتطلبه الموقف إلا أن صداه كان أكبر من صوته . كما يقول المثل العربى القديم.

وحـــتى فـــى وجود المنافسات القومية والخلافات السياسية التى نمت بشدة فـــى العـــالم العـــربى إلا أن علاقـــة الجمهورية العربية المتحدة مع الغرب اســـتمرت فى التدهور . وبمجئ الرئيس كنيدى كان هناك مرحلة قصيره من الأزدهـــار والفتفاهم المشترك ، بل وحتى الصداقة والتى كان من المحتمل أن تـــؤدى إلى عودة العقات الودية ، إلا أن إدارة جونسون سرعان ما أصبحت علـــنا معادية لناصر ، وشاركتها حكومة العمل البريطانية فى هذه الكراهية ، والـــتى كانـــت تكاد أن تكون غير متوقعة حتى بين الرفاق الاشتراكيين ، فقد كانـــت سياسة ناصر الحيادية والتى كانت تعنى المعارضة المتواصلة لوجود القواعـــد العســـكرية الغريـــبة فى أفريقيا والشرق الأوسط جنباً إلى جنب مع دعمه السمتمر للحركات الثورية الراد يطالبه ضد نظم الحكم الموالية للغرب (كمـــا كـــان الال فـــى الكونجو) أضف إلى ذلك سياسياته الاشتراكية التى الحقـــت الخســـائر بمصـــالح الغـــرب التجارية الشاسعة فى مصر دون دفع الـــتعويض المناســـب لـــم تـــؤدى ســـوى إلى قيام العداء ضده فى بريطانيا والولايـــات المـــتحدة ، وبالطـــبع فقـــد وجدت كل من لندن وواشنطون فى مجهوداتهمـــا للوقف في وجه نفوذه المخرب نفسيهما تدعمان أعداء الناصرية إينما كان ذلك ضرورياً .

ولقـــد بدأ « الريس » نفسه يستلذ هذا الاتجاه ، ففى عام ١٩٦٥ أقدم على قطع العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا الغربية بالرغم من العلاقات الحتمية التى كانتقائمة بين البلدين والمساعدات الكبرى التى قدمتها إلى الجمهورية العربية المـــتحدة خاصـــة فـــى مجال التصنيع ، وذلك تعبيراً عن غضبه لعقد اتفاق تعويضـــات مع إسرائيل ، وهكذا دخل عبد الناصر تدريجياً وهو بغير طريقة متبعداً عن الغرب فى فلك الاتحاد السوفيتى .

كـــان الـــروس يمارسون لعبتهم بهدوء وذكاء ، فقد فتحت صفقة الأسلحة التشـــكيلية عام ١٩٥٥ الأبواب ، وقد دعم هذا التسلل تقديم المساعدات الفنية والاقتصادية بعد السويس إلى جانب عقد صفقات كبيرة لشراء القطن مما قلل بدرجـــة كبيرة من تأثير المقاطعة الغربية . وكانت الخطوة التالية فى التسلل

الروســـى توقــيع اتفـــاق السد العالى ، وهنا جعل بثبات الجمهورية العربية المتحدة لتصبح دولة تابعة .

لــم يــبدو الاســتعمار الســوفيتى يقلق بال ناصر ، فقد اعتقد أن نستطيع استخدام مناورات الحرب الباردة الروسية لخدمة مخططاته التوسعية ، وكان واثقاً أنه فى مقدرته تخليص نفسه من أحضان الدب فى أى لحظة يختارها . أمـــا موسكو ، فقد كانت تنتوى بهدوء أن يستخدم الجمهورية العربية المتحدة كــرأس حــربة للمتســلل لــيس إلـــى الشــرق الأوسط فقط بل إلى أعماق أفريقياوتستطيع كذلك أن تحتفظ بالعناق على مستوى المصافحة بالأيدى . من بيـــن الموضوعات الكثيرة ليس أقلها الحاجة غى ضرورة القضاء على النفوذ الغربى وكافة القواعد الأجنبية والتى رأى جروشيف Krushchev وناصر أن العيـــن بالعين . كان « الريس » كان يناسب جيداً فخططات موسكو حتى أو خروشيف عندما أسوان بمناسب حفل افتتاح المرحلة الأولى للسد العالى أنعم على ناصر بوسام « بطل الاتحاد السوفيتى » وهو أعلى وسام شرف وتقدير يســتطيع الاتحـــاد السوفيتى منحه ، وإلى هذه الشراكة الحميمة يمكن أرجاع حرب اليمن .

ففى صيف عام ١٩٦٢ توفى الأمام أحمد فى سن متأخرة وخلفه ابنه البدر . وبعــد ذلــك بأيـــام وعلى وجه التحديد فى ٢٨ سبتمبر ثارت مجموعة من الضـــباط اليميـــنى بقـــيادة العقيد عبد الله السلال على الأمام الجديد وأعلنوا الجمهوريـــة ، وفـــر البدر هارباً ، ولما عدة السعودية جمع التأييد بين القبائل اليمنية وبسرعة استجاب ناصر لطلب السلال للمساعدة ، وسرعان ما اصبح الجـــيش المصــــرى متورطاً بشدة فى تلال اليمن ، حيث كان أنصار الملكية يتحصـــنون ، ومـــا ظهر فى البداية على أنه نزهة للقوات المصرية المتفوقه عسكرياً تحول بمضى الوقت إلى « فيتنام العرب ».

واســتمرت الحـــرب بـــن كروفر على طوال خمس سنوات وفى مراحلها الأولـــى كانـــت تكلـــف نصف مليون جنيه والذى كان واضحاً أنه فوق طاقة الجمهوريـــة العربـــية المـــتحدة الماليـــة ، ولكن لو أن مصر كان يقدمالقوى

البشــرية (والــتى لــم يكن لديها نقص منها) ، لكنها محملة تماماً بتحويل الحملــة ففى مقابل المعدات السوفتية العسكرية والسد العالى فى اسوان ، كان ناصــر مســتعداً أن يلقــى بطل ثقله لقلب النظام فى اليمن . إذ كانت هناك اعتــبارت سياسية وجغرافية أيضاً وراء هذه المقامرة . فمن الناحية السياسية كانــت بالطبع جزءاً من صراعه الذى لا يستكين للحصول على زعامة العالم العــربى ، وعلى وجه التحديد التحدى بين قوى التقدم وقوى الرجعية ، ومن الناحــية الجغرافــية ، فأن هذا الركن الاقطاعى الواقع عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر كان يمثل نقطة استراتيجية ، كما كان الكرملين يدرك أيضاً أنه يمكن منها ضرب حقول البترول فى الخليج العربى .

ولقــد اســتمرت الحــرب فــى طريقها المرهق والقاتل فى تلال اليمن ، وأصــبح من الواضح أن قوات حملة الجمهورية العربية المتحدة والتى كانت تزيد عل ما يقرب من ستين ألف رجل لم تكن قادرة على تحقيق التفوق على رجال القبائل العتاة البدائيين اليمنيين بالرغم الضرب بالقنابل اليومى بواسطة النفاثات الروسية الجديدة التى كانت فى حوزة ناصر بل بالرغم (كما ادعى) من استخدام الغازات السامة ، واستمر أنصار الملكية اليمنيون ، والذين كانت تدعهــم السعودية العربية بالسلاح والمال فى قتالهم ، وما كان يظن أنه نصر ســريع للمصــريين حول إلى حملة طويلة لا ثمار لها والتى أهملتها العناوين الكبرى تصبح حرباً منسية فى بلاد بعيدة لم تضف أى بريق لصورة ناصر . هــنا البكباشى صاحب الايديووجية والذى عام من حصار الفالوجا وهو يقسم أنــه سوف يفكر ألف مرة قبل أن يورط شعبه فى اى حرب – قد تغيز كثيراً خــلال الخمــس عشرة عاماً . وأصبح حاداً فى طريقه الذى سبب الكثير من الموت للعرب أكثر من أى رجل آخر فى التاريخ .

ففــى حفل كوكتيل أقيم بالقاهرة فى هذه الفتر ونجت صحفية أمريكية أحد البدلوماسيين الذى كان يعبر عن هذه الحقيقة المرة تعد أعلنت ويكاد الغضب بغلــبها : « هــل تدرك أنك تتحدث عن أهم شخصية فى الشرق الأوسط منذ النــبى محمد » ؟ وقد هز مراسل صحيفة لندنية كان واقفاً بالقرب منها كتفيه

مســتهجناً وتســاءل عما يظنه ناصر نفسه عن الموقف فى ليمن وفى مصر ذاتها . وتخيل أن ناصر فى أعماق أعماق قلبة لابد وأن يقول : « كم بلغ بى الأرهاق ... وأى فوضى رهيبة تسببت فى حدوثها .. ».

الفصل الرابع والعشرون

سبعون ساعة فى قيظ يونيو

حـــتى وعندما بدأ أخيراً يسحب قواته من اليمن فى ربيع عام ١٩٦٧ فإن جمـــال عبد الناصر لابد وأن يكون قد أدرك فى نهاية المطاف أن مخططاته الطموحـــة الحمقاء لقيادة العالم العربى قد فشلت تماماً . حتى حملة اليمن لو ثبـــت أنهـــا كانـــت بمثابة الكارثة ، فأنها كانت لا تساوى شيئاً إذا ما قورنت بـــالذى سيتلو ذلك ، إذ لم يكن حتى فى أبشع أحلامه وكوابيسه يتخيل الكارثة التى سوف تنزل بمصر فى فصل ذلك الصيف ذاته .

ففـــى العاشـــر من مايو وصل إلى مكتبه فى منشية البكرى أربعة تقارير غايـــة فى السرية قدمتها المخابرات . أحدها من شبكة التجسس الخاصة به ، والـــباقى من أجهزة المخابرات من كل روسيا وسوريا ولبنان . كلها أفصحت عـــن نفـــس الأنباء المشئومة . أن الجيش الإسرائيلى يحشد قواته على حدود سوريا وأن الهجوم على دمشق بات وشيكاً .

كـــان الـــتوتر بين إسرائيل والجمهورية العربية المتحدة عند أدنى درجاته منذ شهور ، فبالرغم من أن البلدين من الناحية الفنية كانا لا يزالان فى حالة حرب ، إلا أن ناصر كان مشغولاً لقمة رأسه فى مشاكل أخرى : الحرب فى اليمن ، الرجعيون فى الجزيرة العربية ،ومحاولاته لطرد الإنجليز من عدن . كل هذا كان لا يعطيه فرصة فى التفكير كثيراً فى إسرائيل . فقد كان اهتمامه الأكـــبر منصباً على الحرب ضد الرجعية ونشر الدعاية للاشتراكية أكثر من اهتمامه بإشعال الحرب مع اليهود .

ولـــذات السبب ، لم تكن إسرائيل تتوقع حدوث أى مشاكل فى ذاك الوقت مـــع الجمهورية العربية المتحدة . فسفنها كانت لا تزال ممنوعة من استخدام قـــناة الســـويس ، غـــير أن لذلك قصة قديمة . فقد كان خليج تيران مفتوحاً أمامهم. وكانت وحدة من قوات الأمم المتحدة تقوم بحراسة حدود سيناء . أما

مـــع ســـوريا فقد كان الأمر يختلف . فقد قام قادتها البعثيون بالتحول بزاوية حـــادة نحـــو اليسار . وكانت الغارات المستمرة التى كان يقوم بها فدائيو فتح من سوريا بعضها كان يضرب أعماق الأراضى الإسرائيلية قد اصبح أمراً لا يحـــتمل . ولكى تضع نهاية لهذه المضايقات كان لابد من إلحاق هزيمة بها ، وبالـــرغم من أن النفاثات الإسرائيلية أسقطت ست نفاثات سورية فوق سماء دمشق فى السابع من إبريل انتقاماً لذلك ، فقد كان الكنيست تحت ضغوط من قـــبل أشـــد أعضائه ميلا للعسكرية لكى يقوم بحملة على سوريا لوضع نهاية لحكم البعث .

فـــى ٨ مـــايو طار وفد سورى إلى القاهرة لضمان المساعدة من ناصر ، وقـــد راوغ الرئـــيس وأخـــبرهم أنه يجب أن يقتنع أولاً بأن إسرائيل تخطط بالفعل للقيام بهجوم كما يعتقدون . وبعد يومين أكدت تقارير المخابرات على مكتبه هذه المخاوف .

وبالنســـبة لعبد الناصر ، كان ذلك تطوراً غاية فى الإرباك . إذ كان آخر شئ يبغيه هو الحرب مع إسرائيل ، فالكثير من قواته كان لا يزال غارقاً فى مســـتنقع اليمن حيث فقد عدداً كبيراً من رجاله ومعداته ، وما بقى منها كانت مصـــر فى أمس الحاجة إليه من أجل حماية أمنها الداخلى . وبالرغم من أن عـــبد الحكـــيم عامـــر (القائد العام للقوات المسلحة) أصر أن الجيش مستعد «لإلقـــاء إسرائيل فى البحر» كان ناصر عل علم تام أن قواته المسلحة ليست فـــى هيـــئة مناســـبة للدخول فى معركة فى مثل ذلك الوقت ، وعلى الجانب الآخـــر لو أن الإسرائيليين اجتاحوا سوريا وفشلت الجمهورية العربية المتحدة فـــى الانتقام منهم ، فإنه سوف يفقد هيبته فى العالم العربى إلى الأبد ، وكما كـــان يحـــدث عـــندما كان يدعو للحل الوسط فى الماضى - كما حدث عدة مرات - فقد كان خصومه يتهمونه بأنه على علاقة بإسرائيل ، ولكى يستعيد وضعه كزعيم روحى للعرب لم يكن فى استطاعته أن يضحى بالبقاء دون أن يتصرف .

ولمـــا وجـــد نفسه وقد وقع فى ورطة محيرة ، فقد قرر ناصر اللجوء إلى

ســلاح « الــتهويش » ، إذا بدأ فى استعراض كبير لقواته . فقد قام بعرض لقــوات مشــاته ودباباته عبر شوارع القاهرة متأكداً أنها مرت عبر شوارع «جــاردن ســيتي» تحــت نوافذ السفارة الأمريكية . وفى نفس الوقت أحدث ضــجيجاً مــيالاً للحــرب كان الغرض منه نقل رسالة أنه سوف يأتى لنجدة سوريا .

وكجزء من خطة الخداع أرسل شطراً من عتاده العسكرى بشكل تفاخرى إلــى ســيناء . وطلــب مــن القائد المحلى فيها أن يتصل بالجنرال « ريكى Rikhye » مــندوب الأمــم المتحدة ويطلب منه سحب قوات الهدنة الخاصة بــالأمم المــتحدة مــن منطقة الحدود ، ورد الجنرال « ريكى » أن مثل ذلك التصرف خارج اختصاصاته، لكن ذلك طبقاً لشروط الاتفاق مع الأمم المتحدة كان طلباً مشروعاً ، لكن يجب أن يناقش مباشرة بين الرئيس ناصر ويوتانت UThant السكرتير العام .

وإزاء ذلــك شعر ناصر أنه مضطر أن يقدم طلباً رسمياً إلي « يو تانت» لكى يسحب قوات الأمم المتحدة من الأراضى المصرية . وطبقاً لحساباته بأن الموقــف قد تعقد لدرجة تدعو إلى تدخل القوى العظمى كى تضغط على كل من إسرائيل والعرب لحل الأزمة ، ولو حدث ذلك لنجحت مخططاته.

وبــدلاً مــن ذلك فعل يوتانت عكس ما كان يتوقعه ، إذ وافق على الفور علــى طلــب ناصــر ، وفجــأة ســحبت الأمم المتحدة قواتها التى حافظت علىالســلام فى منطقة الحدود بين إسرائيل والجمهورية العربية المتحدة لمدة إحدى عشرة سنة ملبيًا بذلك طلب عبد الناصر .

ولكونــه دائماً مقامراً ، فقد صعد إلى « الخازوق » . ففى ٢٢ مايو احتل شــرم الشــيخ وحظر مرور السفن الإسرائيلية فى خليج العقبة ، وبذلك أغلق ميــناء «إيــلات» الحــيوى تمامــاً . إن مثل ذلك التصرف الجرئ هو أحد الصفات المميزة لناصر . فقد كان يسعده أن تكون الكرة فى ملعبه ، وبالفعل بــدأ فى ذلك الوقت كما لو كان قد حقق ضربة كبرى على حساب إسرائيل .

وأنه كسب لعبة « البوكر » على مستوى العالم .

طـــار يوثانت إلى القاهرة مهموماً يحمل معه مقترحات حل سلمى للأزمة التى لم يكن ناصر – وهو يتصرف بمهارة من موقف أساسه ضعيف – غير مـــيال لقـــبولها . وتحدث الرئيس جونسون على الخط الساخن مع كوسيجين Kosygin واتفـــق زعيما القوى العظمى على الضغط على عميليهما أن يتجنبا إشعال الحرب . وفى ٢٨ مايو عقد عبد الناصر مؤتمراً صحفياً ، وأبدى فيه بعـــض الملاحظـــات العدوانية بالذات لكى تتزامن مع وصول تشارلز يوست Charles Yost كممـــثل شخصى للرئيس جونسون ، وبالرغم من ذلك توصلا إلـــى اتفـــاق بيـــنهما أن تحل الأزمة من خلال القنوات الدبلوماسية ، فمسألة مضـــايق تـــيران تعرض على محكمة العدل الدولية للتحكيم فى مدينة لاهاى Hague ، وأن علـــى زكـــريا محـــيى الديـــن أن يغادر القاهرة إلى نيويورك لمناقشة حل بين أطراف النزاع .

وغـــادر تشـــارلز يوست القاهرة فى الثالث من يونيو قبل اندلاع الحرب بيوميـــن بعـــد أن أكـــد لناصـــر أن إســـرائيل لن تقوم بأى عدوان ما دامت المفاوضـــات مستمرة . وقد استرخى ناصر خلال الأسبوع لأول مرة منذ ما يقـــرب مـــن شهر ، فقد بدت مخططاته كما لو كانت قد نجحت ، ونهض من موقف حرج وقد سبقته سمعته .

لكـــى بعـــد أربع وعشرين ساعة واجه العالم صداماً أصم أذنيه ، إذ قابل الإسرائيليون خداعه بشراسة وبلا رحمة .

فحـــتى منتصف مايو سلك الإسرائيليون مسلكاً حذراً ، ولكن مسترخ إزاء الجمهورية العربية المتحدة . وبصفتها أكبر جيرانها العرب وأكثرهم تأثيراً ، كانـــت الجمهوريـــة العربـــية المتحدة تلقائياً عدوها رقم واحد ، ولسنين أثبت ناصـــر أنـــه أكثر العرب اعتدالاً على الأقل فيما يتعلق بالنسبة لسياساته إزاء إســـرائيل . وخلال الشهور القليلة انتقل مجال الخطر نحو الشمال حيث كان نظـــام حكـــم البعث السورى يقوم بتدريب وتسليح فدائيى « فتح » ، وأخيراً

اتخــذ القــرار بوضع نهاية لهذا النشاط بإسقاط نظام حكم البعث فى دمشق ، وأفــادت تقارير المخابرات الإسرائيلية أن العرب والجمهورية العربية بالذات ليسوا فى حالة الاستعداد للقيام بنجدة سوريا.

لقــد كانت تصرفات ناصر منذ ١٠ مايو فصاعداً من وجهة نظر تل أبيب هــى التى غيرت الموقف ، فالمبالغة فى الإعلان عن التعبئة العامة ، وطلب انســحاب قوات الأمم المتحدة المحافظة على السلام ، والتهديدات التى أطلقها راديو القاهرة ، وأخرها إغلاق مضايق تيران وقد أظهرت أن ناصر – العدو رقــم واحد – لديه نوايا عدوانية بالرغم من كل شئ : هل لديه ذلك فعلاً ؟ أم مجــرد تهويش ؟ فقد كان لدى المخابرات الإسرائيلية المعلومات الكاملة لأدق التفاصــيل عــن قــدرات جــيش الجمهوريــة العربية المتحدة . وربما كان المســؤولون فــى تل أبيب على دراية ربما أكثر من ناصر نفسه أن الجيش المصــرى غــير قادر على الصمود فى حرب فى مثل ذلك الوقت . إن دولة إســرائيل بطبيعــتها وجغرافيتها الخاصة كانت غزواً عدوانياً للعالم العربى ، وأكــثر من ذلك لكى تبقى فعليها التوسع ، ومن ثم تزايد الاقتناع فى تل أبيب أن الفرصــة مــتاحة فى ذلك الوقت لكى تحطم الحدود الضيقة التى فرضت عليها أعوام ١٩٤٩ و ١٩٥٦ ، لكى تحقق الحدود الآمنة فى مواجهة جيرانها العــرب المعاديــن لها بالاندفاع نحو حدود يسهل الدفاع فيها . وان مثل هذه الفرصة لن تتكرر ، وقد انتشرت نفس وجهة نظر الصقور عبر البلاد كلها : «أنهــا ميونــيخ ! Munich(*)» هكذا كان الناس يهدرون من صفد حتى بير

(*) إشــارة إلــى معاهدة ميونيخ التى عقدت فى سبتمبر عام ١٩٣٨ عندما سافر رؤساء حكومــات كــل مــن بريطانيا وفرنسا وإيطاليا لاسترضاء أدولف هتلر حتى لا يعلن الحــرب وذلــك برضوخهم لمطالبه بضم أجزاء من تشيكوسلوفاكيا التى يتحدث أهلها الألمانية ، غير أن هذه التنازلات فتحت شهية هتلر للتوسع فقد قامت قواته فى مارس عام ١٩٣٩ بضم ما تبقى من تشيكوسلوفاكيا، وفى الأول من سبتمبر عام ١٩٣٩ ابتلع بولــندا بأكملها، ولما حاولت فرنسا التصدى له قام بأحتلالها كما هدد باحتلال بريطانيا

سبع : «إننا إذا تركنا العرب يفلتون هذه المرة التى نحن فيها قادرون على هزيمتهم فيها بكل تأكيد، فأننا سنكون قد ضيعنا الفرصة التى منحها الله لنا ، لا تدعونا نعانى من ميونيخ مرة أخرى »!!

غير أن رئيس الوزراء ليفى إشكول Levi Eshol كان بطبيعته معتدلاً، وكان لا يزال شخصياً يميل إلى التسوية ، ولكن فى ٢٠ مايو عندما جاءت الأنباء تحمل إغلاق مضايق تيران ، قام زملاؤه فى مجلس الدفاع بإجباره على الانصياع لرأيهم . إذ ناقشوا ضرورة الهجوم الفورى : لقد انتظر شعب إسرائيل طويلاً بما فيه الكفاية عبر السنين أن يقوم المفاوضون الدوليون لإنقاذهم من الخطر الرابض على الحدود . وأن الوقت لم يعد إلى جانب إسرائيل إذ أن العتاد الحربى لدى العرب كان يزداد قوة بفضل شحنات السلاح من الاتحاد السوفيتى . كما أن الجمهورية العربية المتحدة لم تكن مستعدة فكل شئ كان يحبذ مزايا الهجوم الخاطف على الفور .

وفى ٢١ مايو صدرت الأوامر السرية للتعبئة العامة الشاملة لكن لم يحدث شئ بعدها ، فقد غيرت مجهودات يوتانت للوساطة وتحذيرات الاتحاد السوفيتى ، والضغط الدبلوماسى من جانب الولايات المتحدة من الموقف ، وفى الحقيقة فأن تصلب ناصر ، وإقلاع الملك حسين الفجائى إلى القاهرة فى ٣٠ مايو وهو يقود طائرته الكوميت الخاصة بنفسه ليوقع معاهدة دفاع مشترك مع الجمهورية العربية المتحدة تضع الجيش الأردنى تحت قيادة ناصر الشاملة فى حالة حدوث الحرب ، كل هذه الأمور لم تخدم سوى تشبث إسرائيل بعزمها.وعندما أصبح«موشيه دايان» وزيراً للدفاع فى اليوم التالى ، كان أول إجراء قام به هو إلغاء الخطة التى كانت قد وضعت من قبل بهدف محدد هو الاستيلاء على غزة ، وأصدر الأوامر بالتركيز بدلاً من ذلك لاستيلاء على شبه جزيرة سيناء كلها والوصول إلى قناة السويس .

مما كان سبباً فى قيام الحرب العالمية الثانية . ومن المعروف أن إسرائيل كانت تشيع عن عبد الناصر انه هتلر جديد (المترجم) .

وبعــد خمسة أيام شن الإسرئيليون هجومهم . ففى الساعة ٨٤٥ (بتوقيت القاهــرة) مــن صباح يوم الاثنين الخامس من يونيو اندفعت أول موجة من طائــرات الميراج والموستير . لقد اختير اليوم والساعة بحرص ففى المعتاد كــان الهجوم يتوقع دائماً عند الفجر حيث تكون الدفاعات فى أقصى درجات الــيقظة ، لكــن بعــد أربع ساعات تتحول هذه اليقظة الشديدة إلى حالة من الاســترخاء . وبمــا أن الرتــب العليا تصل إلى مكاتبها فى الساعة التاسعة صــباحاً ، وقــبلها بــربع ساعة يكونون جميعاً فى طريقهم إلى العمل حيث يقعــون فى زحام مواصلات القاهرة ، لكن الأهم من ذلك علمت المخابرات (الإســرائيلية) أن اجــتماعاً على أعلى مستوى مقرر له أن يعقد صباح ذلك الــيوم فــي سيناء ، وبالتالى فأن غالبيته الوحدات القتالية سوف تكون بدون قادتها مؤقتاً .

وجهــت أول موجة من ضربات الطيران أهدافها نحو عشرة مطارات فى سيناء . وكان التوقيت مخططاً بمهارة ودقة بحيث تصل جميع الطائرات إلى المطارات فى نفس اللحظة لتحقيق أكبر قدر من المفاجأة .

وقع الشطر الأكبر من طائرات القوات الجوية المصرية فى المصيدة وهى رابضــة علــى الأرض ، والحقيقة فإن طائرات التدريب الوحيدة كانت أربع طائــرات غــير مسلحة يقوم على قيادتها معلم وثلاث طلاب تدريب . وفى قاعدة أبو صوير قرب الإسماعيلية كان الطيارون المصريون يشربون القهوة عــندما انقضــت النفاثات الإسرائيلية ودمرت طائراتهم من طراز الميج وهو تقــف مصــطفة عند الممرات ، كما فجرت ثمان تشكيلات أخرى إلى قطع صغير بينما كانت متوقفة عند نهاية المدرجات فى قواعد الطيران الأخرى .

ومــا كادت الموجة الأولى تصيب أهدافها ، حتى تلتها الموجة الثانية من ورائهــا ، وثالــثة كانــت فى طريقها . وكان الإسرائيليون يديرون العمليات بطــريقة لا تعقــل وبســرعة طــوال الوقت . ففى اقل من عشرة دقائق بعد عودتهــم إلــى قواعدهم يعودون للإقلاع مرة أخرى . وفى خلال ساعة من هجمتهم الأولى يكونون فوق الأهداف للمرة الثانية ، وبدلاً من القدوم مباشرة

مــن ناحــية الشمال الشرقى ، كانوا يقومون بالهجوم من ناحية الغرب عبر الصــحراء لمهاجمة قواعد الطيران حول القاهرة وهم يحلقون على ارتفاع لا يزيد عن عشرة إلى خمس عشرة متراً من سطح الأرض وذلك لخداع أجهزة الرادار . وكان الهدف هو القضاء على أكبر عدد ممكن من مقاتلات الميج ، وقاذفات القنابل بعيدة المدى ، وجعل الممرات غير صالحة للاستعمال .

ولمــدة مائــة وســبعين دقيقة ظل الإسرائيليون يضربون بعنف المطارات المصــرية دون توقف . وخلال ذلك الوقت أمكن لهم تدمير ٣٠٠ طائرة من مجمــوع ٣٥٠ طائــرة مقاتلــة مصرية ، بما فى ذلك الثلاثين طائرة طويلة المــدى مــن طــراز قاذفات القنابل ت . يو ١٦ (T. U. 16) لقد كان حجم الكارثــة مذهــلاً وبدرجة لا تصدق . ففى أقل من ثلاث ساعات كانت قوات ناصــر الجوية قد دمرت تقريباً بكاملها . أن حجم الهجوم الإسرائيلى المذهل – وكــون أن طائــراتهم كــان تــأتى من الغرب من ناحية ليبيا ، حيث كان لبريطانــيا وللولايات المتحدة قواعد جوية هناك قاد المصريين لافتراض أن الطائرات البريطانية والأمريكية قد شاركت فى الغارات الجوية ، إذ بدا غير مفهــوم أن يقــوم الإسرائيليون وحدهم بسحق الطائرات الروسية النفاثة ذات الســمعة العالــية الخاصــة بالجمهورية العربية المتحدة فى مثل ذلك الوقت القصير .

لــم يأخذ هذا الهجوم سلاح الطيران المصرى وحده على غرة تماماً ، بل كــل إنســان فــى القاهــرة . ولقد سمعت أصوات طلقات المدافع المضادة للطائــرات فى الساعة التاسعة صباحاً ، غير أن الناس لم يعبئوا كثيراً بذلك ، وتوجهوا كما اعتادوا إلى أعمالهم ، فقد كانت فكرة الحرب بعيدة عن أذهانهم تمامــاً . وبعــد مــرور ساعة بدأت صفارات الإنذار فى العويل . وفى نفس الوقــت انطلق راديو القاهرة معلناً بياناً أن الجمهورية العربية « قد تعرضت لعدوان غادر » ، وكان ذلك أكثر العبارات التى أذاعها صدقاً ، لكن سرعان ما بدأت أجهزة الدعاية تعمل ، وانهال سيل من البيانات عن نجاح المصريين فــى إسقاط أربعين... ثم خمسين... ثم ستين طائرة للعدو . وفى نهاية اليوم ادعــت القاهــرة أن نحــو ١٣٠ مقاتلــة إسرائيلية قد دمرت بالرغم من أن

صـــفارات الإنـــذار كان يتخللها هدير المدافع المضادة للطائرات، وازدحمت شـــوارع القاهـــرة بالناس ، وبعد كل بيان عن إيقاع المزيد من الخسائر كان الـــناس يهتفون مسرورين مبتهجين يعانق بعضهم بعضاً ، ولم يكن يدور فى بـــالهم أدنى فكرة عن حقيقة ما كان يحدث ، ولا حتى ناصر . إذ لم يعلم أن سلاح طيرانه قد قضى عليه إلا فى وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم ، إذ لم يجرؤ أحد على إخباره بذلك فى حينه . وفيما بعد روى – وهو حزين – كـــيف أنـــه قضـــى الســـاعات الحاسمة الأولى من الحرب وهو منكفئ على الخرائط ليحدد الأماكن التى يأمر بالصمود الدفاعى فيها فى سيناء . ولم يكن قـــبل الساعة الرابعة من بعد الظهر عندما استجمع أحدهم شجاعته ليقول له : « لم تعد لدينا أى طائرات ! » .

وفـــى الســـاعة ٩١٥ (بتوقيت القاهرة) ، وعلى وجه التحديد بعد نصف ساعة من قيام النفاثات بإبادة القوات الجوية المصرية ، عبر سلاح المدرعات الإســـرائيلى الحـــدود ، وبدأ يندفع نحو التحصينات المصرية فى خان يونس ورفـــح اللتين تقعان على مقربة من غزة ، واندفعت الدبابات الإسرائيلية إلى الأمـــام فـــى موجات تتقدمها وحدة مشاة ميكانيكية تسير مكشوفة فى سيارات نصـــف مجنزرة . وقد ساعدتها السرعة والتوقيت وقبل كل شئ المفاجأة على الاخـــتراق ، وما أن اخترقت الحصون الدفاعية ، حتى بدأت المدرعات تزيد من سرعتها ، حيث اتجه أحد طوابيرها يميناً ليستولى على غزة بينما اتجهت الأخـــرى نحـــو العريش على الساحل وإلى القنطرة على قناة السويس . لقد اســـتغرق الجيش الإسرائيلى اثنين وسبعين ساعة ليصل إلى القناة ، وانقضت الـــنفاثات الإسرائيلية على المدرعات المصرية وعلى خطوط التموين والنقل وعلى المشاة بجرأه كتلك التى قاموا بها ضد سلاح الطيار الجوى المصرى .

لقـــد كســـب الإســـرائيليون حـــرب الأيام الستة بكل نواياها واهدافها فى الســـاعات الثلاث الأولى ، ولأن من يملك السماء يملك الصحراء مهما كانت قواتـــه الأرضية من القوة ، فقد فقدت الجمهورية العربية المتحدة ٧٠٠ دبابة روســـية جديدة من طراز ٥٥ ت T.55 لم تستخدم بعد ، وما يزيد على ١٠٠

قطعة مدفعية سحقتها النفاثات الإسرائيلية ، وامتلأت رمال سيناء بحطام قطع المعـــادن المحــترقة ، بعضها دمرته نيران المدافع ، والبعض الآخر أحرقه الـــنابالم ، ففـــى ممـــر متلا المتعرج تكومت مئات من المصفحات وعربات الجيب فوق بعها البعض فى تكدس مرورى غريب .

لقد تم التخطيط لهذه العملية بذكاء ، ونفذت بقسوة ، فرجال الصحافة الذين تمكـــنوا مـــن الذهـــاب إلـــى الجـــبهة أجمعوا جميعاً على الثناء على يهود «الصـــابرا» العـــتاة مـــن رجال الكوماندوز الذين حاربوا وفتحات الدبابات مكشـــوفة تحـــت النـــيران الثقيلة ، وبالمثل كان جهاز المخابرات الإسرائيلى الـــبارع مدهشاً ، فقد توصل إلى معرفة الذبذبات اللاسلكية والشفرة الخاصة بكلمـــة الســـر لكل وحدة وفرقة ، بل وحتى أسماء وكنيه الضباط ، واستمر يرسل لهم أوامر مدسوسة مما أدى إلى وقوع الكثير من الدبابات فى مصايد، والـــبعض الآخر أرسل إلى مناطق البرية الشاسعة فى مطاردات وهمية حتى فرغت من الوقود .

وفـــى وقـــت مـــتأخر مـــن ليل الخميس عندما وافقت الجمهورية العربية المـــتحدة على وقف إطلاق النار غير المشروط ، كان كل ما تبقى من جيش ناصـــر قـــدر ضـــئيل باستثناء الآلاف من المنسحبين فى غير نظام بعد أن هجـــرهم ضـــباطهم ، وهـــم يجرون أقدامهم جراً دون جدوى نحو الوطن ، وكثير منهم لم يكمل السير ، وتركوا ليلاقوا الهلاك من العطش والإرهاق فى حرارة الصحراء القاسية.

وفـــى مصر ذاتها استمرت الصحافة والإذاعة فى بث تيار لا يتوقف من الدعاية ، وهى تكرر باستمرار الرواية الخيالية تماماً بأن الطائرات الأمريكية مـــن قـــاعدة « هويلس Wheelus » فى ليبيا ، وطائرات الكانبيرا البريطانية كانـــت تعمـــل جنباً مع سلاح الطيران الإسرائيلى . وفى يوم الجمعة الموافق التاســـع مـــن يونـــيو خرجت صحف القاهرة تحمل العنوان الرئيسى التالى : «الإســـرائيليون يواجهون المزيد من الهزائم على كل الجبهات... الجمهورية العربـــية تـــرد الضـــربة .. » وتحـــت ذلك ببنط صغير جداً جاء الاعتراف

الواقعـــى . قـــبول وقـــف إطلاق النار ! لقد أخفى الأمر كله عما حدث على الجبهة عن جماهير المصريين ، إذ لم يكن لديهم فكرة عن حجم الكارثة التى حلت بالوطن .

ولكـــن من وراء الأبواب الموصدة فى منشية البكرى لم يكن لهذه الحقائق القاسية أن تمر مرور الكرام ، فقد كان ناصر نفسه فى حالة انهيار من جراء توالـــى هذه الأحداث المروعة ، فقد دمر سلاح طيرانه ، ولقى جيشه هزيمة فـــى واحـــدة مـــن أســـرع وأحســـم الهزائم التى عرفت حتى الآن ، كما أن الإســـرائيليين على ضفاف قناة السويس نفس القناة التى انتزعها من بريطانيا العظمى بعد دفع ثمن مؤلم ، فى حين لم يرفع الروس إصبعاً لمنع تقدم العدو . وكـــان الرأى العام العالمى بأجمعه يقف إلى جانب إسرائيل . كما أن أقرب أصـــدقائه تحـــول إلـــى الدخول فى خصام معه . فقبل ذلك بأربعة أيام، كان يركـــب موجـــة الـــنجاح ، والـــيوم كل شئ بناه قد تحطم تماماً . لقد كسبت إسرائيل وانتصر الرجعيون ! .

وقـــد تهـــامس بعض مستشاريه أن الوقت قد حان ليتقاعد ويدخل إلى طى النســـيان ولو حتى لفترة . وكانوا جميعاً يعتقدون أن الأمل الوحيد هو إرجاع ســـاعة الثورة إلى الوراء ، وإن تؤكل فطيرة المذلة ، وأن يتم الركوع تحت جـــناحى أمـــريكا ، لكن هذه الوصفة كانت شديدة المرارة لناصر لابتلاعها . وأن الأكـــرم له أن يســـتقيل، إذ قال وهو مرهق : « كان زكريا محيى الدين دائمـــاً يريد التصالح مع أمريكا .. فإذا توصلنا إلى ذلك فالأفضل له أن يتولى المسئولية بدلاً منى وله تمنياتى الطيبة».

وفـــى الساعة السابعة من مساء اليوم التالى ظهر على الراديو والتلفزيون لأول مرة منذ اندلاع الحرب . وسرت الشائعات بالطريقة السرية كما يحدث فـــى مصـــر أن شيئاً خطيراً يحدث ، وكان كل بالغ تقريباً فى البلاد ينتظر ســـماع ما سيقوله الرئيس . وعندما ظهرت ملامحه التى تعودوا عليها على الشاشة ، وكان وجهه وجه رجل بلغ به التحمل أقصى درجة ، فقد كان يتعلثم ببطـــئ وهـــو يخـــرج الكلمات من فمه . فقد كان الفرعون المنكسر يقرأ من ورقة نصاً معد سلفا .

فقـد قــال : « أيهــا الأخوة لقد تعودنا معاً فى أوقات النصر وفى أوقات الضــيق، وفى الساعات الحلوة وفى الساعات المرة أن نتحدث بقلب مفتوح ، ويخبر كل منا الآخر بالحقائق ... والآن لا نستطيع أن نخفى على أنفسنا أننا قد واجهنا نكسة فى الأيام القليلة الماضية .. وأقول لكم الحق أننى راغب فى تحمــل المســئولية بأكملها . لقد اتخذت قراراً أريدكم أن تساعدونى عليه » وبغصــــه فى الحلق كلما لفظ بالكلمات - « لقد قررت ان أسلم مهمتى كاملة ونهائــياً وكل منصب وكل دور سياسى ، وأن أعود إلى صفوف الشعب لكى أؤدى واجبى معهم مثل أى مواطن آخر » .

ثــم بعد ذلك عين زكريا محيى الدين كخليفته فى الرئاسة ، وانهى خطابه بالتعبــير عــن أملـــه أن تســتمر الطــبقات العاملة فى حمل رسالة الثورة الاشتراكية .

وعلـــى غــير العـــادة حدث شئ غريب لم يسبق له مثيل ، إذ بدأ الناس يــتدفقون نحو وسط المدينة كحشد من النحل ، من كل شارع ومن كل بيت ، وكثــير مــنهم سالت الدموع من عينيه وهم يهتفون : « ناصر... ناصر... ناصـــر لا تتركــنا أنـــنا فى حاجة إليك » وفى أصيل ذلك اليوم الساخن بعد موجـــه الوجـــوه المعذبـــه ، كان هناك مشهد لا يمكن تصديقه . فقد تجمعت جمـــوع غفـــيرة حول مبنى مجلس الأمة وهى تتغنى باسم ناصر ، بل حاول جمهور أكبر يعتقد المراقبون أن عدده يقرب من نصف مليون رجل أن يشق طـــريقه عبر الطريق الرئيسى إلى منشية البكرى . وقضوا ليلتهم خارج بيت وهم يلوحون بلافتات كتبت على عجل يرجونه فيها ألا يتنحى .

وعلى طوال الدلتا وعرضها استمر هذا المنظر المجنون الهستيرى ، ففى بور سعيد اضطر المحافظ أن يتوسل إلى الجماهير من خلال أجهزة الاتصال ليمــنع كل الجمهور من السير إلى القاهرة موضحاً أن المدينة لو أفرغت من سكانها فإن الإسرائيليين سوف يحتلونها .

وعــندما استعاد قوته بفعل ذلك التأييد العاطفى ، سحب ناصر استقالته فى

الــيوم التالى ، وعلى الفور زعمت أوروبا وأمريكا أن العملية كلها مصطنعة ومدبرة لاستعادة هيبة سلطته المحطمة ، غير أن هؤلاء الذين يعرفون مصر لم يساورهم أدنى شك فى إخلاص الجماهير ، قد كتب شاهد عيان خبير مثل إريــك رولو Eric Rouleau مراسل صحيفة « لوموند » مؤكداً بشكل لا يقبل الشــك تماماً : « لقد سافرت إلى شطر كبير من العالم ، لكنى لم أشهد شعباً بأكملــه وقــد انغمس فى حداد مثل هذا ويصرخون فى ألم مثلما فعلوا .. لقد جاءتــنى الإجابــة من قبل أحدهم كان يريد فى الصباح لناصر أن يستقيل .. وفــى المســاء كان يهتف أن يبقى ، إذ قال : «أن ناصر بمثابة الوالد بالنسبة لـــى .. قد يغضب الواحد منا مع أبيه ، ويوجه له النقد، لكن لا أحد يريده أن يذهب .. بدونه أنا أشعر بالضياع ».

أن مشـــهد جـــنازة عبد الناصر بعد ثلاث سنوات من هذا الحدث وضحت ذلك التفسير بوضوح.

الفصل الخامس والعشرون

آلام إعادة البناء

إن مـــا كان يتوقعه البعض بأنه نهاية إنجازاته قد تحول بعد ذلك إلى بداية جديدة ، غير أنها كانت بداية لنهايته .

فبالرغم من أن الجماهير صرخت فيه أن ينهض ويعود إلى السلطة إلا أن الصـــورة العامة لناصر كانت قد تشوهت بحيث يصعب إعادتها إلى ما كانت علـــيه . فقـــد تعرضـــت للتشريح المؤلم داخل الجيش نفسه ، بالإضافة إلى تصـــاعد الصراع السياسى بين جناح اليمين وجناح اليسار : بين هؤلاء الذين ســـعوا إلـــى إســـراع الخطـــى نحو الاشتراكية العربية ، عاملين على زيادة العلاقـــات مع الاتحاد السوفيتى، وبين التكنوقراط الذين كانوا يرون أن الحل الأوحـــد لكوارث الأمة هو إعادة العلاقات مع دول الغرب والتركيز على حل المشاكل الاقتصادية المتفاقمة والتى لا يمكن تركها على الرف .

أمـــا بالنسبة للصراع على الزعامة السياسية الذى كشف الستار عنه خلال شـــهور عـــام ١٩٦٧ الحارة ، فقد تبلور إلى مواجهة بين جمال عبد الناصر وبيـــن عـــبد الحكيم عامر . فعندما قدم عبد الحكيم عامر استقالته من منصبه كقـــائد عام للقوات المسلحة مثلما فعل عبد الناصر من رئاسة الدولة ، وذلك عـــندما وصـــل الإسرائيليون إلى ضفة القنال ، لم يطلب منه أحد العودة إلى منصـــبه . فمـــن ناحية الحقيقة كان العار قد ركبه بصفته القائد العام للقوات المســـلحة ، والمسئول عن الكارثة مسئولية مباشرة ، غير أنه كان فى جلساته الخاصـــة يعبر عن اعتقاده أن « الريس » هو المسئول المباشر عنها . ولما كان غير متحمس بشدة لكى يكون صاحب نظرية مثل ناصر، فقد كان يركز مجهوداتـــه فـــى بـــناء قـــوة مصرية ضاربة أكثر من بذل مجهوداته لنشر الاشـــتراكية العربـــية . وبعد الدمار الذى جلبته حرب الأيام الستة ، بدأ كثير مـــن الســـاخطين – خاصة من داخل الجيش – يتجمعون حول عامر . وفى نهايـــة المطـــاف وجد هذان الصديقان الحميمان : البكباشى والصاغ – اللذان

خططا ونفذا الثورة – وجدا نفسيهما فى مواجهة كل منهما الآخر .

وكمـــا كان يفعل أى بك من بكوات المماليك جمع عامر سرًا أتباعه الذى كـــان يســيطر علــيهم فـــى « فيلته » بالدقى . وكانت الخطة هى استعادته ومجموعـــة من قيادة الجيش مناصبهم عن طريق قرار جمهورى مزور أثناء وجود عبد الناصر فى الخرطوم ليحضر مؤتمر القمة العربى . وكان من بين خططهـــم عـــزل عـــبد الناصر ، وإلقاء اللوم عليه وعلى الروس فيما يخص الكـــوارث الـــتى لحقـــت بمصـــر ، ثم توجيه الدعوة إلى دول الغرب لتقديم المساعدة حتى يقف الوطن على قدميه مرة أخرى .

وقـــبل سفره بيوم ، كشف جهاز المخابرات – الذى طالما أنقذه من العديد مـــن محـــاولات الاغتـــيال فى الماضى – عن خيوط هذه المؤامرة . عندئذ اســـتدعى عامر إلى منشية البكرى لعقد اجتماع حاسم فى المكتب الذى طالما اجـــتمعا فيه سويا خلال الخمس عشرة سنة الماضية ، وحتى الآن لم يكشف الســـتار عمـــا دار بيـــنهما . غـــير أن الصحف ذكرت أن عبد الناصر وهو «يعتصـــره الحـــزن والأســـى » وجد من الضرورى إلقاء القبض على عبد الحكيم عامر وكذلك على خمسين ضابطا معه وأن يقدم جميعهم إلى المحكمة العسكرية .

فـــى البداية هدد عامر أنه إذا ما قدم للمحاكمة فأنه سوف يقدم دليلاً دامغاً يديـــن مجموعة كبيرة من الناس من بينهم عبد الناصر نفسه ، ثم حاول فيما بعـــد أن ينـــتحر ، غـــير الأطـــباء تمكنوا من إنقاذه ، ولما شعر أن تقديمه للمحاكمـــة العســـكرية وهـــو على قمة قيادة الجيش عار كبير كان عليه أن يتصدى له ، فقد أقدم فى الرابع عشر من سبتمبر بعد أن خدع حراسه لوقت كاف – من أن يبتلع قنينة من السم وفى هذه المرة قضى نحبه .

تلـــك هى على أى حال الرواية الرسمية حتى وإن ترددت روايات أخرى فـــى النوادى والمقاهى . وفى كل الأحوال سواء كان عبد الناصر قد تخلص من صديقه أم لم يتخلص منه ، فقد ظل عبد الناصر مسيطرا على الجمهورية

العربية المتحدة وهى مقلمة الأظافر بنفس الطريقة التى ظل فيها الإسرائيليون يحـتلون سيناء ويتحصنون فى الخنادق على الضفة الشرقية لقناة السويس ، وخـلال الشهور التى تلت أقسم عبد الناصر على استعادة الأرض التى فقدها حتى ولو كان ذلك عن طريق حرب أخرى .

ولكـى يضـع الأساس لأحلامه ، كان مستعداً للتضحية بتسليم المزيد من استقلال الجمهورية العربية المتحدة لموسكو مقابل السلاح الروسى الذى كان فى حاجة ماسة له لإعادة بناء جيشه وقواته الجوية من جديد .

لقـد وضع الانتصار الإسرائيلى الروس فى مأزق كبير ، فخلال أسبوعين مـن تـاريخ وقف إطلاق النار ، طار المارشال زخاروف إلى القاهرة ليرى إنقـاذ مـا يمكن إنقاذه من ساحة الشرق الأوسط الروسية المحطمة ، ثم تلاه بودجورنـى نفسه. قد توغل الروس بعمق فى المستنقع المصرى لكى يقدروا هـوة الخسائر ثم يغادرون. ومن أجل هيبتهم فى العالم العربى وفى كل مكان ، كـان علـيهم دعـم ناصر بأى طريقة ، وهذا ما فعلوه عن طريق إرسال شـحنات ضـخمة من الطائرات والسلاح حتى أنه لم تمض غير شهور حتى استبدل العتاد العسكرى الذى استولى عليه الإسرائيليون خلال الحرب ، وكان الثمـن الـذى دفعته مصر هو تشديد القبضة الروسية عليها ، بالإضافة إلى زيـادة فـرض الرهونات على الاقتصاد المصرى الذى بات يئن تحت حمل ثقيل .

فـى الماضـى سـئل مسئول حكومى رفيع المستوى ذات مرة هو يتناول الشـاى فـى النادى عما إذا كانت البلاد قادرة على تحمل تكلفة المشروعات الكثـيرة والطموحـة فى مجال التصنيع ، وفى المجال الاجتماعى والتى كان يخطـط لهـا . فأجاب بأن الجمهورية العربية المتحدة مثلها مثل الرجل الذى يسـتدين من البنوك ليبنى مجمعاً سكنياً ، وبينما العمل قائم على قدم وساق ، وجـد نفسه فى حاجة إلى سيولة مالية ، لكن ما أن اكتمل البناء حتى بدأ فى تأجـير وحداتـه ، وبذلك تمكن من تسديد ديونه « ثم راح يعدد على أصابعه مصـادر العملة الصعبة فى الجمهورية العربية المتحدة : إنتاج القطن ودخله

٣٠٠ ملـــيون جنيه إسترلينى ، ثم قناة السويس التى تحقق لمصر دخلاً قدره ٢٠٠ ملـــيون جنيه إسترلينى ، ثم البترول ودخله ١٠٠ مليون إسترلينى ، ثم الســـياحة ودخلهـــا ٥٠ ملـــيون إسترلينى فيكون المجموع من دخل العملات الصـــعبة هـــو ٦٥٠ مليون إسترلينى ، وهو مبلغ كاف لسد حاجة البلاد فى الأحـــوال العاديـــة ، ثم أنهى حديثه بابتسامة الواثق من نفسه حدث ذلك عام ١٩٦٥ « مـــع العلـــم يجـــب أخـــذ تلك الأرقام بتحفظات » أما الآن ونتيجة لأحـــداث ١٩٦٧ ، فقد رهن محصول القطن لروسيا لسنوات قادمة ، أما قناة الســـويس فقـــد أغلقت ، وشركات البترول لم تعد قادرة على العمل (بعد أن وقعـــت حقـــول البترول فى سيناء فى أيدى الإسرائيليين) كما توقف السواح عـــن المجئ . ولمواجهة فقدان هذه المصادر من الدخل فى ضربة واحدة فقد تطلـــب ذلك تحمل نوع خاص من المسئولية وهذا ما فعله عبد الناصر ، فقد اضـــطرت الجمهوريـــة العربـــية المتحدة إلى تعليق الكثير من المشروعات الصـــناعية والتـــنموية ، وراحـــت حرفيا « تتسول » بمعنى الكلمة المال من الدول العربية الأخرى .

لقـــد بـــنى ناصـــر مصر الحديثة ، لكنه فى النهاية هو الذى دمرها ، لقد انتزع استقلال بلاده من براثن بريطانيا ، غير أنه سلم هذا الاستقلال طواعية إلى روسيا، لقد طرد البريطانيين ليحل محلهم السوفيت ، لقد جعل المصريين يفخرون بأنهم مصريون ، لكنه قادهم فى حرب فاشلة فى اليمن ، وتسبب فى هزيمتهم على أيدى الإسرائيليين الذين وصل جيشهم إلى ضفاف القناة .

فـــى عيون أى مفكر مصرى كان ناصر مأساة فى حد ذاته ولكن بالرغم مـــن ضخامة حجم فشله ، فقد ظل الأب الموقر للجماهير التى لا تزال تعبده ولقـــد عـــبر لي طالب بكلية الزراعة فى جامعة القاهرة يبلغ من العمر خمس وعشـــرين عاماً بقوله : « أنا شخصياً كنت أتمنى أن آخذ بندقية وأطلق النار عليه لو تحققت لى الفرصة لكن بالرغم من ذلك عندما سمعت بموته ، بكيت علـــيه » قلت له لماذا ؟ فرد قائلاً : عند يموت الإنسان عليك دائماً أن تذكر محاســـنه فلقـــد كان ناصر شخصيته ديناميكية ، وكان رمزاً لحركة المقاومة العربـــية فهـــو الذى أعطانا الشعار والرغبة « لكى نرفع رءوسنا وأن نكون

فخوريـــن لكونـــنا مصــــريين » أنـــنى أعجبت بالشعار بالرغم من كراهيتى للرجل».

وبالـــرغم أنه لا يبعد بينه وبين طبقة الفلاحين فى صعيد مصر سوى جيل واحـــد ، إلا أن ناصـــر أطلق العنان لأمانى الجماهير العريقة المكبوتة التى عـــبرت عنها أشعار أحمد شوقى ، وموسيقى عبد الوهاب وأغانى أم كلثوم، وروايـــات طـــه حســـين ، وكأنـــه قام بترجمتها من كلام إلى عمل إيجابى وتاريخى . لقد كان شخصية محورية فى العالم الثالث غير المنحاز ، إذ فاق بقامته وهامته كل معاصريه . وبسبب كونه بالتحديد على خلاف كبير معهم، فقد جعل الوئام مع جيرانه أمراً محالاً . لقد كان الزعيم العربى الأوحد الذى كـــان له الوقـــار القـــادر على تحقيق السلام مع إسرائيل ، لكنه لم يفعل فى الأســـابيع الأخيرة من حياته للتوصل إلى حل يضع نهاية للصراع العربى – اليهودى الذى لا نهاية له .

ولقـــد كـــان آخر أعماله السامية هو سبر أغوار العداء بين ياسر عرفات والملـــك حســـين . ولســـخرية القدر جاءت وفاته نتيجة لأزمة قلبية فى ٢٩ سبتمبر ١٩٧٠ بينما كان يودع ضيوفه فى مطار القاهرة .

وقد أحدثت وفاته ربكة «عبر العالم بقدر ما كانت تحدثه ضربات المعلم» التى أحدثها فى حياته .

الخاتمة

رحيل الفرعون

شــقت الجماهير طريقها إلى القاهرة ، جاءت فوق أسطح القطارات وفى الحــافلات الــتى تكدســت بهم بطريقة تعرض حياتهم للخطر وفوق الجمال والــبغال وعربات الكارو التى تجرها الحمير ، فمن كل محافظة تدفق عامة الــناس وقــد اعتصــرهم الحزن ، يتزاحمون بمئات الآلاف فى طريقهم إلى العاصــمة مــن أجــل المشــاركة فى جنازة الرجل الذى كان يعرفونه باسم «الــريس» وعلــى قرع الطبول الجنائزية ناحت أصوات الملايين على طول طريق الركب الجنائزى الذى بلغ عشرين كيلو مترا وهم يرددون : ناصر... ناصــر... أما رؤساء الدول الثمانى عشر ومئات الوفود الأجنبية الذين كانوا يســيرون خلــف عربة المدفع التى تجرها الخيول ، فقد كادوا يسقطون تحت الأقدام أمام ذلك البحر الهائج المزمجر بالبشر . ولقد قال جاك شابان دالماس الفرنسى Jacque Chaban Delmas والذى كان يوماً عضوا فى فريق الرجبى لكــرة القدم « لقد بدوت كما لو كنت قد وقعت وسط اضطراب عظيم». فمنذ موت آخر الفراعنة منذ ألفين وثلاثمائة عام مضت لم تشهد مصر جنازة تأخذ بــالقلوب والألــباب مثل هذه الجنازة . أن هذا الحزن الذى لا حد له من هذه الملاييــن العديــدة كان بمثابة تأكيد نهائى لسيطرة قبضة ناصر غير العادية على مشاعر الملايين .

لكــل أمــة نصيبها من الرجال العظام ، غير أن العالم يعرف كيف يسير أمــوره بعــد رحــيل هؤلاء العمالقة . لقد أسدل الستار عن عصر ناصر ، وبهــدوء تشــجع صــديقه القديم أنور السادات على ارتداء عباءة الرئاسة ، وبهــدوء أيضــا بدأ يراجع بعض ملامح الناصرية المتطرفة ، وبدأت مشقة صــعود التل لكى يصلح علاقاته الدولية ، محاولاً استعادة الأرض السليبة ، محققــاً الاستقرار الداخلى ، بينما العالم يمسك أنفاسه حول الآمال التى عقدت لتتحسن الأمور فى الشرق الأوسط .





جنازة الرئيس عبد الناصر تعبر عن الحزن القومى ولم تعرف مصر جنازة بمثل هذا الحجم منذ جنازات الفراعنة

حتى عندما شرع هو ورفاقه فى إعادة النظام من حاله الفوضى لابد وأنهم كـــانوا يعكسون قول بول فاليرى Paul Valery المأثور وهو « الرجل العظيم هـــو الذى يخلف من ورائه أولئك الذين يتبعونه فى المصاعب Great man is he who leaves behind those who Follow him in difficuties.

فـــبالرغم مـــن ضخامة أعماله المبكرة فإن سنوات حكم ناصر العملاقة لم تـــبعد الكارثـــة عن مصر ، إذ ترك بلادة ذات التاريخ العريق تصارع حالة الفوضـــى وهـــى بين براثن الروس بعد أن ذهب مع الرياح دخلها من العملة الأجنبـــية ، وبعد ان أصاب قواتها المسلحة الخزى والعار ، تاركا شعبه يسير مقهورا تحت مظلة الأوامر الدكتاتورية ومع وجود العدو يدق على الباب.

وبالرغم من كل ذلك فهو لا يزال فى نظر الجماهير من أبناء وطنه أعظم مصرى منذ أيام الفراعنة.

هوامش الكتاب

(١) فــى عام ٩٦٩م أرسل المعز الخليفة الرابع فى الأسرة الفاطمية المنشقة (التى استولت منذ عــام ٩٠٩م على الساحل البربرى من فاس حتى الحدود المصرية) جيشاً تعداده ١٠٠,٠٠ رجل تحت قيادة العبد الصقلى جوهر ضد مصر . وألحق جوهر بالحكام الإخشيديين هزيمة عند الجيزة فى نفس المكان الذى حقق فيه نابليون انتصاره على المماليك بعد ثمانية قرون . وعلــى الفور شرع فى بناء ووضع أساس المدينة والقصر للخليفة، حيث اختار موقعاً على أرض مرتفعة إلى الشمال من الفسطاط التى كانت حتى ذلك الوقت عاصمة لمصر . ويروى المؤرخ العربى المقريزى أن جوهر قام بنفسه بتخطيط المساحة التى بلغت١٢٠٠ × ١٦٠٠ يــاردة وجعل بين قطريها أجراسا معلقة فى الحبال . وكان القصد منها أن يقوم العرافون والمنجمون بدق الأجراس عندما تظهر العلامات أن اللحظة المناسبة قد جاءت لوضع حجر الأســاس . ولكــن الذى حدث أن حطت حدأة فوق أحد الجبال مما أعطى الإشارة ، فساد الرعب عند المنجمين (وظهور الحدأه هذه منتشرة فى القاهرة حتى اليوم ، وقد تنقض فجأة وتخطف الطعام من وعائك إذا ما كنت تتناول طعامك خارج المنزل) وعلى أى حال ما أن أعطيــت الإشــارة حتى بدأ حفر الأساس وكان كوكب المريخ - القاهرة - كوكب الحرب والصراع فى صعود ومن ثم أعطيت المدينة الجديدة اسم القاهرة بدلاً من اسم المنصورية كما كان قصد بها أصلاً. ومن ثم فقد احتفل بألفية القاهرة عام ١٩٦٩م .

(٢) كلمــة « الأغــا » تعــنى حرفياً « الأخ الكبير » ، حتى بعد ان بقيت ارتباطات المدرسة العسكرية قوية بين «الأغا» والأينى Ini الذى حمل فى بعض الأحيان اسم « الأغا».

(٣) عرف السلطان قلاوون باسم « الألفى » لأنه ثمنه كان ألف دينار ، بينما على الجانب الآخر بــيع « بيــبرس » بأربعيــن ديــناراً بسبب وجود حول طفيف فى إحدى عينيه بينما بيع ماليمكتمار Maliktmar بـــ ٥٠٠٠ دينار بسبب جمال هيأته المذهل .

(٤) ربما اقرب مقارنة للمملوك بدرجة أمير أو بك هو البارون فى أوروبا العصور الوسطى .

(٥) كان الشذوذ الجنسى شائعاً بين المماليك ، وربما كان النظام كله إلى حد ما يقوم على ذلك كما لاحظ نابليون .

(٦) يمــيل أغلــب المؤرخيــن الجادين إلى استبعاد حكاية القفزة الدرامية ، كخرافة . غير أن جيوفانى فينيتى Giovanni Fineti الذى كان حاضراً ساعة المذبحة يقول : « هناك زعيم آخــر اسمه أمين بك الذى كان شقيقاً للألفى حث حصانه النبيل الذى كان يمتطيه بأن يقوم بحــركة يائســة كبيرة بأن نخسه حتى جعله يتسلق المتاريس ، مفضلاً أن يرتطم بالأرض ليــتمزق إلى قطع على أن يذبح غدراً ، فدفعه لأن يقفز إلى أسفل الجرف من ارتفاع يقدر

بنحو ٣٠,٠٠ قدم وربما أكثر، غير أن الحظ حالفه حتى أنه بالرغم من أن الفرس مات عند سقوطه، إلا أن راكبه نجا. وكان هناك معسكر للجنود الألبان أسفل المكان،وكانت خيمة أحد الضـــباط قريبة من المكان الذى قفز منه، وبدلاً من أن يبتعد عنه، اقترب منه وألقى بنفسه طالباً منه حق الضيافة متوسلاً إليه أن لا فائدة ترجى منه، وقد منحه الضابط حق العفو بل قـدم له حـــق الحمايـــة، وحتى ولو كان فى ذلك خطر عليه، وأبقاه مختفياً طوال استمرار الغضب الشعبى وتعديات الجنود . بل أن فينيتى Fineti ادعى أنه رأى أمين بك بعد ذلك بسنوات فى سوريا .

(٧) وهذا يعنى فى الحقيقة أنه مات من جراء وباء الطاعون أو ترك فى النهاية لكى يعود إلى موطنه .

(٨) أن توافـــق إعلان محمد على للقنصلين الفرنسى والبريطانى أنه ينوى إعلان استقلاله مع قرار الباب العالى بطرده من سوريا دفع محمد على للدخول فى حرب مع العثمانيين .

(٩) افتتح فى عام ١٨٥٦ خط السكة الحديد بين القاهرة والإسكندرية وكان الأول من نوعه فى أفريقـــيا . تلاه رأس كولونى Cope Colony عام ١٨٦٠ ، ثم افتتحت سويسرا والدانمارك أول خـــط لهـــا عـــام ١٨٤٤م ، وأسبانيا عام ١٨٤٨ والسويد عام ١٨٥١ ، والنرويج عام ١٨٥٣ والبرتغـــال عام ١٨٥٤ وجاءت كل من تركيـــا واليونـــان بعد مصر (١٨٦٠ وعام ١٨٦٩) . وبينما اكتمل خط الاتحاد الباسيفيكى عبر القارة عبر شمال – أمريكا عام ١٨٦٠ .

(١٠) ومـــع اقتراب القرن التاسع عشر تغير ميزان القوى بين الغرب والشرق بشكل كبير حتى أصبح لدى الأوربيين فى ذلك الوقت احتمالات أكبر للتدخل .

(١١) وقـــبل ذلك بشهر أسر سعيد إلى السير هنرى بلور Sir Henery Bulwer فى القسطنطينية بـــندمه على تبديد ثروة بلاده (ف . يو .بلور F. U. Bulwer راسل Russell ١٥ ديسمبر ١٨٦٢) .

(١٢) جـــاء فـــى مســـودة خطاب كتبته زوجة فردى Verdi فى أغسطس عام ١٨٦٩ تؤكد فيه موضوع طلب إسماعيل لعزف ترنيمة Hymn وليس عمل أوبرا . وثم فان الرواية المعتادة عن أصول أوبرا عايدة غير حقيقية (Frank Walker, The man Verdi, p278) وبالرغم مـــن ذلـــك فقد كان لدى الخديو النية فى إنجاز أوبرا وطنية – كما كتب بذلك درانهت بك Draneht Bey إلـــى فردى : « فى المستقبل سوف تصبح أسعد ذكريات حكمه » . وفى الـــبداية رفـــض فـــردى ، ولكن عندما كتب ماريبت باشا من خلال وساطة كاميل د لوكل Camile du locle أن إســـماعيل اقترح : « طرق باب آخر .. » كانت هناك فكرة لتكليف جونـــد Gound بل حتى فاجنر Wagner ، ولو قبل الأخير القيام بها فربما أنتج شيئا أكبر Grandiose لأن هذا المؤلف الموسيقى كانت عواطفه متغيرة . غير أن الشروط الذى كانت

بالتأكــيد تناسـب الأمــير . فقد حددت دفع ١٥٠,٠٠٠ فرنك مع احتفاظ فردى بكل حقوق العرض خارج مصر . وأخيراً افتتح أول عرض لأوبرا عايدة فى القاهرة فى ٢٤ ديسمبر عام ١٨٧١ فى حضور الخديوى . وللأسف فقد دمرت دار الأوبرا تماماً بسبب حريق حدث فى ٢٩ أكتوبر عام ١٩٧١ فى ما يكاد يتفق مع مرور مائة عام على بنائها .

(١٣) هذه الأرقام مأخوذة عن كتاب السير جورج يونج: Sir George Young مصر (ص ٨٤) مع استبعاد قرض عام ١٨٧٩ الذى لم يكن إسماعيل مسئولاً عنه كليه ، وأرقام الأموال التى استدينت وتسلمت تقدر عادة ما بين ٦٨ مليون إسترليني و٤٧ مليون إسترليني.

(١٤) وقــبل ذلك بعشر سنوات فى يناير عام ١٨٦٥ كانت الليدى دف Lady Duff قد كتبت فى مؤلفها، خطابات من مصر ١٦٦٣ - ١٨٦٥ (Letters From Egypt 1863 1865) تقول : «فى الأسبوع الماضى كان الناس يلعنون إسماعيل فى شوارع أسوان وكل إنسان كان يعبر علنا عما يعتقد . وكان الكرباج ينزل على ظهور وإقدام جيرانى طوال الصباح . لقد وصل نظام الإبتزار والاستغلال الجماعى حداً من الصعب الذهاب أبعد منه » . وقد عاشت لوسى داف جوردون Lucie Duff Gordon لسنوات طويلة فى الأقصر فى بيت بناه سولت Salt القنصـــل الـــبريطانى العــام فــوق قمة معبد خيم Khem . وملاحظاتها هامة لأنها كانت الإنجلــيزية الوحــيدة التى عاشت فعلاً فى الريف ووصفت ما كان يحدث فيه . وفى عام ١٨٦٧ فــى آخــر الخطابات من مصر Last Letters From Egypt كتبت : « لا أستطيع وصف البؤس هنا . فكل يوم تفرض بعض ضرائب جديدة . إذ كان على كل حيوان: جمل، بقــرة ، غــنم ، حمار ، فرس أن يدفع . لم يعد الفلاحون قادرين على تناول الخبز، أنهم يعيشون على طعام الذرة المخلوط بالماء والخضراوات الطازجة والجلبان... إلخ . أن الناس فــى مصر العليا يهربون بالجماعات ، لأنهم غير قادرين تماماً على دفع الضرائب الجديدة وتنفيذ العمل الموكل إليهم. حتى هنا (فى القاهرة) فأن الجلد بسبب الضرائب السنوية شئ مرعب .

(١٥) لقــد عرضت الملكة فكتوريا على دزرائيلى Dieraeli وسام الجارتر Garter أو الدوقية، ومــنح عضــوية مجلس اللوردات على شقيقه أو ابن أخيه . فرفض كل ذلك ما عدا وسام الجارتر . وعلى أى حال لم يكن جلادستون سعيدا وأعلن إدانته لمؤتمر قبرص ووصفه بأنه « اتفــاق مجانيــن (Insane Convenant) « ونــوع مــن النفاق » ذى الوجهين act of duplicity ، وقــد رد دزرائيلى على ذلك بعبارة من الذم الشهيرة التى أفصح عنها خلال مأدبة عامة وصف خلالها جلادستون بأنه «خطيب معقد مخمور بفعل غرور الأطناب الذى يتسم به». (انظر بليك دزرائيلى ص ٦٤٩ - ٦٥٠ . Blake , Disaeli. pp. 649 - 650).

(١٦) بالــرغم مــن أن اسمه يكتب عرابى Arabi فى المصادر الإنجليزية إلا أنه الكلمة العربية المعروفة هى عرابى Orabi .

(١٧) لــم يكــن الموظفون البريطانيون ، خاصة عندما تزايدت أعددهم أكثر فأكثر أكفاء بدرجة

ثابتة، بل كانوا يتصفون بعدم اللباقة .. إذ كانت التقاليد الأنجلو هندية التى استوردت إلى مصـــر والـــتى تـــنظر إلـــى الشرقيين على أنهم مخلوقات أدنى درجة وضعفاء بالمفهوم الأخلاقى، ولا أمل فى إصلاحهم لأنهم غير متجاوبين للرحمة ، وأنهم لا يستجيبون إلا «لليد القويـــة» ولا يكنون أى مشاعر مشتركة من التعاطف بين الرسميين البريطانيين وزملائهم المصريين « جون مارلو: كرومر فى مصر John Marlowe, Cromer in Egypt » .

(١٨) كتب اللورد سالسبورى Lord Salisbury الذى تولى وزارة الخارجية فى يناير عام ١٨٨٧ إلى هنرى درموند – وولف Henry Drummond - Wolff يقول: « أننى من قلبى كنت ، أتمـــنى إلا نذهـــب إلى مصر .. غير أن المشاعر الوطنية ومكاسبنا قد أثيرت ، لقد تذوقنا لحومهم ولن ندعهم يذهبون » : « الليدى جفيـــندولين سيسل : حياة روبرت ماركيز أوف ساليسبورى ، مجلد ٤ ، ص ٤١) .
Lady Gwendolen Cecil, Life of Robert Marquess of Salisbury, Vol. IV, p41.

(١٩) قـــام الســـير كولن سكوت مونكريف Sir Colin Scott Moncrieff بإصلاح القناطر شمال القاهرة ، وكان المخطط الأول لعدد من الإصلاحات الخاصة بالرى على طول البلاد والتى كان من نتائجها التزايد المستمر فى إنتاج مصر الزراعى ، والأكثر من ذلك إثارة للإعجاب جـــاء خـــزان أسوان الذى اكتمل بناؤه عام ١٩٠٣ بناء على تصميم السير وليام وليكوكس William Wilcocks بتكاليف تقدر بـــ ٣,٥٠٠,٠٠٠ مليون إسترلينى تقريباً مما ساعد على تخزين جزء من فيضان النيل لأغراض الرى ، وبذلك حول على الأقل ربع مليون فدان إلى الرى السنوى ليعطى محصولين بل ثلاثة محاصيل سنويا .

(٢٠) التحفاظت المعنية هى : ١– تأمين خطوط المواصلات للإمبراطورية فى مصر .
٢ – الدفاع عن مصر ضد العدوان أو التدخل الأجنبى سواء كان مباشراً أو غير مباشر.
٣ – حماية المصالح الأجنبية فى مصر وحماية الأقليات .
٤ – السودان .

(٢١) كان أحد الأسباب الأكثر أهمية لاتخاذ القرار لإعادة فتح السودان هو تأثير هزيمة الإيطاليين فى موقعة عدوة .

(٢٢) فـــى ضـــوء التفوق البريطانى فى قوة النيران لم يكن حجم الخسائر المتوقع يدعو للدهشة. ويمكن الاستشهاد بما قاله الكابتن بلود Captain Blood كشاهد على معركة أم درمان:

لقـــــد وقف على تل صغيـــــر
وتلفت من حوله بعينيــــه الكسولتين
وقـــــال تحـــت أنفاســـه
مهما يحدث فلدينا أكبر قدر من البنادق
أما هم فليـــس لديهـــم شئ منها

(هيلير بيللوك : مسافر عصـــــرى
(Hilaire Belloc:. A modern Traveller

(٢٣) كـــان من المعتاد لشركات الأعمال أن ترسل برقياتها عادة مشفرة بنتلى رقم٢ Bentleys . Number Two

(٢٤) تحولت هذه المأدبة التى أقيمت بمناسبة زواج ابنة عمى إلى أن تكون ذات أهمية تاريخية . فخلالها جاءت الأنباء إلى كبير مهندسى القوات البريطانية فى مصر بأن الاندفاع الألمانى قد أوقف على مقربة من الإسكندرية وبناءً على ذلك أوقفت التعليمات التى كانت قد صدرت له من قبل بفتح أهوسة بحيرة مريوط وإغراق الإسكندرية .

(٢٥) فى ٧مايو عام ١٩٤٦ عرض رئيس الوزراء المستر آتلى سحب كل القوات البريطانية من الأراضـــى المصـــرية ، ووضع حلول عن طريق المفاوضات لمراحل وتاريخ اكتمال هذا الانســحاب ، وأن تقوم الحكومة المصرية بالتفاوض لجعل إمكانية المساعدة المشتركة فى زمـــن الحرب أو التهديد الوشيك بالحرب طبقاً لشروط التحالف H. C. Deb 5th Series, Vol. 423 Cols. 774 ولســوء الحظ انهارت المفاوضات من خلال المعارضة وعدم الثقة بين كل من إنجلترا ومصر ، وقد زعم اللورد «ستانسجيت» Lord. Stansate فيما بعد أنه «لــو كــنا قادريــن على إعلان أنه فى المستقبل لن تبقى القوات البريطانية فى مصر إلا بالموافقة المصرية لكنا قد عقدنا المعاهدة خلال شهر» . R.11 A. Information Popers No. 19, P.88.

(٢٦) كمـــا ذكــر ناتنج Nutting فيما بعد : كان آخر شئ كان يدور فى رأس ناصر خلال أى مــرحلة مــن مــراحل أزمة السويس أن تجازف كل من فرنسا وبريطانيا بتدمير أى أثر لتأثــيرهما وســمعتهما فـــى العالم العربى باستخدام إسرائيل كذريعة للاستيلاء على القناة بالقوة». Anthony Nutting Nasser p. 148.

دراسة نقدية موجزة
عن
مصادر الكتاب

المقدمة:

لا يوجــد نقــص فى المؤلفات عن نابليون ، وفى كل موسم يظهر الجديد مــنها. لكــن العمــل المعيارى فى هذه المرحلة بالذات من تاريخ نشاطه هو كــتاب هويلــر وبــرودلى . Wheeler and Broadly: Napoleon and the Invasion of England (London 1908). وفــى لهجة أخف كتاب : Carola Oman : Britain Against Nopoleon (Faber 1947) فهــو ملئ بالتفاصيل الطــريفة . كذلــك فــأن كتاب دف كوبر : توليران ، جدير بالقراءة Duff Cooper : Toleyrand (Cape 1932),

أما عن الروايات الفرنسية فقد اعتمدت اعتماداً أساسياً على مؤلف :

Michelet et la Jonquiere massive : L Expedition en Egypte (Paris 1899).

لكــن علــى الباحثيــن الجاديــن الرجوع إلى Correspodence indite, officielle et Confidentielle de Napoleon Bonaparte: Egypte (Paris 1810 - 1820).

والذى منه نقلنا نص خطاب نابليون إلى تاليران (Vol.II, p. 235) .

أما ملاحظاته إلى ميوت Miot فقد أخذتها عن :

Jacques Francois Miot : Memoirs Pour Servir a L histoire des expeditions en Egypte et en Syrie (Paris 1814).

* * *

الفصول من ١ – ٣:

أن أكــثر الروايات المعاصرة قيمة لأحداث هذه الفترة فى مصر هو بكل تأكيد ذلك العمل الهام الذى كتبه الشيخ عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار .

والـــذى ترجم إلى الفرنســية تحت عنوان : مذكـــرات قاطن فى القاهرة (لـــ ٩ أجزاء ١٨٨٨ ١٨٩٦) :

Le Journal d un habitent du Caire (5,vols, Cairo 1888 - 96)

ولـــد الشــيخ الجبرتى فى مصر عام ١٧٥٤ . وهو أصلا من « زيلع » علـــى الســـاحل الأفريقى من خليج عدن ، وقد استقرت أسرته فى مصر منذ ســـبعة أجيال ، وكان جده الأعلى الشيخ على ينظر إليه كولى من أولياء الله الصالحين لدرجة أن ضريحة فى ادفو كان يقصده الحجاج ، أما والد الجبرتى فكان معروفاً كأعظم فقهاء اللغة العربية فى أيامه ، تاركا مكتبة يستعير منها مـــن يـــريد بالمجان . وكان عبد الرحمن نفسه عالماً وواحداً من أبرز شيوخ الأزهـــر ، وقـــد سجل يومياته من ١٧٨٠ حتى عام ١٨٢٠(.) عندما اغتيل بـــناءً علـــى أوامـــر من محمد على – كما قيل – عندما كان يمتطى حماره قاصـــداً بـــولاق ، ولأنه قد اختير لعضوية الديوان ليخدم فى الديوان العام أو الحكومـــة المحلية التى أقامها بونابرت بمساعدة أعيان المسلمين فقد كان فى مكانـــة جـــيدة تؤهـــل له معـــرفة ما كان يحدث . فالمجلد السادس(..) من تواريخـــه يعطيـــنا وصـــفاً يوماً بيوم للاحتلال الفرنسى كما يرى من العيون المصـــرية ومن أبرز ما فيه أن شطر كبيراً منه قد اهتم بالشكاوى عن منهج الفرنسيين « فى التعايش السلمى » .

وهـــناك مصدر آخر معاصر : هو نقولا بن يوسف المعروف باسم نقولا الـــترك الـــذى تـــرجم مؤلفه : حولية مصر « ١٧٩٨ – ١٨٠٤ من العربية جاستون فييت Gaston Wiet ونشر فى القاهرة عام ١٩٥٠(...).

ومـــن الأعمـــال الحديـــثة وأكثرها تدقيقاً بكل تأكيد مؤلف«هيرولد»المفعم بالحـــيوية والمدعمـــم بالوثائق : بونابرت فى مصر Bonaparte in Egypt,

(.) التاريخ المحدد لوفاة الجبرتى ١٨٢٤ (المراجع) .

(..) لعله يقصد المجلد الثالث (المراجع) .

(...) عـــنوان المؤلف بالعربية « ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية » (المراجع) .

. Hamish (1963)

كذلـــك يجـب إلا يفوتنـا مؤلــف : الآن مورهيـــد The Blue Nile (Hamish Hamilton 1962)

وقد طبع الآن فى سلسلة Paperback

أما مؤلف ستانلى – لين بوول Stanely Lane - Pool

History of Egypt in the Middle Ages

فهو يعطينا قدراً كبيراً من المعلومات عن المماليك . ولكن للحصول على دراسة تفصيلية للمماليك يجب الرجوع إلى مؤلف ديفيد أجالون :

David Agalon : L Eslavage du Mamelouk.

أمــا عــن وصف نابليون للقاهرة فهو مأخوذ من مذكراته التى كتبها فى ســانت هليــنا St Helena ، أمــا عــن انطباعات الملازم مورجان مورجان كليفورد Lieut Morgan Morgan Clifford فقد نقلت من مؤلفه :

Egypt: Joural of a young officer of the 12th light dragoons (Privately printed 1802).

* * *

الفصول من ٤ – ٥ :

صدرت أول طبعة من كتاب إدوارد وليام لين عام ١٨٣٦ (*).

Edward Wiliam Lane: Manners and Customs of The Modern Egyptians (1836).

والآن هــو متاح فى طبعة (Everyman Library (no. 315 . وقد وصفه ابــن شقيقه ستانلى بول Stanlay Poole بأنه أكثر الصور اكتمالاً لحياة شعب كتــب علـــى الإطـــلاق ، والذى لا شك فيه أنه العمل المثالى عن مصر فى عصر محمد على وبالرغم من أن لين Lane نجح فى الاختلاط بعامة الناس فـــى القاهــرة ومشـــاركتهم فـــى حياتهم اليومية ، إلا أنه كان مراقبا نزيها ،

(*) ترجم هذا المؤلف إلى العربية انظر هامش ص

ونمـــاذج الحـــياة التى يصورها لا تزال فى الإمكان التعرف عليها فى ريف مصـــر حتى اليوم . وقد اعتمدت عليه فى حكاية أو اثنين رائعتين وفيما عدا ذلك ، فأن أقيم الكتب عن محمد على كتاب هنرى دودول Henry Dodwell
The Founder of Modern Egypt (Cambridge University, Press 1931)

وكذلـــك كـــتاب شفيق غربال : « بدايات المسألة المصرية وصعود محمد على » .

The beginings of the Egyptian Question and the rise of Mohamed Ali (Routledge 1928).

أمـــا عـــن وصف وليام تيرنر Wiliaim Turner فهو مأخوذ من مؤلفــــه Tour of the Levant (Published in 3 volumes 1820) ، أمـــا عن وصف شـــاهد العـــيان لمذبحة المماليك بقلم جيوفانى فينيتى فقد نشرها جون مورى John Murray عام ١٨٣٠ . أما عن وصف الحياة فى مصر فقد كتبه عضو البرلمان الإنجليزى السير جون بورنج John Bowring فى تقريره .

Report on Egypt and Candia (Parlimentary Papers 1940 vol. XXI).

كذلك فإن رسالة الدكتوراه التى قدمتها هلين أ. ريفيلن

Helen A. Rivlin: The Agricultural Policy of Mohammed Ali in Egypt O.U.P1953. جديرة بالرجوع إليها .

* * *

الفصل السادس :

قلـــيل مـــن المؤرخين خصصوا أكثر من فقرة أو فقـــرتين عن عباس . وأفضل المعلومات التى استطعت العثور عليها وجدتها فى كتاب « ادوين دى ليون (Edwin de Leon : The Khedives Egypt (New york 1877 كان دى لـــيون قنصـــل أمريكا فى القاهرة لأكثر من ثلاثة عقود ، وهو يعطينا وصفا مســـلياً للحـــياة الاجتماعـــية فى دوائر القصر خلال عصر عباس ، وسعيد ، وإسماعيل ، وأغلب رواياتى أخذته عنه .

ففى عصر سعيد كن هناك تدفق كبير للأوربيين وبالتالى كان هناك فيض

مـــن المؤلفـــات بالإنجليزية والفرنسية منذ ذلك الوقت فصاعداً بالرغم من أن المصـــريين أنفسهم بصرف النظر عن قصائد المديح التى كان القصر يوحى بهـــا ، وبعض الصفحات ذات الطابع الوطنى التى كانت تتداول فى الخفاء – اخـــتاروا الـــبقاء صامتين ، والحق يقال ، لم يكن أمامهم إلا اختيار ضئيل ، وممـــا قدمـــه الإنجلـــيز من مؤلفات فان D. A. Cameron قدم مادة طبية فى كتابه:

D. A. Cameron : Egypt in the 19th Century (London 1958)

غير أن أكثر الكتب التى وجدتها إفادة هو كتاب :

Sir George Young : Egypt (Benn 1927).

فهـــذا المحامى البارز الذى جمع المصادر القانونية عن الدولة العثمانية ما بيـــن ١٩٠٥ – ١٩٠٦ ، يعتـــبر احياناً من الموالين (فى رأى الأنسكلوبيديا بريتانـــيكا مـــثلاً . Encyclopedia Britannica) غـــير أن ملاحظاته اللاذعة بالنســـبة لى غالبا ما تلقى ارتياحا وترحيباً بدلاً عن النفاق والغلو فى الوطنية من جانب الكتاب الآخرين الكثيرين .

* * *

الفصل السابع :

كتـــب فرانســـواز شارلر رو Francois Charles Roux – مؤرخ حياة دى ليسبس والمدير السابق للشركة العالمية لقناة السويس – التاريخ الرسمى لقناة السويس . وبالرغم من انه عمل مثير للإعجب لكنه رواية من جانب واحد . ولذا فضلت الأعماد على المؤلف الرائع : Hugh J. Schonfield : The Suez Canal in World affairs (Constellation Books 1952).

أما الفقرات التى استعرتها فهى من أوراق دى ليسبس الخاصة Lettres, Journal, et documents pour Servir a L.histoire du canal de Suez, published in 5 volumes, Pairs 1875 - 81

ولكنها للاستهلاك المحلى أكثر من أى شئ .

* * *

الفصل الثامن :

قدم محمد بك رفعت مادة جيدة عن إسماعيل فى كتابه :

The awakening of Modern Egypt (Longmans 1947).

فبالرغم من أنه يجب أنه نتذكر أنه المدير العام السابق لوزارة المعارف فى القاهرة فقد كان يكتب عن جد الملك الجالس على العرش ، ومن ثم كان عليه أن يأخذ حذره . لقد وضع جورج يونج قائمة بالديون الأوربية على إسماعيل . أما عن الملامح البنكية فقد وصفت بإعجاب فى كتاب .

David S. Landes : Bankers and Pashas (Heinemann 1958)

والذى يتناول ببصيرة نافذة وبدرجة رائعة آليات المالية العليا والاقتصاد الاستعمارى فى مصر . أما عن كتاب :

A. J. Butler : Court life in Egypt (Chapman and Hall 1884).

وكتاب Moberley Bell : Khedives and Pashas: (طبعة غير موضحة فى لندن ١٨٨٤) .

فهما مليئان بالمعلومات المبهرجة كما تبدو لعيون زميل جامعة اكسفورد ومراسل لجريدة التايمز ، وكتاب لوسى دف جوردون الشهير الذى طبع بعد وفاتها فى عام ١٨٦٩ : Lucie Duff - Gordon : Letters From Egypt يعطينا صورة حية عن فزع الفلاحين تحت حكم إسماعيل والتى لم تتصنع فى كلماته عنه .

* * *

الفصلان التاسع والعاشر :

الكتاب الأمثل : عن إدارة الاحتلال البريطانى لمصر هو كتاب كرومر: (Cromer: Modern Egypt (Macmillan 1908 فقد تربى الكثير من شباب الإنجليز على هذه الفترات المضيئة من تاريخهم وهو يبلور وجهات النظر نحو مصر التى أخيراً قادت إلى مأساة السويس أنه قطعة غراء من الأدب الفكتورى ، ولكن نرجو ألا يؤخذ كحقائق مقدسة . كذلك كان « ولفريد

ســكافن بلنت » رجلاً عظيماً من عصر فكتوريا ولكن من نوع مختلف . فقد كــان دائمــاً يختلط بالمصريين من كل المستويات . وربما كان يعرف قدراً كبيراً عنهم أكثر مما كان يعرف كرومر الذى كان يغلق على نفسه مكتبة فى دار المعــتمد البرطــيانى . وما كان فى مقدرته أن يفعل أكثر مما فعل ففى كتابه Secret History of the British Occapation (Martin in Seker 1907) والــذى نقلت عنه الكثير منه فى الفصل التاسع ، يعطينا أحد جوانب الحكاية والــتى تــبدو فى جوانبها أكثر إقناعاً من وصف كل من كرومر ، وملنر ، وأوكلاند كلوفن.

ومما لا شك فيه فأن « بلنت » كرس نفسه لقضية الوطنية المصرية حتى أنه دفع تكاليف أحد المحامين للقدوم من لندن للدفاع عن عرابى عند محاكمته . وفى أحدث الكتب :

Mary Rowlatt : Founders of Modern Egypt (Asia Publishing House 1962).

تقــدم « مــارى رولات » وصــفاً حيا لضرب الإسكندرية بالقنابل ، وقد اســتمدت ذلك من خبرة جدها الذى كان يعيش فيها فى ذلك الوقت . وشاهد عيان آخر هو جون نينيت السويسرى :

John Ninet: Arabi Pasha, (Berne 1884) ويــبدو أن « نينــت » قــام بالــتجول بحــرية فى كل مناطق الاضطرابات ، بما فى ذلك معسكر عرابى عشــية معركة التل الكبير . لقد نقلت بعضًا من ملاحظاته أما عن المواجهة بيــن عرابى وتوفيق فقد أخذته من كتاب رفعت باشا ، ومن مذكرات عرابى الخاصة التى نشرها « بلنت » .

* * *

الفصل الحادى عشر :

يتــناول كــل من اللورد ملنر (Britain in Egypt) والمستر بلنت (My Diairies) (1889- 1914 (London 1918)) من وجهتى نظر متعارضتين موضوع التعامل مع الاحتلال البريطانى لمصر . غير أن جورج يونج يضع

خطـــا مـــتوازنا بيـــن الاثنين . وحديثا قام جون مارلو بإصدار دراسة موثقة ومحايدة :

John Marlowe : Cromer in Egypt (Elk 1970)

وقدم السير رونالد ستور فى كتابه :

Ronald Storrs: Orientations, London 1937

صـــــــورة متعاطفة عن « إلدون جورست » ، رئيسه السابق ، بينما يقدم الـــبارون دى كوسيل Baron de Kusel : An Englishman recollections of Egypt (Bodely Head 1914). وصـــفاً للحياة الاجتماعية . أما كتاب اللورد ادوارد سيسيل :

Lord Edward Cecil: The Leisure of an Egyptian official

فقـــد قابلة القراء بسرور خلال العشرينات من القرن التاسع عشر ، حتى وإن لـــم يستسغه رجال الطبقات الرسمية فى القاهرة . ولقد روى عن اللورد أدوارد عـــندما ضـــاق ذرعـــاً بالحياة فى لندن أنه دعا كتشنر إلى الغداء فى ولنبحـــتون باراكـــتس Wellington Baracts ، وبعد أن أغرقه فى الشمبانيا ، أغـــراه أن يصـــحبه معـــه إلى القاهرة كمستشار له ، حيث بقى فيها ليصبح المستشـــار المـــالى . وفى المقابل فإن وجهه النظر المصرية تجاه الاحتلال عبرت عنها بإقناع وبشكل طيب عفاف لطفى السيد فى كتابها :

Afaf Lotfi al. Sayyid : Egypt and Cromer (Murray 1968).

وقد كان جدى وجدتى معتادين على قضاء الشتاء فى القاهرة . بعد انتهاء القـــرن الماضـــى . ولما شرع والدى وهو شاب فى إدارة مشروعات الأسرة فـــى عـــام ١٩٠٦ ، فقـــد كنت محظوظاً أن أكون قادراً على اللاستفادة من خبراتهم منذ ذلك الوقت فصاعداً .

* * *

الفصل الثانى عشر :

هناك نقص فى المادة التاريخية عن الحرب العالمية الأولى وأنصح هؤلاء

المهتميــن بالجوانب العسكرية لها بالرجوع إلى كتاب السير جورج ماكمون والكابتن سايرل فول فى كتاباتهم الرسمية .

George Macmunn & Captain Cyril Fall : Military Operations in Egypt & Palestine (HMSO 1928).

وعلى مستوى أقل عمقا هناك كتاب :

P. G. EL-good . Egypt and The Army (Oxford University Press 1924)

الذى يقدم لنا المعلومات المطلوبة . غير أن كتابى المفضل هو :

Priscilla Napier: A late beginner (London 1966)

ففى هذا العرض الطريف عن طفولتها تصف زمن الحرب فى القاهرة من خلال عيونها كطفلة صغيرة ، فمن المثير أن نشاركها التفكير فى عمن يكون ذلــك الشخص الغامض الملقب بالقائد العام للقوات C-in-C القاطن فى آخر الشـــارع . أنـــنى مدين لها بالكثير من المعلومات المفعمة بالحيوية من جانب شاهدة عيان مدفقة. أما عن كتاب برايان حاردنر عن اللنبى :

Brian Gardner: Allenby (Cassell 1965).

فهو يعيطنا صورة طيبة عن ذلك « الثور » وكذلك عن الموقف السياسى بعد الحرب مباشرة .

* * *

الفصل الثالث عشر:

فـــى نظـــرتى علـــى السودان اعتمدت بلا شك على مقاله ليتون ستراكى الشـــهيرة: Lytton Strachey فـــى سلســلة : مشاهير الفكتوريين : Eminent Victorians (Collins 1959) وكذلك بالطبع على كتاب ونستون نشرشل .

Winston Churchill : The River War (Thornton Butterworth 1930)

ومن خلال قلم ولفريد بلنت الذى لا يكل ، هناك أيضاً كتاب : Gordon in Khartoum (London 1911). وعن الأحوال فى السودان ربما أفضل وصف هو كتاب رودلف سلاتن باشا 95 1879 : Rudolf Slatin Pasha : Fire and Sword in Sudan (Edward Arnold 1896) بيــنما أفضل عمل عن الحملة

ككل نجدها في كتاب السير ريجينالد وينجيت Reginal wingte : Mahdism and the Egyptian Sudan (Macmillan 1891).

* * *

الفصل الرابع عشر:

يتتبع كتاب توم ليتل الرائع Tom Little : Egypt Bonn 1958 تاريخ البلاد من عصر الفراعنه فما بعده . ولكنه ذا فائدة خاصة كمصدر عن الوضع السياسى منذ إعلان دستور عام ١٩٢٢(*) فنازلا . فبصفته على رأس وكالة الأنباء العربية Arab News Agency ، كان لـ « ليتل مزايا مراجعة الأحداث (كان جيمس موريس James Morris بالمناسبة نائباً له فى مطلع الخمسينات) ونتمنى أن يقدم لنا هذا الكاتب الممتاز الكثير من المعلومات من واقع خبراته فى القاهرة أما عن كتاب جون مارلو John Marlow : Anglo Egyptian relations 1800 1953 (Cresst et Press 1954) فهو نادراً ما يتألق . لكنه يقدم كل الحقائق أما عن كتاب لورد لويد Lord Lloyd : Egypt Since Cromer (Macmilan 1934) فهو فى نظرى أقرب لغسيل المخ لصالح الرجل الأبيض. ويشرح أمين يوسف بك الموقف المصرى فى كتابه Amin Youssef Bey : Independent Egypt (1936). وخلال العرض يضفى مذاقا على دوائر القصر خلال حكم فؤاد .

هناك بعض الروايات القصصية التى كتبت فى مصر بين الحربين . فرواية جون نيتل John Knittel : Dr. Ibrahim : (الدكتور إبراهيم) تركز على الإحباط الذى يشعر به طبيب فى الأرياف – كذلك فإن مؤلفات لورانس داريل (Justines, Cleas, and Balthazars) تعكس بشدة المناخ العالمى للإسكندرية فى فترة ما قبل الحرب والتى لها طعم خاص رغم أى شئ ، كما يعبر كفافى عن عاطفته كذلك لا يجب على الباحث أن يسقط من حسابه

(*) الصحيح ١٩٢٣ (المراجع) .

رواية :

E. M. Forster : Alexandria (Doubleday 1961).

والذى ربما هو أحسن كتاب إرشادى عن أى مدينة أخرى ، وروايته التى لا تقـــل إمتاعاً . Pharos and Pharillon (Hogarth Press 1961) والتى منها نقلــت ترجمة جورج فالاسوبولو Valassopoulo عن قصيدة كفافى : (الرب يهجـــر أنطونى) أما عن وصفى الانطباعى الخاص عن الإسكندرية فليس له مصدر غير تجربتى الخاصة .

* * *

الفصل الخامس عشر :

لقـــد تتـــبع صـــديقى جورج فوشير George Vaucher بدأب نشاط ناصر المـــبكر فى كتابه : Gamal Abdel Nasser et son equipe (Julliard 1959) حيـــث عقد لقاءات مع مدرسية وزملائه فى الدراسة ، بل تتبع الكتب القديمة فى المكتبة ولتى كانت من نتيجتها عرفنا انه خلال دراسته فى الكلية الجريدة كـــان ناصـــر يقـــرأ بيـــن الأعمال الأخرى : Robert Graves: Lawrence; Churchill River War; Buchan : Gordon:, Liddle Hart: Foch; Emil Ludwig; Napoleon والـــتى توحـــى أن كـــان لديه اهتمام يقظ فى الشخصية التاريخية وعن سيرته بشئ من التعمق هناك كتاب روبرت سان جون الرائع Robert St John : The Boss (Mr Graw - Hill 1960) والذى بالرغم من أنه كـــان محـــل إطلاع من جانب الدبلوماسيين الأمريكيين المعينين فى مصر خلال الســـتينيات ، وبالـــرغم مـــن أنـــه عامة متعاطف معه ، إلا أنه بدون توقع حظر دخولـــه فـــى مصـــر (ولحســـن الحـــظ أرسلت لى وزارة الإرشاد القومى نسخة مـــنه!) غـــير أن أهم المصادر عن أصول الثورة هو كتاب أنور السادات : ثورة علـــى ضـــفاف النيل : Revolution on the Nile (Alan Wingate 1957) أما عن مـــا نقلـــته فـــى بدايـــة هـــذا الفصـــل فهـــو مـــأخوذ عن كتـــاب الميجـــــور جـــارفيـــس Major C,S Jarvis : Oriental Spot light (John Murray 1936)

* * *

الفصل السادس عشر :

لقد تناولت غذائى أكثر من مرة فى مطعم فاروق المفضل Batades حتى أننى أكاد أتذكر مصدره على وجه الدقة ، فيما وراء الحقيقة أن كل الحكايات الـتى رويـتها – وأكثر منها كان محل تداول فى القاهرة ولهؤلاء المهتمين هـناك كـتاب مايكل ستيرن : فاروق Michael Stern : Farouk (Bantam 1965) الذى جمع معلومات غزيرة عن « الفاروقيات » أن أغلب المؤرخين الجاديـن يمـيلون إلـى رفض الفساد الفاحش والثراء الاستعراضى للسنوات الأخـيرة مـن حكم فاروق فى فقرة أو فقرتين . لكن يجب أن ننسى أن هذه الفـترة الأسـطورية أصبحت جزءاً من التراث المصرى ولا يزال هناك من يعـرفها ، إن لـم يكن كثير من الناس أحياناً يتذكرونها بمسحه من الأسف ، ومنذ وهلة قصيرة ردد على مسامعى هانز بادروت Hans Jury Badrutt وما قالـه له شـقيقة مـن أبـيه عن رحلات الصيف لجماعة البشوات فى سانت موريـتز ST . Moritz إذا قـــال : « إنـــه جد حقيقى أننا لم نصادف مـثلهم . فقد اعتاد أن يكون هناك ثلاثين أو أربعيـــن سيارة رولز رويس مـن مصـر فى الجراج . والمصريون لا يحلمون أن يكون لديهم شئ آخر غـير الرولـز رويـس اللهـم إلا سـيارة بنتلى . لقد اعتدنا أن يكون لدينا استعراض من الأناقة Concours d elegance للسيارات . وللكلاب بل وحتى للنسـاء ، غـير أن كـل ذلك توقف بعد قيام الثورة » . وعلى مستوى أكثر واقعـية نـتعامل مع المؤلفات الآتية حـول السنوات السابقة على قيام الثورة Tom Litle: Egypt, Jean Simone Lacouture: l Egypt en Mouvement (Seuil 1956) والـذى صـدرت طبعة منه بعنوان (Egypt in Transtion Methuen 1958) .

* * *

الفصل السابع عشر :

يصف كل من المؤلفات الآتية :

Anwar el Sadat: Revolt on the Nile; Vaucher: Gamal Abdel Nasser

كلهــا تعــالج تــنامى حركة الضباط et Son Equipe; St. John: The Boss الأحــرار وانقــلاب ٢٣ يولــيو عام ١٩٥٢ غير أننى أميل إلى إتباع المادة المفصــلة التى نشرها ثروت عكاشة فى مجلة « التحرير » وكذلك الوصف الذى قدمه أحمد أبو الفتح فى جريدة « المصرى » وإحسان عبد القدوس فى « روز اليوســف » وكلهــم كــانوا شهودا مساهمين خلال الساعات الأولى الحاســمة لمجلــس قيادة الثورة الجديدة . والخطب المباشرة التى ذكرتها فى قصة الانقلاب ذاته مأخوذة إلى حد كبير من هذه المصادر الثلاثة .

* * *

الفصلان ١٨ - ١٩ :

مؤلف توم ليتل وسانت جون مصادر ممتازة عن الأيام المبكرة للثورة بما فى ذلك تغلب عبد الناصر على نجيب فى مناوراته . ولقد نقلت نصوصاً من كتاب ناصر فلسفة الثورة (والذى إلى حد كبير ألفه له محمد حسنين هيكل) ويصف مايلز كوبلاند سيناريو صفقه الأسلحة التشكيلية فى كتابه :

Miles Copeland : The Game of Nations (McGrow - Hill 1969)

بينما يعالج ديزموند ستيورات الأعمال الفورية للحكومة الجديدة

Desmond Stewart : Young Egypt (Wingate 1958).

* * *

الفصلان ٢٠ - ٢١ :

حــتى ولو أن الوثائق الرسمية لاتزال محفوظة بعيداً عن الرجوع إليها إلا أنــنا لدينا عدداً من الكتب حول حرب السويس فبالإضافة إلى كتاب لاكوتير وليــتل وســانت جونــز فقد صدرت واحدة من أهم البحوث قام بها إرسكين تشلدرز :

Erskine B. Childers : The Road to Suez (Mac Gibbon & Kee 1962)

: (الطريق إلى السويس) .

ولقــد كتــب عــنه بيــتر كالفولوريسى Peter Calvocoressi فى جريدة

الاويزيرفر Observer : « يا له من كتاب عملاق يتعقب طريدى العدالة ، بل أنـــه ربمـــا يصـــمد لاختبارات الزمن ، وبالفعل فأن ارسكين تشلدرز أظهر نفســـه باضـــطراد أقرب إلى الملحوظة من أى شخص آخر . وعلى الجانب الآخـــر فـــإن كـــتاب اللورد آفون (أيدن) : مذكراتى : Sir AntonyEden: Memoirs - Full Circle (Cassels 1960) فهـــو عمـــل للأسف فقد الثقة فى عيون أغلب الناس .

* * *

الفصلان ٢٢ - ٢٣ :

باســـتثناء الســـواح ، قلـــيل من الإنجليز كانوا يشاهدون فى مصر خلال الســـيتينات ، لكـــن بيتر مانسفيلد Peter Mansfield الذى كان مراسلاً لجريده الســـانداى تايمـــز Sunday Times فى القاهرة ، جمع الوثائق عن هذه الفترة بطريقة تدعو للإعجاب فى كتابه : ناصر مصر .

Peter Mansfield : Nasser s Egypt (Penguin 1967) كذلـــك فـــإن جـــوردون وترفـــيلد الرئيس السابق لهيئة الأذاعة البريطانية B. B. C. القسم العربى جمع بعض من المادة المفيدة خاصة حول الميثاق الوطنى :

Gordon Waterfield : Egypt (Thames & Hudson 1967)

وهناك تحليل جيد للوضع الاقتصادى قدمه كلود إستيه فى كتابه

Claude Estier : L Egypte en Revolution (Julllard 1965).

* * *

الفصلان الرابع والعشرون والخامس والعشرون :

فـــى نظـــرى أن أفضل معالجة للحرب الإسرائيلية – العربية عام ١٩٦٧ هـــى الـــتى قدمتها مجموعة راندولف ونستون تشرشل فى كتابهم عن حرب الأيام السنة :

Randolf, Winston Churchill team: The six Day War (Heinemean

(Eric Rouleau, Jean Francois Held, وكـــتاب Penguin 1967).

Lacoutures: Israel et les Arabes - Le 3 me Combat (Seuil 1967).

هذان الكتابان ظهرا خلال أسابيع إن لم يكن خلال أيام من وقوع الحرب ومنذ وفاة ناصر أصدر جان لاكوتير سيرته بطريقة رائعة : J. Lacoutures Nasser (Seuil 1971) كمــا ان مقــتطفات من كتاب محمد حسنين هيكل : وثائق القاهرة The Cairo document والتى ستنشر فى دار نشر Doubleday عــام ١٩٧٢ حيــث نشــرت فـــى حلقـــات فى الساندای تلجراف Sunday Telegraph ولما كان هيكل هو لسان حال ناصر لسنوات طويلة . وربما كان أقــرب إلـــى الرئيس المصرى أكثر من أى شخص آخر خاصة فى المجال السياســـى . فكــتابه الواقع فى ١٧٠,٠٠٠ كلمة ربما سيثبت أنه أدق « سيرة حياة » عن جمال عبد الناصر حسين. ويكاد أن يكون سيرة ذاتيه في الحقيقة.

وأخــيرا فــإن كتاب انطونى ناتنج الرائع يعطينا تاريخاً واضحاً عن فترة حكم ناصر (Anthony Nutting : Nasser (Constable 1972 .

* * *

«تمت الترجمة بحمد الله»

أولاً : فهرست الأسماء الأفرنجية

ثانيًا : فهرست الأسماء العربية والمعربة

ثالثًا: أجندة الأحداث الهامة فى تاريخ مصر

١٧٩٨ نابليون يغزو مصر - معركة الأهرامات (٢١ يوليو) نبليون يدمر الأسطول الفرنسى فى خليج إلى قير.

١٧٩٩ نابليون يغادر مصر إلى فرنسا ويسلم قيادة الحملة إلى كليبر.

١٨٠٠ اغتيال كليبر - مينو يخلفه فى القيادة.

١٨٠١ حملة أبركرومبى الإنجليزى.

١٨٠٢ معاهدة أميان - فرنسا وانجلترا تجلوان عن مصر.

١٨٠٥ انتخاب محمد على فى منصب باشا القاهرة.

١٨١١ مذبحة المماليك (الأول من مارس) - طوسون يقود حملة على الجزيرة العربية.

١٨٢٠ فتح السودان.

١٨٢٤ وصول إبراهيم باشا إلى المورة على رأس قواته.

١٨٢٧ معركة نوارين وتدمير الأسطول المصرى.

١٨٣١ - ١٨٣١ الحملة على الشام محمد على يصبح رسميًا باشا على مصر ويؤسس أسرة وراثية (١٣ فبراير ١٨٤١).

١٨٤٨ الوهن يصيب ذاكرة محمد على تولى إبراهيم ثم عباس على التوالى.

١٨٤٩ موت محمد على الكبير - عباس يصبح نائبًا للسلطان (واليًا) العثمانى على مصر.

١٨٥٤ سعيد يخلف عباس (يوليو) ويمنح ديليسبس حق امتياز شق قناة السويس (شه نوفمبر).

١٨٥٩ بدء العمل فى حفر قناة السويس.

١٨٦٣ إسماعيل باشا يخلف سعيد كوالى على مصر (نائب للسلطان العثمانى).

١٨٦٧ إسماعيل ينجح فى الحصول على لقب الخديوى له ولخلفائه.

١٨٦٩ افتتاح قناة السويس (١١ نوفمبر).

١٨٧٥ دزرائيلى يشترى نصيب مصرفى أسهم قناة السويس من إسماعيل.

١٨٧٨ مؤتمر برلين.

١٨٧٩ السلطان العثمانى يعزل إسماعيل. توفيق يصبح خديو مصر (يونيو).

١٨٧١ البكباشى أحمد عرابى يقود الحركة الوطنية فى الجيش.

١٨٨٢ تدخل بريطانيا العظمى وقصف الإسكندرية بالقنابل (يوليو).

١٨٨٢ هزيمة عرابى فى التل الكبير (١٣ سبتمبر) وبداية الاحتلال البريطانى فى لمصر.

١٨٨٤ اللورد كرومر يصبح الحاكم الفعلى على مصر.

١٨٨٥ جوردون يلقى مصرعه فى الخرطوم (٢٦ يناير).

١٨٩٢ عباس حلمى يخلف توفيق فى منصب خديوى مصر.

١٨٩٨ معركة أم درمان (٢ سبتمبر).

١٨٩٩ عقد الاتفاق الأنجلو - مصرى للحكم الثنائى على السودان (١٩ يناير).

١٩٠٧ استقالة كرومر - جورست يخلف كرومر كمعتمد بريطانى.

١٩١٠ اغتيال بطرس غالى باشا.

١٩١١ وفاة جورست وكتشنر يخلفه كمعتمد بريطانى.

١٩١٤ بريطانيا تعلن الحماية على مصر وتعزل الخديوى عباس حلمى.

١٩١٨ سعد زغلول يطالب باستقلال مصر.

١٩١٩ نفـى سـعد زغلـول خـارج مصر. بداية الانتفاضة الثورية ضد بريطانيا.

١٩٢٢ إعلان استقلال مصر. والسلطان أحمد فؤاد يصبح لأول مرة الملك أحمد فؤاد (٢٨ فبراير).

١٩٢٤ حـزب الوفد يكسب الانتخابات بأغلبية عارمة واختيار سعد زغلول رئيسًا للوزراء. اغتيال السردار لى ستاك (١٩ نوفمبر).

١٩٢٧ وفاة سعد زغلول.

١٩٣٦ وفـاة الملـك فـؤاد فجأة، وجلوس الملك فاروق على العرش (٢٥ إبريل) توقيع معاهدة ١٩٣٦ بين بريطانيا ومصر.

١٩٤٢ الدبابـات البريطانـية تضرب الحصار حول قصر عابدين وتجبر الملـك فاروق على تعيين النحاس باشا رئيسًا للوزراء (٤ فبراير). النقيـب جمـال عبد الناصر يبدأ فى التخطيط للثورة. روميل يصل إلى العلمين (يوليو) معركة العلمين (اكتوبر).

١٩٤٦ قـيام المظاهـرات وأعمـال الشـعب ضـد بريطانيا فى القاهرة والأسكندرية القوات البريطانية تتحرك نحو منطقة القناة.

١٩٤٨ إعلان دولة إسرائيل. حرب فلسطين.

١٩٥١ الـنحاس باشـا يلغى معاهدة ١٩٣٦ الإنجليزية المصرية ويعلن أن فـاروق: « ملكًا على مصر والسودان » بداية الأعمال الفدائية ضد القاعدة البريطانية فى منطقة قناة السويس.

١٩٥٢ حريق القاهرة (٢٦ يناير) استيلاء الضباط الأحرار على الحكم فى ٢٣ يوليو. فاروق يتنازل عن العرش ويغادر البلاد (٢٦ يوليو).

١٩٥٣ إعلان الجمهورية فى مصر برئاسة محمد نجيب وناصر نائبًا له.

١٩٥٤ بداية الصراع بين نجيب وناصر (فبراير - مارس). توقيع اتفاقية الجلاء مع بريطانيًا (يوليو) قمع الأخوان المسلمين على أثر محاولتهم الفاشلة لاغتيال ناصر. فرض الإقامة الجبرية على محمد نجيب (نوفمبر).

١٩٥٥ إعلان قيام حلف بغداد. الغارة الإسرائيلية على غزه (فبراير) ناصر يمثل مصر فى مؤتمر بأندونج (إبريل). إعلان صفقه الأسلحة التشيكية (سبتمبر).

١٩٥٦ انتخاب ناصر رئيسًا للجمهورية (يونيو). الولايات المتحدة تسحب عرضها لتمويل مشروع السد العالى (يوليو). ناصر يعلن تأميم قناة السويس (٢٦ يوليو). حرب السويس: إسرائيل تهاجم مصر (٢٩ أكتوبر)، بريطانيا وفرنسا تتظاهران بالقيام بدور الشرطة المانعة للحرب - رسو قواتهما عند سواحل بور سعيد ٥ نوفمبر. وقف إطلاق النار فى ٦ نوفمبر.

١٩٥٨ إعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسوريا.

١٩٦١ انفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة. حملة من التأميم والمصادرات فى مصر.

١٩٦٢ عبد الناصر يعلن الميثاق الوطنى. حدوث انقلاب عسكرى فى اليمن.

١٩٦٣ مصر تتدخل فى اليمن.

١٩٦٤ خرشوف فى أسوان.

١٩٦٧ اشتباكات على الحدود بين سوريا وإسرائيل (إبريل). اندلاع حرب الأيام الستة - استقالة عبد الناصر، لكنه يعود بناءً على المطلب الجماهيرى والمسيرات الشعبية (يونيو). انتحار عبد الحكيم عامر. (سبتمبر).

١٩٧٠ بعد إجراء مشاورات فى موسكو ناصر يقبل بخطة روجرز لوضع حل مع إسرائيل (يوليو) عقد مؤتمر بين البلدان العربية فى القاهرة. ناصـــر يتدخل لحل النزاع بين حسين وعرفات (٢٧ سبتمبر). وفاة عـــبد الناصـــر على أثر أزمة قلبية مفاجئة. (٢٧ سبتمبر). اختيار أنور السادات رئيسًا للجمهورية (الأول من اكتوبر ١٩٧٠).

المحتويات

المشروع القومى للترجمة

العنوان	المؤلف	المترجم
١- اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢- الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣- التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤- كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥- ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦- اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧- العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨- مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩- التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠- خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١- مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢- طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣- ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤- التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥- الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦- أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف أحمد عتمان
١٧- مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨- الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩- الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠- قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتا[illegible]
٢١- خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣- تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤- ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥- مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦- دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧- التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨- رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩- الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علو[illegible]
٣٢- الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣- التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤- الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥- الأسطوره والحداثة	بول . ب. ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦- نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧- واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨- نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩- الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠- قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١- ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحي / محمود ماجد
٤٢- عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣- اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدي أخريف
٤٤- بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت : مارلين تادرس
٤٥- التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦- عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد علي
٤٧- تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨- حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتي
٤٩- الإسلام في البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠- ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثماني الميلود ويوسف الأنطكي
٥١- مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستي	ت : محمد أبو العطا
٥٢- العلاج النفسي التدعيمي	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفي فطيم وعادل دمرداش
٥٣- الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسي سعد الدين
٥٤- المفهوم الإغريقي للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحي
٥٥- ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : علي يوسف علي
٥٦- الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود علي مكي
٥٧- الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطي
٥٨- مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩- المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠- التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبري محمد عبد الغني
٦١- موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
٦٢- لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعي .
٦٣- تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤- برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥- في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦- خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧- مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدي أخريف
٦٨- نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩- العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولي وهويدا محمد فهمي
٧٠- ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١- السيدة لا تصلح إلا للرمي	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢-	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيميئوڤا	ت : حسن بيومى
٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦-	جاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت . محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٣-	مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠-	وسم السيف	ميجل دى ثربانتس	ت . محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤-	الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥-	مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا مج ١	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
٩٨-	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت . أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام توميسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١-	النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣-	قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : د. أشرف على دعدور
١٠٧-	صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨- ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩- حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠- النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١- المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢- الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣- راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥- غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢- نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيقولاى إيفانوف	ت : أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥- التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦- فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧- إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨- الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١- مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٤٠- حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤- صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥- موت أرتيميو كروث — كارلوس فوينتس — ت : أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء — ميجيل دى ليبس — ت : على عبدالرؤوف البمبى
١٤٧- خطبة الإدانة الطويلة — تانكريد دورست — ت : عبدالغفار مكاوى
١٤٨- القصة القصيرة (النظرية والتقنية) — إنريكى أندرسون إمبرت — ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس — عاطف فضول — ت : أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية — روبرت ج. ليتمان — ت منيرة كروان
١٥١- هوية فرنسا مج ٢ ، ج١ — فرنان برودل — ت : بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى — نخبة من الكتاب — ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام الفراعنة — فيولين فانويك — ت : فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت — فيل سليتر — ت : خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر — نخبة من الشعراء — ت : أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى — جى آنبال وآلان وأوديت فيرمو — ت : مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين — النظامى الكنوجى — ت : عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا مج ٢ ، ج٢ — فرنان برودل — ت : بشير السباعى
١٥٩- الإيديولوجية — ديفيد هوكس — ت: إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة — بول إيرليش — ت: حسين بيومى
١٦١- من المسرح الإسبانى — اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا — ت: زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة — يوحنا الآسيوى — ت: صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع — جوردن مارشال — ت: مجموعة من المترجمين
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور) — چان لاكوتير — ت: نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب — أ. ن أفانا سيفا — ت: سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل — يشعياهو ليڤمان — ت. محمد محمود أبو غدير
١٦٧- فى عالم طاغور — رابندرانات طاغور — ت. شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات في الأدب والثقافة — مجموعة من المؤلفين — ت: شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية — مجموعة من المبدعين — ت: شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق — ميغيل دليبيس — ت: بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد — فرانك بيجو — ت. هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس — مختارات — ت محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال — ولتر ت. ستيس — ت:إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء — ايليس كاشمور — ت: أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية — لورينزو فيلشس — ت: وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية — توم تيتنبرج — ت: جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف — هنرى ترويا — ت: حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث — نخبة من الشعراء — ت: محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب — أيسوب — ت: إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد — إسماعيل فصيح — ت: سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى — فنسنت ب. ليتش — ت: محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة — و.ب. ييتس — ت: ياسين طه حافظ
١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما — رينيه چيلسون — ت: فتحى العشرى

١٨٤- القاهرة... حالة لا تنام	هانز إبندورفر	ت: دسوقي سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت: عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت: إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة	بُزرْج علوى	ت: علاء منصور
١٨٨- موت الادب	الفين كرنان	ت: بدر الديب
١٨٩- العمى والبصيرة	بول دى مان	ت: سعيد الغانمي
١٩٠- محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت محسن سيد فرجاني
١٩١- الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت مصطفى حجازى السيد
١٩٢- سياحت نامه إبراهيم بيك جـ١	زين العابدين المراغي	ت: محمود سلامة علاوى
١٩٣- عامل المنجم	بيتر أبزاهامز	ت: محمد عبد الواحد محمد
١٩٤- مختارات من النقد الأنجلو-أمريكي	مجموعة من النقاد	ت. ماهر شفيق فريد
١٩٥- شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت: محمد علاء الدين منصور
١٩٦- المهلة الأخيرة	فالتين راسبوتين	ت: أشرف الصباغ
١٩٧- الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت: جلال السعيد الحفناوى
١٩٨- الاتصال الجماهيرى	ادوين إمرى وآخرون	ت: ابراهيم سلامة ابراهيم
١٩٩- تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت. جمال احمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠- ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت: فخرى لبيب
٢٠١- الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت: أحمد الانصارى
٢٠٢- تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣- الشعر والشاعرية	الطاف حسين حالي	ت: جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم	م. سولوفيتشيك، ز. روفشوف	ت: أحمد محمود هويدى
٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	ت: أحمد مستجير
٢٠٦- الهيولية تصنع علما جديدا	جيمس جلايك	ت: على يوسف على
٢٠٧- ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت: محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨- شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت: محمد أحمد صالح
٢٠٩- السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٠- مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١- فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت: محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢- قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت: يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣- مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	ت: سيد أحمد على الناصرى
٢١٤- قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت: محمد محمود محى الدين
٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢	زين العابدين المراغي	ت: محمود سلامة علاوى
٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٧- عولمة السياسة العالمية	جون بايلس و ستيف سميث	ت: وجيه سمعان عبد المسيح
٢١٨- رايولا	خوليو كورتازار	ت: على إبراهيم على منوفى
٢١٩- بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت: طلعت الشايب
٢٢٠- الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت: على يوسف على
٢٢١- شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت: رفعت سلام

رقم الإيداع : ٢٠٠٠/١٦١٤٢

الترقيم الدولى / I.S.B.N. / 977 - 305 - 268 - 0

مطابع إدارة المطبوعات والنشر ق . م

المجلس الأعلى للثقافة

NAPOLEON TO NASSER

The Story of Modern Egypt

RAYMOND FLOWER

بعد سنوات من استعراض المؤلفات البريطانية والفرنسية، وقع اختيار المترجم على ذلك المؤلف المهم الذي كتبيه ريمون فلاورز عن تاريخ مصر الحديث منذ قدوم نابليون وحتى رحيل عبد الناصر، ولذلك لعدة أسباب:

أولها: أن المؤلف عالي الثقافة، ملم بنظريات التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي، بل والثقافي، ولا يفصل التاريخ الحديث عن القديم.

ثانيها: أنه عاش في مصر، بل إنه ولد في مصر وتربى فيها، وقضى اسعد أيامه في بيته الريفي في البدرشين؛ حيث الهرم المدرج من خلفه والحقول الخضراء التي يكد فيها الفلاح ويشقى هو وماشيته من بزوغ الشمس حتى مغيبها من أمامه؛ مما جعله يدرك أن هذا الفلاح هو أحق من يكتب تاريخه.

ثالثهما: أنه كابن "طبقة ذوات"، اختلط بأبناء مثل هذه الطبقة من المصريين، فكان يتردد على الأماكن الراقية مثل نادي السيارات (الملكي) ونادي الجزيرة الرياضي ويسجل ما كان يدور فيها من أحاديث جانبية وشائعات ونوادر وطرائف، وكما ذكر أنه كان يتردد على ملاعب "الاسكواش" في نادي الجزيرة. ولما قامت الثورة في يوليو ١٩٥٢ اكتشف أن بعض رفاقه في الملعب أعضاء في مجلس قيادة الثورة.

وظل ريمون فلاورز مقيماً في مصر بعد إنهاء دراسته الجامعية في أرقى جامعات بريطانيا، ويبدو أنه كلف من قبل حكومته بمراقبة الأحداث في مصر، وظل مقيماً فيها حتى رحل عنها عام ١٩٥٦ بعد وقوع العدوان الثلاثي الذي أدانه بشدة، مؤيداً حق مصر في تأميم قناة السويس، ثم عاد إلى مصر بعد انتهاء الحرب، وظل يراقب ويسجل في مذكراته الأحداث الجارية حتى حدوث كارثة ١٩٦٧. عاد بعدها إلى بريطانيا وعكف منذ ذلك التاريخ على كتابة تاريخ مصر منذ قدوم نابليون.

تصميم وائل أحمد